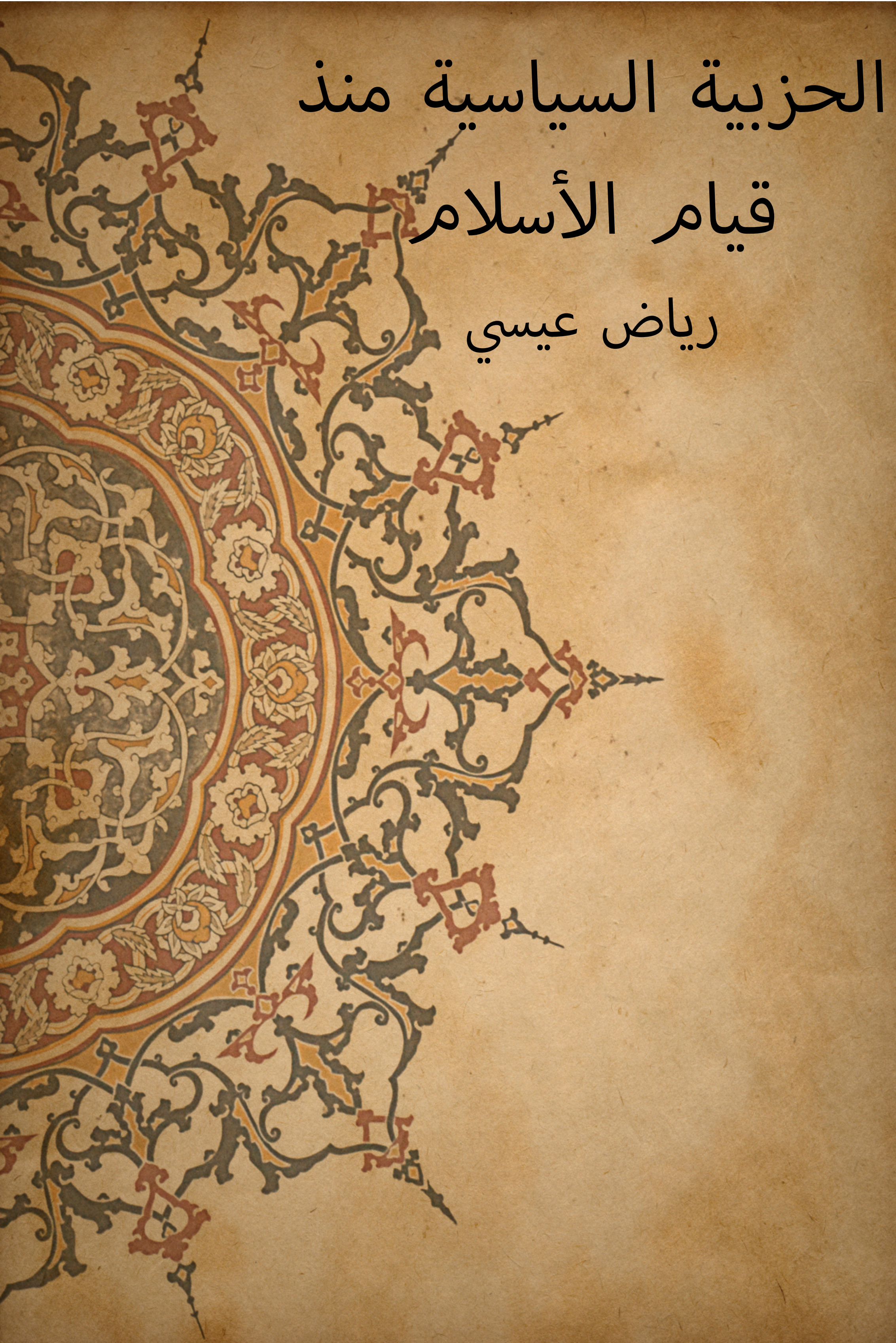
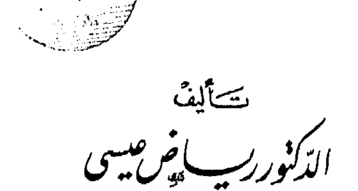


الحزبية السياسية منذ قيام الأسلام

رياض عيسي

الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية



تأليف

الدكتور رياض عيسى

تقديم

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور سهيل زكار

استرعى التاريخ السياسي لصدر الاسلام انتباه جل الباحثين في التاريخ الاسلامي ، وركز معظم هؤلاء جهودهم على ظهور الأحزاب السياسية مع صراع العصبيات القبلية والاقليمية ودور الأهواء الدينية في كل هذا ، وكان اقدام أي من الباحثين هذه الأيام على دراسة هذه المواضيع فيه نوع من أنواع المغامرة المحفوفة بالمخاطر ، فقد يجد الباحث نفسه مضطراً إلى الانطلاق من حيث انتهى غيره ، مكرراً ما كتبه سواه ، ومردده بشكل ما .

وحين أخبرني الباحث رياض عيسى أنه عقد العزم على اختيار هذا الموضوع ليكتب عنه رسالة لنيل الدكتوراه أشفقت عليه ، وخشيت الاخفاق ، ومع هذا قلت له عليك أن ترتكز على مسلمتين : أولاهما : امكانية الوقوف على مواد اخبارية جديدة في مصادر لم يقف عليها الباحثون حتى الآن ، وهنا ركزت على المصادر الشامية وخاصة تاريخ دمشق لابن عساكر وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، وثانيهما كيفية التعامل مع المواد الاخبارية المتوفرة وطبيعة الرؤى التاريخية ، إنما مع عدم اهمال لما تم بحثه في ظل مدارس التاريخ المتعددة ، وقصدت هنا امكانية الكتابة وفق معايير مدرسة عربية للتاريخ نبحث عنها في بلاد الشام .

وعندي أنه بدون الأخذ بهاتين المسلمتين لا يمكن أبداً الاستمرار بأعمال البحث في التاريخ وطرق الموضوعات التي سلف وطرقت .

ومرت أيام وسجل السيد عيسى موضوعه بإشراف الأستاذ الدكتور نبيه عاقل ، لكن ما لبث الدكتور عاقل أن تفرغ للعمل في اتحاد الجامعات العربية ، فكان أن نقل الاشراف إلى الأستاذ الدكتور أحمد بدر ، وقام الدكتور بدر بدوره بالسفر للتدريس في قطر ، وهنا عرض علي الاشراف على البحث ، وإثر هذا قلت للسيد عيسى عليك أن توطد نفسك على السير في طريق البحث الصعب والطويل ، وأن تتفرغ لهذا ، وأنت الكثير المشاغل ، فاستجاب ، وعاد الى مختلف المصادر من مخطوطة ومطبوعة ، ولم يدع كتابا له صلة بموضوعه سواء أكانت قريبة أو بعيدة إلّا وعاد إليه ، ووضع في سيارته مجموعات من الكتب كان ينقلها معه في أسفاره أثناء تجواله على مشاريع المؤسسة التي هو مديرها ، وساعده على عمله قوة ذاكرته وقدرته على المحاكمة العقلية مع طبيعة حياته الاجتماعية ، فهو قليل الاختلاط لا يحب الأضواء وتبادل الزيارات وإضاعة الوقت وتبديده .

وأفاده هذا ، وكنت أثناء تحضيره لرسالته أقوم بطباعة كتاب بغية الطلب لابن العديم بعد تحقيقه الذي اقتضى العودة الدائمة الى تاريخ ابن عساكر ، وكنت بالوقت نفسه أحقق : السيرة النبوية لابن هشام ، ومغازي ابن حبيش والفتوح لابن الأعثم الكوفي والبلدان للبلاذري ، فكان كلما مررت بنص يفيده أشرت اليه وطلبت منه دراسته والإفادة منه ، ملمحاً الى وجوه التميز في النص ، وهكذا تواءمت أعمالي كمشرف مع أعماله كباحث فأمكن التوصل الى نتائج جديدة كل الجدة ، والتواؤم بين المشرف والباحث أمر أساسي حيث لا يجوز للمشرف الركون إلى ذاكرته بل عليه معاناة البحث مع طلابه بشكل مستمر ، وفي الحقيقة إن الاشراف على الأبحاث فيه اجهاد ، لكن بفوائد جمة وعطاءات مثمرة .

إن أعمال البحث والتحقيق تقتضي العودة الى كتب الأدب والجغرافية والفقه والملل والنحل ، ففي هذه الكتب الكثير الكثير من المواد البكر التي أغفلتها المصادر التاريخية ، وهكذا استفاد السيد عيسى كثيراً من كتب الحديث والأدب. والتراجم ومن محتويات المكتبة الإباضية ، والعودة الى جريدة المصادر والمراجع لديه مع دراسة بعض المصادر تشهد على هذا .

ووجد السيد عيسى أثناء البحث أن جل القضايا التي تعرض لها عميقة الجذور في تاريخ العرب تمتد الى ما قبل الاسلام في شبه الجزيرة والأطراف وهي جميعاً متداخلة وثيقة الوشائج ، فالصراع الهاشمي الأموي كان من الأصول التي انبثق عنها الصراع الشيعي الأموي ، كما أن صراع العصبيات له خلفيات واضحة في تاريخ ما قبل الاسلام ، ويندرج هذا على أصول جميع أحزاب المعارضة ، ذلك أن السلطة لم يكن لها حزب بل كان لها أعوان .

فنحن عندما نقف مع العصر الأموي نجد للحزبية السياسية مزايا خاصة تختلف عما سواها في التاريخ الاسلامي ، ففي حين امتلك العباسيون حزبهم الخاص بهم وكذلك بعدهم الخلافة الفاطمية لم يمتلك الأمويون حزباً خاصاً بهم ، فالأمويون وصلوا الى السلطة لا عن طريق المعارضة بل عن طريق البراعة واغتنام الفرص والمواريث المالية والتجارية والسياسية لما قبل الاسلام ، ووصل العباسيون . ثم من بعدهم الفاطميون إلى السلطة من بين صفوف المعارضة ، وهكذا كان الذي أنتج الفكر السياسي في صدر الاسلام هو أحزاب المعارضة ، والذي صنعه الحكام هو تطوير أدوات السلطة مع فنون الإدارة .

ولعل بعض الخلفاء من بني أمية قد شعر ـ بعد عبد الملك بن مروان ـ بهذا الفراغ وبحث عن مخرج ، وتجلى هذا في أيام سليمان بن عبد الملك ثم من بعده عمر بن عبد العزيز وبعدهما يزيد الناقص وفي حوار بين سليمان بن عبد الملك وواحد من كبار علماء المدينة في أيامه سأل سليمان ذلك العالم : «ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أوتعفيني ؟ قال : نصيحة تؤديها ، قال : إن آباءك قهروا الناس بالسيوف وأخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشورة من المؤمنين ولا اجتماع من رأيهم حتى أودوا بالناس قتلاً ، وأخذوا الدنيا غضباً ، وقد ارتحلوا عنها ، ولو شعرت ما قالوا وما قيل لهم ما حرصت عليها» ، وسأل سليمان عن المخرج فلم يحظ بجواب واضح ، ولعل في اختياره لعمر بن عبد العزيز للحكم من بعده مخرج ارتآه ذلك أن ابن عبد العزيز كان من أهل العدل ، وهو تيار معارض .

وسعى السيد عيسى أثناء البحث إلى التعرف الى أصل كل حزب من الأحزاب ومن ثم تبيان أهم مزاياه وأدواره دون الدخول بالتفاصيل ، والاقتصار على ضرب بعض الأمثلة أو الإشارة الى بعض الحوادث الكبرى ، ذلك أن الدخول بالتفاصيل كان سيضاعف حجم دراسته مرات ومرات .

ولم يكن من السهل أبداً التعامل مع مشاكل أحزاب المعارضة في عصر صدر الاسلام ، ومن ثم المواجهات مع السلطات الأموية ، ومرد هذا إلى طبيعة التمازج بين المفاهيم في الاسلام ، فكل قضية من القضايا وإن كانت تمتلك أسبابها السياسية أو الاجتماعية غالباً ما جاء التعبير عنها دينيا وسياسياً ، والعمل في أطر من هذا القبيل ، وفي أجواء مفرطة بالحساسية الدينية لبس من السهل أبداً ، فكثيراً ما تخون العبارة أو تعجز عن أداء ما أراده تماماً .

لقد اعتدنا تراثيا البحث في هذه الأمور في مجالات أصول أبحاث ومصنفات الملل والنحل ، ورأيناها تقدم مبحوثة من قبل رجال الاستشراق للبرهنة على أن العرب ليسوا أمة واحدة ، وأن المسلمين أخفقوا في إنشاء مجتمع واحد ، والصراعات كانت دوماً دليلاً على التناقضات العرقية والدينية والحضارية والمواريث ، ولم تك قط مجرد صراعات اقتضتها طبيعة الحكم وتطور الأحوال الاجتماعية والتحول من التمزق القبلي ، ومن التعددية الدينية الى الأمة الواحدة المؤمنة بعقيدة التوحيد .

وفي الحقيقة زاد هذا الوضع من مصاعب العمل ، إنما من متعته ، فالتأريخ هو المعالجة لا السرد الاخباري ، والمعالجة لا بد لها من التسلح بالصبر والتحرر، مع ملكة التحليل والتركيب ، وقراءة ما كمن وراء الرواية ، ولحسن الحظ أن السيد عيسى استهدف من نيل الشهادة المزيد من الثقافة وليس التعيين في وظيفة ، أو انجاز عمل في مدة إيفاد محددة زمنيا ، وهكذا أمكن مع الوقت التصدي للعقبات ، وكان يناقش معي العديد من القضايا مرة تلو أخرى حتى أمكن إيجاد الحلول الناجعة بشكل علمي موثق وواضح فيه للعروبة المكان الأسمى وللوحدة الصدارة ، فالذي نحن بحاجة ماسة إليه هو أن نعالج تاريخنا بروح علمية عربية وحدوية مؤمنة ، ذلك أن أهل مكة أدرى بشعابها .

لا شك أن بعض النتائج التي توصل الباحث اليها تحتاج إلى مزيد من التعمق والتقصي مثل مسألة العلاقة بين عبد الله بن عباس وحركات الخوارج ، ثم ان بعضها الآخر يخالف

المألوف المتداول ، ولا غضاضة في هذا فالباحث في التاريخ لا يستهدف الإثارة ولا دغدغة العواطف ومجاراة المألوف بل الوصول إلى الحقيقة ، وهذا مطمح صعب يحتاج الى شجاعة وحياد ومنهج علمي متوازن وصحيح .

والله الموفق والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

دمشق ١٩٩٢/١/١٧ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ا . د . سهيل زكار

« تنويه »

ماكان لهذه الرسالة أن تنجز وتحقق ماحوته من محصلات علمية لولا الإشراف العلمي الذي حظيت به من الأستاذ الدكتور سهيل زكار فله شكري وامتناني .

رياض

مدخل

(المصادر والمراجع - دراسة وتقويم)

تحدد طبيعة موضوع كل بحث من الأبحاث التاريخية نوعية مصادره ، فاذا كان الموضوع عاماً جاءت مصادره عامة وإذا كان خاصا جاءت مصادره من نوع خاص تلبي الغرض ، وبالنسبة لموضوع رسالتنا اقتضى الحال التعامل مع نوعي المصادر العام والخاص حيث يكاد كل فصل من فصولها أن يكون موضوعا تاريخياً خاصا شبه قائم بذاته ، وهذه الفصول جميعا منحصرة ضمن إطار واحد وتصب في قناة واحدة هي الحزبية السياسية في العصر الأموي ، هذا وكان لطبيعة التداخل بين المفاهيم في الاسلام أثرها الواضح في اللجوء الى مصادر عامة وخاصة وعلى هذا من الممكن تقسيم المصادر التي اعتمدت في الدراسة الى فريقين : عام وخاص ، وهذا التقسيم لا يعدو مجرد وسيلة تساعد على الدراسة حيث ان كل مصدر من المصادر هو في الوقت نفسه خاص عام ، وسأقوم بالتعريف ببعض أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت ، علماً بأنني قد أثبت في نهاية الدراسة جرداً بأسماء المصادر والمراجع مرتبة بشكل أبجدي ، ولم أذكر غير المصادر التي ورد ذكرها في حواشي الرسالة ، مع أنني قرأت أضعاف الكتب التي أتيت على ذكرها ، وقد منحتني هذه الكتب أرضية صالحة للعمل مكنتني من التحرك ، ولو أنني ضمنت

ثبت المصادر والمراجع أسماء ما قرأته وعدت اليه بشكل غير مباشر أثناء عملي لغدا حجم هذا الثبت لا يقل عن عشرة أضعاف ما هو عليه الآن .

وسأعرف بالمصادر حسب قدمها وتاريخ وفاة مؤلفها لا حسب أهميتها بالنسبة لعملي ومدى الإفادة ، لأن الأهمية والفائدة هو ما سأبينه لدى التعريف بالمصدر المدروس .

ويتضمن الفريق العام كتب التاريخ والأخبار والتراجم مع كتب الأدب والأنساب أما الفريق الخاص فيحتوي على كتب الملل والنحل العامة ، وكتب التشيع ما كان منها شيعي التصنيف أو غير شيعي ، وكذلك كتب الخوارج وخاصة محتويات المكتبة الاباضية وكتب المعتزلة والاعتزال وهي كثيرة وعلى درجة كبيرة من الثراء، وأقل حجماً منها وعددا ما تعلق بالجهمية والجبرية والمرجئة .

وبالنظر لأن القضايا التي تم تناولها بالبحث في رسالتنا هي مشدودة الى العصر النبوي بجذوره والى العصر الراشدي قضت الضرورة بالعودة الى الأصول الأولى من كتب السير والمغازي ، ويعد كتاب المغازي للزهري من أقدم ما وصلنا في بابه ، ولقد جرى استخراج مواد هذا الكتاب من مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، وتمثل هذه المواد بعض ما رواه الزهري .

والزهري هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث ابن زهرة بن كلاب بن مرة ، يلتقي نسبه بنسب النبي (ص) بكلاب بن مرة ، ومن بني زهرة جاءت آمنة بنت وهب أم النبي (ص) ومنها كان سعد بن أبي وقاص قائد العرب يوم القادسية .

من المرجح انه ولد سنة احدى وخمسين للهجرة من أم عربية كنانية ، وقد اتسم منذ صغره بالجد والاقبال على العلم مع الوعي الكبير ، وقد أدرك عددا كبيراً من الصحابة وأبناء الصحابة وسمع منهم مباشرة ، وقد تأثر كثيراً بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة أم المؤمنين وتلميذها .

واتسم الزهري بالصدق والكرم والأمانة والاستقامة والنزاهة ، لذلك وثقة أئمة الجرح والتعديل ، وكان الزهري قد عاصر قيام الدولة الأموية ، والتحق

ببلاطها بالشام منذ أيام عبد الملك بن مروان ، حتى بات أشبه بالمستشار التاريخي للدولة الأموية ، وقد حظي بالاحترام الكبير من قبل جميع الخلفاء ، وظل في الشام حتى توفي سنة أربع وعشرين ومائة ، وقد دفن بضيعة أدامي حيث كان مقر سكناه آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين ، وجعل قبره على قارعة الطريق ليقف المارة عليه ويقرؤوا الفاتحة على روحه ، وكان ممن وقف عليه الامام الأوزاعي فقال : «يا قبر كم فيك من علم ومن حلم ، يا قبر كم فيك من علم ومن كرم ، وكم جمعت من روايات وأحكام» .

وكان الزهري واحداً من مطوري مدرسة المدينة في التشريع والرواية ، وهو رائد كبير بين مؤسسي مدرسة المغازي حيث وضع أسسها ورسم منهجها، جمع الأخبار وتقصى ورتب وصنف ومحص ، وأعطى السيرة النبوية هيكلا محدداً ، وقد سار الذين جاءوا من بعده على منهجه .

وكتاب الزهري عبارة عن مجموع «فتاوى تاريخية» حيث كان الزهري يتلقى الأسئلة ويجيب عليها ، وتحتوي هذه الفتاوى على جل أهم أحداث الفترة النبوية والعصر الراشدي ، وهي على اختصارها عالية المكانة ، ولهذا جرى اعتمادها والعودة اليها لدى تناول جذور القضايا خاصة ما جاء في الفصل الأول من رسالتنا عن نشوء الحزبية السياسية ، وكثيرا ما اعتمدت روايات الزهري منفردة لأصالتها وقدمها فقد كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله يقول : «عليكم بابن شهاب فانكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه»[1] .

وكان محمد بن اسحق المطلبي أبرز تلاميذ الزهري ، وهو الذي أوصل علم السيرة إلى أعلى درجات التنظيم حتى صار جميع من كتب بالسيرة بعده عيالا علية وولد ابن اسحق بالمدينة سنة ٨٥ هـ وبها نشأ وقد أدرك بعض الصحابة وأبناء الصحابة والتابعين وقد سمع من أبيه ومن كبار التابعين بالمدينة ورحل في طلب العلم الى مصر ، ثم عاد الى المدينة فأملى كتابه بالسيرة ، وقد اتهم بالقول بالقدر وحدث خلاف بينه وبين الإمام مالك بن أنس ، فاضطر الى مغادرة المدينة وكانت

---

(١) ـ المغازي النبوية ـ ط . دمشق ١٩٨١ مقدمة المحقق ص ٢٣ ـ ٣٣ .

الدولة العباسية قد قامت فالتحق بالخليفة المنصور ، وأملى كتاب السيرة من جديد ، وطلب منه المنصور ملازمة ابنه محمد المهدي ففعل حتى سنة وفاته في ١٥١ هـ .

يرجح أن ابن اسحق قد أملى السيرة ما لا يقل عن ثلاث مرات ، كان آخرها الرواية التي وصلتنا عن طريق تلميذه زياد بن عبد الله البكائي ، وهي التي رواها عبد الملك بن هشام وأعاد تصنيفها .

ووصلتنا أجزاء من الروايتين الأخيرتين ، وقد رواهما عن ابن اسحق محمد بن سلمة الحراني (ت ١٩١ هـ) ويونس بن بكير (ت ١٩٩هـ) ونشرتا في بيروت عام ١٩٧٨ .

ان المتداول بين أيدي الناس الرواية التي وصلتنا عن طريق البكائي فقد قام ابن هشام بإعادة تصنيفها وحذف بعض الشعر من رواية ابن اسحق وزاد بعض الروايات والشروح ، ولذلك راجت هذه الرواية وتداولها الناس .

وكان ابن اسحق قد جعل كتابه يتألف من ثلاثة أقسام ، تناول في الأول منها أخبار الخليقة من آدم حتى النبي اسماعيل ، وتناول في الثاني تاريخ جاهلية العرب من النبي اسماعيل حتى ولادة النبي محمد (ص) وحكى في الجزء الثالث أخبار السيرة النبوية في المرحلتين المكية والمدنية وتمت الإفادة من مواد السيرة النبوية لدى التعرض الى جذور القضايا وأصول قيام الحزبية السياسية عند العرب وذلك بالاضافة إلى بعض اخبار قريش لما قبل الاسلام[1] .

ومع مواد ابن اسحق تمت الإفادة أيضاً من بعض المواد المفصلة التي أودعها الواقدي في مغازيه ، والواقدي هو أبو عبد الله محمد بن عمر ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ أو قبيل ذلك بقليل ، وفي المدينة نشأ الواقدي ، وكانت الدولة الأموية قد سقطت وحلت محلها الدولة العباسية ، حيث نشطت الحركة العلمية كثيراً خاصة في ميادين التاريخ والسيرة ، وقد أدرك الواقدي عدداً من أبناء الصحابة والجيل

(١) كتاب السير والمغازي : ط . بيروت ١٩٧٨ مقدمة المحقق ص ١٠ ـ ١٩

الأول من التابعين وعنهم نهل العلم ، وعندما بلغ الخمسين من عمره جذبته بغداد الرشيد والبرامكة ، حيث نال الشهرة والمكانة والوظيفة العالية والأموال الكثيرة .

وصنف الواقدي عددا كبير من الكتب في التاريخ والمغازي وأخبار الفتوحات لم يصلنا منها بشكل صحيح غير كتاب المغازي وقد نشر في مجلدات ثلاثة .

ومن المرجح أن الواقدي قد توفي سنة سبع ومائتين للهجرة وكان آنذاك في بغداد وفيها دفن ، وأرخ الواقدي في كتاب المغازي لأحداث ما بعد الهجرة الى المدينة وأورد من التفاصيل ما لا نجده عند غيره ، ومن مزاياه الأخرى انه كان صاحب حس جغرافي رائد ، حيث اعتاد على ارتياد مواقع المغازي وتفحصها ومن ثم وصفها والإفادة من ذلك لدى روايته لأخباره (١) .

ومن المقرر ان تاريخ الحزبية في الاسلام مرتبط بشكل وثيق بأحداث الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان وما أعقب ذلك من وصول الامام علي الى الخلافة وقيام الحروب الأهلية في الجمل وصفين ، ولقد كان من نتائج صفين المباشرة قيام حركة الخوارج ، وبعد ذلك معركة النهروان واغتيال الإمام علي واستيلاء معاوية على الخلافة ووقوف آل علي وشيعتهم موقف المعارضة .

وقد روى المؤرخون العرب تفاصيل هذه الأحداث جميعاً ، وتعد المواد الرائعة التي أودعها نصر بن مزاحم المنقري في كتابه صفين ليس أقدم ما وصلنا بل الأفضل والأعظم أهمية على الرغم من لونها الحزبي .

ومؤرخنا هو أبو الفضل نصر بن مزاحم بن يسار المنقري التميمي ، من المرجح أنه ولد بالكوفة حوال سنة ١٢٠ هـ وفيها نشأ ، وتشيع الى حد الغلو ، ثم تحول الى بغداد حيث سكن حتى سنة وفاته في ٢١٢ هـ .

جمع ابن مزاحم أخبار الحروب الأهلية أيام الإمام علي بتذوق وبراعة متناهية ، وقد ساق المقدمات لكل حدث بكل إتقان وصور لنا الحروب وهي دائرة

---

(١) ـ كتاب المغازي للواقدي ط . أكسفورد ١٩٦٦ ، مقدمة المحقق ، ج١ ص ٥ ـ ٣٤ .

الرحى بكل دقة واستيعاب ، حيث روى لنا أحاديث المتقاتلين وخطبهم وأشعارهم .

ان مواد كتاب صفين على درجة كبيرة من الأهمية في تتبع أصول تاريخ جماعات القراء ، وهم الخوارج الأول وهي أيضاً مفيدة في تقصي تاريخ حزب الشيعة وغيره من الأحزاب الاسلامية[1] .

وشهد العصر الذي عاشه نصر بن مزاحم تطورا كبيرا في علم التاريخ لدى العرب حيث ظهر كبار المؤرخين من حوليين وسواهم ، وفي القرن الثالث للهجرة يتصدر خليفة بن خياط المؤرخين الكبار .

ولد خليفة بن خياط في مدينة البصرة قبيل سنة ١٦٠ هـ من أسرة عربية ومن بيت علم وحديث ، وفي البصرة نشأ ويبدو أنه لم يغادرها وظل فيها حتى سنة وفاته في ٢٤٠ هـ .

لم يذهب خليفه الى بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، بسبب موقفه من مسألة خلق القرآن ورجالات المعتزلة أصحاب الخليفة المأمون ، ولأنه كان عثماني الهوى والميول .

وعزي الى خليفة تصنيف أربعة كتب وصلنا منها اثنان هما التاريخ والطبقات ، وكتاب التاريخ هو أقدم ما انتهى الينا حتى الآن من كتب التاريخ التي تنهج منهج الحوليات ، وهو يتناول تأريخ فترة من تاريخ الاسلام تمتد حتى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، استهلها بحديث عن وضع التاريخ وميلاد الرسول الأعظم (ص) ثم ساق الأخبار سنة تلو أخرى شروعاً من السنة الأولى للهجرة .

واهتم خليفة بحوادث التاريخ الاسلامي الكبرى وأحصى أسماء القتلى من العلماء والرواة في كل واقعة عظمى ، واهتم بالجوانب الإدارية حيث أورد في نهاية الحديث عن كل خليفة أسماء عماله ورجال إدارته المدنية والعسكرية والقضائية ، ويرجح أن قواعد خليفة في سرد أخباره هي التي سار عليها كبار المؤرخين الحوليين من بعده خاصة شيخ المؤرخين محمد بن جرير الطبري .

---

(١) ـ نشر كتاب صفين محققا في القاهرة سنة ١٣٦٥هـ ، انظر مقدمة المحقق ص ـ و ـ ط .

وتمت الإفادة من مواد تاريخ خليفة في كل جانب من جوانب الرسالة ، وكان لميوله العثمانية فوائد جمة في موازنة الروايات الشيعية وغيرها ، فأهواء خليفة العثمانية قد دفعته الى الاهتمام بالتاريخ الأموي في عصر عودي فيه هذا التاريخ ورجالاته ، ولخليفة كتاب آخر وصلنا هو كتاب الطبقات ، ويبدو أن خليفة قد شرع في تصنيفه قبل أن يشرع ابن سعد في كتابة طبقاته ، وهذا الكتاب في علم الرجال وفيه كشف خليفة عن معارف واسعة بالأنساب وعلم الحديث ، ومن هنا كانت الإفادة منه كبيرة جداً ، لدى التعرف الى القبائل التي سكنت في كل من البصرة والكوفة ، فهذه المعرفة يسرت قضايا كثيرة من قضايا البحث تعلقت بحزب الخوارج ودور قبيلة تميم فيه، وساعدت على فهم أسباب اسناد الحرب ضد الازارقة الى قبيلة الأزد بزعامة المهلب بن أبي صفرة ومن ثم نجاحه في مهامه .

وكتابا خليفة بن خياط لا يستغني عنهما أي باحث في تاريخ العرب والاسلام خاصة أخبار العصر الأموي ، ولذلك جرى اعتمادها من قبل كبار المؤرخين .

وعاش في القرن الثالث للهجرة في العراق مؤرخون كبار آخرون أيضا كتبوا بمنهج مغاير لمنهج خليفة كما انهم كانوا مضادين لميول خليفة السياسية ، من أهم هؤلاء ابن الأعثم الكوفي .

ولئن سهل علينا التعامل مع أخبار حياة ابن خياط ومواد كتابيه في التاريخ والطبقات ، انه لمن الصعوبة بمكان التعامل مع أخبار حياة ابن الأعثم الكوفي ، ومواد كتابه في التاريخ الذي حمل اسم الفتوح .

من المجمع عليه أن اسمه «أبو محمد أحمد بن أعثم» وهو كوفي وعربي من كندة ، وشيعي معتدل ، وهذا واضح من خلال كتابه ومقدمته ومن خلال الترجمة الموجزة جداً التي أوردها ياقوت الحموي له في كتابه معجم الأدباء ـ ارشاد

---

(١) ـ جرى نشر كتاب الطبقات محققا في دمشق عام ١٩٦٦ ثم تبعه كتاب التاريخ عام ١٩٦٧ ، وقد نشر أيضا في بغداد ، وعلى طبعة دمشق جرى الاعتماد انظر التاريخ ، مقدمة المحقق ص : ١ ـ ن .

الاريب ـ وقال ياقوت : «أحمد بن أعثم الكوفي ـ أبو محمد الأخباري المؤرخ كان شيعياً ، وهو عند أصحاب الحديث ضعيف ، وله «كتاب المألوف» الى آخر أيام المقتدر ابتدأه بأيام المأمون ، ويوشك أن يكون ذيلاً على الأول ، وقد رأيت الكتابين[1] (معجم الأدباء ـ ط القاهرة ١٩٢٣ : ج١ ص ٣٧٩) .

ويلاحظ هنا أن الحموي لم يذكر شيئا عن تاريخ ميلاد أو وفاة ابن الأعثم ، وتولى سهيل زكار محقق كتاب الفتوح معالجة هذه المسألة فتوصل الى (أن ابن الأعثم توفي قبل نهاية القرن الثالث للهجرة بما لا يقل عن عقدين من الزمن) .

بدأ ابن الأعثم كتابه بالحديث عن مقدمات الفتنة الكبرى ثم أورد وقائع هذا الفتنة بتفاصيل لا نجدها عند غيره ، ثم أورد أخبار عهد الامام علي فأخبار العصر الأموي وما تخلله من ثورات شيعية وخارجية ، وكان اذا ما فرغ من أخبار الثورات التفت الى أخبار الفتوحات ، وحيث انه كان كوفيا فقد أولى جبهة أرمينية والخزر عناية كبيرة جداً .

ويشبه منهج ابن الأعثم منهج نصر بن مزاحم بالاستطرادات والحكايات ذات المسحة الأسطورية المفيدة للعقيدة الشيعية ، ونادراً ما أورد تاريخ أية حادثة رواها ، هو اهتم بشكل ملحمي بتفاصيل الحوادث المروية ، ومن مزاياه إيراده لنصوص عدد هائل من المراسلات والوثائق ذات القيمة العالية .

أوقف ابن الأعثم جل مواد كتابه على أخبار العصر الأموي واهتم بشكل لا مثيل له بأخبار ثورات الخوارج وثورات الشيعة وعلى هذا لا يمكن لباحث في التاريخ الأموي السياسي أو غيره الاستغناء عنه وقد أفدت منه في جميع جوانب وفصول رسالتي وتعاملت مع مواده بالحذر والنقد المتوجبان[1] .

وعاصر ابن الأعثم مؤرخ عراقي آخر أوسع منه شهرة وأعلى مكانة هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري ، وقد ولد في مدينة بغداد فيما بين ١٧٠ ـ ١٨٠هـ ، ذلك أننا لا نعرف تاريخ ولادته بشكل محدود ولا تاريخ وفاته .

---

(١) ـ طبع كتاب ابن الأعثم أولاً بحيدر آباد ثم قام د. سهيل زكار بتحقيقه وطبعه في بيروت ١٩٨٩ انظر مقدمته ص ١٠ ـ ١٥ .

وقد عالج سهيل زكار في مقدمته لكتاب البلدان الذي حققه اشكاليات حياة البلاذري ، وتوصل الى محصلة أنه عمر حتى أيام الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) .

وكان البلاذري شاعراً كبيراً عالي الثقافة مدح الخلفاء وعمل نديماً للخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وقد صنف عددا من الكتب هي : كتاب البلدان الصغير ، كتاب البلدان الكبير ولم يتممه ، كتاب الأخبار والأنساب ، وكتاب عهد أردشير وقد ترجمه عن الفارسية شعراً ، فقد كان البلاذري أحد النقلة من الفارسي الى اللسان العربي .

لقد نشرت أجزاء من كتاب الأنساب تساوي حوالي أربعين بالمائة منه في القدس وبيروت ، أما كتاب البلدان الصغير فقد نشر أكثر من مرة بعنوان مغلوط هو «فتوح البلدان» ذلك أن اسم الكتاب هو «كتاب البلدان وفتوحها وأحكامها» فكتاب البلاذري كتاب احكام وعمران بقدر ما هو أخبار للفتوحات[1] .

ويعد كتاب الأنساب للأذري من أهم مصادر تاريخ صدر الاسلام وفيه تفاصيل عن العصرين السفياني والمرواني وثورات المعارضة لا يستغني عنها أي باحث لأي جانب من جوانب التاريخ الأموي ، وقد أفدت كثيراً وفي كل فصل من مواد البلاذري واعتمدت على المطبوع وعلى صورة نسخة خطية موجودة في مكتبة الدكتور سهيل زكار .

ويوصلنا الحديث عن البلاذري الى الحديث عن شيخ المؤرخين العرب محمد بن جرير الطبري ، وولد الطبري سنة ٢٢٥ هـ في مدينة آمل حاضرة طبرستان على مقربة من بحر قزوين ، وبدأ دراسته في آمل ثم رحل في طلب العلم فأخذ عن شيوخ الري وذهب الى بغداد فأخذ عن كبار العلماء فيها ، ورحل الى البصرة كما أقام بواسط بعض الوقت وكذلك بالكوفة ومن ثم عاد الى بغداد ومن هناك توجه لطلب العلم في الشام ومصر ، ثم عاد بعد سنة ٢٥٣ هـ تسبقه شهرته

---

(١) - انظر مقدمة كتاب البلدان تحقيق د. سهيل زكار - ط . بيروت ١٩٨٩ ، ص ١٥ - ٢٠ .

وقد أقام في بغداد بعد رحلة قصيرة الى طبرستان ، وفي بغداد انتهت اليه الرئاسة في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ واتجه نحو تكوين مدرسة فقه خاصة به وقد اصطدم بالحنابلة في بغداد ، وظل حياً حتى سنة ٣١٠ هـ .

لقد صنف عددا كبيرا من الكتب أهمها وأبرزها كتابه في التفسير ثم في التاريخ ، وكتابه في الحديث ، وأملى الطبري كتابه في التاريخ بعدما فرغ من املاء كتاب التفسير أي بعد سنة ٢٩٠هـ ، وفرغ من كتاب التاريخ سنة ٣٠٣هـ .
لم يتزوج الطبري ولم يلتحق بخدمة ذي سلطان وقد عاش لعمله واتسم بالنزاهة والفهم وسعة المعلومات ، ويعد كتابه في التاريخ الأهم بين كتب التاريخ العربية ، فجميع الذين كتبوا بالتاريخ الاسلامي بعده ابتدأوا من حيث انتهى هو .

دعا الطبري كتابه باسم تاريخ الرسل والملوك ، معتبراً الفترة التي انتهت بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وابتدأت بالخليقة فترة كانت القيادة فيها للرسل ، والنبي (ص) هو خاتم الرسل وبعده جاء الملوك ولأخبار ما قبل الاسلام عند الطبري مكانة هامة أعلى منها وأهم ما أرخ به لثلاثة قرون من تاريخ الاسلام ، وكتاب التاريخ جاء وليدا لكتاب التفسير ، وعلم التاريخ عند العرب هو بالوقت نفسه له روابط لا تنفصم بعلوم الحديث ، وآثار علم الحديث واضحة جداً في روايات الطبري ، واعتاد الطبري أن يسرد مختلف ما وصله من روايات دون أن يتدخل فيها ، وبذلك كرر كثيرا من المواد ، بشكل فيه تداخل شديد متعب في كثير من الأحيان ، والطبري وإن اعتمد طرائق المحدثين يذكر السند كاملاً ثم المتن، ولم يذكر ـ إلا نادراً ـ اسم الكتاب الذي نقل عنه ، مثل رواياته عن ابن شبه والكلبي وابن اسحق ، بل اكتفى بذكر الأسانيد أضف الى هذا اهتم الطبري بشكل عظيم بتاريخ المناطق الشرقية من ديار الخلافة ، وتضاءل اهتمامه بالمناطق الغربية ، ومعروف أن المناطق الغربية هي بلدان الوطن العربي ، كما انه لم يول حوادث عصره إلا عناية قليلة ، وكأنه اعتاد فقط أن يدون ما يروى له .
وبرغم هذه السلبيات يبقى تاريخ الطبري هو المصدر الأعظم مكانه والذي

لا يمكن لباحث في تاريخ الاسلام أن يستغني عنه ، وعلى هذا يمكن القول إن المصدر الذي تمت العودة اليه في كل فصل من فصول الرسالة هو تاريخ الطبري ، وجاءت الافادة منه شاملة [1] .

وتم الاعتماد على مصادر تاريخية أخرى كتبت قبل الطبري أو بعده ، لكن الفائدة من هذه الكتب كانت محدودة من ذلك مثلا كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٩٠هـ) وتاريخ ابن واضح الكاتب أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢) وكتاب «ذكر الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة» لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش الأندلسي (ت ٥٨٤هـ) ففي هذه الكتب روايات هامة استفدت منها خاصة ما تعلق بالعصر السفياني وما واجهه من أعمال معارضة ، وحصلت الفائدة من كتاب ابن حبيش كونه يتعرض بكل تفصيل لأخبار حروب الردة وجاء اعتماده هنا على كتابين حول الردة ألفهما سيف بن عمروالواقدي ، ثم ان ابن حبيش حكى لنا بكل تفصيل أخبار فتوح الشام والعراق ومصر وأتى على ذكر القبائل التي شاركت بأعمال الفتح ، مما أفاد في دراسة جذور بعض الحركات خاصة حزب الخوارج والعصبيات القبلية [2] .

ولقد أفدت كثيراً من تاريخ دمشق لعلي بن عساكر (ت ٥٧٢ هـ) فقد حوى هذا الكتاب العملاق تراجم لشخصيات من صدر الاسلام على درجة عالية من الأهمية ، وتضمن روايات تاريخية شامية لا نجد مثيلاً لها في المصادر العراقية والمشرقية ، فبفضل مواد ابن عساكر تمكنت من التوصل الى فهم جذور ما شهدته بلاد الشام من صراع للعصبيات ، كما أن المواد التي عرضها ابن عساكر في تراجم الإمام علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين ذات مكانة كبيرة استفدت منها

---

(١) ـ طبع تاريخ الطبري عدة مرات ، ولعل خيرها طبعة دار المعارف بالقاهرة بتحقيق أبي الفضل ابراهيم وهي التي اعتمدتها : انظر مقدمة المحقق ج١ ص ٥ ـ ٢٦ .

(٢) ـ نشرت مغازي ابن حبيش محققة من قبل د. سهيل زكار بيروت ١٩٨٩ انظر مقدمة المحقق ص ٧ ـ ١٥ .

لدى الحديث عن نشوء الأحزاب ثم لدى البحث في تاريخ حزب الشيعة ، ولقد عدت الى جميع الأجزاء التي نشرت من تاريخ ابن عساكر في دمشق وبيروت والى صورة عن مخطوطة الظاهرية منه موجودة في مكتبة د. سهيل زكار.

وكان ابن عساكر قد أرخ للشطر الجنوبي من بلاد الشام وجاء بعده بجيل الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم (ت ٦٦٠هـ) فأرخ للشطر الشمالي من بلاد الشام على غرار ابن عساكر في كتاب كان في أربعين مجلدة ، ووصلنا من الكتاب عشرة مجلدات حققت ونشرت بدمشق مؤخراً ، وحوت هذه المجلدات مواد تاريخية على درجة عالية من الأهمية أفادتني كثيراً لدى التعرض الى أخبار معركة صفين وقيام حركة الخوارج ، ولدى البحث في تاريخ حزب الشيعة وأكثر من ذلك لدى الحديث عن صراع العصبيات القبلية ، فمن روايات ابن العديم أمكن معرفة آثار الحروب الأهلية أيام الإمام علي على الأوضاع القبلية في بلاد الشام حيث أدت الى قدوم قبائل كلاب الى الشام الأعلى والجزيرة ، ومكنت قبائل كلب من الاستبداد بالشام الجنوبي ، ومعروف ان معركة مرج راهط التي قررت مستقبل الخلافة في الشام كانت حربا بين كلب وكلاب ، وأن تاريخ الشام الاسلامي دار لفترة طويلة على محور الصراع بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب [١] .

ولقد اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على الدولة الأموية اسم الدولة العربية وبالفعل شغل العرب في الحكم والمعارضة جل الأدوار في جميع ماشهدته ساحات الدولة من أحداث سياسية وغير سياسية ، ولقد ساد النظام القبلي بدرجاته وتفرعاته بين صفوف العرب ، وكان العلماء العرب قد اهتموا برصد أخبار هذا النظام وأحواله في كتب وروايات حملت اسم علم النسب ، وتحتوي المكتبة العربية على عدد كبير من كتب الأنساب أقدمها وأهمها على الاطلاق كتاب النسب الكبير لمحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) وكتاب جمهرة أنساب العرب لابنه هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ) وتم تحقيق كتاب الجمهرة ونشره في دمشق ثم ألحق به كتاب النسب الكبير.

---

(١) ـ انظر ما سيأتي ص (٢٥١ ـ ..)

وبالنظر لضخامة حجم كتاب ابن الكلبي قام الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) باختصاره في كتاب حمل اسم جماهير النسب ، وقد حقق هذا الكتاب وقدم كرسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير من كلية الآداب ـ جامعة دمشق عام ١٩٨٧ .

وخلق العمل في الأنساب اشكاليات كثيرة ارتبطت بضبط أسماء القبائل والتمييز بين بعضها بعضاً ، ويعد محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) من أوائل العلماء الذين كتبوا في هذا الباب ، وحمل كتابه اسم «مختلف القبائل ومختلفها» ونشر هذا الكتاب أكثر من مرة آخرها في الرياض عام ١٩٨١ ، ولابن حبيب عدة كتب أخرى أشهرها كتاب «المحبر» وهو يحتوي على مواد إخبارية غنية جدا تفيد الباحث في تاريخ ما قبل الاسلام وغيره من الفترات ، ووصلنا من كتب ابن حبيب كتاب آخر حمل اسم «المنمق في أخبار قريش» وجمع ابن حبيب في هذا الكتاب معظم ما يحتاج الباحث لمعرفته عن قريش قبل الاسلام وبعده ، ومعرفة أخبار قريش لا يمكن الاستغناء عنها في أي بحث يتعلق بتاريخ الاسلام أو قبيل قيامه ، ففي العصر الأموي تصارعت أسر قريش على السلطة وحولها تكونت أحزاب المعارضة وتطورت [1] .

واهتم عدد كبير من العلماء بأخبار قريش وأبعد هؤلاء صيتا الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) الذي كان قاضيا لمكة المكرمة انحدر من عشيرة أسد التي ظهر منها عبد الله بن الزبير ، وألف ابن بكار كتابا عن قريش سماه «جمهرة نسب قريش» وهو كتاب عجب أكثر منه كتاب نسب لما حواه من أخبار ليست موجودة في مصدر آخر ، ولسوء الحظ وصلتنا قطعة من هذا الكتاب الكبير تحتوي على أخبار عشيرة بني أسد [2] ، وهي على درجة عالية من الأهمية والفائدة ، كما وصلتنا من كتب ابن بكار كتاب الأخبار الموفقيات وهو كتاب غني ومفيد فيه روايات انفرد بها [3] .

---

(١) ـ طبع كتاب المنمق في بيروت عام ١٩٨٥ .

(٢) ـ نشرت هذه القطعة محققة في القاهرة (دار العروبة) .

(٣) ـ نشر كتاب الأخبار الموفقيات محققا في بغداد عام ١٩٧٢ .

ومن الممكن أن نلحق بكتب النسب كتاب الاشتقاق لمحمد بن الحسن بن دريد (ت : ٣٢١ هـ)[١] وكتاب الايناس في علم الأنساب للوزير الحسين بن علي علي المغربي (ت : ٤١٨ هـ)[٢] ، ولهذين الكتابين فوائد كبيرة ، لكن أشهر منهما كتاب جمهرة أنساب العرب لعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ، فهذا الكتاب يعدل بالفائدة كتاب الجمهرة لابن الكلبي لا بل يزيد عليه لتعرضه لأنساب قبائل المغرب العربي من البرانس والبتر[٣] .

ان الفوائد المجنية من كتب الأنساب كثيرة خاصة لدى البحث في تاريخ حزب الخوارج ودور قبيلة تميم فيه ولدى البحث في صراع العصبيات القبلية .
وانه لمن المفيد أن نختتم الحديث عن الفريق الأول من مصادرنا بالبحث في كتاب الكامل في الأدب واللغة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٩٥ هـ) فهذا الحديث يعرفنا الى ما حواه الجزء الثالث من هذا الكتاب من أخبار الخوارج ونشاطهم في العصر الأموي وفي الوقت نفسه ينقلنا مباشرة للبحث في الفريق الثاني من المصادر شروعاً بالمكتبة الاباضية .

ومع أن كتاب الكامل يصنف بالعادة بين كتب اللغة والأدب انه مصدر هام جداً بالنسبة لتاريخ العصر الأموي لما حواه من نصوص شعرية ونثرية من خطب وقصص من العصر الأموي ، وقام المبرد بافراد شطر كبير من كتابه لإيراد أخبار الخوارج وخطبهم وشعرهم ، ومادة المبرد هذه هي أغنى مادة حواها مصدر إسلامي عن الخوارج حتى أنها كانت مصدراً للمؤرخين الاباضيين أنفسهم ، ولقيت هذه المادة عناية خاصة فطبعت مفردة أكثر من مرة ، وقد أفدت منها في كل ما كتبته عن الخوارج في رسالتي ، وتتسم مواقف المبرد بالحياد وعدم التعاطف مع غير الحق والنص الأدبي الجميل[١] .

---

(١) ـ نشر هذا الكتاب محققا في القاهرة عام ١٩٥٨ .
(٢) ـ نشر هذا الكتاب محققاً في الرياض عام ١٩٨٠ .
(٣) ـ نشر هذا الكتاب محققا في القاهرة عام ١٩٦٢ .
(٤) ـ طبع كتاب الكامل للمبرد عدة طبعات أفضلها وأحسنها تحقيقاً طبعة القاهرة لعام ١٩٣٧ في ثلاثة أجزاء .

والمستعرض لأخبار الخوارج يجد أن حركتهم تفجرت في المَشرق العربي ونشطت هناك نشاطاً كبيراً جداً ، لكنها قمعت في المشرق ولم تتح الفرص فيه لأية فرقة خارجية في إقامة دولة مستقرة مستمرة لفترة مديدة ، وتهيأ هذا للاباضية في المغرب ـ الجزائر ـ فأقاموا الدولة الرستمية في تيهرت ، وشهدت أرجاء هذه الدولة نشاطاً ثقافياً كبيراً في ميادين الحديث والفقه وعلم الكلام والتاريخ ، وأتيحت لي الفرص للعودة الى المتوفر من محتويات المكتبة الاباضية فأفدت منها كثيراً ، وأكثر الكتب التي أفدت منها كتاب «الجامع الصحيح مسند الامام الربيع بن حبيب» وهو أقدم مصنف وصلنا في الحديث النبوي ، ففي هذا المصنف مادة على درجة عالية من الأهمية تتعلق بفقه الاباضية وما رأوه في ميادين السياسة استناداً للحديث النبوي ثم علاقة الخوارج بالإمام عبد الله بن عباس [1] .

وزخرت المكتبة الاباضية بالمدونات التاريخية خاصة ما عرف باسم كتب السير ، ومن أقدم ماوصلنا كتاب سير الأئمة وأخبارهم «لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني (ت : ٤٧١ هـ) الذي جمع مادة مفيدة حول أصل الاباضية ومن ثم انتشارها في الغرب الاسلامي ؛ وأخبار الوارجلاني تمثل وجهة نظر الاباضية من الأحداث وهي وجه نظر تؤخذ بعين الاعتبار [2] .

وجاء بعد الوارجلاني بقرابة قرن من الزمان سليمان بن عبد السلام ـ أبو الربيع الوساني الذي صنف كتاباً صغيراً حمل اسم «سير مشايخ المغرب» نهج به منهجا اختلف عن منهج الوارجلاني حيث خص كل من ترجم له بالروايات التي نسبت اليه [3] .

ومع الاعتراف بأهمية كتابي الوارجلاني والوسياني يعد كتاب «طبقات المشايخ بالمغرب» لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت ٦٧٠ هـ) أهم ما حوته المكتبة الاباضية في مجال التاريخ والتراجم .

-(١)ـ انظر ما سيأتي ص (١٣٨ـ . . .)
-(٢) ـ أحدث طبعات هذا الكتاب في الجزائر عام ١٩٧٩ وفي تونس عام ١٩٨٥ .
(٣) ـ طبع هذا الكتاب في الجزائر ١٩٨٥ .

انحدر الدرجيني من أسرة عريقة بالعلم والنشاط الاقتصادي في بلاد الجريد ، فجده هو الذي أدخل الاسلام الى مالي في القرن السادس الهجري وكان فقيهاً من كبار التجار .

والسبب الذي دفع بالدرجيني الى تأليف كتابه أن أحد مشايخ المغرب قام بزيارة بلاد عمان فطلب اباضيتها منه تزويدهم بكتاب عن سير مشايخ المغرب ، فهم قد نظروا بكتاب أبي زكريا يحيى بن أبي بكر ، فوجدوه لايفي بالغرض ، وهنا جرى تكليف الدرجيني بهذه المهمة فقام بها خير قيام .

ووقع الاختيار على الدرجيني لتمكنه من العربية ولسعة معارفه ، وقام الدرجيني بجعل كتابه يتألف من قسمين ، أرخ بالقسم الأول للدولة الرستيمية في تيهرت ، وهذا مما لا يخص موضوع رسالتنا ، وأرخ بالجزء الثاني لحركة الخوارج وترجم لجميع الاعلام الذين أسهموا بشكل مباشر أوغير مباشر في قيام هذه الحركة ، والمواد التي أوردها الدرجيني لا يمكن العثور عليها مجموعة في مصدر آخر ، ومن هنا كانت الإفادة منها كبيرة جداً ومثمرة[1] .

وقام قبيل القرن العاشر الشماخي بتصنيف كتابه «السير» وهو أكبر كتاب أباضي وصل الينا ، والشماخي هو أبو العباس بدر الدين أحمد بن أبي عثمان سعد بن عبد الواحد (ت ٩٢٨ هـ) وكان سليل أسرة علمية مرموقة من جبل نفوسه (جبل طرابلس - ليبيا) .

لقد قام الشماخي بإفراغ محتويات المكتبة التاريخية للاباضية في كتاب واحد ونجح في مهمته الى أبعد الحدود ، وعزز نجاحاته أنه استفاد من كتب غير اباضية مثل تاريخ افريقية لابراهيم الرقيق القيرواني مع كتب المسعودي والمبرد ، فضلاً عن روايات شفوية موروثة ، وقد اعتمدت على ما حواه كتاب السير للشماخي وتعاملت مع رواياته بشيء من النقد والحذر لغلوه في عدد كبير من المواقف[2] .

---

(١) ـ نشر كتاب الدرجيني بالجزائر عام ١٩٧٤ في جزئين انما بشكل غير محقق بشكل علمي .

(٢) طبع كتاب السير للشماخي طبعة حجرية في قسنطينة عام ١٨٧٨ ، ونسخه نادرة وهذه الطبعة تجعله أشبه بكتاب مخطوط .

ولقد اقتضى البحث في أصل حركة الاعتزال العودة الى عدد مختلف من المصادر التاريخية وسواها ، واهتممت أيضا بالإفادة مما كتبه المعتزلة ، ومكتبة الاعتزال على الرغم مما لحقها خلال العصور هي ما تزال غنية جداً .

وكانت كتابات الإمام أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي (ت ٣١٩) على رأس ما عدت اليه من مصادر معتزلية ، وكان البلخي إماماً كبيراً ، من متكلمي المعتزلة البغداديين ورئيس أهل زمانه ، ووصلنا من كتابات البلخي جزء من كتابه «مقالات الاسلاميين» حمل عنوان «باب ذكر المعتزلة» كما وصلنا من كتبه كتاب آخر هو «فضل الاعتزال» ، وقد نشرا محققين بالدار التونسية ـ تونس .

وحين يأتي الباحث على ذكر المعتزلة وكبار العلماء منهم نجد إجماعاً على أن القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت ٤١٥ هـ) كان أعظم متأخري المعتزلة وأفضلهم انتاجا ، فهو قد كتب عدة كتب أهمها على الإطلاق كتاب «المغني في أبواب التوحيد والعدل» وهو موسوعة وضعها الهمذاني في عشرين مجلدة تضمنت آراء المعتزلة مع بسط للقول في الأصول الفكرية الخمسة التي تبنوها ، وفي الوقت نفسه عرض لآراء المعتزلة وجدلهم للفرق المخالفة لهم ولأصحاب الديانات غير الاسلامية ، ولقد اكتشف من هذا الكتاب حتى الآن أربع عشرة مجلدة طبعت في القاهرة .

ومع مواد كتاب المغني أفدت من كتاب آخر للقاضي عبد الجبار هو «فرق وطبقات المعتزلة»[1] فالمادة التاريخية في هذا الكتاب كبيرة ومهمة .

وتطلب البحث في شؤون المعتزلة وغيرهم من الفرق الاسلامية العودة الى كتب الملل والنحل وهي كثيرة جداً ، عبر غالبيتها عن آراء أهل السنة ، وفي الحقيقة إن المادة التاريخية التي تم تحصيلها من هذه المصادر شحيحة جداً ، فطابع الجدل الديني هو الغالب على مواد هذه الكتب ولا يمكن للباحث في التاريخ في أيامنا هذه أن يركن الى الآراء التي تجعل من الدين والمعتقد أصلاً لجميع المشاكل

---

(١) ـ نشر في القاهرة محققاً عام ١٩٧٢ .

والتمزقات الحزبية السياسية ، فالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والمواريث وغيرها لا يمكن أبداً إغفالها ، وكان من بين ما عدت اليه وأفدت منه :

١ ـ كتاب الرد على الزنادقة والجهمية للامام أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١ هـ) .

٢ ـ كتاب الرد علي الجهمية لعثمان بن سعيد الدرامي (ت : ٢٨٠ هـ) .

٣ ـ كتاب مسائل الامامة للناشيء الأكبر (ت ٢٩٣) .

٤ ـ كتاب فرق الشيعة للحسن بن موسى النوبختي (ت أوائل القرن الرابع الهجري) .

٥ ـ كتاب الابانة على أصول الديانة للامام علي بن اسماعيل الأشعري (ت ٣٣٤ هـ) ـ كتاب مقالات الاسلاميين للإمام الأشعري نفسه .

٦ ـ كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لمحمد بن أحمد الملطي (ت ٤٧٧ هـ) .

٧ ـ كتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) .

٨ ـ كتاب الفرق والتواريخ ـ منسوب للإمام الغزالي (قرن خامس هجري) .

وكما أفدت من المواد التاريخية التي أودعها الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله العربي (ت ٥٤٣ هـ) في كتابه العواصم من القواصم .

ولا بد للباحث في تاريخ الاسلام بشكل عام وتاريخ التشيع بشكل خاص من العودة الى ما حوته المكتبات الشيعية من ثروات هائلة ، فأعداد ما كتبه الشيعة في مختلف المجالات لا يمكن لانسان أن يأتي عليه عداً وإحصاءاً ، ومن سمات كتب الشيعة على اختلافها غناها بالمعلومات التاريخية التي لا يمكن إغفالها أو تجاهلها مطلقاً ، وكان من بين الكتب الشيعة التي عدت اليها وأفدت منها في البحث في تاريخ نشوء الحزبية السياسية ثم في تاريخ التشيع وثورات الشيعة في العصر الأموي :

ـ كتاب «المقتل» وهو منسوب لأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٧٠ هـ) وموضوع هذا الكتاب واقعة كربلاء التي قتلت فيها السلطات الأموية الحسين بن

علي وآله [1] ، وقد عرض صاحب الكتاب ما حدث في كربلاء بشكل ملحمي فيه غلو ومبالغة .

ولئن كان لوط بن يحيى قد اهتم بفاجعة كربلاء فان أبا الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني (ت : ٣٥٦ هـ) قد أرخ لمقتل شخصيات آل البيت بكتاب حمل عنوان «مقاتل الطالبيين»[2] ، وهذا الكتاب بما حواه من أخبار مفصلة لايمكن للباحث في حركات الشيعة في العصر الأموي الاستغناء عنه ولهذا عدت اليه وأفدت منه في جملة المصادر .

هذا ووجدت فائدة فيما أودعه محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني (ت ٣٢٨ هـ) من مواد اخبارية في كتابه «الأصول من الكافي» فهذا الكتاب أصل معتمد لدى الشيعة الامامية ، ومع ذلك يجد الباحث مواد تاريخية أكثر تفصيلا في كتاب «عيون أخبار الرضا» لمحمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١ هـ) ولقد أفدت أيضاً من محتويات هذا الكتاب كما أفدت من كتاب دلائل الامامة لمحمد بن جرير بن رستم الطبري الذي كان معاصراً للإمام المؤرخ الطبري .

ولقد عرض القاضي النعمان بن محمد (ت ٣٦٣) في كتابه «الأرجوزة المختارة حوادث تاريخ نشوء فرق الاسلام ، لكن من وجهة نظر شيعية اسماعيلية فيها شيء كبير من الغلو والأخبار غير المقررة [3] .

وهناك أعداد أخرى من كتب الشيعة وسواهم قد عدت اليها وهي جميعاً مثبتة في جريدة المصادر والمراجع ، وكما أشرت في مقدمة رسالتي هذه أن القضايا التي تناولتها بالبحث قد تناولها غيري من قبل وعلى هذا أفدت من أبحاث المعاصرين حول التشيع والاعتزال والخوارج والعصبية القبلية ، وغير ذلك من موضوعات ، ولقد أتيت على ذكر كل مرجع استفدت منه في مكانه كما أنني سجلت أسماء جميع المراجع التي عدت اليها سواء ما كتب منها من قبل كتاب عرب أو ترجم الى العربية في جريدة المصادر والمراجع .

---

(١) ـ أعيد نشر هذا الكتاب بالتصوير في بيروت عام ١٩٨٣ .

(٢) ـ طبع محققا بالقاهرة عام ١٩٤٩ .

(٣) ـ يشكك بعض الباحثين في صحة نسبة هذه الأرجوزة الى القاضي النعمان وقد طبعت في مونتريال ـ كندا عام ١٩٧٠ .

«الفصل الاول»

«مولد الاحزاب السياسية في الاسلام»

«الفصل الاول»

مولد الاحزاب السياسية في الاسلام

يستدعي الحديث عن نشوء الأحزاب السياسية في الاسلام في البداية عرض عدد من القضايا لتكون بمثابة قاعدة للعمل ومحور تدور حوله ، شريطة عدم التعرض للأمور البديهية ، أي أننا لن نتحدث عن تاريخ ظهور الاسلام ولن نستعرض أخبار حياة النبي صلى الله عليه وسلم سواء في مكة أو المدينة إلا بالقدر الذي يفيد عملنا ويخدمه في توضيح مسألة نشوء الحزبية ، وحسبما جرت العادة يحتاج الباحث الى مقدمة تتعرض لتوضيح جوانب البيئة التي نشأ فيها الاسلام لا سيما ما تعلق بالمفاهيم السياسية التي كتب لها الاستمرار في الاسلام والتأثير على مسيرته .

نشأ النبي محمد (ص) في مدينة مكة من قبيلة قريش ، وتعزو جميع مصادر تاريخ العرب والاسلام تأسيس قريش وإسكانها في مدينة مكة الى قصي بن كلاب الجد الأعلى للنبي ، فقد روى ابن اسحاق في السير والمغازي أن قصي بن كلاب عامل حليل بن حبشية الخزاعي ، وكان سادن الكعبة ، وخطب قصي فيها بعد ابنة حليل وتزوجها ، ثم حصل بعد هذا على سدانة الكعبة وراثة من حليل أو شراء .

وبعدما غدا قصي سادنا للكعبة دخل في صراع مع قبيلة خزاعة سكان مكة ، ومن ثم تمكن من طرد خزاعة من مكة وأحل محلها قبيلته التي تكونت حوله

وعرفت باسم قريش . لقد نظم قصي طريقة سكنى قريش داخل مكة معتبراً الكعبة محور الحياة ، فأهله سكنوا حول الكعبة فعرفوا باسم قريش البطاح ، ثم جاء بعدهم بقية قريش فعرفوا باسم قريش الظواهر ، ثم جاء بعدهم الأجراء والفقراء وسواهم وعرفوا باسم الأحابيش ، وبعد هذا كله نظم قصي الحياة السياسية والادارية في مكة فأوجد السقاية والحجابة والرفادة ودار الندوة وغير ذلك من الوظائف ، وأنجب قصي عدداً من الأبناء وكان أشهرهم عبد الدار وعبد مناف وقد عهد قصي قبل وفاته بواظائفه الى ابنه عبد الدار[1] ، وعندما نعود الى هذا الخبر يمكن أن نستخلص ما يلي :

بدأ قصي حياته في مكة سادنا للكعبة أي رجل دين ، وعن طريق السدانة أمكنه الوصول الى سيادة مكة السياسية ، وبعدما أصبح سيد مكة نظم شؤونها سياسيا وإدارياً ، أي بكلمة أخرى : مرت حياة قصي بن كلاب بثلاث مراحل : الأولى الدينية وهي التي قادته الى السياسة ، ومن ثم انتقل الى المرحلة التشريعية ، وقام قصي في شخصه بدمج المفاهيم الثلاثة : الدينية والسياسية ، والتشريعية ، وقبل وفاته عهد بتوريث المفاهيم الى ابنه عبد الدار .

ان هذا ما سنشهده فيما بعد في حياة النبي (ص) فهو بدأ حياته في مكة نبياً «يدعو الى دين جديد ، وبعد هجرته الى المدينة أسس نواة الدولة الاسلامية الأولى فكسب بذلك صفة رجل الدولة ، وأخذ بعد هذا يضع نظم دولته ويشرع لها دنيويا» من كافة الجوانب ، ومرة أخرى مرت حياة النبي محمد (ص) بثلاث مراحل : أولها الدينية ، وتلاها السياسية ، وكانت المرحلة الثالثة التشريعية ، وبما أنه لم يكن ينطق عن الهوى فان الدين الاسلامي تبنى دمج المفاهيم ، وبات لكل عمل دنيوي لونه الديني والتشريعي في الوقت نفسه .

ان هذه المسيرة تفرد بها تاريخ الاسلام بجذوره العربية وجذوره الشرقية القديمة ، وامتاز بها على غيره من الشرائع والديانات ، فعلى سبيل المثال نلحظ في تاريخ روما أنه بعدما كان الحظ يحالف أحد الساسة أو العسكريين في الوصول الى

---

(١) ـ عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ط . القاهرة ١٩٥٥ : ج١ ص ١١٧ ـ ١٣٢ .

عرش الامبراطورية كان هذا الامبراطور تتم إضفاء صفة الألوهية عليه ويقوم وهو على عرش الامبراطورية فيحدث بعض الاصلاحات أو التنظيمات الادارية ، ويعني هذا أن طريق السياسة يقود الى الدين ومن ثم الى التشريع وهذا معاكس لقاعدة مكة والاسلام فيما بعد .

وجاء في أخبار قصي أنه نظم حياة المكيين ، لكنه لم يتم تنظيمه على أساس الفرز الطبقي كما هو الحال في مجتمع الدولة الساسانية وفي مجتمعات الهند [1] .

ونقف أخيراً عند مسألة توريث قصي لمناصبه لابنه عبد الدار حيث تتحدث كتب السيرة أن أبناء اخوان عبد الدار ـ لا سيما آل عبد المناف ـ نازعوهم على إرث قصي الأمر الذي شطر أهل مكة الى حزبين ، أو بالأحرى الى حلفين متصارعين هما حلف المطيبين وحلف لعقة الدم ، وكادت الحرب تقع بين الحلفين لكن أخيراً تم تفاديها عن الوصول الى تسوية حيث تم اقتسام المناصب بين آل عبد مناف وآل عبد الدار [2] .

يستخلص من هذه الواقعة ان التزام المكيين بقبول مبدأ التوريث لم يكن راسخاً ، وأن الحلف كان هو السبيل الى إنشاء قوة جديدة ربما كانت مرشحة لتتحول الى عشيرة ، ولعل هذا يتضح أكثر اذا ما سايرنا رواية صاحب السيرة عما حل بين أفراد حلف المطيبين فقد حدث صراع بينهم قاد نحو إنشاء حلفين جديدين حلف لبني هاشم وبنو تيم وهو حلف الفضول ، وحلف ضم بني أمية وبني مخزوم وبني عدي [3] .

ويعلل بعض الباحثين أن مرد رفض وصية قصي هو أن العرب بحكم أوضاعهم القبلية كانوا لا يقرون مبدأ توريث المناصب لا سيما السياسية منها فقد جاء عند صاحب المحبر : «فأما مضر كانوا لقاحاً لا يدينون للملوك» [4] .

(١) من أجل النظم الساسانية ينصح بالعودة الى كتاب تنسر ـ ط . القاهرة (ترجمة عربية) ١٩٥٤ . وكتاب عهد أردشير ـ ط . دار صادر بيروت ١٩٦٧ . وكتاب ايران في عهد الساسانيين تأليف كريستنسن (ترجمة عربية) ط . القاهرة ١٩٥٧ : ٨٤ ـ ١٦٨ .

(٢) ـ ابن هشام ـ المصدر نفسه : ج١ ص ١٣١ ـ ١٣٧ .

(٣) ـ ابن هشام ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٤) محمد بن حبيب البصري ـ المحبر ط . حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ ص ٢٥٣ .

وروى الزبير بن بكار في جمهرة نسب قريش حكاية عثمان بن الحويرث الذي حاول تمليك نفسه على مكة وان الأسود بن المطلب بن أسد «صاح على أحفل ما كانت قريش في الطوائف : يا لعباد الله ملك بتهامة ؟ فانحاشوا انحياش حمر الوحش ، ثم قالوا صدق واللات والعزى ما كان بتهامة ملك قط [1]» ويعزو فريق آخر الصراع الى أسباب اقتصادية محضة ، ومع اننا لن نغفل قط دور العامل الاقتصادي نرى هناك تداخل بين عدة عوامل ، وأن العامل الاقتصادي استفاد من قضية مفهوم الحلف فسعى أو ساعد على تحويله الى عشيرة جديدة ، فعلى قاعدة حلف الفضول قامت الدعوى الى الاسلام فالنبي محمد (ص) مثل بنو هاشم ، وأبو بكر مثل بنو تيم ، وظل هذا الحلف يصارع الحلف المضاد بدون نجاح كبير أو يذكر ، حتى دخل عمر بن الخطاب في الاسلام فصار ثالث اثنين في الزعامة الاسلامية ، وبعد الهجرة الى المدينة تزوج النبي (ص) من ابنة أبي بكر ، وابنة عمر ، وكون رجالات الحلف الجديد ظاهرة زعامة عشيرة جديدة هي عشيرة المهاجرين ، وهذا يسهل علينا فهم أسباب نجاح أبي بكر بالوصول الى خلافة النبي (ص) ، ثم وصول عمر الى الخلافة بعد أبي بكر ، وتستدعي الحاجة هنا إعطاء المزيد من الاهتمام الى المسألة القبلية .

هنالك نقاش بين المهتمين بدراسة تاريخ العرب قبل الاسلام حول تاريخ ظهور القبيلة قبل الاسلام ، أو بالأحرى الانتقال من مرحلة الأحلاف (الجمهرات ج . جمهرة) الى مرحلة القبائل ، ويبدو أن هنالك شبه اجماع على أن مجتمع شبه الجزيرة كان قد عرف النظم القبلية بشكلها الواضح في أواخر القرن الخامس وخلال القرن السادس للميلاد [2] ، على هذا كان النظام القبلي قبل الاسلام بما لا يقل عن قرن من الزمان قد أخذ أشكاله وقواعده في شبه جزيرة العرب ، وغدت القبيلة وحدة اجتماعية لها بالاضافة الى وظائفها الاجتماعية وظائف سياسية كاملة ، فقد أخذت تتصرف بوصفها كياناً سياسيا قائما بذاته سواء في أمورها

---

(١) ـ الزبير بن بكار ـ جمهرة نسب قريش ـ ط . القاهرة ـ دار العروبة ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

(٢) ـ نينافكتوبيغوليفسكا ـ العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى القرن السادس ـ ترجمة عربية ط . الكويت ١٩٨٥ ص ٢٧٧ ـ ٢٩٨ .

الداخلية أو في علاقاتها الخارجية ، وبما يدخل في ذلك من حرب وسلام واتفاقات وتحالفات وآداب ولهجة والتمسك بعبادة صنم من الأصنام[1] .

وظلت القبيلة قوية مع ظهور الاسلام ويبدو أن النبي (ص) واجه هذه القوة فحاول في المرحلة المكية الاستفادة منها في أن عرض نفسه على القبائل، وظل يسعى في هذا الاتجاه حتى توصل الى الاتفاق مع الأوس والخزرج من سكان المدينة ويلاحظ بعد هجرته الى المدينة أنه حاول في بداية الأمر- حين كتب صحيفة المدينة - الغاء القبلية وإحلال أخوة الاسلام محل أخوة الدم ، لكن هذا لم يكتب له النجاح وعاد النبي وأدخل التعديل على صحيفة المدينة في الصحيفة المعدلة وأعاد الاعتبار الى القبيلة[2] .

لم تعرف قبائل ما قبل الاسلام نظام الإدارة المركزية ، وفي غالب الأحيان لم تتمسك بمبدأ توريث الزعامة، ونشهد هذا بأخبار عدد من القبائل وبتاريخ دولة كندة، فقد تحدثت الأخبار أن حجر بن عدي قام بتوزيع ملكه قبل وفاته على عدد من أولاده، فدولة كندة التي خطت سابقة الدولة الكبرى في شمال ووسط شبه الجزيرة لم تعرف لا الوحدة ولا القيادة المركزية[3] ، والمتتبع لتاريخ العرب والاسلام يرى ضخامة المشاكل التي واجهها قادة المسلمون نتيجة اعتماد مركزية الإدارة . لقد كانت الدولة التي أنشأها النبي (ص) في المدينة دولة عقائدية ومركزية الإدارة ، ونظراً لهذا الطابع والعوامل الأخرى وجدت الدولة نفسها مضطرة الى انشاء جيش يحافظ عليها داخليا ويؤمن مصالحها خارجيا، ولم يطل الوقت بالنبي (ص) بعد هجرته الى المدينة حتى نزل الأذن بالقتال ، وقامت عقيدة الجهاد في سبيل الله في الاسلام ، واستطاع النبي (ص) في فترة وجيزة باعتماده على القوة أن يدحر خصومه من قريش مكة وحلفائهم ، ومن ثم وحد شبه جزيرة

---

(١) - لطفي عبد الوهاب يحيى - العرب في العصور القديمة ط . بيروت ١٩٧٨ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٢) - ابن هشام - المصدر نفسه ج١ ص ٥٠٤ - ٥٠٨ .

(٣) - نينا - المرجع نفسه ص ١٦٦ - ١٨٠ ، سهيل زكار- تاريخ العرب والاسلام ط . بيروت ١٩٧٥ ص ٢٩ .

العرب ، وبعد وفاته (ص) أمكن بوساطة القوة المسلحة الجديدة إعادة توحيد شبه الجزيرة والقضاء على الردة .

وقبل الاستطراد في هذا الحديث نجد لزاماً علينا توضيح مفهوم الدولة التي أنشأها النبي (ص) وتطور هذا المفهوم في عصر الخلفاء الراشدين من بعده . ومن ثم تطور هذا المفهوم من بعده أيام أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب .

لقد تحدث الباحثون عن إقامة دولة مركزية في المدينة هي الأولى من نوعها في تاريخ شمال شبه الجزيرة ، ويواجهنا هنا سؤال أساسي : هل أسس النبي بالفعل دولة مركزية ، وهل اعترف الناس في عصره بما أسسه كدولة وتعاملوا معها على هذا الأساس .

في العربية تعني كلمة «دولة» المال وتداوله ولا تعني مؤسسة ذات فروع للإدارة والحكم والسلطة ، ففي هذا الإطار وردت كلمة «دولة» في القرآن الكريم في قوله تعالى : «كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»[1] وفي الحقيقة لم يكن ما أسسه النبي (ص) في المدينة جمهورية أو ملكية أو امبراطورية أو إمارة بل نوعا جديدا من أنواع الزعامة ذات السلطة المركزية حول شخصه الكريم ، وهكذا تعامل الناس معها ، فهو قد بدأ حياته العامة نبياً مرسلاً من قبل الله تعالى وبعد الهجرة أخذ صفة الزعيم السياسي للأمة الاسلامية وظل في الوقت نفسه يحمل صفة النبوة ، وقد ربط ذلك بممارسة أعمال التنظيم والتشريع ، انما لم يطلق على ما أقامه في المدينة وأوجده اسم دولة أو اسما سياسياً من الأسماء ، كما أن معاصريه من أصدقاء وأعداء لم يعرفوا ماقام بالمدينة تعريفاً سياسياً أو حقوقياً محدداً أو غير محدد ، ويتجلى هذا من خلال استعراض جميع المراسلات التي جرت بين النبي وبين ملوك بيزنطة وفارس وزعماء شبه الجزيرة والأطراف وسواهم ، ومن واقع التنظيمات المالية ، ومن خلال صكوك الاتفاقات التي عقدت مع وفود القبائل جميعا ، فنحن نجد في كل وثيقة ان كل شيء محوره النبي (ص) بحكم صفة النبوة

(١) ـ سورة الحشر ـ الآية : ٧ محمد بن مكرم بن منظور ـ لسان العرب المحيط ـ ط . بيروت (دار لسان العرب) مادة «دولة» .

فيه وارساله من قبل الله تعالى ، فعلى سبيل المثال كتب صلى الله عليه وسلم الى ملك الحبشة : «من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة» كما كتب أيضاً : «من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ملك البحرين» وكتب الى امبراطور الدولة الساسانية : «من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس» [١] ، وقضت التنظيمات المالية أن يكون الفيء للنبي وأن يأخذ خمس الغنائم ، ولدى استعراض أخبار عام الوفود في السيرة النبوية نجد أن وفود العرب جاءت الى المدينة لتؤمن بالاسلام ولتعترف بنبوة الرسول محمد (ص) ولم تأت لتقدم الطاعة لملك أو أمير أو امبراطور ودولة [٢] .

ولا شك أن صيغة التعامل هذه يمكن أن تساعدنا على فهم ما حدث في شبه جزيرة العرب بعد وفاة الرسول (ص) وتعمق فهمنا لما أقيم بعده ونعني بذلك «الخلافة» ، وتطور مؤسستها لا سيما أيام عمر بن الخطاب ، وعلى هذا يمكن القول أن دولة الاسلام المدنية والحقوقية قد قامت يوم سقيفة بني ساعدة وليس قبل ذلك .

في أيام النبي ، ومع اتساع أعباء المسؤولية عليه ، وانضواء قبائل شبه الجزيرة تحت لوائه اضطر الى الاستعانة بعدد من العمال ،حيث أخذ يكلف بعض الرجال بجمع الصدقات أو بولاية من الولايات أو بقيادة سرية من السرايا العسكرية .

لكن يلاحظ أنه ما من واحد ممن استعمله النبي (ص) قد شغل منصباً عسكريا بشكل دائم أو وظيفة مدنية بصورة مستمرة، كما أن التوظيف الدائم لم يعرفه العصر النبوي ،بل كل ما عرفه التكليف المؤقت بمهمة من المهام السياسية أو المالية أو العسكرية ، وشعر جميع العمال أنهم كانوا يعملون لصالح النبي شخصياً ، وليس لصالح مؤسسة سلطوية أو دولة ذات استمرار ، من ذلك مثلا

---

(١) ـ محمد بن طولون الصالحي ـ اعلام السائلين ـ المكتبة الظاهرية ١٦٨٩ ص ٢ ـ ٤ .

(٢)ـ ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٥٦٠ ـ ٦١٥ .

نجد أن خالد بن سعيد كان عامل النبي (ص) على اليمن وحين علم بوفاته (ص) اعتبر أن مهمته قد انتهت فترك اليمن وجاء الى المدينة[1].

على هذا نجد في الحقيقة أنه من الصعب الحديث عن دولة اسمها دولة «النبي» وكل ما يمكن قوله أن النبي (ص) مارس في ذاته مختلف الوظائف التي اقتضاها وضعه في المدينة ، لكنه لم يؤسس في أيامه أية إدارة ثابتة ولا حتى جيش محترف أو قوة عسكرية لها صفة الاستمرار ، فقد ظل حتى آخر أيامه يندب الناس الى الحرب ندبا ولا يزودهم بالسلاح ولا بالعتاد والمال لذلك كانت الغنائم تمنح للمقاتلين كتعويض لهم ، ويأخذ هو خمسها ليوزعه توزيعاً حدده له القرآن الكريم ، وأخذ هذا الحال يتغير منذ بداية عهد أبي بكر الصديق ، ومنذ عهد عمر بن الخطاب يمكننا الحديث عن دولة إسلامية عرفت مؤسسة عليا للحكم هي «امرة المؤمنين» وعرفت الإدارات المالية والعسكرية وحتى نظم القضاء والمحاسبة وغير ذلك .

في العصر النبوي شملت مسؤولياته صلى الله عليه وسلم جميع مناحي الحياة صغيرها وكبيرها الداخلية منها والخارجية ، لكن هذا الحال واجه رياح التغيير يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم .

ويبدو أنه عندما أصيب النبي (ص) بمرضه الأخيرواشتد،وقنط الناس من بقائه حياً ، ارتسم على وجوه المسلمين سؤال عريض حول المستقبل ، ويبدو أن صدى التساؤلات قد وصل الى النبي ، فقد روي عن ابن عباس قوله : «لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال النبي : هلموا اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال

---

(١) ـ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ـ المغازي النبوية ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

عمر ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا، فكان ابن عباس يقول : ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسوله الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلاف ولغطهم»[1] .

لقد روت كتب صحاح السنة النبوية هذا الحديث ، وسبب شيئاً من الارباك للفقهاء الذين تعرضوا له بشكل مباشر أو غير مباشر ، واختلفت الآراء في شرحه وفهم مراميه ، وقد عرض الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري ملخصاً لمختلف الآراء جاء فيه : «.. الهجر بالضم ثم السكون : الهذيان ، والمراد هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم ولا يعتبر به لعدم فائدته ، ووقوع ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم مستحيل لأنه معصوم في صحته ومرضه لقوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) ولقوله صلى الله عليه وسلم : (اني لا أقول في الغضب أو الرضى إلا حقاً) واذا عرف ذلك فانما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال قوله في احضار الكتف والدواة ، فكأنه قال : كيف تتوقف أتظنن أنه كغيره يقول الهذيان في مرضه ، امتثل لأمره وأحضر ما طلب فانه لا يقول إلا الحق .

قال : هذا أحسن الأجوبة . قال : ويحتمل أن بعضهم قال ذلك عن شك عرض له ، ولكن يبعده أن لا ينكره الباقون عليه مع كونهم من كبار الصحابة ولو أنكروه عليه لنقل ، ويحتمل أن يكون الذي قال ذلك صدر عن دهشة وحيرة كما أصاب كثيراً منهم عند موته ، وقال غيره : ويحتمل أن يكون قائل ذلك أراد أنه اشتد وجعه ، فأطلق اللازم وأراد الملزوم ، لأن الهذيان الذي يقع للمريض ينشأ عن شدة وجعه ، وقيل : قال ذلك لإرادة سكوت الذين لغطوا ورفعوا أصواتهم عنده ، فكأنه قال : ان ذلك يؤذيه ويفضي في العادة الى ما ذكر»ثم تابع ابن حجر تعليله فأوضح أن بعض الصحابة قد يكون فهم مطلب النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الاختيار لا الوجوب ، ولهذا اختلفت اجتهاداتهم ، ولدى السؤال ماذا

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٦ .

أراد النبي أن يكتب نجد ابن حجر وغيره يجيب [1] : تعيين خليفة بعده يتولى إدارة شؤون المسلمين،ونزيد هذا بياناً أن حزب الشيعة قال : حيل بين النبي والكتابة لأمر كان عمر بن الخطاب يعرفه مسبقاً ، وهو تعيين علي بن أبي طالب خليفة ووصياً على المسلمين صراحة بعدما عينه يوم غدير خم إشارة وتلميحاً ، ومن أوضح من عبر عن هذا القاضي النعمان قاضي قضاة المعز لدين الله الفاطمي وداعي دعاته في الأرجوزة المختارة قوله :

أجمع من يعزى الى الاسلام   بأنه لا بد من امام
فلو أطاعوا أمرهم في وقتهم   لأكلوا من فوقهم وتحتهم
لكنهم عصوهم ونكبوا   الى ولاة دونهم تغلبوا

ثم أوضح مجدداً :

أجمع أصحاب النهى والطيش   ان الامام العدل من قريش

ثم تحدث عما حدث يوم مرض النبي وأورد خبر غدير خم :

وكان قد أقام فيمن خلفا   وصيه عليهم مستخلفا
وأنه قال على الاجماع   للناس بعد حجة الوداع
وقد دعاهم بغدير خم   فاجتمعوا اليه كي يسمي
ان علياً حل مني فافهموا   محل هارون على ما يعلم
ثم دعاه بينهم اليه   وقال وهو رافع يديه
يا رب والي اليوم من والاه   وعاد ياذا العرش من عاداه [2]

لقد كان هذا كله ما قيل فيها بعد ونسج خلال عدة قرون ، لكن ونحن لا ندري بالتأكيد الذي أراد النبي أن يكتبه يمكننا ان نستخلص على قاعدة «يقرأ الكتاب من عنوانه» أنه ربما أراد ان يكتب أشياء لا علاقة لها بمصير السلطة من

---

(١) ـ أحمد بن علي بن حجر ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ط. مصورة ـ دار الفكر بيروت ج٨ ص١٣٢، محمد بن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ط . بيروت ١٩٥٨ ج٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

(٢) ـ القاضي النعمان بن محمد ـ الأرجوزة المختارة ط. مونتريال ١٩٧٠ ص ٤٦ ـ ٤٧، ٨٦، ١٠٦ ـ ١٠٧ .

بعده ، فهو قد قال : «هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فلو أراد تعيين حاكم لقال : «هلموا أكتب لكم كتاباً أذكر فيه من سيلي أموركم بعدي» .

هذا وقد جاء في كتب الصحاح : «خرج العباس وعلي من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه فلقيهما رجل فقال : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا حسن ؟ فقال : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بارئاً ، فقال العباس لعلي بن أبي طالب : أنت بعد ثلاث لعبد العصا ، ثم خلا به فقال : انه يخيل إليّ لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، واني خائف ألا يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجعه هذا فاذهب بنا فنسله فإن يك هذا الأمر الينا علمنا ذلك ، وإن لا يك الينا أمرناه أن يستوصيْ بنا خيراً ، فقال له علي : أرأيت إن جئناه فلم يعطناها ، أترى أن الناس يعطوها والله لا أسأله إياها أبداً [1]» .

يؤكد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسأل عن مصير الحكم من بعده ، ولعله سئل عن أشياء عامة أخرى ، هذا وسنرى أن عمر بن الخطاب لم يكن يتوقع وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولنتذكر أن بعض الباحثين قد رأى أنه بعدما شرع النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة «الشورى في الحكم» ماكان بامكانه أن يوصي بالسلطة من بعده لشخص محدد أو حتى يبين بشكل مفصل صورة الحكم من بعده، لأن ظروف العرب في شمال شبه الجزيرة ما كانت لتسهل تنفيذ وصية فيها وراثة سياسية على قاعدة : «مكة هي لقاح لا تدين لملك» [2] .

ويرى آخرون أن في الوصية تحديداً تأباه الأيام وتقييدا يعارضه تطور العصور ، كما في تسمية ولي عهد للنبي اقامة أسرة مالكة ذات حق إلهي دائم وهذا ما تأباه طبيعة التطور التاريخي والتباين بين المجتمعات عبر العصور والبقاع ، وربما يتعارض مع مبادىء الاسلام ، فالله تعالى بعث نبيه لهداية البشر ولم يبعثه ملكاً وفي مراسلاته كما رأينا احتفظ لنفسه بصفة النبوة ولم يدع شيئاً آخر ، والنبي كان مسلماً

---

(١) - مغازي الزهري : ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) - سيرة ابن هشام ٢٢٤/٢ .

والذين آمنوا به كانوا مسلمين ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم متسلطاً أو يسعى أن يكون كذلك ، وهو قد اختير من قبل الله تعالى ليبلغ رسالته الى الناس كافة ، ولم يجر اختياره ليكون ملكاً ، وعندما عرضت عليه قريش الملك رفض ، وتمسك برسالة النبوة .

وتبقى القضية موضع اجتهادات ، والذي يهمنا من هذا كله أن النبي توفي دون أن يعين من سيخلفه في السلطة من بعده بشكل صريح ، وان آراء المسلمين حول موضوع السلطة كانت مختلفة وغير واضحة .

ومن المفيد لنا ونحن بصدد التعرف الى ما حدث في أيام مرض النبي الأخير واثر وفاته أن نلقي نظرة عابرة على الأوضاع داخل شبه الجزيرة ومدنها الرئيسة .

كان الوضع في اليمن ـ كما سنرى بمزيد من التفاصيل ـ غير مستقر،وكانت هنالك بداية أعمال تمرد وردات بدأت قبل المرض بفترة من الزمن ، وتصدر ذلك ما عرف فيما بعد باسم ردة الاسود العنسي ، أما في اليمامة فكانت هناك بوادر ردة مسيلمة الكذاب وقبيلة حنيفة ، ويبدو أن معظم القبائل التي لم تفكر بالردة كليا كانت منشقة على نفسها ليس لها موقف واحد محدد ، ويفيد هذا أن سيطرة المدينة على أنحاء شبه الجزيرة أيام مرض النبي أصيبت بشيء من الوهن وعدم الاستقرار .

أما بالنسبة لكل من مكة والطائف فقد كان الوضع فيهما وضع تربص وعدم اتخاذ موقف حاسم ، لكن أهل مكة والطائف كانوا يعرفون أنهم لا يملكون القدرة على حسم الأمور وتحديد شكل المستقبل سياسياً ، وان ذلك لأهل المدينة أو لنقل للفئة الأكثر قوة من سكان المدينة بالتحديد ، وعلى هذا لنعد ثانية الى المدينة لنرى ما كان يحدث فيها .

مما سبق استعراضه من أخبار استخلصنا ان مسألة المستقبل السياسي كانت مثارة بين صفوف سكان المدينة ، ولكن قبل الدخول بالتفاصيل وروايات ما حدث نسأل : من هم سكان المدينة ؟

كان سكان المدينة يتألفون أيام مرض النبي (ص) من كتلتين رئيسيتين هما : المهاجرين والأنصار ، وكان جل المهاجرين من مسلمي قريش ، وكان الأنصار

يتألفون من قبيلتين هما الأوس والخزرج اللتان كانتا تتنازعان على الزعامة قبل الاسلام والهجرة ، ومعروف أن نزاعهما كان من الأمور التي يسرت دخول المدينة في الاسلام والهجرة اليها ، لقد استهدف الأوس والخزرج - فيما استهدفوه - حل مشاكل مدينتهم بوساطة النبي ودينه الجديد ، لكنهم ما لبثوا أن وجدوا بعد فترة أن مشاكلهم في الصراع على السلطة قد حلت لكن المدينة لم تعد ملكا لهم ، بل صارت مدينة المسلمين وان عدد المهاجرين بات يساوي عدد الأنصار ، وأن المهاجرين تفوقوا قوة وقدرة وجاه .

ويستخلص من مختلف الروايات التي حملت أخبار يوم السقيفة أن الأوس والخزرج بيتوا خططهم على إرجاع - لا بل لنقل - على استرداد السلطة على المدينة بعد وفاة النبي .

انما من المعروف أن هاتين القبيلتين كان التنافس ما زالت جذوره قائمة بينهما وأنه من السهل جدا استغلال هذا التنافس بعد بعثه من جديد لصالح فئة ضد أخرى .

هذا بالنسبة للأنصار أما بالنسبة للمهاجرين فكانوا يمثلون بطون قريش وبعض أحلافها ، وكان أبرز رجالات المهاجرين بعد النبي (ص) أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، فأبو بكر كان أول الرجال البالغين دخولا في الاسلام ، كما وكان ممثلاً لعشيرة تيم في حلف الفضول الذي عقد في دار التيمي عبد الله ابن جدعان ، وكان عمر بن الخطاب - حتى إسلامه - يمثل زعامة من زعامات الحلف المعارض ، ولذلك احتل بدخوله الاسلام - وان جاء متأخراً - المرتبة الثالثة بالزعامة ، وروى عدد من أئمة الحديث ورواته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : «أنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة [1] » وكان الله تعالى قد اعتبر قبل هذا أبو بكر «ثاني اثنين»[2] .

كان النبي صلى الله عليه وسلم من أسرة بني هاشم التي كانت من أبرز أسر

---

(١) - محمد السعيد زغلول - موسوعة اطراف الحديث ط. بيروت ١٩٨٩ ج٢ ص٥٤٣ .

(٢) - انظر قوله تعالى في سورة التوبة الآية ٤٠ «اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار» .

قريش وأعلاها مكانة ، وحظيت أسرة النبي في الفترة المدنية بمكانة خاصة ، وفرضت عليها لذلك شروط لم تفرض على بقية المسلمين مثل الحجاب وعدم أخذ الصدقات ، وكان علي بن أبي طالب أبرز شخصيات بني هاشم التي باتت الآن تعرف باسم «آل البيت» بعد النبي ، فعلي لم يعرف في حياته غير الاسلام ، نشأ منذ أن كان صبياً في بيت النبوة ، وتزوج من فاطمة الزهراء ابنة الرسول ، ومن الزهراء ولد سبطا النبي اللذان كانا الذكرين الوحيدين من سلالة النبي (ص) ، وظل علي يتمتع بمكانته العالية وانفراده بالزعامة بين بني هاشم من المسلمين حتى فتح مكة ودخول العباس بن عبد المطلب في الاسلام . ومن هنا أخذ العباس ينافسه على المكانة في الأسرة الهاشمية [1] إنما بدون تأثير سريع أو مباشر .

على هذا يمكننا القول أيضا أن المهاجرين من قريش كان أبرز شخصياتهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة مرشح لتولي الزعامة بعد النبي في حال توفر التأييد العشائري له أو إبداعه السياسي والقدرة على اغتنام الفرص ، وقام النبي صلى الله عليه وسلم فكلف أبا بكر بقيادة الصلوات لأنه عجز لمرضه عن القيام بهذه المهمة ، وعلى هذا كان آخر عمل أسند النبي لأبي بكر خلافته في إمامة الناس أثناء صلاتهم وهو عمل ديني محض .

روى الزهري عن أنس بن مالك قال : «لما كان يوم الاثنين كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة ، فرأى أبا بكر وهو يصلي بالناس ، قال : فنظرت الى وجهه كأنه ورقة مصحف وهو يبتسم ، قال : وكدنا أن نفتتن في صلاتنا فرحاً برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أبو بكر دار ينكص ، فأشار اليه النبي ان كما كنت ، ثم أرخى الستر ، فقبض من يومه ذلك» [2]

لقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في ضحى ذلك اليوم ، وكان أبو بكر آنذاك خارج المدينة وكان عمر خارج المسجد ، فسمع مع المسلمين الذين كانوا

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .
(٢) الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٢ .

معه خبر الوفاة ، ونزل بهم هذا الخبر نزول الصاعقة ففاجأهم وأربكهم حتى أن عمر وقف يرفع صوته قائلاً : «ان رسول الله لم يمت ولكن صعق كما صعق موسى ، والله اني لأرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيدي رجال وألسنتهم من المنافقين ، يقولون : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات [1]» .

ولم يلبث الخبر أن وصل الى أبي بكر فعاد مسرعا الى المدينة ، فدخل المسجد وعمر يحدث الناس ، فمضى حتى البيت الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلمَ وهو في بيت عائشة ، «فكشف عن وجهه برد حبرة كان مسجى عليه ، فنظر الى وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أكب عليه فقبله ، ثم قال : والله لا يجمع الله عليك موتتين ، لقد مت الموتة التي لا تموت بعدها أبداً .

ثم خرج أبو بكر الى المسجد وعمر يكلم الناس ، فقال له أبو بكر : اجلس يا عمر ، فأبى أن يجلس ، فكلمه مرتين أو ثلاثا فأبى أن يجلس ، فقام أبو بكر فتشهد ، فأقبل الناس على أبي بكر ، وتركوا عمر ، فلما قضى أبو بكر تشهده قال : أما بعد فمن كان يعبد محمد فان محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله ، فان الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : (وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية كلها ، فلما تلاها أبو بكر رحمه الله ، أيقن الناس بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقوها من أبي بكر ، حتى قال قائل من الناس : فلم يعلموا أن هذه الآية أنزلت ، حتى تلاها أبو بكر .

قال الزهري : وأخبرني سعيد بن المسيب قال : قال عمر : والله ما هو الا أن تلاها أبو بكر ، وأنا قائم ، فخررت الى الأرض ، وأيقنت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات» [2] .

ولم يلبث الأمر طويلاً حتى وصلت الأخبار الى المسجد باجتماع الأوس والخزرج تحت سقيفة لبني ساعدة في أطراف المدينة ، ووصف أمير المؤمنين عمر بن

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٣ .

(٢) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٤ ـ ١٣٥ . سورة آل عمران ـ الآية ١٤٤ . ابن سعد المصدر نفسه ج٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٧٢ ، ابن حجر ـ المصدر نفسه ج٧ ص ٢٠ ، ج٨ ص ١٤٥

الخطاب الوضع بقوله : «حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وان عليا والزبير ومن معه تخلفوا عنه في بيت فاطمة ، وتخلفت عنا الأنصار بأسرها في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون الى أبي بكر رحمه الله ، فقلت : يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم فلقينا رجلين صالحين من الأنصار قد شهدا بدراً ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد اخواننا هؤلاء من الأنصار ، قالا : فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم ، قال : قلت : فامضوا ، لنأتينهم ، فأتيناهم ، فاذا هم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة بين أظهرهم رجل مزمل ، قلت من هذا ؟ فقالوا : هذا سعد بن عبادة ، قلت : وما شأنه ؟ قالوا : هو وجع .

قال : فقام خطيب الأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد فنحن الأنصار ، وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهط منا ، وقد دفت الينا دافة منكم ، فاذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويحضونا من الأمر .

وكنت قد زورت في نفسي مقالة ، وكنت أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري من أبي بكر بعض الحد ، وكان هو أوقر مني وأجل ، فلما أردت الكلام قال : على رسلك ، فكرهت أن أعصيه .

فحمد الله أبو بكر رضي الله عنه ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :
- والله ما ترك كلمة كنت زورتها في نفسي إلا جاء بها ، أو بأحسن منها في بديهته - .

ثم قال : أما بعد فما ذكرتم فيكم من خير يا معشر الأنصار ، فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، فهم أوسط العرب داراً ونسباً ، واني قد رضيت لكم هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، قال : فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح .

قال : فوالله ما كرهت مما قال شيئاً الا هذه الكلمة ، كنت لأن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك الى اثم أحب الي من أؤمر على قوم فيهم أبو بكر»[1] .

---

(١) - الزهري - المصدر نفسه ص ١٤١ - ١٤٢ .

لدى امعان النظر في هذا الحديث نستخلص أن الأنصار قد بيتوا أمراً وعقدوا العزم على تنفيذه حتى ولو أدى ذلك الى القتال ، ولهذا وجهت النصيحة لأبي بكر وصاحبيه بعدم الذهاب الى السقيفة ، وأن يبت المهاجرون أمرهم بينهم ، وعلى هذا انعدمت من بين صفوف الأنصار فكرة وحدة الأمة ومصيرها الواحد ، وانصرف تفكيرهم نحو مستقبل الأنصار فقط .

لقد أعلن خطيب الأنصار صراحة ما دار في نفوس الأنصار تجاه المهاجرين من قريش وأوضح بشكل لا لبس فيه أن النية متجهة نحو استعادة سلطان الأوس والخزرج على المدينة ، ولنتذكر في هذا المقام أن أبا بكر وصاحبيه لم يكونوا يمثلون جميع المهاجرين من قريش ، وأنهم توجهوا الى اجتماع السقيفة بمبادرة خاصة منهم ولم يصدروا على رأي المهاجرين وقرارهم ، وعلى هذا لم تكن لديهم كما يبدو خطة مرسومة أو تصوروا موضوعاً من أي نوع ، لكنهم آمنوا بمستقبل الاسلام ووحدة الأمة التي أنشأها النبي المصطفى ، ولهذا طرح أبو بكر الأمر بشكل يختلف تماماً عن الطرح الأنصاري حيث بين أن القضية ليست قضية الأنصار ومدينتهم انما قضية المسلمين،والعرب لن تقبل بزعامة أحد من غير قريش .

وتلا ذلك مناقشات حادة كادت تقود الى الشجار ، وخلال هذه المناقشات رشح أبو بكر عمرا وأبا عبيدة لبيعة واحد منهما ، لكنهما رفضا وأقدما على بيعة أبي بكر ، ويبدو أن اجتماع السقيفة أرفض وسط الجلبة وأن ما من واحد من الأنصار بايع أبا بكر ، وعلى هذا اعتبر عمر بن الخطاب البيعة لأبي بكر «فلته ، فقد كانت كذلك غير أن الله وقى شرها [1]» . واعتبر ما جرى قد جرى من غير مشورة من المسلمين [2] .

عاد أبو بكر مع صاحبيه الى المسجد وأخبروا المجتمعين فيه بما حدث ، وكان النهار قد قارب على الانتهاء ، وعلموا في الوقت نفسه بورود أخبار مقلقة جداً تفيد أن المدينة مهددة بإغارة البداة المقيمين حولها عليها ، وشغل هذا الناس عن كل أمر سواه ، وسارع أبو بكر الى إصدار ما لزم من أوامر لوقاية المدينة

---

(١) - الزهري - المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٢) - الزهري - المصدر نفسه - الصفحة نفسها .

وحراستها ، وأمضت المدينة ليلتها في قلق شديد وتحسب وخوف من الفوضى وعدم الاستقرار ومع اليوم التالي اجتمع المسلمون في المسجد ، فجلس عمر على منبر النبي صلى الله عليه وسلم «فتشهد عمر ، وأبو بكر صامت لا يتكلم ، ثم قال عمر : أما بعد ، فاني قلت مقالة ، وانها لم تكن كما قلت ، واني والله ما وجدت المقالة التي قلت في كتاب الله تعالى ، ولا في عهد عهده الي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يدبرنا ـ يريد بذلك حتى يكون آخرهم ـ فان يك محمدا قد مات ، فان الله قد جعل بين أظهركم نورا تهتدون به . هذا كتاب الله فاعتصموا به تهتدون لما هدى الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم ان أبا بكر ـ رحمه الله ـ صاحب رسول صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين ، وانه أولى الناس بأموركم ، فقوموا فبايعوه ، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة ، وكانت بيعة العامة على المنبر»[1] .

لقد جرت البيعة وحصل ما حصل انما بدون تحديد للمهام والواجبات والحقوق للزعامة الجديدة ودون إطلاق تسمية محددة على هذه الزعامة .

ومر اليوم الثاني والناس مشغولون بمسائل السياسة والأمن وكأنهم قد نسوا نبيهم المتوفى ، وان عليهم أن يفرغوا للقيام بدفنه ، ففي صباح يوم الأربعاء خرج العباس على الناس ووقف يخطب فيهم قائلاً : «خلوا بيننا وبين صاحبنا فانه يأسن كما يأسن الناس»[2] لكن هذا لم يثمر شيئاً ، ولذلك تمت عملية دفن النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة التي توفي فيها بدون احتفالات أو مراسم مناسبة ، وذلك على الرغم من أنه كان قد حذر قبل وفاته من دفنه في المسجد، ويبدو أنهم اضطروا الى ذلك بحكم المناخ ولاستمرار اضطراب الحال[3] .

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٥ . ابن سعد ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٢٧١ .

(٢) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٣ .

(٣) ـ ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٦٧ وحتى نهاية الكتاب . ابن سعد ـ المصدر نفسه ج١ ص ٢٢٥ ـ ٥٠٣ ، خليفة بن خياط العصفري ـ التاريخ ط . دمشق ١٩٦٧ ج١ ص ١٣ ـ ٧٦ محمد بن جرير الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ط . القاهرة دار المعارف ج٢ ص ٣٩٥ ـ ٦٥٧ .

لا يعنينا الآن الحديث عما واجهه أبو بكر بعد بيعته ، لكن الذي يهمنا قوله : ان بيعة أبا بكر قد تمت على الرغم من معارضة الأنصار لها ، ودون استشارة القسم الأكبر من قريش ، ولاسيما آل البيت ، ولا شك أن هؤلاء كانوا غير راضين تمام الرضى عما جرى وان سكتوا اضطراراً .

ويستخلص من هذا أنه مع بيعة أبي بكر الصديق يمكننا الحديث عن بدايات ظهور حركتين معارضتين داخليتين في قلب الأمة الناشئة : الأولى حركة الأنصار ، والثانية حركة آل البيت ، ومن البداهة بمكان أن نضيف اليهما ، أو أن نتذكر معهما القبائل في شبه الجزيرة ، ومعروف أن أبا بكر تصدى للقبائل وقضى على ردتها وأرغمها على الانضواء تحت لواء الإدارة المركزية للمدينة ، لكن لا يمكننا القول انه قضى على عامل التمرد في نفوسها الذي استيقظ في كل مناسبة وعبر عن وجوده وفعاليته في انتفاضات وفتن، ولا شك أنه كان من أكبر العوامل ـ كما سنرى ـ في تطور أحداث الفتنة الكبرى ، وأبعد من ذلك وأشد فعالية في ظهور حركة الخوارج ونجاحاتها واحباطاتها [1] .

وقبل أن نتتبع أخبار هذه الأحزاب في مراحل تطورها وأوج نشاطاتها مطلوب منا أولاً : أن نتعرف الى ماهية الزعامة التي أسندت الى أبي بكر حين تمت بيعته وأن نتعرف في الوقت نفسه الى المؤسسة السياسية التي ولدت مع بيعة أبي بكر .

لقد عرفت هذه المؤسسة باسم الخلافة ، وحمل أبو بكر لقب الخليفة، ويتساءل المرء من أين جاءت هذه التسمية وما هي أسباب استخدامها ؟

لدى استعراض مختلف الروايات حول المناقشات التي دارت يوم السقيفة وقبل هذا حول ما أثير عن مستقبل الزعامة بعد النبي أثناء مرضه صلى الله عليه وسلم الأخير ، لا نقف خلال ذلك كله على أي استخدام لكلمة خليفة وخلافة .

---

(١) ـ تناولت أحداث الردة مختلف مصادر تاريخ الاسلام ، ولعل من أهم المواد الجديدة ما أثبته عبد الرحمن بن محمد بن حبيش في مغازيه نقلا عن سيف بن عمروالواقدي، ونشر كتاب ابن حبيش في بيروت ١٩٨٩ بعنوان ذكر الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة ـ انظر ج١ ص ٩ ـ ١٤١ .

وفي التاريخ الاسلامي المتأخر تناول الذين كتبوا في السياسة والحكم والأحكام السلطانية البحث في أصل تسمية الخلافة ومعناها ، فقد ذكر الله تعالى الخلافة في القرآن الكريم لخمسة نفر من الأنبياء : آدم ، وداود وهارون ، وللصحابة وللمؤمنين .

ويقول الله جلا وعلا بشأن آدم «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة» [1] .

وقال تعالى مخاطباً داود «يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق [2]» .

وقال جل شأنه بصدد موسى وأخيه هارون : «اخلفني في قومي وأصلح [3]» وقال بصدد الصحابة : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض [4]» . وقال بشأن المؤمنين : «ويجعلكم خلفاء في الأرض» [5] .

ويستفاد من مجمل هذه الآيات أن الاستخلاف هنا هو إسناد الحكم أو السلطة وعلى هذا : الخليفة هو من يخلف غيره ويقوم مقامه .

وقد يكون أبو بكر أطلق على نفسه أثر بيعته لقب خليفة رسول الله فبات يعرف به ، وباتت المؤسسة تعرف بالخلافة ، فقد روى ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب أن أبا بكر كان يقول : « أنا خليفة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم » وروى أيضاً أن رجلاً قال لأبي بكر « يا خليفة الله ، قال لست بخليفة الله ، ولكنني خليفة رسول الله وأنا راضي بذلك [6]» .

---

(١) ـ سورة البقرة ـ الآية : ٣٠ .

(٢) ـ سورة ص ـ الآية : ٢٦ .

(٣) ـ سورة الأعراف ـ الآية : ١٤٢

(٤) ـ سورة النور ـ الآية : ٥٥ .

(٥) ـ سورة النمل ـ الآية ٦٢ .

(٦) ـ يوسف بن عبدالله بن عبد البر ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب ـ ط . القاهرة ١٩٣٩ (علىٰ هامش الاصابة) ج/٢ ص ٢٤٦ .

ولا يقلل كثيرا من قيمة هذا التفسير سكوت المصادر عن حكيه مباشرة حيث من المقرر ان المصادر لم ترو كل ما حدث في التاريخ بل بعضه ، هذا وهناك من يرىٰ أن أبا بكر كان يعرف بخليفة رسول الله قبل وفاة النبي أي قبل توليه السلطة أثر وفاة النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأحداث سقيفة بني ساعدة .

فقد كان النبي في المدينة يسند بعض المهام إلىٰ بعض أصحابه مثل ولاية الولايات وجمع الصدقات أو إمرة الجيوش ، وجرت العادة أن يحمل الوالي في غالب الأحيان لقب عامل ، كما حمل جابي الصدقات لقب مصدق أو عامل النبي علىٰ الصدقات ، وحدث في كثير من الأحيان أن تغيب النبي عن المدينة في عمل عسكري أو سواه وجرت عادته آنذاك استخلاف واحد من أصحابه لتولي قيادة الصلوات وامامة المسلمين في المسجد ، وكثيراً ما عهد بهذه المهمة لابن أم مكتوم الأعمى[1]

وجرت العادة اطلاق لقب خليفة رسول الله على الصلوات على ابن أم مكتوم ومن شابهه ، واستخلف النبي في مرضة الأخير أبا بكر ، وعلى هذا حمل أبو بكر أيام النبي الأخيرة لقب خليفة رسول الله على الصلوات ، أو باختصار لقب « الخليفة » لانه لم يكن بالمدينة سوىٰ مسجد واحد ولم يستخلف النبي مع أبي بكر أحداً ، ومن هذا المنطلق يمكننا القول إن أبا بكر جلب لقب الخليفة معه وأطلقه علىٰ المؤسسة التي ولدت يوم السقيفة ، ويعلل هذا عدم الاتيان علىٰ ذكر الخلافة كنيابة سياسية في مناقشات السقيفة وبالوقت نفسه يفسر كيف ان المؤسسة الجديدة كانت لدىٰ ولادتها غير واضحة المعالم والحدود سياسيا ، مع أن صلاحيات النبي السياسية كانت واضحة تمام الوضوح .

ومهما يكن أصل التسمية ومصدرها لقد عمل أبو بكر حين تسلم السلطة في نطاق حدود معنىٰ الخلافة الضيق ، فقد قال : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع فان استقمت فاتبعوني ، وان زغت فقوموني[2] » .

= محمد بن مرزوق التلمساني ـ المسند الصحيح الحسن ط . الجزائر ١٩٨١ ص ٩٤ ـ ٩٦ علي بن محمد الخزاعي ـ تخريج الدلالات السمعية ط . بيروت ١٩٨٥ ص ٢٨ .

(١) ـ ابن خياط ـ المصدر نفسه ج/١ ص ١٣ ـ ٧٦ .

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٤ .

ومكث أبو بكر طيلة خلافته يعتبر نفسه نائبا عن النبي منفذاً لكل ما جاء به ، ويرىٰ بالتالي إنه لا يملك أية صلاحيات تشريعية ، كما لا يمكنه اجبار المسلمين على ركوب خطة لم يحددها النبي من قبل ، يتصرف مثلما كان يفعل أثناء امامته المسلمين في صلواتهم ويؤدي الصلاة كما كان النبي يؤديها دون زيادة أو نقصان .

ولم يحتج أبو بكر إلىٰ منح نفسه السلطات التشريعية ، فالدولة في أيامه ظلت من حيث الجوهر كما كانت أيام النبي سوىٰ أن رقعتها أخذت تتسع لتشمل أراضي خارج شبه جزيرة العرب في الشام والعراق ، لكن يلاحظ أنه مع دنو منية أبي بكر بدت بعض علامات التغيير بالظهور ، فالقوات العربية كانت قد تجمعت خارج شبه الجزيرة ، ولم يبق في شبه الجزيرة من يشكل مخاطر سياسية ، أو تهديداً بالمعارضة ، فالجميع كانوا مشغولين في أعمال القتال ومشاريع الفتوحات ، ومع هذا لا شك أن العرب الذين تجمعوا في البلدان المفتوحة تأثروا بما كان سائداً في هذه البلدان من مفاهيم سياسية ، كما أنهم أخذوا يمارسون نمطاً جديداً من الحياة الإجتماعية والاقتصادية ، وفوق هذا كله استقر في نفوسهم جميعاً اطاعة كل أمر صادر عن أبي بكر وعدم مناقشته مهما كان خطيراً . ولهذا أقدم أبو بكر قبيل وفاته على تعيين عمر بن الخطاب ولياً لعهده يتولىٰ الخلافة من بعده ، وبالفعل نفذ الجميع هذا الأمر دون أدنىٰ اعتراض من أي جهة من الجهات .

وصحيح أن عمر بن الخطاب كان أيام أبي بكر الرجل الثاني والأقوىٰ في الدولة ، لكن في تسمية أبي بكر له وليا لعهده بشكل رسمي معاني تدل على تطور هائل[1] .

والذي يلفت الانتباه لا مواجهة عمر إثر تسلمه للخلافة لأي معارضه بل لتخليه عن لقب خليفة واستبداله بلقب جديد هو لقب أمير المؤمنين .

وقد أورد المؤرخون عدة روايات حول سبب هذه التسمية وأصلها ، من ذلك ان المغيرة بن شعبة هو الذي أطلقها عليه وخاطبه بها لأول مرة ، وعندما استنكر عمر ذلك وقال له : ما هذا ، وطالبه بالتفسير أو الاقلاع قال له : ألست أميرنا ؟

---

(١) ـ عمر بن شبه ـ تاريخ المدينة ـ ط . المدينة ١٣٩٣ هـ ج ٢ ص ٦٦٥ .

قال : بلىٰ ، قال : أفلسنا بالمؤمنين ؟ قال : بلىٰ ، قال : فأنت أميرنا ، وقيل : « بل ان عمر هو الذي استخدم اللقب وسمى نفسه به فعندما بايعه الناس قالوا : خليفة خليفة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال عمر رضي الله عنه : ان هذا لكثير فاذا مت أنا فقام رجل مقامي قلتم خليفة خليفة خليفة رسول الله ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم[1] » .

لا يعنينا كثيراً من الذي سمى عمر بن الخطاب بأمير المؤمنين ، بل يهمنا كثيراً معرفة لماذا وقع الاختيار على كلمة «أمير» فلهذه الكلمة معانيها الكبيرة ودلالاتها والأمير هو غير الخليفة .

الأمير يصدر الأوامر ويقوم بالتشريع الاداري وغير الاداري وهي صلاحيات لا تحق للخليفة ، ومن المعلوم أنه حينما تسلم عمر بن الخطاب السلطة كانت الدولة الإسلامية الناشئة تجتاز مرحلة حاسمة وتواجه مشاكل خطيرة وجديدة تحتاج إلىٰ حلول سريعة وحاسمة ، وقد تطلب الأمر الآن ان يقوم الخليفة الجديد بايجاد الحلول للمشاكل ، أي ان يمارس حق التشريع .

وكان من بين المشاكل الكثيرة التي واجها عمر قضية المؤلفة قلوبهم ومسألة السواد وأزمة نصارىٰ تغلب ، فقد أوقف عمر دفع الأموال إلىٰ المؤلفة قلوبهم ومنع تقسيم السواد ، وفرض الصدقة مضاعفة على نصارىٰ تغلب بدلا من الجزية[2] .

ان في أقدام عمر بن الخطاب على هذه الاجراءات مع وضعه للدواوين وموقفه من قضية المتعة ومسألة صلاة التراويح ما يعني أن الرجل قد منح نفسه صلاحيات تشريعية أوقفت العمل بقوانين سالفة وأحلت محلها قوانين جديدة وهذا أمر لم يقدم عليه أبو بكر ، وأقدم عليه عمر ، فقد كان عمر مثله مثل قائد جيش من الجيوش يوكل اليه آخر مهمة عامة ويعطيه حق التصرف في مواجهة المستجدات في اطار المهمة الممنوحة اليه ودون المساس بالجوهر والغايات الأساسية ، ومعروف ان الجهاد أيام عمر بات أشبه بالفرض الواجب لا فرض

---

(١) ـ ابن شبة ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧٧ ـ ٦٨٠ . الطبري المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢) ـ أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ـ كتاب الخراج ـ ط . القاهرة ١٣٨٢ ص ٢٨ ـ ٤٧

كفاية ، وأن عمر استنفر العرب جميعا حتى المرتدين من قبل ، وعلى هذا غدت الجماعة الإسلامية في أيامه كما يرى فلها وزن[1] كلها مقاتلة وكل واحد منها يستحق العطاء ، وكلها أهل ديوان ، وكان قد ترسخ بعض الشيء مفهوم دار الحرب ودار السلم ، وبات عمر بن الخطاب القائد الأعلىٰ للجماعة الإسلامية أو بالأصح كان هو أميرها وكانت هذه الجماعة المسلمة الساكنة في دار الإسلام تقاتل الآن ضد الجماعات غير المؤمنة في دار الحرب ، وهكذا صار عمر بحكم الضرورة وبواقع الحال أميراً للمؤمنين .

هذا ويلاحظ أن الحديث في مصادر تاريخ العرب والاسلام عن الخلافة وإمرة المؤمنين غالبا ما يمتزج بالحديث عن مؤسسة ثالثة هي الإمامة ، وقد يخيل في بعض الأحيان للمرء أن المقصود بالتسميات الثلاثة شيء واحد ، لكن في أحيان أخرىٰ يشاهد ان هناك تمييزاً بين امرة المؤمنين والامامة ، ويتضح هذا التمييز أكثر في الكتب التي طرقت موضوعات السياسة والخلافات بين الفرق ، وفي عقائد بعض الفرق الدينية والسياسية لا سيما لدىٰ الشيعة .

والخلاف قائم حول أصل الامامة ومعناها وحدود صفاتها ، وأرجح التفسيرات أنها مشتقة لغويا من كلمة « أمة » وتعني هذه اللفظة في القرآن الكريم الشرعة والدين ولا تعني أبداً ما هو متداول في أيامنا هذه ، ذلك ان معناها الحديث قد ارتبط بالتعريفات التي عرفتها أوربا بعد الثورة الفرنسية .

ونقرأ في القرآن الكريم قوله تعالىٰ : « انا وجدنا آباءنا على أمه وأنا على اثارهم مهتدون »[2] وقوله جل شأنه : «انا وجدنا آباءنا علىٰ أمة وأنا على اثارهم مقتدون[3] » . وقوله جل وعلا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون المعروف[4] » . والأمة في اللغة[5] أهل دين ، وعلىٰ هذا بات معنى الآية « كنتم خير

---

(١) ـ يوليوس فلهوزن ـ الدولة العربية ـ ترجمة عربية ـ ط . القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٤ ـ ٢٦ .
(٢) ـ سورة الزخرف ـ الآية : ٢٢ .
(٣) ـ سورة الزخرف ـ الآية : ٢٣ .
(٤) ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١١٠ .
(٥) ـ ابن منظور ـ المصدر نفسه (مادة أمة) .

أهل دين أخرج للناس » وزعيم الأمة وقائدها هو الامام ، ولقد كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم أيام حياته إمام أمته ، وما زال الاسم الذي يحمله قائد المسلمين في صلواتهم هو « الامام » .

هذا وذهبت الشيعة ـ كما سنرى ـ إلىٰ القول ان علي بن أبي طالب هو وريث النبي صلي الله عليه وسلم وراثة كاملة ، وبما أن النبي قد جمع في ذاته النبوة وزعامة الدنيا ، فعلي كان على هذا زعيم المسلمين الدنيوي وامامهم ، لكنْ حدث يوم السقيفة ان بويع أبو بكر ، وصار أبو بكر بذلك زعيم الدنيا ، بهذا حرم علي بن أبي طالب من جزء من ميراثه وهو الذي أطلق عليه منذ ذلك الحين اسم الخلافة وبعدها اسم امرة المؤمنين ، لكن « اغتصاب » ميراث الحكم لم يحرم علي من صفة الامامة ، ويوم بويع بالخلافة اجتمعت به مجددا للمرة الأولىٰ بعد وفاة النبي الامامة والخلافة واندمج في ذاته الدين والدنيا ، وسنجد ان الشيعة كلها تقول انه بعد اغتيال علىٰ آلت الخلافة والامامة إلىٰ ابنه الحسن ، وقد تنازل الحسن عن حقه وهو مكره لمعاوية ، وتنازله شمل الخلافة ، وحرمه من الامامة فانتقلت إلىٰ أخيه الحسين بن علي[1] .

لقد سبق لنا أن تعرضنا لما حدث يوم السقيفة واختيار أبي بكر للخلافة ، وقد شهدت فترة حكم أبي بكر على قصرها عدداً كبيراً من التحولات كان أولها وضع شبه جزيرة العرب تحت إدارة مركزية قوية وبعدها انطلاق الجيوش الفاتحة للقتال على جبهتي العراق والشام ، ولم تطل أيام حكم أبي بكر ، فقد شغل أبو بكر منصبه لمدة عامين تقريباً ، لكن حدث خلال هذين العامين أن درت الفتوحات أرباح كبيرة على العرب ، كما أن معظم الطاقة البشرية لمعظم سكان شبه الجزيرة إستقرت في الجبهات وخارجها ، وتبدلت الآن صور المواجهات والمشاكل المطروحة ، وانتقلت ساحات الصراع من داخل شبه الجزيرة الى الأراضي الساسانية والبيزنطية واصطدم الاسلام بديانات الشرق الأوسط الكتابية وغير الكتابية .

---

(١) ـ أحمد محمود صبحي ، نظرية الامامة لدىٰ الشيعة الاثني عشرية ط . القاهرة ١٩٦٩ ص ٦٩ ـ ٧٧ .

وطويت المواجهة بينه وبين الوثنية وغير الوثنية في شبه الجزيرة ، ومرض أبو بكر ، وقبل وفاته أقدم على تعيين عمر بن الخطاب ولياً لعهده بموجب وصية [1] . وكانت هذه الوصية بداية تحول في الفكر السياسي وفي استعدادات العرب السياسية وستتطور هذه الاستعدادات مع الأيام الى درجة القبول بفكرة وراثة الابن لأبيه وحكم الأسرة الوراثية الواحدة .

وتسلم عمر بن الخطاب الخلافة دون معارضة معلنة ، وفي عهده تحققت انجازات كبيرة كان منها اكمال حركة الفتوحات بنجاح كبير حيث أحرز العرب انتصاراتهم العظمى في اليرموك والقادسية ، وانهمك عمر بن الخطاب في استغلال الانتصارات العسكرية وتحويلها الى انتصارات دائمة عن طريق أعماله التنظيمية ، ومع ذلك فان المستعرض لأخبار سيرته يجد أنه على الرغم من مشاغله الكبيرة كان هاجسه الأكبر مشكلة الحكم من بعده وأنه غالباً ما أثار هذه المسألة مع عدد من الصحابة [2] ويلاحظ من خلال المناقشات أن أقوى المرشحين في ذهن عمر كان علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، وغالبا ما طلب من عمر اتخاذ قرار بتعيين واحد منهما فكان يرفض ، وحينما كان يجابه بالاجراء الذي اتخذه أبو بكر كان أيضاً يرفض متذرعاً بعدم تعيين النبي لأحد يخلفه ، ومسألة الالحاح على عمر بتعيين ولي عهد له ذات دلالات كبيرة على نوعية التبدلات السياسية التي ألمت بصفوف المسلمين ومدى عمقها ، متذكرين أن الذين طلبوا منه اتخاذ اجراء التولية كانوا من سكان المدينة من الصحابة .

وفي ذروة النشاط طعن عمر بن الخطاب وأقدم وهو على فراش الموت باتخاذ قرار ، لعله كان في ذهنه من قبل ، فقد أمر أن يجتمع ستة من السبعة المتبقين من أصحاب النبي العشرة المبشرين بالجنة وهم : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، وكان السابع الذي أخرجه هو سعيد بن عمرو بن نفيل ابن عمه وزوج أخته ، ولا نعرف بالتأكيد سبب اخراجه ، لكن الذي نعرفه أن عمرا اختار

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٤٧ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

ابنه عبد الله ليحضر اجتماع الشورى شريطة أن لا يحق له الانتخاب لكن يمكنه اتخاذ -موقف المعدل اذا ما أقر ثلاثة من كل جانب موقفا وتشبثوا به [1] .

وقضى عمر أن يجتمع الصحابة بعد موته مباشرة ، وأن يفرغوا من أمرهم خلال ما لا يزيد على ثلاثة أيام ، وتوفي عمر واجتمع رجال الشورى ، ووضحت منذ البداية معالم الصراع ، فقد أعلن أربعة من الصحابة عن عدم ترشيح أنفسهم مع احتفاظهم بحق التصويت وانحصرت المعركة بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، أي عادت الأيام الى سيرتها الاولى، لى سيرة الصراع على الزعامة بين بني هاشم وبني أمية ، وبعد مداولات أوكل المجتمعون الى عبد الرحمن بن عوف أمر اختيار واحد من الاثنين ، وبعد عملية استطلاع طويلة أعلن عن اختياره لعثمان بن عفان ، ولا يهمنا هنا أن نذكر جميع ملابسات الاختيار بل الذي يعنينا ما حدث أثناء ذلك وردات الفعل على عملية اختيار عثمان .

روى الطبري في تاريخه أن عبد الرحمن بن عوف بعث في اليوم الثالث لوفاة عمر إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأمصار «فتجمعوا حتى التج المسجد بأهله فقال : أيها الناس ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم ، فقال سعيد بن زيد : انا نراك لها أهلًا ، فقال : أشيروا علي بغير هذا ، فقال عمار : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا ، فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار ان بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا .

قال : فقال ابن أبي سرح : ان أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشتم عمار ابن أبي سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين .

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية فقال عمار : أيها الناس ان الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدوت طورك يا بن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس، فقال عبد

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

الرحمن : اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال : أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي ، فقال : نعم ، فبايعه ، فقال علي : حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك ، والله كل يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان ، فخرج علي وهو يقول : (سيبلغ الكتاب أجله) فقال المقداد : يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فقال : يامقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين . . . فقال المقداد : ما رأيت مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيهم ، اني لأعجب من قريش ، انهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل ، فقال عبد الرحمن يا مقداد اتق الله فاني خائف عليك الفتنة . . . فقال علي : ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بينها فتقول : ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم»[1] .

إذا صحت رواية هذا النص فان فيه دلالات خطيرة : أولاها قناعة القرشيين ان الخلافة ومسائل البحث فيها حق محصور بهم ، وأن امكانية الانتقال من احتكار العشيرة الى أسرة من الأسر كان متصوراً ، وثانيهما وضوح التنافس على السلطة بين القرشيين وأن كل واحد من المتنافسين كان له من يؤيده من أسرته وغيرها ، فعلي بن أبي طالب أيده فقراء المسلمين وذوو السابقة منهم مثل عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود ، في حين أيدت الأسر الارستقراطية من قريش عثمان بن عفان ، فقد أعلن بنو مخزوم عن تأييدهم للمرشح الأموي وأعلن علي بكل صراحة أن عبد الرحمن بن عوف قد صرف الخلافة عنه حتى لا تستقر في بني هاشم ، وحتى تتداولها أسر قريش ، وإذا صح أن هذا كان تصور عبد الرحمن بن عوف فانه أخطأ التقدير ، ذلك أن السلطة ما أن تسلمها بنو أمية حتى تمسكوا بها وعملوا على ابقائها في أسرتهم بشكل دائم .

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٧٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

والمدهش في هذا النص أن المقداد وعمار تحدثا بلسان الاسلام والمسلمين في حين أن الآخرين تحدثوا بلسان قريش ، واعتبروا أن السلطة حكراً على قريش ولا يحق لغير القرشيين حتى مجرد الحديث حولها .

وتسلم عثمان الخلافة ، وكان شيخاً فيه ضعف الشيوخ وتشبثهم وحب لآله وإيثار لهم على سواهم ، فلقد قرب عثمان أفراد أسرته الأمويين ، وكان عددهم كبيراً وامكاناتهم جيدة ومطامحهم واسعة ، فولاهم الولايات وسلم اليهم مقاليد الأمور في داخل المدينة وخارجها .

روى ابن أعثم الكوفي في مطلع كتاب الفتوح أنه «لما صار الأمر الى عثمان واجتمع اليه الناس ، أرسل الى عمال عمر بن الخطاب فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم انه بعث اليهم فعزلهم عن الأعمال وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية فولاهم الولايات. . . ثم كثر المال عليه ، فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطاء ، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم»[1] .

وساق ابن الأعثم بعد هذا عدداً من الأمثلة ، فذكر أن الخليفة منح خالد بن أسيد بن أبي العاصي مبلغ /٣٠٠/ ألف ، وأنه رد الحكم بن أبي العاص الى المدينة ، والحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتف عثمان بالغاء الإجراء النبوي بل وصل الحكم بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس افريقية ، وجعل ابنه مروان مدير إدارته ووضع خاتمه بين يديه ، وجعل الابن الآخر وهو الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصله بمبلغ جليل «فكبر ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكرهوا ذلك من فعله ، ثم أنهم دخلوا على عبد الرحمن بن عوف فشكوا اليه أمر عثمان ، وقالوا : يا بن عوف هذا من فعالك بنا ، ولسنا نلزم هذه اللائمة أحد سواك ، فقال عبد الرحمن : يا هؤلاء اني كنت أخذت لكم بالوثيقة ولم أعلم بما يكون»[2] .

---

(١) ـ احمد بن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ص ٨٠٥ .
(٢) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٨٠٦ .

وحاول الصحابة الضغط على عثمان وإصلاح الأمور لكن دونما فائدة ، وكان ان بدأت المصادمات بينهم وبين عثمان بشكل علني ، وتشبث عثمان بمواقفه فكثرت مع الأيام أسباب الشكوى والتذمر .

ويلاحظ في أعمال اختيار الخلفاء الآن أن العناصر القرشية القاطنة في المدينة هي التي قررت مصير السلطة ، وأنه عندما جرى اختيار عثمان لم تتم استشارة قادة الجند في الجبهات ، مع أن هؤلاء القادة هم الذين ملكوا في الحقيقة القدرة والفعالية ، ومشاكلهم ومشاكل أمصارهم باتت هي المشاكل الأساسية للدولة، وشكاويهم هي التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار ، ومن الملاحظ أن عمر بن الخطاب كان مدركاً لهذا الأمر تمام الإدراك ، وكان يعالج كل قضية في وقتها ، كما ويلاحظ أنه زار بلاد الشام أكثر من مرة ، ففي عام ١٧ هـ قام أثناء وجوده بالجابية بادخال تعديلات على الجبهات وأحدث تنظيمات جديدة ، فبعدما كان للعراق جبهة واحدة غدا لها جبهتان واحدة مركزها البصرة والأخرى مركزها الكوفة ، والبصرة والكوفة معسكران اتخذا أيام عمر وقد تحولا بسرعة الى مدينتين ، ولقد عدل عمر الفتوح ما بين أهل البصرة والكوفة وجعل لأهل البصرة فتوحات الأراضي التي وقعت الى الشرق من نهر دجلة . وخص أهل الكوفة بأراضي الجزيرة وما والاها في الشمال ، وأقام ولاية جديدة هي ولاية الجزيرة وذلك بالإضافة الى أجناد الشام وولايتي العراق (١) .

وبعدما ولي عثمان الخلافة جمع ولاية الشام لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم زاده بعد ذلك ولاية الجزيرة ملحقاً بهذا ضرراً كبيراً بمصالح جند الكوفة، ولذلك يلاحظ أن معظم الشكاوى التي صدرت عن الجند ضد حكم عثمان جاءت من الكوفة ، وأن الكوفيين كانوا كلما وجدوا الفرصة مناسبة سعوا نحو استرداد الجزيرة ، ومن ثم التفرغ للأمور الأخرى (٢) .

---

(١) - الطبري - المصدر نفسه ج٤ ص ١٦٠ - ١٦٣ - ابن حبيش - المصدر نفسه ج٢ ص ٦٧١ .

(٢) - ابن خياط - المصدر نفسه ج١ ص ١٨١ - ١٩٣ - ابن أعثم - المصدر نفسه ص ٨٢٥ - ٨٨٤ .

=

لسنا بحاجة للبحث في تفاصيل أحداث الفتنة الكبرى ، ومقتل عثمان بن عفان ، والذي يهمنا من الأمر هو أن الكوفيين عندما تضررت مصالحهم المالية والاقتصادية أعلنوا العصيان على عثمان ، فقد روى ابن الأعثم الكوفي في فتوحه أخبار الشكاوى المتواصلة لأهل الكوفة من عمالهم وأن عثمان عين أخيراً سعيد بن العاص والياً عليهم ، وفي أحد الأيام بينما سعيد في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر «وعنده وجوه أهل الكوفة اذ تكلم حسان بن مجروح الذهلي فقال : والله ان سهلنا لخير من جبلنا ، فقال عدي بن حاتم : أجل السهل أكثر براً وخصباً وخيراً ، فقال الأشتر : وغير هذا أيضاً ، السهل أنهاره مطردة ، ونخله باسقات وما من فاكهة ينبتها الجبل إلا والسهل ينبتها ، والجبل خون وعر ، يحفي الحافر ، وصخره يعمي البصر ، ويحبس عن السفر ، وبلدتنا هذه لا نرى فيها ثلجاً ولا قراً شديداً .

قال : فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي - صاحب شرطة سعيد بن العاص : هو لعمري كما تذكرون ، ولوددت أن كله للأمير ولكم أفضل منه ، فقال له الأشتر : يا هذا يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه ، ولا تتمنى له أموالنا فما أقدرك أن تتقرب اليه بغير هذا ؟! فقال عبد الرحمن بن خنيس : وما يضرك من ذلك يا أشتر ، فوالله إن شاء الأمير لكان هذا كله له ، فقال الأشتر : كذبت والله يا بن خنيس ، والله إنه لو رام ذلك لما قدر عليه ، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعاً يذل ويخشع .

قال : فغضب سعيد بن العاص من ذلك ثم قال : لا تغضب يا أشتر فانما السواد كله لقريش ، فما نشاء منه أخذنا ، وما نشاء تركنا ، ولو أن رجلاً قدم فيه رجلاً لم ترجع اليه ، أو قدم فيه يداً لقطعتها ، فقال له الاشتر: أنت تقول هذا أم غيرك ؟ فقال سعيد بن العاص : لا بل أنا أقوله ، فقال الأشتر : أتريد أن تجعل

= - أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري - الأخبار الطوال - ط . القاهرة ١٩٦٠ ص ١٣٩ - ١٤٠ .

- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح - تاريخ اليعقوبي ط . بيروت ١٩٦٠ - ج٢ ص ١٧٢ - ١٧٧ .

مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستانا لك ولقومك ، والله ما يصيبك من العراق إلا ما يصيب كل رجل من المسلمين ، قال : ثم التفت الأشتر الى عبد الرحمن .بن خنيس فقال : وأنت يا عدو الله ممن يزين له رأيه في ظلمنا والتعدي علينا»[1] .

لقد كانت النفوس مشحونة والغضب منتشراً لذلك قاد هذا الحادث الى الشجار وتحول الشجار الى ثورة توجت بحصار عثمان في داره بالمدينة ثم قتله .

ومن جديد نعود الى التأكيد على أنه ليس بين اهتماماتنا هنا الحديث عن مقتل عثمان ولا عما أعقبه من مشاكل ، ويكفي أن نبين أن الخلافة آلت الى علي بن أبي طالب حيث بويع من قبل الثوار وأهل المدينة من المهاجرين والأنصار ، وكان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من بين المبايعين له ، وكانت السيدة عائشة متغيبة عن المدينة في مكة .

وانه لبالغ الأهمية أن نشهد أنه في هذه الآونة وعلى الرغم مما شهدته المدينة أثناء الفتنة الكبرى أن العامل المؤثر في هذه الفتنة والقوى الفعالة فيها قد أتت من خارج المدينة لا بل من خارج شبه الجزيرة ، أتت من بين جنود الأمصار ، ومعنى هذا أن شبه الجزيرة كانت قد فقدت كثيراً من قواها المؤثرة في الأحداث بالنظر لتمركز الجند في خارجها ، وأن أحداث تاريخ الاسلام باتت تصنع خارج شبه الجزيرة وتملي عليها وعلى غيرها .

وكانت أهم معسكرات الجند في أيام عثمان هي معسكرات : الكوفة والبصرة في العراق ، والجابية في الشام ، والفسطاط في مصر ، وكان معسكر الفسطاط بعيد نسبياً ومشغولاً بأعمال الفتوح في الشمال الأفريقي ، وبمشاكل خاصة به ، ورست القوى الفعالة في أيدي جند الجابية والكوفة والبصرة ، وكان جند الكوفة هم الذين أسهموا أكثر من غيرهم في أحداث الفتنة الكبرى ، ولا نكاد نسمع عن دور فعال لجند البصرة ، وكان جند الشام تحت سيطرة معاوية بن أبي سفيان ، وبعد بيعة علي بأمد قصير التحق الزبير وطلحة بعائشة أم المؤمنين في مكة ، وما لبث هؤلاء أن توجهوا نحو البصرة .

---

(١) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٨٢٠ ـ ٨٢١ .

ليس في مصادرنا ما يتحدث عن وجود علاقات مسبقة بين عائشة وأصحابها وأهل البصرة قبل حدوث الفتنة الكبرى وأثناءها ، ونتساءل عن السبب الذي دفع هذه المجموعة الى التوجه الى البصرة بالتحديد .

لربما كانت هناك بعض الاتصالات ، ولربما كان السبب في كون الثوار على عثمان كانوا من جند الكوفة ، ولمعرفة هؤلاء بوجود التنافس الحاد بين جندي البصرة والكوفة .

كان على رأس معاني التحاق الزبير وعائشة وطلحة بالبصرة انشطار ما أطلق عليه اسم حزب آل البيت بشكل علني ، ونشوب صراعات بين أطرافه ، وعلى هذا بات علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس يقفان في جهة والزبير وعائشة في جهة مقابلة ، واضطر علي الآن الى مغادرة المدينة والتوجه الى الكوفة وبذهابه الى الكوفة فقدت المدينة المنورة مكانتها السياسية كعاصمة لدولة المسلمين، وستحاول مراراً - في المستقبل - استرداد هذه المكانة دونما نجاح كما سنرى ، ومع المدينة فقدت شبه جزيرة العرب مكانتها وفعاليتها وباتت المسؤولية عن الاسلام والمسلمين قائمة في الأمصار المفتوحة ، وحاولت أجزاء من شبه الجزيرة لا سيما مكة استرداد مكانتها وفعاليتها لكن بدون جدوى .

وبعدما وصل الامام علي الى الكوفة جرت محاولات للحوار بينه وبين البصريين ، لكن هذه المحاولات أحبطت وآلت الأمور الى الصراع المسلح في معركة الجمل حيث انتصر علي وأسرت عائشة ، وقتل كل من الزبير وطلحة ، لكن عبد الله بن الزبير نجا وظل حياً ، يمثل ما بات يعرف باسم الحزب الزبيري .

لقد دخل معسكر الكوفة معركة الجمل ، وهي أول معارك المسلمين في حروبهم الأهلية ، موحد الأهداف ، وعندما خرج منها منتصراً صار سيداً للسياسة في غالبية بقاع دار الاسلام ، وهنا كانت بداية مشاكل جديدة بالنسبة له ، فقد كان سهلاً - كما يقال - على هذا المعسكر أن يتدخل بالسياسة ، لكن هذا التدخل هيأ السبل أمام السياسة بتياراتها المتباينة أن تلج بين صفوفة مصبوغة بلون عقائدي فعال ، لتمزقه وتبدد قواه وتعطلها عن الحركة الفعالة . فعندما قامت معركة

الجمل حظر الامام علي على أتباعه أخذ الأسرى والغنائم ومنعهم من اعتبار المهزومين كفاراً أو مرتدين ، وبعد العودة من الجمل احتج بعض الجند على هذه الأوامر ولسان حالهم يقول : كيف أبحت لنا الدماء وحظرت علينا الأموال ، وهكذا تفجر بين أهل الكوفة صراع فكري أخذ يطرح مشاكل الكفر والإيمان ونما هذا الصراع بسرعة نمواً خطيراً ، وأسهمت فيه عناصر كثيرة غير عربية [1] .

وبعد الفراغ من معركة الجمل توجه الامام علي بن أبي طالب نحو الشام ليحاول إيجاد حل لموقف معاوية بن أبي سفيان فيها ، وجرت مراسلات طويلة بين الكوفة ودمشق ولكن دونما محصلة نافعة ، وبعد صعوبات جمة تمكن الإمام علي من قيادة أعوانه نحو الشام ، انما يلاحظ أنه لم يتوجه نحو دمشق مباشرة ، بل اتجه نحو منطقة الجزيرة ، ولعل مرد ذلك لارتباط الجزيرة بمصالح الكوفيين المباشرة ، وتمت المواجهة بينه وبين جند الشام بقيادة معاوية في صفين على الفرات ، وفي صفين أقبل معظم جند علي على القتال بنفوس مدبرة ، ولذلك يلاحظ أن صفين شهدت من النقاشات أكثر مما شهدته من القتال ، وانتهى أمر القتال في صفين بدون نتيجة عسكرية حاسمة .

لا علاقة لنا هنا بمسألة شروط إيقاف القتال والتحكيم ، انما يهمنا أن نبين أن القبول بالتحكيم عد سبباً من أسباب الانشقاقات الكبرى ، فعندما عاد الامام علي نحو العراق ، عاد والانقسامات واضحة بين صفوف جيشه ، وتجلى أمر هذه الانقسامات بخروج المحكمة عليه ، أو بعبارة أخرى بقيام حركة الخوارج [1] .

---

(١) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٥٣ . ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ٨٩٢ ـ ٩٣٦ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٤٢٧ ـ ٥٤٣ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٧٨ ـ ١٨٤ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص١٤٤ ـ ١٥٤ .

(٢) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٥٠ ، ١٥٤ ـ ١٥٨ . أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ج٢ ط . ١٩٧٣ ص ٢٩٢ ـ ٣٦٧ . خليفة ج١ ص ٢١٦ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٥٥٢ ـ ٥٧٦ ، ج٥ ص ٥ ـ ٧١ . نصر بن مزاحم المنقري ـ صفين ط. القاهرة ١٣٦٥ هـ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ١٥٢ ـ ٢٠١ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج٢ =

حاول الإمام علي تدارك الأمور ، فخاض ـ كما سنرى ـ الحرب ضد الخوارج ثم سعى ثانية لجمع قواه للزحف ضد معاوية ، لكن الوقت لم يسعفه وعاجلته منيته حيث اغتيل على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي [1] ، وبعد مقتله بويع ابنه الحسن بالخلافة لكنه لم يستطع الحفاظ على السلطة فتنازل لمعاوية بن أبي سفيان الذي صار الآن سيد العالم الاسلامي [2] ، ووصل إلى هذه السيادة وهو ابن سيد عرب الجاهلية ، عن طريق العمل السياسي والقوة العسكرية لا عن طريق المكانة الدينية مخالفاً بذلك سنة قواعد الزعامة مع الاسلام وقبله ، وكان لهذا الوضع ـ الذي يمكن أن نقول عنه «الوضع الشاذ» معظم الآثار على مجريات أحداث العصر الأموي وموقف القوى المعارضة من السلطات الأموية .

= ص ١٨٤ ـ ١٩٣ . ابن الاعثم ـ المصدر نفسه ٩٥٦ ـ ١٢٣٥ . علي بن الحسين المسعودي ـ مروج الذهب ـ ط . القاهرة ١٩٥٨ ج٢ ص ٣٨٤ ـ ٤١٤ .

(١) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٥٤ ـ ١٥٧ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٢٩٢ ـ ٣٦٧ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص ٢١٦ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٥٥٢ ـ ٥٧٦ ج٢ ص ٥ ـ ٧١ ـ الدينوري ـ المصدر نفسه ص ١٥٢ ـ ٢٠١ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج٢ ص ١٨٤ ـ ١٩٣ . ابن أعثم المصدر نفسه ص ٩٥٦ ـ ١٢٤٥ . المسعودي ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٣٨٤ ـ ٤١٤ .

(٢) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٥٧ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٣٦٧ ـ ٤٩٥ . ابن خياط ، المصدر نفسه ج٢ ص ١٩٤ ـ ٢١٥ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢٠٢ ـ ٢٢١ . المسعودي ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤١٥ ـ ٤٣٧ ، ج٣ ص ٤ ـ ١١ .

«الفصل الثاني»

«الخوارج»

«الفصل الثاني»

«الخوارج»

لعل أصعب المشاكل التي تواجه الباحث في تاريخ الخوارج العام هي مشكلة التعرف بصورة علمية محضة الى البداية التي انطلقت منها حركتهم ، ولم ينفرد تاريخ الخوارج بهذا لوحده ، فمثل هذا الأمر يواجهه الباحث في التاريخ الاسلامي ، وربما في غيره ، فلقد جرى المؤرخ المسلم بالعادة على تدوين أخبار جماعة من الجماعات أو قوة من القوى بعد ظهورها على مسرح الأحداث بشكل علني ، ومن ثم كان لزاماً عليه تقصي الأخبار بمحاولة التعرف الى ماضي هذه القوة أو الطائفة في فترة ما قبل الظهور العلني ، وهنا كان الأمر يلتبس على المؤرخ وتتناقض الروايات أمامه وتتعارض بشكل شديد جداً ، ويبقى هذا التناقض ملازماً لهذه القضية ، وهكذا يتسع باب الاجتهاد وتكثر الفرضيات وتتعدد دوماً .

وعلى هذا الأساس اننا ونحن نحاول التعرف الى أصل حركة الخوارج سيكون عملنا اجتهادياً مدعماً بقدر الامكان بالمنطق المستند على المادة الإخبارية المتنوعة وعلى تحليلها بشكل علمي دقيق ، متذكرين أنه بقدر ما هو مهم الوقوف على المواد الاخبارية ، المتنوعة وعلى تحليلها بشكل علمي دقيق ، النظرة الى هذه المواد والتعامل يبقى هو الأهم .

إن أهم ما قيل عن أصل الخوارج هو أن حركتهم قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بجماعات القراء ـ أو كما يقال أحياناً أصحاب البرانس ـ وهي فئات من العرب شغفت شغفاً شديداً بالقرآن الكريم ، وأخذت تتلوه ليلاً نهاراً ، محاولة تمثل ما جاء به ، وقادها هذا نحو التقشف الشديد والزهد في الدنيا والمثالية في المسلك ، وانعدام المرونة ، والاقبال على التعبد ، والتطرف بالرأي الى حد تكفير كل من انحرف ولو قليلاً عن مبادىء الاسلام وعن أحكام القرآن [1] ، ومما لا شك فيه أن هذا المسلك جاء من بعض الجوانب كردات فعل على التبدلات الاجتماعية والاقتصادية التي جاءت اثر الفتوحات العربية الكبرى وبسببها .

وقيل أيضاً ان حركتهم تعود بجذورها الى أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أول أحداثها وقع أيام معارك حصار الطائف اثر معركة حنين ، وفي أثناء توزيع غنائم هذه المعركة حيث آثر النبي صلى الله عليه وسلم بعض زعماء قريش وسادات قبائل العرب ـ ممن أطلق عليهم اسم المؤلفة قلوبهم ـ بجزء خاص من الغنائم والأعطيات وقيل ان هذا لم يرض بعض المسلمين الأوائل واحتجوا عليه علناً [2] .

وفي هذا المقام تربط الاحتجاجات العنيفة بشخصية «حرقوص بن زهير السعدي التميمي» وعلى هذا قيل كان حرقوص بن زهير التميمي من أوائل شخصيات الخوارج في التاريخ الاسلامي [3] .

ستكون هناك عودة نحو مناقشة هذه الرواية ، وقبل الانتقال الى غيرها من المهم التذكير بالأصل القبلي الذي انحدر منه حرقوص بن زهير ، للدور الذي سنراه وقد تولته تميم وشغلته في نشاطات الخوارج في العراق والجزيرة .

---

(١) : انظر نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ط . بيروت ١٩٧٧ ص ٢٩ ـ ٣٤ .

(٢) : محمد بن عمر الواقدي ـ المغازي ـ ط . أكسفورد ١٩٦٦ ج٣ ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩ .
ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ .

(٣) : الواقدي ـ المصدر نفسه ج٣ ص ٦٤٨ ـ ٩٤٩ ـ ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ . أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ الإصابة في تمييز الصحابة ـ ط . القاهرة ١٩٣٩ ج١ ص ٣١٩ .

وهناك من يذهب إلى ربط أصل حركة الخوارج بمتآمر كبير أعلن عن إسلامه أيام أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وسعى إلى تمزيق صفوف المسلمين ، ومن ثم كـــان هـــو وحده وراء حبك عدد كبير من المؤامرات شروعاً بأحداث الفتنة الكبرى التي قادها نحو الانفجار ، ومعروف أن أحداث هذه الفتنة تتوجت بمقتل عثمان بن عفان ، وبدب الفرقة بين صفوف المسلمين وضياع الكلمة والرأي والموقف .

وأكثر من هذا تذهب روايات إلى القول أن هذا المتآمر هو الذي استدرج المسلمين إلى القتال في معركة الجمل ، والمعني بذلك الحرب الأهلية الأولى في تاريخ الاسلام بين جيشي أهل الكوفة والبصرة ، أهل الكوفة يقودهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأهل البصرة تحت لواء عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير .

قيل اسم هذا المتآمر الهائل عبدالله بن سبأ ، وقيل كان يهودي الأصل من أهل صنعاء ، وكان ابن أمة سوداء ، لذلك كثيراً ما أطلق عليه اسم «ابن السوداء» ، ويهودية ابن سبأ تعني أنه ملك الضغينة ضد الإسلام والرغبة بالانتقام من المسلمين ، ونظراً لانتشار الفئات اليهودية في ديار المسلمين سهل عليه التحرك بسرعة وبراعة وتوفيق[1] .

وفي الوقت نفسه تذهب روايات إلى ربط حركة الخوارج ببعض عناصر الردة ، لا سيما اليمانية منها التي أذن لها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمشاركة بالفتوحات أثناء الاستنفار الكبير الذي جرى اثر معركة الجسر ، وخلال الاستعدادات الكبرى لمعركة القادسية[2] .

بعد عرض هذه الآراء من المفيد أن ننوه أولاً : أن حركة الخوارج كانت عراقية محضة من حيث البدايات ، وصحيح أن بعض رجالاتها الأوائل كانوا من القراء وأهل البرانس فهذا لا يكفي ليتخذ دليلاً على القول أن حركة الخوارج نبعت من بين صفوف القراء وأهل البرانس ، فقد كانت بلاد الشام تعج بالقراء وأهل البرانس ، فنحن نقرأ عند نصر بن مزاحم في كتابه صفين :

---

(١) : معروف ـ المرجع نفسه ص ٣٥ ـ ٥٩

(٢) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .

«لما قدم علي بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة .. استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرافهم[1]» .

ونقرأ في هذا المصدر القديم نفسه أيضاً أنه عندما جرى الاتفاق على إيقاف القتال في صفين :

«بعث علي قراء من أهل العراق ، وبعث معاوية قراء من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصفين ومعهم المصحف ، فنظروا فيه وتدارسوه وأجمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ، وأن يميتوا ما أمات القرآن ، ثم رجع كل فريق إلى أصحابه وقال الناس : قد رضينا بحكم القرآن[2]» .

والمستعرض لرواية وقائع صفين كما رواها بشكل مفصل نصر بن مزاحم يجد ذكر القراء وأهل البرانس أمامه مراراً وتكراراً ، فقد جاء أنه عندما تردد الإمام علي بن أبي طالب بالقبول بإيقاف القتال :

«جاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد ، شاكي السلاح ، سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين : يا علي أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان»[3] .

وإذا قبلنا بالروايات التي قدرت تعداد جيش علي يوم صفين بستين ألفاً فهذا يعني أن ثلث جيشه كان مقاداً من قبل طائفة القراء ، وأن أبرز زعماء هذه الطائفة : «مسعر بن فدكي» وكان من قبيلة تميم[4] و«زيد بن الحصين» وكان من قبيلة طيء[5] وأن لهذه الطائفة علاقة مباشرة بمقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان ابن عفان ومن الممكن التساؤل هنا : هل شكل القراء من أهل العراق تكتلاً سياسياً له أهدافه وتنظيماته ؟ يبدو أن شيئاً من هذا القبيل لم يوجد ، وكل ما في

---

(١) : نصر بن مزاحم المنقري ـ صفين ط . القاهرة ١٣٦٥ ص ٣ .
(٢) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٤٩٩ .
(٣) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٤٨٩ .
(٤) : علي بن أحمد بن حزم ـ جمهرة أنساب العرب ط . القاهرة ١٩٦٢ ص ٢١٧ .
(٥) : محمد بن الحسن بن دريد ـ الاشتقاق ط . القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٩١ .

الأمر أن الناس ملوا القتال في صفين ، ورأوه بلا نتائج حاسمة ، وأنه محصور في إطار الصراعات القرشية الداخلية على السلطة وموجه لخدمة مآربها ، وأنهم وجدوا الفرصة المناسبة لإيقاف القتال ، ولذلك تجمهر جزء كبير من جيش علي بتحريض من أبرز شخصيات القراء الذين رأوا الأمور على جليتها ، فتوجهوا نحو الإمام علي لإجباره على القبول بوقف القتال .

لقد ذهبنا إلى هذا لأنه يستدل من مواد نصر بن مزاحم ومواد غيره ممن أرخ لصفين ومن خلال التعرف إلى نسب أبرز الزعماء أن القراء والذين تجمهروا لم يكونوا أفراد قبيلة واحدة أو جمهرة من القبائل المتحالفة بل أنهم تجمعوا من بين جميع أوساط الجيش ، ولقد تجمعوا لأنهم ملوا من هدر الدماء لغير صالح الإسلام والمسلمين ، وعلى هذا جاء تجمهرهم بمثابة ردات فعل ، ولم يكن مطلقاً نتيجة عمل منظم أو مؤامرات خفية حاكها ابن سبأ أو غيره[1] .

وما دام هؤلاء قد صرحوا بعلاقتهم بمقتل عثمان بن عفان ، فمن المرجح والحالة هذه أنهم كانوا من أهل الكوفة ، ولم يكونوا بصريين ، وهنا نجد لزاماً علينا التوقف قليلاً لنعود إلى الخلف بعض الشيء لنرى متفحصين كيف حدثت الفتنة الكبرى ، وما هي الدوافع التي حرضت الكوفيين ودفعتهم للثورة على عثمان ابن عفان .

ذهبت بعض روايات المؤرخين إلى القول أن الذي حرض على الفتنة ضد عثمان هو عبدالله بن سبأ ، ولخص مرتضى العسكري ما قيل عن عبدالله ابن سبأ بالكلمات التالية :

«إن يهوديا من صنعاء اليمن أظهر الإسلام في عصر عثمان ، واندس بين المسلمين ، وأخذ يتنقل بين حواضرهم وعواصم بلادهم : الشام ، الكوفة ، البصرة ومصر ، مبشراً بأن للنبي محمد صلى الله عليه وسلم رجعة كما أن لعيسى ابن مريم رجعة ، وأن عليا هو وصي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان لكل نبي وصي ، وأن عليا خاتم الأوصياء ، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم

---

(١) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه : ٤٨٢ ـ ٥٦١ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٠٦٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٢٥ .

الأنبياء وأن عثمان غاصب حق هذا الوصي وظالمه ، فيجب مناهضته لإرجاع الحق إلى أهله .

وقد سموا بطل قصتهم عبدالله بن سبأ ، ولقبوه ابن الأمة السوداء ، وزعموا أن عبدالله بن سبأ هذا بث في البلاد الاسلامية دعاته وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والطعن بالأمراء ، فمال اليه وتبعه على ذلك جماعات من المسلمين ، منهم الصحابي الكبير ، والتابع الصالح من أمثال أبي ذر ، وعمار بن ياسر»[1] .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن ما قيل عن دور ابن سبأ هنا ، وما جاء حول عقيدته ، وما بشر به يتوافق مع ما قيل عن نشأة التشيع ، وهذا أمر سنقف عليه في المستقبل في فصل خاص ، وهو على كل حال بعيد كل البعد عما نادى به الخوارج وذهبوا اليه ، حيث لا يمكن القبول بفكرة الأصل الواحد لكل من حركتي الشيعة والخوارج .

وقبل أن نتفحص بشكل علمي دقيق أهم الأسباب التي أثارت أهل الكوفة وأثارت أبا ذر الغفاري ضد عثمان ، من المهم جداً أن نبين أن نصر بن مزاحم صاحب أقدم مجموعة من الروايات وصلتنا عن معركة صفين ومعه ابن الأعثم الكوفي ، وهو أقدم مؤرخ معروف ـ حتى الآن ـ أنتجته الكوفة ، فقد كان عربياً من قبيلة كندة ، كما كان مثله مثل نصر من شيعة أهل البيت المعتدلين .

إن هذين المؤرخين لم يأتيا على ذكر شخصية «عبدالله بن سبأ» أو على ذكر شخصية أخرى حملت المواصفات ذاتها ، أضف إلى هذا أن أقدم الروايات حول وصاية علي رواها ابن اسحق في سيرته عن طريق سلمان الفارسي ، ولا أثر لعبدالله ابن سبأ هنا قال ابن اسحق :

«عن عبيد بن عتيبة العيذي عن وهب بن كعب بن عبدالله بن سور الأزدي عن سلمان الفارسي أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنه ليس من نبي إلا وله وصي وسبطان ، فمن وصيك وسبطاك ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم ولم يرجع شيئاً ، فانصرف سلمان يقول : يا ويله ، يا ويله كلما لقيه

---

(١) : مرتضى العسكري ـ عبدالله بن سبأ ، المدخل ، ط . القاهرة ١٣٨١ ص ٦ ـ ٧ .

ناس من المسلمين قالوا : ما لك سلمان الخير؟ فيقول سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فلم يرد علي ، فخفت أن يكون من غضب ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قال : ادن سلمان ، فجعل يدنو ويقول : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسول الله فقال : سألتني عن شيء لم يأتني فيه أمر ، وقد أتاني أن الله عز وجل قد بعث أربعة آلاف نبي ، وكان أربعة آلاف وصي وثمانية آلاف سبط ، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبين ، وأن وصيي لخير الوصيين ، وسبطاي خير الأسباط[1]» .

إن إنعدام الإشارات إلى ابن السوداء في المصادر المبكرة يرجح أن عبدالله بن سبأ شخصية مخترعة لا وجود لها في التاريخ ، لكن إذا لم يكن لها وجود تاريخي لماذا اخترعوها بهذا الشكل ، وما هو سبب الاختراع هذا وما هي فائدته ؟

يرجح أنها اخترعت من قبل الرواة المتأخرين عن القرن الثاني للهجرة ، الرواة الذين اعتادوا على أن يعزوا كل قضية من القضايا العقائدية المتطرفة إلى متآمر ومؤامرة وتدبير خفي من قبل يهودي أو مجوسي أو زنديق أو موتور .

لم ترتبط أحداث الفتنة الكبرى وأسبابها بمؤامرة من المؤامرات ، ولم يكن لعناصر مدسوسة أو غريبة فيها أدنى دور ، ان جذورها مغروسة في تربة الكوفة التي شكا سكانها منذ أيام تأسيسها من سوء الادارة المالية ومن الجور في التوزيع واستغلال الموارد من قبل الولاة ، ففي الوقت الذي أخذ فيه المسلمون أيام عمر بن الخطاب يعدون العدة لخوض معركة نهاوند الفاصلة ثار بسعد بن أبي وقاص والي الكوفة ناس من أهلها وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ، ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك ، وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدي في نفر ، فقال عمر رحمه الله : ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ، وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيها لديكم ، وان نزلوا بكم ، فبعث عمر محمد بن مسلمة ـ والناس في الاستعداد للأعاجم ، والأعاجم في الاجتماع ، وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شكا زمان عمر ، فقدم محمد على سعد ليطوف به على

---

(١) : محمد بن اسحق المطلبي ـ السير والمغازي ط . بيروت ١٩٧٨ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

أهل الكوفة ، ولا يتعرض للمسألة عنه في السر ، وليست المسألة عنه في السر من شأنهم إذ ذاك ، فكان لا يقف على مسجد يسألهم عن سعد إلّا قالوا : لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهي به بدلاً ، ولا يقول فيه ولا يعين عليه إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه ، فإنهم كانوا يسكتون لا يقولون شراً ولا يسوغ لهم ، ويتعمدون ترك الثناء حتى انتهوا الى بني عبس .

فقال محمد : أنشد بالله رجلاً يعلم حقاً إلا قال . قال أسامة بن قتادة : اللهم إذ أنشدتنا ، فإنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في الرعية ، ولا يغزو في السرية[1]» .

واستطاع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يعالج المسألة فعزل سعداً عن ولاية الكوفة ، وانشغل الناس مجدداً بأعمال الفتوحات ، لكن ما لبثت الأمور أن عادت سيرتها الاولى وتجددت أعمال الشكوى حتى وصلت الى درجة الانفجار في أواخر أيام عمر بن الخطاب ، فقد روى البلاذري عن المدائني أن رجلاً اسمه أبو المختار يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق بعث الى عمر بن الخطاب يقول :

«أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فأنت أمين الله في النهى والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن ... أمينا لرب العرش يسلم له صدري
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى ... يسيغون مال الله في الآدم الوفر
فأرسل الى الحجاج فاعرف حسابه ... وأرسل الى جزء وأرسل الى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما ... ولا ابن غلاب من سراة بني نصر
وما عاصم منها بصفر عيابه ... وذاك الذي في السوق مولى بني بدر
وأرسل الى النعمان واعرف حسابه ... وصهر بني غزوان اني لذو خبر
وشبلا فسله المال وابن محرش ... فقد كان في أهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم أهلي فداؤك انهم ... سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعوني للشهادة انني ... أغيب ولكني أرى عجب الدهر

(١) الطبري : المصدر نفسه ج٤ ص٢٥١ - ٢٥٢ . ابن حبيش ، المصدر نفسه ص٧٠٩ - ٧١٠ .

نؤوب إذا آبوا ونغزوا إذا غزوا فأنا لهم وفر ولسنا أولي وفر
إذا التاجر الداري جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري

فقاسم عمر هؤلاء الذين ذكرهم أبو المختار شطر أموالهم حتى أخذ نعلاً وترك نعلاً ، وكان فيهم أبو بكرة ، فقال : اني لم أل لك شيئاً ، فقال له : أخوك على بيت المال وعشور الأبلة وهو يعطيك المال تتجر به ، فأخذ منه عشرة آلاف» ، وبعد هذا ذكر البلاذري أسماء الولايات التي كانت تحت امرة الذين ورد ذكرهم في هذه القصيدة[1] .

واستفحلت هذه الأمور أيام حكم عثمان بن عفان بعد عمر ولم يستطع هذا الخليفة تدارك الأمور ومعالجة الداء مما سبب انفجار الوضع وحدوث الفتنة الكبرى، وفي الحقيقة لم تكن أحداث الفتنة الكبرى مرتبطة بمؤامرة من المؤامرات اللااسلامية بل ارتبطت بالسياسة المالية للدولة أيام عثمان بن عفان وبتجاوزات العمال وسوء الادارة واستغلال الموارد العامة من قبل آل الخليفة وأقربائه من بني أمية، الذين سلطهم على الولايات والأعمال مع أمور دينية اخرى مثل ما جاء حول جمعه للقرآن الكريم ، وبعض التعديلات الفقهية وسواها[2] .

وسنرى ان الذين تولوا الثورة على عثمان بن عفان وقتلوه لم يكن لهم أدنى علاقة بالاحتجاج حول القرآن الكريم والأمور الدينية الاخرى ، فقد غضبوا من الخليفة وثاروا عليه وعلى عماله لأسباب ارتبطت بمصالحهم المالية .

عندما أذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بانشاء البصرة والكوفة وتمصيرهما جعل الجزيرة وفتوحاتها تابعة للكوفة وأفرد بالوقت نفسه الجزيرة وجعلها ولاية خاصة ، وبعدما آلت الخلافة الى عثمان جمع أجناد الشام وأفردها ولاية واحدة أسندها لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم تبع ذلك بالحاق ولاية الجزيرة به[3] ، ومثل هذا

---

(١) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ كتاب البلدان ـ ط . بيروت ١٩٨٨ ص٢٩٤٢ ـ ٢٩٤٣ .
(٢) الطبري ، المصدر نفسه ج٤ ص٣٣٠ ـ ٤٢٦ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص١٨١ ـ ١٩٣ .
(٣) الطبري ، المصدر نفسه ج٤ ص٢٨٨ ـ ٢٩٠ ـ ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص١٩٥ .

الاجراء أقسى ضربة عرفها عرب الكوفة حتى الآن ، وسنلاحظ بشكل واضح قيام عثمان بنفي قادة الاضطرابات في الكوفة الى الشام ، وأهم من هذا ان الكوفيين كانوا في كل مرة يثورون فيها يتخذون أول اجراء عسكري بالتوجه نحو الجزيرة واستردادها ، وهذا ما سنراه مع الأشتر عندما قاد الكوفيين ضد عثمان ، وسنراه أيضاً في توجه جيوش علي بن أبي طالب لقتال جيوش معاوية في أرض الجزيرة وفي الحاح الكوفيين على أبي موسى الأشعري عندما ذهب للتحكيم في أن يحرص كل الحرص على مصالح أهل العراق ، والمعني بذلك أهل الكوفة ، وقد عبر عن هذا الأحنف بن قيس بقوله يخاطب أبا موسى :

«يا أبا موسىٰ اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده ، وأنك إن أضعت العراق فلا عراق» .

وجاء هذا الكلام منظوماً على لسان الشاعر الشني :

أبــا مـوسى جــزاك الله خيـراً   عراقك إن حظك في العراق[1]

وسنلاحظه أيضاً مع العمليات العسكرية للتوابين ومعركة عين الوردة ثم مع ثورة المختار ، فهو قد قام بعد استيلائه على الكوفة بارسال ابراهيم الأشتر نحو الجزيرة لاستردادها .

وارتبطت مصالح الكوفيين أيضاً بسواد الكوفة في العراق وبفيء جبهتهم وغنائمها ، ففي أيام الخليفة عثمان لم يكتف الولاة من بني أمية بحرمانهم من الجزيرة ، بل حاولوا حرمانهم من سوادهم ومن فيئهم ، ونقرأ عند المؤرخ الكوفي بن الأعثم الكندي تفاصيل رائعة حول هذا الموضوع جديرة أن تروى وتستغل أكثر من مرة قال ابن الأعثم :

«لما صار الأمر الى عثمان بن عفان ، واجتمع اليه الناس أرسل الى عمال عمر بن الخطاب فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم انه بعث اليهم فعزلهم عن الأعمال ، وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية فولاهم الولايات ، فولى :

---

(١) ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص٥٣٦ ـ ٥٣٧ .

عبد الله بن عامر بن كريز البصرة
وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة
وأثبت معاوية بن أبي سفيان على الشام
وعمرو بن العاص على فلسطين
وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر

.. وقال : ثم كثر المال عليه ، فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطاء ، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم . قال : .ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، فوصله بثلاثمائة ألف درهم ، ثم بعث الى الحكم بن أبي العاص فرده الى المدينة ـ وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين ، وجعل له خمس افريقية ، وجعل ابنه الحارث بن الحكم على سوق المدينة ، ووصل ابنه بمال جليل .

قال : فكبر ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكرهوا ذلك من فعله»[1] .

وعاتب بعض الصحابة عثمان لكن ذلك لم يفد فتهددوه بالعزل لا بل بالقتل ، وأمام هذا المستجدات ، دعا الى اجتماع الناس في المسجد ، ووقف يخطبهم ، وفي البداية ذكرهم بنعمة الله عليهم بالاسلام ، وحذرهم الفتنة ثم خلص الى القول :

«وقد بلغني أن قوماً منكم يقولون لو أن أمير المؤمنين فرق هذا المال في المقاتلة والذرية الذين في الأمصار لكان ذلك أعود عليه وعلينا ، وأقرب له الى الله عز وجل ، وقد قبلت ذلك منكم ، وأنا باعث الى كل مصر أن تقسم أمواله بين أهله بالسوية إن شاء الله تعالى ، فإن فضل منه شيء صرفناه في نوائبنا التي تنزل بنا ، ونجعله في ضعفاء العرب ، ومساكينهم وأيتامهم وأراملهم ان شاء الله تعالى ، وأنا

(١) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص٨٠٥ ـ ٨٠٦ .

جالس لكم في كل وقت أنظر في أموركم ، وليس لي حجاب ولا بواب ، ولا باب يغلق من دونكم[1]» .

لكن هذه السياسة لم تنفذ فتدهورت الأمور مجدداً ، وهنا اصطدم عثمان بعدد من الصحابة منهم عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري ، فقد أمر عثمان غلمانه بضرب عمار فضربوه شديداً حتى وقع لجنبه ، ثم تقدم اليه عثمان ، فوطىء بطنه ومذاكيره حتى غشي عليه ، وأصابه الفتق[2] ولحق بأبي ذر المضار الشديدة وتعرض للنفي الى الربذة حيث توفي[3] .

ولم يكن أهل المدينة أيام عثمان يمتلكون القدرة العسكرية الكافية للإطاحة بعثمان والثورة عليه ، ثم انهم لم يصابوا بالضرر مباشرة من سياسته ، فالأموال المجلوبة من الأمصار كانت تنفق في مدينتهم ، وعلى هذا جاءت معارضتهم لعثمان تعاطفاً مع مشاكل غيرهم مع مطامع لدى بعض قياداتهم .

واختلف الوضع تماماً بالكوفة ، ولذلك عندما لحق الضرر بأهل هذه المدينة بشكل جلي ثاروا على عثمان ، ذلك انهم ملكوا امكانات الثورة والقدرة على التغيير ، فقد كان في الكوفة أعداد كبيرة من الجند حيث يمكن القول ان جند الاسلام في المشرق توزع آنذاك بين الكوفة والبصرة والشام .

وحدثنا ابن الأعثم الكوفي عما شهدته الكوفة من أحداث ، وأن وفداً من أهل الكوفة توجه الى المدينة يطلب عزل الوليد بن عقبة ، فعزله عثمان وعين بدلاً عنه سعيد بن العاص ، لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فالقضية تعلقت بالسياسة لا بالأفراد ، وبالقناعات التي تكونت عند القرشيين سياسياً وسلطوياً ، وهكذا اصطدم الوالي الجديد بسكان المدينة ، ولنستمع مجدداً الى ابن الأعثم :

«قال : فبينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة ، وقت صلاة العصر ، وعنده وجوه أهل الكوفة ، إذ تكلم حسان بن مجروح الذهلي فقال :

---

(١) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه : ص٨٠٧ ـ ٨٠٨ .

(٢) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه : ص٨٠٨ ـ ٨٠٩ .

(٣) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه : ص٨٠٩ ـ ٨١٤ .

والله إن سهلنا لخير من جبلنا ، فقال عدي بن حاتم : أجل السهل أكثر براً وخصباً وخيراً . .

قال : فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي ـ صاحب شرطة سعيد بن العاص ـ : هو لعمري كما تذكرون ، ولوددت أنه كله للأمير ولكم أفضل منه ، فقال له الأشتر : يا هذا يجب عليك ان تتمنى للأمير أفضل منه ، ولا تتمنى له أموالنا ، فما أقدرك ان تتقرب اليه بغير هذا ؟! فقال عبد الرحمن بن خنيس : وما يضرك من ذلك يا أشتر ، فوالله ان شاء الأمير لكان هذا كله له ، فقال له الأشتر : كذبت والله يا بن خنيس ، والله انه لو رام ذلك لما قدر عليه ، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعاً يذل ويخشع .

قال : فغضب سعيد بن العاص من ذلك ، ثم قال : لا تغضب يا أشتر فإنما السواد كله لقريش ، فما نشاء منه أخذنا ، وما نشاء تركنا ، ولو أن رجلاً قدم فيه رجلاً لم ترجع اليه ، وقدم فيه يداً لقطعتها ، فقال له الأشتر : أنت تقول هذا أم غيرك ؟ فقال سعيد بن العاص : لا بل أنا أقوله ، فقال الأشتر : أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستاناً لك ولقومك ؟ والله ما يصيبك من العراق إلا ما يصيب كل رجل من المسلمين[1]» .

ليس من أهدافنا هنا الخوض في تفاصيل أحداث الفتنة الكبرى ، بل كل ما نريده القول : ان الكوفيين حين ثاروا على عثمان بن عفان وقتلوه كان محرضهم الأول والأعظم «السواد بستان قريش[2]» .

فالفتنة الكبرى تفجرت أحداثها لأسباب اقتصادية محضة كانت قديمة الجذور ، وما نسب الى ابن سبأ ما هو على هذا إلا من نسج الخيال ، كما أن المسلمين لم يكونوا قد دخلوا بعد مرحلة الجدل الديني ، فهذا قد حدث فيما بعد ، لربما بعد نهاية العصر السفياني في تاريخ الدولة الأموية .

هذا وتعزو بعض المصادر قيام أحداث الفتنة الكبرى ومن بعدها خروج الخوارج الى «التركيبة النفسية والطباع» لدى بعض العناصر العربية ، فقد جاء في

(١) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه : ٨١٩ ـ ٨٢٠ .

(٢) ابن الأعثم ـ المصدر نفسه : ص٨٢٠ ـ ٨٢١ .

المصادر أنه في أثناء استنفار عمر بن الخطاب العرب للتوجه الى العراق أثناء التحضير للقادسية ، مرت به جماعة من قبائل اليمن من كندة وسواها ، فنظر اليها طويلاً ، حتى أنه أراد أن يردها الى ديارها خشية احداثها للفتنة [1] .

ومرة أخرى يمكن أن نلاحظ العناصر اليمنية في الكوفة كانت أقل عدداً من العناصر اليمانية في جيش معاوية ، وأنه أثناء القتال في صفين كان أفراد من العشيرة الواحدة يحارب بعضهم بعضاً ، هؤلاء في صف علي وأولئك في صف معاوية ، لا بل حدث في بعض الأحيان أن كان الأب في صف معاوية والابن في صف علي [2] ، فعلى هذا مرفوضة هذه الرواية ، لأن ما من أحد من العناصر اليمانية الشامية شارك في الخروج ، ويمكن أن نقول انها مخترعة نشأت في ظل ما شهده العصر الأموي من صراعات اقليمية وعصبيات قبلية .

ونضيف الى هذا كله أن عمر بن الخطاب ملك الحزم والقدرة على اتخاذ القرار لكنه لم يكن يعلم الغيب ، ولم يحكم قط على أحد من خلال مظهره العام أو شكله ، وأهم من هذا أن الذين خرجوا أولاً أيام صفين لم يكونوا يمانيين بل كانوا من قبائل أخرى على رأسها تميم ، ويدعم هذا مجددا ما ذهبنا اليه من أن المسألة ارتبطت جذورها بما عاناه مجتمع الكوفة من مشاكل اقتصادية .

ان مصرع الخليفة عثمان بن عفان وبيعة الامام علي بالخلافة لم تمكن الثوار الكوفيين من حل مشاكلهم الاقتصادية ، وتأمين مصالحهم وصيانتها ، لأن العمل الاقليمي غالباً ما يقود الى ردات فعل اقليمية على صعيد الأمة الواحدة ويؤدي الى التفكك والتمزق وربما الحرب الأهلية .

وهكذا خاض أهل الكوفة بعد بيعة الامام علي مباشرة غمار معركة الجمل ضد أهل البصرة ، ثم ما لبثوا أن خاضوا لجج معركة صفين ، وحين صعب الموقف العسكري وتأزم بلا نتائج حاسمة ، وعظمت الخسائر البشرية واتضح للكثيرين أنهم يقاتلون لا دفاعاً عن الاسلام بل انهم قد تورطوا في النزاعات

---

(١) - ابن حبيش - المصدر نفسه ج٢ ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٢) - ابن الأعثم - المصدر نفسه ص ١١١٢ - ١١١٣ .

القرشية على السلطة بين بني هاشم وبني أمية التي تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام ، هنا علت الأصوات من الجانبين تنادي بضرورة إيقاف هذه المذبحة «وجعل المشايخ من أهل الشام ينادون في تلك الغمرات : يا قوم الله ، الله في البقية ، الله ، الله في الحرم والذرية . . ثم أتوا بالمصحف الأعظم ، وهو مصحف عثمان بن عفان فربطوه على أربعة رماح ، ثم رفعوه ونادوا : يا أهل العراق هذا كتاب الله بيننا وبينكم . . وجعل رجل ينادي بأعلى صوته وهو يقول شعرا :

أهل العراق أجيبوا الدعا فقد بلغت غاية الشدة
وقد أودت الحرب بالعالمين وأهل الحفائظ والنجدة
فلسنا ولستم من المشركين ولا المجمعين على الردة»[1]

واستجاب الامام علي بعد ضغوط شديدة لنداء وقف القتال ، وجاءت الضغوط من قادة العشائر،وقيل أنه بينما كان مترددا حول الاستجابة جاءه «زهاء عن عشرين ألفا مقنعين في الحديد شاثلين سيوفهم على عواتقهم ، قد اسودت الدنيا حولهم من كثرة الغبار ، ومعهم عصابة من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج ، فقال له رجل منهم : يا علي أنت تعلم اننا انما قتلنا عثمان بن عفان حين غلبنا وأبى علينا أن يعمل بما في كتاب الله ، أو يجيب اليه ، أجب القوم الى ما دعوك اليه من كتاب الله ، قد أنصفوك ، والا والله دفعناك اليهم برغمك ، أو قتلناك كما قتلنا عثمان بن عفان ، والله لنفعلنها بك ، ان لم تجب القوم الى كتاب الله[2]» .

ورأى الامام علي بوادر الفتنة بين صفوف قواته فاضطر الى الاستجابة وأعلن عن القبول بإيقاف القتال وأنه «ليس مع كتاب الله أمر ، ولا مع حكمه حكم . . وأنا أحب أن أحيي ما أحيا القرآن وأميت ما أمات القرآن[3]» .

ثم كتب الى معاوية رسالة كان مما قاله فيها : «وقد أجبنا القرآن الى حكمه ، ولسنا إياك أجبنا، فبيننا وبينك حكم القرآن ، ومن لم يرض بالقرآن فقد ضل

---

(١) ـ ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢١٤ ـ ١٢١٥ .
(٢) ـ ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢١٨ . ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٥٤٦ ـ ٥٥١ .
(٣) ـ ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٢١ . ابن مزاحم المصدر نفسه ص ٥٥١ ـ ٥٦٨ .

ضلالا مبينا» فأجابه معاوية برسالة كان مما جاء فيها : «وعلمت أنه لايجمعنا وإياكم على الحق إلا القرآن نحيي ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن»[1] .

ويروى أن الدعوة الى تحكيم القرآن جاءت دعوة مدروسة من قبل الجانب الشامي ، لكن الاستجابة العراقية كانت انفعالية جاءت بمثابة ردة فعل عاطفية ولذلك ظل الجانب الشامي متمكناً من التحكم بمبادرته ، في حين أفلت الزمام من يد الإمام علي منذ اللحظة الأولى .

وبعد إيقاف القتال «اجتمع قراء أهل العراق وقراء أهل الشام بين العسكرين ، ومعهم المصحف ، فنظروا فيه ، وتدارسوه واجتمعوا على ما فيه ، أن يحيوا ما أحيا القرآن ، وأن يميتوا ما أمات القرآن[2]» .

وتم الاتفاق على إيقاف القتال لمدة سنة ، واختيار حكمين يمثل كل واحد منهما طرفا من الطرفين المتنازعين «فقال أهل الشام : قد رضينا بعمرو بن العاص . وقال الأشعث بن قيس والذين صاروا خوارج بعد ذلك : فاننا قد رضينا بأبي موسى الأشعري ، فانه وافد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، وصاحب مقاسم أبي بكر ، وعامل عمر بن الخطاب ، فقال علي رضي الله عنه : ولكني لا أرضى أبا موسى ، ولا أوليه هذا الأمر ، فقال الأشعث بن قيس وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي وعبد الله بن الكواء : فاننا لا نرضى إلا به ، لأنه كان حذرنا ما وقعنا فيه ، فقال علي رضي الله عنه : فانه ليس لي برضى ، وقد كان فارقني وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمنته بعد أشهر ، ولكن هذا عبد الله بن عباس قد جعلته حكماً لي .

فقال القوم : والله لا نبالي أنت كنت ، أو ابن عباس ، إلا اننا لا نريد رجلاً هو منك وأنت منه[3]» .

واضطر الامام علي الى الاستجابة ، ذلك أنه منذ أن استجاب لمطلب وقف القتال فقد زمام السيطرة على الأمور سيطرة مطلقة ، واحتدمت المناقشات وسط

---

(١) - ابن الأعثم - المصدر نفسه ص ١٢٢٥ .
(٢) - ابن الأعثم - المصدر نفسه ص ١٢٢٦ .
(٣) - ابن مزاحم - المصدر نفسه ص ٥٨٧ .

معسكره ، وتباينت الآراء والمواقف ودبت الفرقة ، وبعد مراجعة سريعة لمعاني قرار إيقاف القتال ، وجد الذين تحمسوا أكثر من سواهم لهذا القرار أنهم تسرعوا كثيراً وأن إيقاف القتال حمل في طياته معاني أو بشائر النصر لمعاوية ، وكان هذا يعني تهديد مصالحهم بشكل أعظم من ذي قبل ، لذلك أعلنوا توبتهم وطالبوا باستئناف القتال ، ومجددا ضغطوا على الامام علي حتى يستأنف القتال ، لا بل أن يعلن التوبة ، فرفض ولم ينحن أمام الضغط والتهديد ، فما كان من قسم كبير من المتشددين منهم إلا أن أعلنوا التمرد عليه .

وفي الحقيقة رفض فكرة التحكيم الفئات الأعظم شأناً في جيش علي فهذا الأشتر النخعي قال لما دعي للتوقيع على صحيفة التحكيم : «لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال أن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة ، أو لست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي[1]» .

لقد تناول الأشعث بن قيس ، وكان من أبرزها زعماء كندة ، «كتاب التحكيم» ثم مر به على صفوف أهل العراق وراياتهم يعرضه عليهم ، حتى مر برايات عنزة ، وكان مع علي من عنزة بصفين أربعة آلاف مجفف ، فلما مر بهم الأشعث فقرأه عليهم قال فتيان منهم : لا حكم إلا الله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما فقاتلا حتى قُتلا على باب رواق معاوية ، وهما أول من حكم ، واسماهما معدان وجعد ، أخوان .

ثم مر به على مراد فقال صالح بن شقيق ، وكان من رؤسائهم :

ما لعلي في الدماء قد حكم   لو قاتل الأحزاب يوما ما ظلم

لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ، ثم مرّ على رايات بني راسب ، فقرأه عليهم فقالوا : لا حكم إلا لله ، لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله .

---

(١) ـ ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ـ ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩ . ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢١٨ ـ ١٢٢٦ .

ثم مر على رايات بني تميم ، فقرأه عليهم فقال رجل منهم : لا حكم إلا لله بالحق وهو خير الفاصلين . . . . . . وخرج عروة بن أدية التميمي فقال : ون الرجال في أمر الله ، لا حكم إلا لله»[1] .

وسنجد بعد قليل أن أول إمام للخوارج كان من بني راسب ، وأن الذي الإمام علي كان من بني مراد وان قبيلة تميم احتضنت دعوة الخوارج حتى تجعلها تميمية محضة .

لقد كان المتمردون بالأصل يعادون أهل الشام ، وباتوا الآن أعداء لأهل ، وعندما عادوا الى العراق مع جيش علي عادوا وهم يتخاصمون طوال ن ويتشاجرون مما زاد من عزلتهم وتميزهم وتكتلهم[2] .

ودخل الذين حافظوا على طاعتهم الى مدينة الكوفة وتوجه البصريون الى ة ، أما هؤلاء فبحثوا عن مكان خاص به يتجمعون به ، فكان أن وقع هم على مكان اسمه حروراء على ميلين من الكوفة[3] ، ومن المرجح أن م الجديدة قد فرضت عليهم تنظيم أنفسهم وتدبر شؤونهم ، فكان أن وقع هم على عبد الله بن وهب الراسبي ليتولى امامتهم ، ومعنى ذلك أنهم لم تقديم الطاعة لعروة بن أدية والحصين بن زيد .

كان الشعار الذي أطلقه هؤلاء وسواهم قبيل وقف القتال «الحكم لله» لكن رفض الامام علي الانصياع لهم والاستجابة لمطالبهم باستئناف القتال بات م «الحكم لله لا لك يا علي» .

من الخروج على الامام علي ، وهذا الشعار ثم الاجتماع بحروراء نالت ة أسماءها التي لازمتها وهي : المحكمة والخوارج والحرورية ، وكان اسم ج هو الأكثر رواجاً والأعم شهرة ، ومع أن هذا الاسم نبذوا به ، فقد نهم من قال فيها بعد : انهم خرجوا عن جادة الضلالة الى جادة الصواب .

ن مزاحم ـ المصدر نفسه : ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩ . ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢١٨ ـ ١٢٢ .

بن الأعثم ـ المصدر نفسه ١٢٢٩ ـ ١٢٣٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٦٣ .

اقوت بن عبد الله الحموي ـ معجم البلدان ـ ط . دار صادر ـ بيروت مادة حروراء .

لا شك أن تعدد الأسماء، وصدورها عن الوقائع فيه دليل على انعدام التحضير المسبق، وأنها أطلقت على الطائفة الجديدة من قبل خصومها، ولاريب أن هؤلاء الخصوم لو عرفوا بوجود أدنى صلة بمؤامرة أو متآمرين لنبذوهم باسم صادر عن المؤامرة أو عن رأسها. ويدعم هذا الرأي تفاصيل مناقشات جرت بين الذين تجمهروا في حروراء ووفد أرسله الامام علي اليهم وذلك بالاضافة الى الأحاديث التي نسبت الى النبي صلى الله عليه وسلم وحوت الإشارات الى ظهورهم.

فلقد أرسل علي اليهم بعد استقراره في الكوفة رسلاً اليهم يستعتبهم ويسألهم عما نقموه، وكان أبرز من توجه اليهم عبد الله بن عباس، وقد ناقشهم ابن عباس في أمور كثيرة، لكن حين نقرأ تفاصيل المناقشات لا نعثر على أدنى إشارة الى تهمة مؤامرة مسبقة أو علاقة بمتآمر اسمه عبد الله بن سبأ أو غيرة، وقد قيل إن عبد الله بن عباس سألهم: «ما أخرجكم من حكمنا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين» ثم تناقش معهم طويلاً، وبعد ابن عباس ناقشهم الامام علي وذكرهم بقوله: «نشدتكم بالله أتعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف قلت لكم، وقد طلبتم أن أجيب الى ذلك: اني أعلم بالقوم منكم، انهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وقد صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فامضوا على حقكم وصدقكم، فان هذه خديعة ودهاء ومكيدة، فرددتم علي رأيي وقلتم: لا بل نقبل منهم، فقلت لكم: اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي، فلما أبيتم اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحياه القرآن، ويميتا ما أماته القرآن، فان حكما بحكمه فليس لنا أن نخالف، وان أبيا فنحن من حكمهما براء، فهل قام الي رجل منكم فقال: يا علي ان هذا الأمر أمر الله، فلا تحكم القوم؟ قالوا: بلا»[1].

ان المناقشات والنصوص الأولى لا تحتوي على أية تهمة أو أدنى إشارة الى اعداد مسبق للخروج، علماً انها تذكر أن الذين بادروا بالخروج كانوا من القراء

---

(١) ـ القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل.. ط. القاهرة (المؤسسة العامة للتأليف والنشر) ج ٢٠ ق ١ ص ١٠٩.
ابن الأعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٣٤ ـ ١٢٣٥، ١٢٧٧ ـ ١٢٨١.

وأصحاب البرانس ، وبناء عليه : ان حركة الخوارج قد ولدت جذورها في مجتمع أهل الكوفة ، وفي خضم أحداث الفتنة الكبرى مع ماحدث في صفين ، ولم تأت وليدة تنظيم مسبق ، أو مؤامرة أعدت من قبل متآمر ، وأنها تطورت بحكم معطيات الظروف وتطور الأحداث ، ويؤيد هذا أن قسماً كبيرا ممن تجمع في حروراء رجع عن رأيه بعد المناقشات التي تمت بين الحرورية وبين الإمام علي شخصياً .

لا شك أن ما حدث من حوادث بعد حروراء وما تورطوا به جعل الخوارج يتمسكون بمواقفهم ، وكان على رأس ذلك إقدامهم على سفك دماء بعض المسلمين لا سيما قتلهم لعبد الله بن خباب [1] ، ثم ما تبعه من قتال في النهروان ، فالذين نجوا من النهروان هم الذين تولوا فيما بعد تطوير آراء الخوارج ، وتحويل حركتهم الى حزب ، فقد جاء أنه لم يفلت منهم بعد النهروان «الا أقل من عشرة . . فانهزم اثنان منهم الى عمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى تل مورن وواحد الى اليمن ، وظهرت بدع الخوارج في هذه المواقع منهم، وبقيت الى اليوم [2] .

يرجح أن الخوارج أقدموا بعد اجتماعهم على اختيار عبد الله بن وهب الراسبي زعيما لهم ، وبايعوه بالامامة ، ولاغرابة في هذا ، فقد ذكرنا أن من أسباب القبول بوقف القتال ، وقبل هذا ثورة الكوفة أيام عثمان كان التمرد على تحكم قريش بمصير المسلمين ، ولعل هذا التمرد له جذوره المبكرة التي لها علاقة بالردة ، ومهما يكن من أمر ان التمرد على التحكم القرشي أعطى حركة الخوارج سمة تميزت بها عن غيرها من الحركات في تاريخ الاسلام ، ولذلك رأى فيهم بعض الباحثين في العصر الحديث مايشبه الجمهوريين الرافضين لحكم الأسرة المقدسة .

---

(١) ـ محمد بن يزيد المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ ط . القاهرة ١٩٣٧ ج ٣ ص ٩٨٥ .
الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٨١ ـ ٨٢ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٨٢ .

(٢) ـ محمد الشهرستاني ـ الملل والنحل (على هامش الفصل لابن حزم) ط . القاهرة ١٣١٧ ج ١ ص ١٥٩ .

وتكاد المصادر كلها تجمع على أنه بعد هزيمة الخوارج في النهروان جرى البحث بين جثث القتلى عن واحد له ثدية كبيرة ، فوجد وأحضر أمام الامام علي ، وأن وجوده عد آية مصدقة على صحة موقفه لحديث عزي الى النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حذر فيه من خروج : ناكسين ، وقاسطين ، ومارقين على علي ، والناكسين هم أصحاب الجمل ، والقاسطين ـ وفي مصادر أخرى «الباغين» ـ هم أصحاب معاوية في صفين ، أما المارقين فهم الخوارج .

روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمته المطولة للامام علي بن ابي طالب هذا الحديث من مختلف طرقه من ذلك :

«سمعت عليا يقول : عهد الي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقاتل الناكسين والقاسطين والمارقين» .

وفي رواية أخرى عن علي :

«قال : أمرت بقتال ثلاثة : القاسطين والناكسين والمارقين ، فأما القاسطون فأهل الشام ، وأما الناكسون فذكرهم أهل الجمل ، وأما المارقون فأهل النهروان» أي الحرورية[1] .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر علي أن علامة المارقين وجود ذو الثدية بينهم ، وأنه عثر بالفعل على جثته ، وقد اختلف في تحديد هويته ، ومال بعض الرواة الى القول انه كان حرقوص بن زهير السعدي .

لاندري مدى صحة هذا الحديث المعزو الى النبي صلى الله عليه وسلم ولعله اخترع فيما اخترع من أحاديث فيما بعد لتسويغ اقدام الامام علي على القتال في النهروان ، مع أنه لم يكن محتاجا الى مثل هذا الحديث بعد اقدام الحرورية على اعتراض طريق المسلمين وقتلهم لعبد الله بن خباب ، فقد روى ابن عساكر أن عائشة أم المؤمنين سألت واحدا من أصحاب الامام علي :

---

(١) ـ علي بن الحسن بن عساكر ـ تاريخ دمشق «ترجمة علي بن أبي طالب ـ ط . بيروت ١٩٧٨ (ج٣ ص١٩٨ ـ ٢٠٢ ، ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٢٨٣ ـ ١٢٨٨ .

«لم قتلهم ؟ قال : فوالله مابعث اليهم حتى قطعوا السبيل ، وسفكوا الدم ، واستحلوا الذمة»[1] ويرجح أن علامة «ذو الثدية» راجت آنذاك في العراق ، وأن أهل الحجاز لم يكونوا يعرفونها ، ومن هنا جاء سؤال السيدة عائشة أم المؤمنين للرجل نفسه : «فما شيء يبلغني عن أهل العراق ، يتحدثون ذو الثدية؟[2]» ويمكن أن نتخذ هذا دليلا على الاختراع ، فقد نشط أهل العراق آنذاك في نسبة أشياء كثيرة وأقوال الى الامام علي ، ولذلك شككت السيدة عائشة أم المؤمنين بصدق أهل العراق وقالت : «انهم يكذبون على علي ويزيدون[3]» .

وستظل مسألة ظهور الخوارج موضع نقاش واجتهاد في ابداء آراء جديدة ، والمهم بالنسبة لهذه الدراسة انه لمن المفيد بعد تبنينا لهذا الرأي الاجتهادي من المفيد الانتقال نحو البحث في عناوين تفاصيل اعمالهم البارزة ونشاطاتهم والتعرف الى زعاماتهم . شروعا من عودة جيش علي من صفين وحتى نهاية العصر الاموي :

آ ـ علي والخوارج

روى الطبري وصفا لجيش الامام علي بن أبي طالب وهو في طريق العودة من صفين فقال : «ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ، ويتضاربون بالسياط ، يقول الخوارج : ياأعداء الله أدهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم ، وقال الأخرون : فارقتم امامنا وفرقتم جماعتنا ، فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء ، فنزل بها منهم اثنا عشر الفا ، ونادى مناديهم : ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي ، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[4] .

---

(١) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٣ ص١٩٨ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٢٩٤ ـ ١٣٠١ .

(٢) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٣ ص١٩٨ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٣٠٠

(٣) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٣ ص١٩٨ .

(٤) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦٣ وانظر أيضا ابن الاعثم ـ المصدر نفسه ١٢٢٩ ـ ١٢٣٥ .

يستدل من الكلمات الأخيرة لهذا النص أن مطالب الخوارج الآن مطالب عامة وليست محددة تمثل آراء حزب متميز ، ولذلك لم يقدموا على اختيار زعيم عام لهم ، هذا وتختلف المصادر اختلافا كبيرا حول تعداد الذين تجمهروا بحروراء فبعضهم يجعل الرقم يصل الى عشرين ألفا ، وبعض آخر يجعله لايتجاوز الستة آلاف،انما هم جميعا يوحون أن الذين تجمعوا بحروراء كانوا جميعا كوفيين ، ولم يكن بينهم عناصر من البصرة[1] .

كانت حروراء واقعة في احواز الكوفة ، لذلك كان الخوارج يترددون على الكوفة ، ويخالطون سكانها ، وأمام هذا الوضع أرسل الامام علي اليهم ابن عمه عبد الله بن عباس وقال له : «لاتعجل الى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج ـ الامام علي ـ اليهم حتى أتاهم[2]» فجعل يتخلل صفوفهم ، «حتى صار الى مضرب يزيد بن قيس ، فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتكأ على قوسه ، وأقبل على الناس ، ثم قال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة ، أنشدكم الله اعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا ، قال :أفعلمتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني ؟ قالوا : انا أتينا ذنبا عظيما فتبنا الى الله فتب الى الله منه واستغفر نعد لك ، فقال علي : اني أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه[3]» .

ويستدل من رواية نقلها الطبري عن أبي مخنف أن الامام علي اتفق مع الذين تجمعوا في حروراء على المكوث ستة أشهر بالكوفة حتى تجري الاستعدادات الكافية لجولة ثانية مع الشاميين اذا اقتضى الحال[4] ، وفي تلك الاثناء أشاع

---

(١) ـ المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٥ . عبد الجبار ـ المصدر نفسه ج ص١٠٠ ـ ١٠١ . ابن عساكر المصدر نفسه ج٣ ص١٩١ . احمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ـ كتاب السير . ط. قسنطينة ١٨٧٨ ، ج٢ص٤٨

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦٤ .

(٣) ـ المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦٤ ـ ٦٦ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٢٩٧ ـ ١٢٩٩

(٤) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦٦

الحرورية ـ بعدما استقروا بالكوفة ان الامام علي رجع عن التحكيم ورآه ضلالا وكفرا ، وجاء بعض أصحاب علي اليه يسألوه عن ذلك ويستفسروا عن حقيقة الأمر ، وكان منهم الأشعث بن قيس الكندي الذي قال : «ياأمير المؤمنين ان الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والاقامة عليها كفرا[1]» ، وقدم آنذاك من الشام الى علي معن بن يزيد بن الأخنس السهمي يسأله عن سبب الابطاء في ارسال ممثله الى التحكيم وقال له : «ان معاوية قد وفى ، ففِ أنت ولايلفتنك عن رأيك أعاريب بكرٍ وتميم ، فأمر علي بامضاء الحكومة[2]» .

وأمام هذه الحالة اضطرب الوضع في الكوفة الأمر الذي استدعى ان يقوم الامام علي بتوضيح موقفه بكل جلاء ، فخطب الناس بعدما دعاهم الى المسجد وقال : «من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كفر ، ومن رآها ضلال فهو أضل[3]» .

وفجر هذا الصراع في الكوفة ، وخرج من رأى رأى الخوارج من المسجد وهم ينادون بشعار التحكيم ، وبعد قليل حاول الامام علي تهدأتهم واعادتهم الى الكوفة حيث يبدو أنهم تجمعوا من جديد خارجها في قرية حروراء، ومن جديد أرسلَ اليهم الامام علي عبد الله بن عباس ، فتناقشوا معه طويلا وأصروا على موقفهم برفض الحكومة ، ويبدو أن قسما صغيرا منهم قنع بما حاجج به ابن عباس فعاد الى الكوفة[4] .

وفي هذه الاثناء كان الحكمان قد اجتمعا بدومة الجندل[5] ، ولم يسفر عملهما عن نتيجة مرضية للآملين بالخلافة عامة ولا لأي من الطرفين المتنازعين ، بل

---

(١) ـ المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٣

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦٦

(٣) ـ المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٣

(٤) ـ المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٣ ٩٤٥ . ابن عساكر المصدر نفسه ج٣ ص١٩١ ـ ١٩٤ . عبد الجبار ـ المصدر نفسه ج٢٠ ق١ ص١٠١ . الشماخي ـ المصدر نفسه ج٢ ص٤٩ ـ ٥٠

(٥) ـ في قرية اسمها ازرح مازالت معروفة حتى الان في المملكة الاردنية الهاشمية .

أخفق المؤتمر اخفاقا تاما[1] ، وبلغت اخبار هذه النتائج العراق ، وكانت حافزا لمعاودة رأب الصدع مع الخوارج ، لكن المحاولات أخفقت جميعا ، وبدأت - على هذا - شخصيات الخوارج تلتقي وتتناقش حول ماينبغي عليهم القيام به .

روى أبو حنيفة الدينوري : «ولما بلغ أهل العراق من أمر الحكمين ، لقيت الخوارج بعضها بعضا واتعدوا أن يجتمعوا عند عبد الله بن وهب الراسبي ، فاجتمع عنده عظماؤهم وعبادهم ، فكان اول من تكلم منهم عبد الله بن وهب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : معاشر أخواني ، ان متاع الدنيا قليل ، وان فراقها وشيك ، فاخرجوا بنا منكرين لهذه الحكومة ، فانه لاحكم الا لله[2]» . وتناقشوا في ذلك الاجتماع بشأن اختيار زعيم لهم ، وعرضوا الزعامة اولا «على يزيد بن الحصين ، وكان كبيرا من عبادهم فرفضها ، ثم عرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى ، ثم على حرقوص بن زهير فأبى ، ثم على حمزة بن سنان وعلى شريح بن أوفى العبسي فأبيا ، وأخيرا عرضوها على عبد الله بن وهب الراسبي ، فقال : أما والله لاآخذها رغبة في الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت[3]» .

ويبدو ان عبد الله بن وهب الراسبي بويع الآن أميرا للخوارج واماما وهي خطوة جريئة كانت الأولى من نوعها في تاريخ الاسلام ، فحتى انقضاء مؤتمر التحكيم كان للمسلمين اماما واحدا هو علي بن أبي طالب ، ومعاوية لم يدع لنفسه الامامة ، بل كان صاحب مطالب على رأسها دعواه الطلب بدم عثمان والسعي

---

(١) - ابن مزاحم - المصدر نفسه ص٦١٣ - ٦٢٩ . ابن خياط - المصدر نفسه ج١ ص٢١٦ . ابن الأعثم - المصدر نفسه ١٢٣١ - ١٢٣٥ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص ٦٧ - ٧١ . محمد بن عبد الله بن العربي - العواصم من القواصم (قطعة منه) ط . القاهرة ١٣٧١ ص١٧٢ - ١٧٩ .

(٢) - الدينوري - المصدر نفسه ص٢٠٢ . المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٥ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٧٤ - ٧٥ .

(٣) - الدينوري - المصدر نفسه ص ٢٠٢ - ٢٠٣ . المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٥ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٧٤ - ٧٥ . أحمد بن سعيد الدرجيني - طبقات المشايخ بالمغرب ط . قسنطينة (مطبعة البعث) ج٢ ص٢٠١ - ٢٠٢

للاقتصاص من قتلته ، وفي بعض المصادر مايوحي أنه بعد ارفضاض مؤتمر التحكيم بايع أهل الشام معاوية ، واذا صح هذا يكون الخوارج قد تجرأوا على بيعة امام لهم أخذا بهذه السنة ، ومهما يكن من أمر أصبحت الآن الأمة الاسلامية ، التي قوامها العناصر العربية بشكل خاص ممزقة الى ثلاث فئات كل فئة منها لها زعيمها السياسي ، الذي يرى في نفسه أنه هو وحده على الحق وغيره على الباطل ، وأنه اذا كان لابد من اعادة لحمة الوحدة الى الأمة ، فالاحتكام الى السيف هو المخرج الوحيد ، والدواء الذي لابد من تجرع مرارته .

ويبدو أيضا أنه حدث في فترة الموادعة أن قام الحرورية بمراسلة عرب البصرة ، فوجدوا هناك بعض التجاوب مع أفكارهم ، وصار لهم في البصرة أعوان وأنصار .

وبعد بيعة عبد الله بن وهب جرى البحث حول اختيار مكان يتخذه الخوارج مقرا لهم بعيدا عن كل من البصرة والكوفة ، ففكروا اولا بالمدائن ، لكنهم مالبثوا ان تخلوا عن هذه الفكرة عندما أدركوا عجزهم عن الاستيلاء عليها ، فاختاروا منطقة النهروان ، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط[1] .

وحين حدث المسير الى النهروان كان عبد الله عباس عامل علي على البصرة ، وكان كما يبدو متنبها للاتصالات بين خوارج الكوفة ومن كان على رأيهم في البصرة ، ولعله حاول الحيلولة دون خروجهم فلم يحقق النجاح ، ذلك ان خمسمائة رجل من البصرة يقودهم مسعر بن فدكي التميمي التحقوا بالنهروان[2] .

---

(١) ـ معجم البلدان ـ مادة النهروان . المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٩٤٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٧٥ ـ ٧٦ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٣ ص٣٩٧ ـ ٣٩٨ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٧٦ ـ ٧٧ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص٢٠٣ ـ ٢٠٥ . المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٣٤٨ ـ ٣٤٩ . ابو العرب ـ المصدر نفسه ص١٢٢ ـ ١٢٣ .

لقد لاحظنا حتى الآن أن أعداداً كبيرة من خوارج الكوفة كانوا من قبيلة تميم ، بيد أن الجزء الأكبر من تميم كان يسكن البصرة ، ومعروف أن تميم لم تشارك في معركة الجمل ، وبذلك احتفظت بقوتها [1] .

ويمكن على هذا أن نعزو خروج بعض البصريين كان من عوامله نوع من العصبية القبلية التميمية ، وسيسهل هذا علينا فهم كيفية انتقال مركز النشاط الخارجي الى البصرة فيما بعد ، ووصل خوارج أهل البصرة الى النهروان بعدما استقر فيها عبد الله بن وهب وصحبه ، هذا ولا تسعفنا المصادر الى فهم الأسباب التي دفعت الى اختيار الموقع الجديد ، ولعل ذلك لتوسطه بين الكوفة والبصرة .

وفي تلك الأثناء قام الإمام علي مجدداً بمراسلة عبد الله بن وهب ومن معه فكتب يقول :

«بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله علي أمير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس ، أما بعد : فان هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكماً ، فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون ، فاذا بلغكم كتابي هذا ، فأقبلوا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه ، والسلام [2] » .

من المرجح أن الامام علي ـ اذا صدقنا صحة هذه الرسالة ـ كان يعتقد أن حركة الخوارج كانت ما تزال ، كما رآها بالبداية ، نوعاً من أنواع ردات الفعل الغاضبة ، لكن هذا التصور برهنت الأحداث عدم صحته ، فالخوارج الآن باختيارهم إماماً خاصاً بهم دخلوا مرحلة جديدة ، هي مرحلة التميز وتكوين

---

(١) : نصر بن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٢٤ ـ ٢٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٠٣ ـ ٥٠٥ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٧٧. ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٧٧ .

(٣) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٧٨ .

حزب خاص بهم ، وانفصالهم نهائيا عن بقية مسلمي العراق وسواهم ، ولذلك جاء ردهم عليه :

«أما بعد ، فانك لم تغضب لربك ، انما غضبت لنفسك ، فان شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، والا فقد نابذناك على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين»[1] .

لم يكتف الخوارج على هذا برفض المصالحة ، بل أعلنوا الحرب على الإمام علي ، وفي تلك الأثناء كان خوارج البصرة في طريقهم نحو النهروان ، وفي أثناء ترحالهم شرعوا في استعراض المسلمين وسفك دمائهم ، وعلم الامام علي بذلك كما علم بسفكهم لدم عبد الله بن خباب بن الارت ، ويستدل من مختلف الروايات التي تحدثت عن مصرع عبد الله بن خباب أن الخوارج باتوا يرون من ليس معهم كافراً ، من نوع المرتدين عن الدين الاسلامي ، لذلك اعتبروا دم هؤلاء حلالاً ، لا بل أكثر من ذلك واجبهم سفكه ، فقد قالوا لعبد الله بن خباب أن القرآن يأمرنا بضرب عنقك فقتلوه وبقروا بطن أم ولده[2] .

وكان الإمام علي في تلك الآونة قد أعد عدته للتوجه مجدداً نحو بلاد الشام ، لكن نشاط الخوارج الدموي أرغمه على تغيير خططه والتوجه أولاً لتأديبهم فزحف نحو النهروان ، لكن ليس قبل مراسلة الخوارج طالباً منهم التوقف عن سفك الدماء ودفع قتلة عبد الله بن خباب اليه ، وقد أصر الخوارج على موقفهم وزادوا من نشاطهم العدواني ، ويروى أن الإمام علي تعرض آنذاك لضغط شديد من أصحابه ، لا سيما من الأشعث بن قيس حتى رضي بالتوجه نحو النهروان .

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٧٨ .

(٢) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٤٦ ـ ٩٤٧ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٧٨ ـ ٨٢ . أبو العرب ـ المصدر نفسه ص ١٢٣ . نايف معروف ـ المرجع نفسه ص ٩١ ـ ٩٢ . يوسف فلهاوزن ـ الخوارج والشيعة ترجمة عربية ط. القاهرة ١٩٥٨ ص : ٣ ـ ٤٠ .

روى صاحب الأخبار الطوال أنهم أخذوا يعترضون الناس ، وأنهم قتلوا الحارث بن مرة العبدي رسول علي اليهم «فلما بلغ الناس ذلك اجتمعوا الى علي فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أتدع هؤلاء على ضلالتهم ، وتسير فيفسدوا في الأرض ، ويعترضوا الناس بالسيف ؟ سر اليهم بالناس وادعهم الى الرجوع الى الطاعة والجماعة فان تابوا وقبلوا فان الله يحب التوابين ، فان أبو فآذنهم بالحرب ، فاذا أرحت الأمة منهم سرت الى الشام[1] .

وبعدما وصل الإمام علي الى منطقة النهروان راسل مجدداً الخوارج ، وحاول هو وبعض أعيان أصحابه إقناعهم بالعدول عن موقفهم ، ودفع قتلة عبد الله ابن خباب اليه ، لكن بدون جدوى ، هذا وأورد الطبري نقلاً عن أبي مخنف بعض فقرات مما خاطبهم به الإمام علي من ذلك قوله : «أيتها العصابة التي أخرجتها غرارة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق ، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم ، اني نذير لكم أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر . . . ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم . . فعصيتموني حتى اذا أقررت بأن حكمت ، فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذي بكم ومن أين أتيتم ؟» فرددوا مجدداً ما سبق وقالوه من أنهم أثموا بقبولهم التحكيم ، وكانوا بذلك كافرين ثم تابوا وآبوا ، وطلبوا من الإمام علي أن يعترف مثلهم بالإعلان عن اقترافه للإثم والكفر ومن ثم التوبة فأجابهم :«أصابكم حاصب ، ولا بقي منكم دابر ، أبعد ايماني برسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتي معه ، وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر[2]» .

وبعد اخفاق المفاوضات الآن ، لم يبق سوى الاحتكام الى السيف وحسم الموقف بالقوة ، وعبأ الطرفان جيوشهما ، ونشبت معركة قاسية جدا في شعبان سنة

---

(١) : الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢٠٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٨١ ـ ٨٣ .
فلها وزن ـ المرجع نفسه ص ٣٨ ـ ٤١ . معروف . المرجع نفسه ص ٩٢ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٨٤ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٩٧ ـ ١٢٩٩ .

٣٨ هـ/كانون ثاني ٦٥٨ م ، وانجلت المعركة عن إبادة شبه جماعية للخوارج مع زعمائهم بما فيهم عبد الله بن وهب الراسبي [١] .

لقد كانت النهروان ثاني معركة كبيرة اقتتلت فيها قوات العراق العربية ، ولا شك أن هذه المعركة مع معركة الجمل التي سبقتها ، مضاف الى ذلك الضحايا التي ذهبت في صفين قد أنهكت التشكيلات العسكرية العراقية الكبيرة إنهاكاً واضحاً ، وسيكون لهذا نتائج حاسمة بالنسبة لمستقبل حكم الامام علي بن أبي طالب وأسرته ، ولمستقبل مطامح معاوية في الاستيلاء على السلطة .

وكان معظم الذين قتلوا من الخوارج في النهروان ـ ولربما تجاوز عددهم ثلاثة آلاف ـ من الكوفيين قتلوا على أيدي أبناء عشائرهم وأقربائهم وجيرانهم من الكوفيين أنفسهم ، ومن الواضح أنه كان لهذا أبعد الآثار علي وضع جند الكوفة وسكانها وعلى علاقة هذا الجند وهؤلاء السكان بعلي بن أبي طالب ، لا بل أبعد الآثار وأخطرها على أحوال أهـل الكوفة عامة وتماسكهم الاجتماعي والسياسي ، فقد كانوا عربا يؤمنون بالثأر ويتفاعلون مع العصبية القبلية ، ولا ريب أن العديد منهم بات يعتقد أن علي بن أبي طالب قد ثكلهم بأقربائهم وذويهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، وأنه بالتالي لا بد من التخلص منه والانتقام باغتياله ، وهذا ما كان بعد قليل .

هذا ولم تقض معركة النهروان على حركة الخوارج ، لا بل حرضت أعداداً جديدة من العرب على الخروج ، وغدت النهروان ـ فيما بعد ـ بالنسبة لحركات الخوارج ـ الى حد ما ـ مثلما ستصبح معركة كربلاء بالنسبة للشيعة .

ورجع الامام علي نحو الكوفة ، لكنه لم يدخلها ، بل عسكر بالنخيلة خارجها ، على نية التوجه مباشرة نحو بلاد الشام ، لكن هذا لم يتحقق ، حيث

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢٠٧ ـ ٢١١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٨٥ ـ ٩٣ . أبو العرب ـ المصدر نفسه ص ١٢٢ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٨ . الدرجيني ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ . الشماخي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٢ ـ ٥٣ . فلهاوزن ـ المرجع نفسه ص ٣٩ ـ ٤١ . معروف ـ المرجع نفسه ص ٩٣ ـ ١٠٠ .

أخذ جنده يتسربون من المعسكر الى داخل الكوفة ، وباتوا لا يلبون نداء الاستنفار ، لا بل إن بعضهم أخذ يعتب عليه قتله لأصحاب النهروان ، حتى ان العديد من المسلمين استنكروا ما جرى في المعركة ، وكان من جملة ذلك عائشة أم المؤمنين ، حيث سألت واحدا من أصحاب الامام علي : لم قتلهم ؟ ويبدو أكثر من هذا هو أن الهمدانيين وغيرهم من اليمانين عتبوا على الامام علي قتله لأصحاب النهر[1] .

لعل هذه الضغوط وأعمال الاستنكار قد ظهرت بعد انجلاء القتال في النهروان ، وأنها كانت وراء الحديث الذي عزي الى النبي ﷺ حول «ذو الثدية» أو «ذو الخويصرة» أو «ذو الخنيصرة» ، وقد ساق ابن عساكر بحكم اختصاصه بالحديث غالبية الروايات حول شخصية «ذو الثدية» ، وأن النبي ﷺ سبق وحذر الامام علي من المارقة وأخبره أنه سيكون بين قتلاهم رجل له ثدية مثل ثدية المرأة ، وأنهم عثروا عليه بين القتلى ، وبالنظر لتمكن الامام ابن عساكر من النظر في علل الأحاديث ، فإنه شكك في صحة ما جمعه ورواه حول هذا الموضوع ، ورأي ابن عساكر في هذا المجال معتمد الى أبعد الحدود[2] .

لقد عانى الامام علي بعد العودة من النهروان أزمة حقيقية هددته في الكوفة نفسها ، وكان معاوية بن أبي سفيان يراقب الوضع عن كثب ، فاستغل ذلك استغلالاً كبيراً ، وإسهاماً منه في زيادة تفاقم أزمات خصمه الهاشمي ، فأخذ يرسل سراياه لانتزاع بعض الولايات من الامام علي ، وللاغارة على أطراف

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٨٧ ـ ٩١ . المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٥٥ ـ ٩٥٦ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١١ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٨ . الشماخي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ . فلهاوزن ـ المرجع نفسه ص ٤٢ . معروف ـ المرجع نفسه ص ٩٥ ـ ١٠٠ .

(٢) : ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٨ ـ ٢٠٦ . معروف ـ المرجع نفسه ـ ص ١٤ ـ ١٩ مع محاولة غير ناجحة للمطابقة بينه وبين حرقوص بن زهير التميمي ، راجع حول ذلك ما أورده الدرجيني في ترجمة كل من عبدالله بن وهب وحرقوص ج ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ .

العراق وجهد الامام علي غاية الجهد في اثارة عزائم الكوفيين فلم ينجح ، وطبعاً لم تكن عواطف البصريين معه ، وكذلك عواطف وآراء والي البصرة ابن عمه عبدالله ابن العباس ، وقد تفاقم الخلاف بينهما الى حد دفع بابن عباس الى حمل ما كان في بيت مال البصرة من أموال ، وفر بها الى الحجاز ، ولم يستمع بعد ذلك لما حوته مراسلات الامام علي اليه ، وتأنيبه له ، وهذا موضوع سنقف عنده مرة ثانية في هذا الفصل نفسه ، وفي نهج البلاغة عدداً كبيراً من نصوص الخطب التي ألقاها الامام علي في الكوفيين يحثهم بها على التوجه لقتال معاوية ، أو على الاقل للدفاع عن أراضيهم ، لكن بدون فائدة ، حتى يئس منهم ووصل به الحال الى القول : «لا رأي لمن لا يطاع» [1] وتذهب المصادر الخارجية أكثر من هذا الى القول في رواية عن الشعبي : «لما قتل علي أهل النهروان أيس ان يستقيم له الأمر ، فقال لابنيه : لا تكرهوا بيعة معاوية . . . وعن جابر بن زيد ان عليا لما أظهر الندامة للناس قيل له : قتلت قوماً وأظهرت الندامة عليهم ، وطفقت تمدحهم وتزين أمرهم ، لتخلعن أو لتقتلن» [2] .

وفي رواية نقلها ابن عباس عن «قنبر مولى علي قال : تحولت أنا وعلي الى النهر بعد القتال ، فانكب طويلاً يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : ويحك صرعنا ها هنا خيار هذه الأمة وقراءها ، فقلت : أي والله ، فابكي ، فبكى طويلاً ، ثم قال : جدعت أنفي وأشقيت نفسي ، فأظهر الندامة على قتله اياهم . . وما زالت أيامه في الإدبار من يومهم ، ونزع منه معاوية : اليمن والحجاز ومصر وغارت خيله الى الأنبار ، وقتلوا عماله ولا يسمع له كلام ولا يمتثل له أمر قال له عدي بن حاتم : تركتنا لا ندري أين نسلك ، قتلت من رضي القضية ومن أنكرها . . . وتلقاه ابنه الحسن حين دخل الكوفة فقال : يا أبت :

---

(١) : الشريف الرضي محمد بن الحسن الموسوي ـ نهج البلاغة ـ ط . قم ١٣٩٥ هـ من ٥٥ ـ ١٨٢ ، ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(٢) : الشماخي ـ المصدر نفسه ص ٥٥ . القاضي الشعبي واسع الشهرة وجابر هو ابن زيد الازدي (٥٠ ـ ١٠٠ هـ) كبير فقهاء الخوارج ومحدثهم ، وسنقف مع رواياته في صفحات مقبلة من هذا الفصل . انظر حوله ـ الدرجيني ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢١٣ .

أقتلت القوم؟ قال : نعم ، قال : لا يرى قاتلهم الجنة ، قال : ليت أني أدخلها ولو حبواً ، فلما فقد علي تلك الأصوات بالليل ، كأنها دوي النحل : قال : أين أسود النهار ورهبان الليل؟ قالوا له : قتلناهم يوم النهر»[1] .

ان الغلو المذهبي واضح تمام الوضوح في هذه الرواية ، وهي مع ذلك هامة لأنها تحمل في طياتها بعض الحقيقة ، وأهم من ذلك أنها مروية عن ابن عباس فنحن عما قليل سنواجهُ سؤالاً كبيراً : هل كان ابن عباس يرى رأي الخوارج؟

ضرورة البحث توجب علينا الآن تأجيل الاجابة على هذا السؤال ، وفي الوقت نفسه ليس من شأننا تفصيل الحديث عن حملات معاوية ، ولا عن تحرج موقف الامام علي في مصر والحجاز واليمن ، ولا حتى الدخول في تفاصيل مؤامرة اغتياله ، ويكفينا القول : انه في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ/كانون ثاني ٦٦١ م تمكن عبد الرحمن بن ملجم المرادي من اغتيال الامام علي في مسجد الكوفة[2] .

إن عملية الاغتيال هذه هي الاولى من نوعها في تاريخ العرب بعد الاسلام ، وتكاد تكون فريدة في تاريخ الخوارج ، فالذي أقدم على اغتيال عمر بن الخطاب لم يكن عربياً ، ومن أخلاق الخوارج المجاهرة بالرأي والابتعاد عن الدسائس والأعمال السرية ، وهنا لا يستبعد ان ابن ملحم لم يكن بالفعل كما قيل ـ من الخوارج بل استؤجر ، أو دفع لاغتيال الامام علي ابن ابي طالب ، وقيل عنه ـ بعد الاغتيال ـ أنه من الخوارج ، لأنه كان كوفياً واعداء الامام علي في الكوفة كانوا الخوارج[3] .

---

(١) : الشماخي ـ المصدر نفسه : ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ أنساب الاشراف ـ الجزء الثاني ـ ط . بيروت ١٩٧٤ ص ٤٨٧ ـ ٥٥٠ . ابن الاعثم ـ المصدر نفسه ص ١٢٦٦ ـ ١٣٠٤ ١٣٠٩ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٧ . المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٢٨ ـ ٩٣١ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١١ ـ ٢١٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٤٣ ـ ١٥٣ . الشماخي ـ المصدر نفسه ٥٦٢٥ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١٠٣ ـ ١٠٦ .

(٣) : مصادر الحاشية المتقدمة .

بعد وفاة الامام علي أقدم أهل الكوفة على بيعة ابنه الحسن ، ولا يعنينا هنا كثيراً هل تمت البيعة بوصية من الامام علي ، أو بمبادرة من أهل الكوفة ، بل الذي يهمنا أكثر من ذلك هو الرضى بفكرة التوريث للسلطة سواء بوصية أو بدون وصية ، ويعود القبول بفكرة التوريث هذه في أصولها الى اليوم الذي عهد فيه أبو بكر الصديق بالخلافة من بعده الى عمر بن الخطاب ، وهكذا تطور الأمر بعد ذلك حتى ظهر بشكل جديد ببيعة الحسن بن علي ، وسيتطور فيما بعد مع معاوية بن أبي سفيان ، والبيعة لابنه يزيد ومعاوية ما يزال على قيد الحياة .

كان أول ما أقدم عليه الحسن اثر بيعته هو جمع قوات الكوفة ، والاستعداد للتوجه نحو بلاد الشام لتجديد الحرب ضد معاوية بن أبي سفيان ، ويبدو أن هذه الاستعدادات استهلكت وقتاً طويلاً ، وأن قوات العراقيين أبدت قليلاً من النشاط والرغبة في الحرب .

ولذلك تباطأت في زحفها وتحركاتها ، الفرصة التي اهتبلها معاوية واستغلها أحسن استغلال ، فبعدما بلغ معاوية خبر اغتيال الامام علي جهز قواته ، وقرر أخذ زمام المبادرة ، فقاد هذه القوات نحو العراق ، ولم ينتظر وصول جيوش العراق في صفين كما فعل من قبل ، فهو في المرة السالفة كان يستهدف الدفاع عن بلاد الشام ، ولعله لم يكن آنذاك يطمع بأكثر من ولاية الشام ، أما الآن فقد بات من الجلي أنه يريد الخلافة وحكم دار الاسلام بأكملها [1] .

وكان الحسن قد تحرك أولاً من الكوفة الى المدائن ، وفي المدائن تعرض لمضايقات شديدة ، وظهر التراخي والفشل بين صفوف القوات التي كانت تحت امرته ، وتوافق ذلك وازداد مع توتر الاخبار بزحف معاوية نحو المدائن ، وهنا تحرج موقف الحسن كثيراً ، وبدأت تحاك ضده المؤامرات ، واستهدفت التخلص منه والتصالح مع معاوية ، وكان والي المدائن سعد بن مسعود الثقفي ، وهو عم

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٧ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٦ ـ ٢١٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه (ترجمة الحسن بن علي ط. بيروت ١٩٨٠) ص ٢٠٠ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

المختار بن أبي عبيد ، ويروى ان المختار دخل على عمه وهو غلام شاب فخاطبه قائلاً :

«هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به الى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله فأوثقه ، بئس الرجل أنت [1]» ، ولئن نجا الحسن بن علي من مؤامرة الاعتقال ، فانه نجا من الموت بصعوبة ، فقد كمن له رجل ممن يرى رأي الخوارج ، يسمى الجراح بن قبيصة ، من بني أسد . بمظلم ساباط (قرب المدائن) ، فلما حاذاه الحسن قام اليه بمغول فطعنه في فخذه [2] .

وأثرت محاولة الاغتيال هذه تأثيراً كبيراً على الحسن بن علي ، ويبدو أن معاوية كان مطلعاً على ما يجري في معسكر الحسن أولاً بأول ، ولذلك راسله ، وعرض عليه عروضاً سخية مقابل قبوله بفكرة الصلح والتنازل له عن الحكم ، ولم يطل تردد الحسن بل انه أبدى استعداده للقبول ، ثم ما لبث أن جهر بمشاعره أمام أصحابه وأتباعه ، حيث خاطبهم قائلاً : «أيها الناس إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة ، واني ناظر لكم كنظري لنفسي ، وأرى رأياً فلا تردوا علي رأي ، ان الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة ، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب ، وفشل عن القتال ، ولست أرى أن أحكم لكم على ما تكرهون [3]» ، ولاقى موقف الحسن هذا القبول من غالبية الجيش ومع ذلك

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥٩ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٤ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٢) : المغول سوط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه ليغتال به الناس . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص ١٥٩ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه (ترجمة الحسن ص ٢٠٠ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١١١ .

(٣) : الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ١٥٩ .
ابن عساكر ـ المصدر نفسه (ترجمة الحسن) ص ٢٠٣ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١١١ ـ ١١٢ .

لاقى بعض ردات الفعل الرافضة بكل شدة من قبل قلة ممن كان في الجيش ، لكن ذلك لم يكن واسع التأثير ، ولذلك مضى الحسن قدماً في تنفيذ ما نوى عليه ، وأجرى مفاوضات مع معاوية بوساطة السفراء والرسل الى ان تم الاتفاق على التنازل لمعاوية مقابل بعض الشروط التي طغت عليها الصبغة المالية ، وعلى أساس أن لا يقوم معاوية بملاحقة أحد بجرائر الحروب الأهلية ، وهكذا أبرم الاتفاق ، وبايع الحسن معاوية ، ومن ثم غادر العراق الى الحجاز[1] .

لقد طوت بيعة الحسن لمعاوية بن أبي سفيان مرحلة هامة من مراحل تاريخ الاسلام ، إنها طوت بالفعل العصر الراشدي ، وأذنت بافتتاح العصر الاموي ، وعودة الأسرة الهاشمية الى موقع المعارضة للسلطة ، فلقد انتهت بالفعل جولة من آخر جولات الصراع على السلطة بين بني أمية وبني هاشم لصالح الامويين ، وفي هذا الكثير من معاني الانتكاسة والمأساة .

ومهما يكن من أمر لقد أنهى ذلك بالنسبة للبحث في تاريخ الخوارج الانتقال من المقدمات الى صلب الموضوع ، وبناء عليه سنتناول بالبحث أولاً نشاطات الخوارج في فترة الحكم السفياني ، لأن تاريخ الدولة الأموية متميز بمرحلتين أساسيتين هما : المرحلة السفيانية أولاً ثم المرحلة المروانية ويتخلل بين المرحلتين ما أطلق عليه اسم الفتنة الزبيرية ، وعلى هذا ان حديثنا عن نشاط الخوارج بعد انتهاء المرحلة السفيانية ، سيتركز على هذا النشاط أيام سلطة ابن الزبير على بعض العراق أو كله .

*** ـ معاوية والخوارج :**

يقتضي الحديث عن نشاط الخوارج مع بداية العصر الأموي ـ مجدداً ـ بعض المقدمات التي تبين ـ الآن ـ مدى تأثير النتائج التي نجمت عن انتهاء العصر الراشدي وقيام العصر الأموي .

---

(١) : لن ندخل في تفاصيل الاتفاق فذلك سنعاود الوقوف عنده في فصل الشيعة .
الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ابن عساكر ـ المصدر نفسه (ترجمة الحسن) ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١١٢ ـ ١١٣ .

عندما حدثت الفتنة الكبرى ، وبعدما وصل الامام علي بن أبي طالب الى سدة الخلافة نشأ صراع دموي على السلطة بين معسكرات المسلمين الرئيسة في المشرق في : البصرة والكوفة والشام ، ونجم عن هذه الصراعات فيها نجم تدهور للطاقات العسكرية لمعسكري البصرة والكوفة تدهوراً كبيراً ، في حين احتفظ معسكر الشام بمجمل قواه وازداد استقرارا وتجربة ، وترسخت سيطرة قيادته الأموية عليه رسوخاً يلفت الانتباه بالمقارنة لما ألم بالقيادة في العراق ، واذا كان الصراع في معركة الجمل أخذ من بعض الجوانب شكلاً من أشكال الصراع بين مصالح المشرق (الهضبة الايرانية وخراسان) ومصالح العراق والجزيرة ، فإن الصراع في صفين وما تلاها أخذ شكل الصراع القديم المتجدد بين الشام والعراق والمشرق ، وبانتهاء العصر الراشدي انتصرت بلاد الشام وما مثلته من قوى ومصالح ومواريث وهزمت العراق ، وعنت هزيمة العراق ـ فيما عنته ـ أن مركز ثقل الدولة صار في الشام ، وأن العراق بات اقليماً تابعاً للشام ، لا بل يشبه هذا الانتصار من بعض الجوانب وحتى بعض النتائج انتصار الاسكندر المقدوني على الفرس مع فارق ان الاسكندر لم يعمر طويلاً ، والدولة الأموية عمرت قرابة القرن من الزمان ، هذا عدا عن كثير من الفوارق الحضارية والاقتصادية والدينية .

لقد بات الآن العراق اقليماً تابعاً للشام ، وانتصار الشام ضم الآن الى قائمة عواصم المعارضة الاسلامية الكوفة الى المدينة ، فالفتنة الكبرى قد أنهت فعلياً مكانة المدينة سياسياً ، وألغى تنازل الحسن بن علي لمعاوية كون الكوفة عاصمة للدولة الاسلامية ، ولا شك أن هذا كان له نتائج اقتصادية وادارية كبيرة جداً ، لكن الأهم من هذا ان معاوية استولى على السلطة بقوة السلاح وانتزع لنفسه منصب الخلافة انتزاعاً ، وأسس أسرة ملكية وراثية بدون مسوغ شرعي ، فهو لم يملك لا مسوغات سابقة الاسلام ، ولا مسوغات الشورى ، كما أنه لم يصل الى السلطة عن طريق ثورة عقائدية ، بل انه خطا من الولاية الى الخلافة ، وبذلك تجاوز قاعدة الوصول الى السلطة في الاسلام وخالفها ، والمراد بذلك قاعدة : الدين هو الطريق الى السيادة الزمنية ، فسيادة معاوية بن أبي سفيان على الشام قادته الى امرة المؤمنين والتصرف بمصالح المسلمين ، ولذلك كانت مسوغات الثورة

وأسباب المعارضة متوفرة في كل منطقة من ديار المسلمين ، وبالنظر لوصول معاوية الى السلطة بوساطة القوة المسلحة ، ولتوفر اجواء المعارضة اضطرت الدولة الاموية الى الاعتماد على استخدام القوة المسلحة ، وكان لهذا بدوره أبعد النتائج ، فقد زاد معاوية والخلفاء الذين جاؤوا من بعده من عدد وحجم مخصصات جند الشام ، وأهملوا بشكل متعمد جند الأمصار الاخرى ، لا بل حاولوا تصفيتها ونفيها الى الجبهات البعيدة الأمر الذي ورط الدولة الاموية في مشكلة الجيش الكبير والقطعة المختارة منه .

ان زيادة الاعتماد على جند الشام ، وارضاء افراده اضطر معاوية والذين خلفوه في دمشق الى تسخير موارد الدولة له ، ولحرمان غيره ، والى انتهاج سياسة مالية قاسية الجباية ، فيها في كثير من الاحيان استغلال وظلم وبعد عن روح الاسلام ومراميه العليا ، ولقد كانت الحاجة المستمرة الى المال والاستغلال والحرمان وراء عدد من الثورات التي لم تهدأ طوال العصر الأموي ، ووراء سياسة عدم تشجيع شعوب الأمم المفتوحة على الدخول بالاسلام ، وبما أن الجند الشامي كان جنداً عربياً افراده من قبائل العرب في الشام ، فقد زادت قيمة ومكانة هذه القبائل مع قادتها ، وتحول هؤلاء القادة الى أشراف «ارستقراطية» وقام تناحر بين الأشراف قاد الى ما يعرف من بعض الجوانب باسم العصبية القبلية ، الأمر الذي سنعرض له بفصل خاص .

وأثر عدم الاستقرار الداخلي مع الحاجة المستمرة للمال تأثيراً كبيراً على عمليات الفتوح العربية ، وتحكم بخط سيرها ، كما أثر على ملكيات الأرض وقاد الى قيام ملاك كبار من عناصر بني أمية والأشراف (١) ، كما أن جند الشام قد تحول مع الأيام عن مهامه الأساسية بالحروب الخارجية وتكملة الفتوحات ، الى ما يشبه قوة ردع داخلية ، أو كتلة من القوى التي تتولى اخماد الثورات وأعمال المعارضة ،

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ١ ص ٣٦ ـ ٣٧ . ابن حزم ـ المصدر نفسه ص ١١١ ـ ١١٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٠ ـ ٣٢٠ ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص ٢١٦ ـ ٢٧٦ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ١٥٥ ـ ٢٠٥ . فلهاوزن ـ المرجع نفسه ص ١٣٢ .

وأكسب كل هذا الحكم الأموي المزيد من العداء والمعارضة المستمرة ، ولم يكسبه صفة الشرعية الاسلامية ، وباتت منية الدولة الاموية مرتبطة بوضع جند الشام من حيث الاخلاص والتماسك مع وفيما بين أفراد الأسرة الاموية ، وسنلاحظ انه عندما اختل هذا التوازن ، وتدمر هذا النظام سقط الحكم الأموي في الشام قبل أن يسقط على أيدي القوات الثائرة القادمة من خراسان[1] .

لم تمتلك الأسرة الأموية الغطاء العقائدي (الايديولوجي) واستغلت هذه الناحية احزاب المعارضة أوسع استغلال ، وقد سعى بعض الخلفاء الأمويين لا سيما عمر بن عبد العزيز لتأمين مثل هذا الغطاء ، لكن بدون نجاح له سمة الاستمرارية والانتشار .

هذا ومن الملاحظ أنه مع عملية التبديل هذه التي ألمت بكيان الدولة الاسلامية ، ألم بحركة الخوارج أيضاً تبديلات جذرية ، وأبرز هذه التبدلات انتقال مركز الثقل للنشاط الحروري من الكوفة الى البصرة ، وتمزق الحركة الخارجية قبل نضوجها وأخذها شكل الحزب العقائدي ، ولئن كان من المتيسر رصد ما جلبه قيام الدولة الاموية من تغييرات في الاوضاع العامة ، إنه لمن الصعب جداً ، ان لم يكن من المستحيل ، معرفة أسباب وكيفية التبدلات التي ألمت بالخوارج .

اننا حين سنبحث بتاريخ التشيع سنلاحظ تميز حركة التشيع وترسخ قواعدها أولاً ، ثم أنه تلا ذلك بعض التمزقات الجانبية التي لم تؤثر على المقاصد الرئيسية والأهداف الأساسية ، فما من حزب شيعي الا ويرى حق آل البيت بالامامة والخلافة ، لكن هذا الاجماع لا يمكن ملاحظته بالنسبة للخوارج ، وبناء عليه اذا كان من الممكن في بعض المراحل الحديث عن حزب عقائدي لدى الشيعة لا يمكننا الا ان نتحدث عن أحزاب عقائدية للخوارج ، أحزاب متنافرة ومتعادية ، وتبقى مسألة تحول الثقل الحروري الى البصرة من أصعب الامور ، حيث لا نجد في المصادر مايعيننا على حل هذه المعضلة ، ولعل ذلك جاء نتيجة لما

---

(١) : عالجت هذه المسألة بإسهاب في رسالتي للماجستير بعنوان «النزاع بين افراد البيت الاموي ودوره في سقوط الخلافة الاموية» ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٢٥٩ - ٢٧٨ .

حدث بالنهروان وما تلا ذلك من احداث زادت مع الأيام في صبغ الكوفة بالصبغة الشيعية الامر الذي واكبه في البصرة وزامنه اضفاء صبغة العثمانية على جزء كبير من سكانها ، ولربما ـ أيضاً ـ كانت أجواء البصرة السياسية مساعدة على جعلها مركزاً خارجياً ، انما ليس لجميع الخوارج ، وليس سياسياً بالدرجة الاولى ، بل فكرياً ، وهذا ما سيتضح معنا من خلال تفاصيل الدراسة ، لا سيما لدى تعقبنا لنشاطات حزب الاباضية من الخوارج ، ويمكن ان نضيف الى هذين العاملين عاملاً آخر لعله أكثر أهمية وهو تمركز الغالبية العظمى من أفراد قبيلة تميم في البصرة ، فسنرى لتميم دوراً قيادياً متميزاً جداً في تاريخ الخوارج الى حد أنه ليس من الغلو بمكان وصف حركات الخوارج بأنها كانت حركة تميمية .

وقبل الفراغ من هذه المقدمة ، قد يقول قائل ، ان ما سبق يصلح كخاتمة لهذا الفصل ، وهذا صحيح من بعض الجوانب ، وأصح منه أن التاريخ علم قائم بذاته مثل غيره من العلوم له قوانينه ومحتواه وأهدافه ، وفي كل علم تقدم القوانين أولاً وعليها تكون معالجة المحتوى والمضامين ومن ثم نصل الى النتيجة المستهدفة ، وهي هنا محاولة معرفة حقائق الامور والوقائع .

بعدما صار معاوية سيداً لديار المسلمين ، وأميراً للمؤمنين ، بات عليه أن يعمل أولاً على اعادة تنظيم الدولة واختيار العمال والولاة والقادة الأكفاء ، وكان على رأس هموم معاوية بلاد العراق أولاً ، ثم الحجاز ، وكانت امور العراق أكثر الحاحاً وأشد خطراً ، فقد توجب تأمين عاملين من أعلى الرجال قدرة وكفاءة وأكثرهم حسماً وبراعة سياسية واخلاصاً لمعاوية لحكم كل من البصرة والكوفة ، وقد كان على عامل العراق توطيد الأمن في مصره ، ومنع أسباب الشكوى والحيلولة دون قيام الثورات واستئناف حركة الفتوحات في خراسان وما تلاها وفي أرمينية واذربيجان وما تلاهما .

اختار معاوية والياً للكوفة المغيرة بن شعبة ، وكان صحابياً من قبيلة ثقيف سكان الطائف وحلفاء بني أمية قبل الاسلام ، وكان المغيرة ممن شارك في فتوح العراق وولي الكوفة ثم عزل عنها ، وكان بالوقت نفسه زوج احدى اخوات معاوية ، هذا وتروي المصادر أن معاوية أراد في البداية بعد استيلائه على العراق

تعيين عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، لكن المغيرة خوفه من ذلك بقوله : «استعملت عبدالله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فصرت بين لحيي الأسد» وبناء عليه عمد معاوية الى تعيين المغيرة بدلاً من عبدالله بن عمرو ابن العاص[1] .

وكانت مهمة المغيرة في الكوفة صعبة ، لكنه قام باعبائها بكفاءة ونجح في ادارة الكوفة ، فتصدى لنشاطات الخوارج ـ كما سنرى ـ وحال بين الشيعة وبين الثورة .

ولئن نجح معاوية في اختيار الرجل المناسب للكوفة ، فإنه لم يجده بالنسبة للبصرة ، فقد عين أولاً عبدالله بن عامر ، وكان عبدالله بن عامر قد ولي البصرة من قبل لعثمان بن عفان ، وقد اخفق الآن في مهامه كما أخفق من قبل ، وعجز عن ضبط الأمور في البصرة ، والحيلولة دون تفجر الفوضى فيها ، كما أنه لم يفلح في دفع شبح الثورة عنها ، وبات على معاوية البحث عمن يوليه البصرة .

في الحقيقة توفر لمعاوية العديد من الشخصيات الاموية ، لكن هذا الخليفة الطموح استهدف انشاء اسرة ملكية تنتمي اليه بالدرجة الاولى لا إلى العشيرة الأموية ، وسعى في سبيل مصلحته هو لا في سبيل مصلحة العشيرة ، وكان المغيرة يقرأ أفكار معاوية ويعرف ما يريد ، ولذلك عندما استشار معاوية المغيرة اشار عليه بزياد بن أبيه ، وزياد هذا كان احدى صنائع المغيرة ، حضر معه فتوح العراق ، وتدرب على يديه وتأثر به كثيراً ، وفي الفترة التي وجد بها الامام علي بالعراق ، عمل زياد لصالحه ، وتعصب له ، ويروى أنه اعتصم بعد اغتياله في بلاد فارس ، وكانت لديه كميات كبيرة من الأموال .

وبناء على نصائح المغيرة تطلع معاوية نحو زياد ، وأراد استدراجه الى جانبه وتحويله الى صفه ، وقطع الاتصال بينه وبين المعارضة الشيعية ، وهنا توسط المغيرة بينهما ، وأفلح في مسعاه ، وقام معاوية بالحاق زياد بنسبه ، وجعله أخاً له من أبيه

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ـ ق ١ ـ ص ٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٦٦ أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد (طبعة مصورة . بيروت دار الكتاب العربي) ج ١ ص ١٩١ .

أبي سفيان ، ذلك أنه كان بحاجة ماسة الى زيادة تعداد الاسرة السفيانية ، وبعد هذا عينه والياً على البصرة وفي سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م دخل زياد البصرة فنجح حيث أخفق غيره ، ورسم سياسة واضحة بين مرتكزاتها في خطبته المعروفة باسم البتراء ، واعتمدت سياسته على الشدة والارهاب ، وأراد نفي جند العراق الى خراسان ، وشن حرباً لا هوادة فيها ضد الخوارج ، والمدهش هنا ليس حروبه ضد الخوارج ، بل انقلابه الكامل وتحوله ضد الشيعة ، وأعماله التي قام بها ضدهم [1] .

ونعود الآن بعد هذه المقدمة الى سياق الموضوع :

تحدث المؤرخون المسلمون مع العلماء الذين اهتموا بالملل والنحل عن الخوارج كثيراً ، وبينوا أسماء فرقهم ، إنما عن طريق وصف حالة كانت قائمة وليس تبيان أصولها وأسباب ومراحل الوصول الى تلك الحالة ، ومن ذلك ما قاله الناشيء : «الخوارج أربعة أصناف : الازارقة . . أصحاب نافع بن الأزرق ، والنجدية أصحاب نجدة بن عامر الحنفي ، والاباضية اصحاب عبدالله بن اباض ، والصفرية أصحاب عبدالله بن صفار ، ومن هذه الأصناف الأربعة تشعبت فرق الخوارج كلها» [2] .

لم يوضح لنا الناشيء ـ شأنه شأن غيره من علماء المسلمين ـ كيف تكونت هذه الفرق الأربع ، كما أنه لم يبين لنا الذي ألم بحزب الخوارج حتى تمزق الى أربع فرق رئيسة ، وفي عودة الى مجمل مصادرنا بحثاً عن حل لهذه المعضلة ترانا نواجه بوضوح مشكلة أساسية تتعلق بالتطورات التي مرت بها حركة الخوارج ما بين معركة النهروان وتاريخ ظهور هذه الفرق الأربع .

وتوحي المصادر أن هذا الظهور كان في حوالي سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ ، أي إثر وفاة يزيد بن معاوية وما تبع ذلك من فوضى سياسية في الشام والعراق والحجاز

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤١ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ١ ص ١٦٣ ـ ١٩٥ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٨ ، ٢١٤ ـ ٢١٥ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) : الناشيء الأكبر ـ مسائل الامامة ـ ط. بيروت ١٩٧١ ص ٦٨ .

وخراسان ، ومعروف أن الفترة التي فصلت ما بين معركة النهروان وعملية ظهور هذه الفرق تزيد على ربع قرن من الزمن ، وهي الفترة التي حكم فيها الفرع السفياني من بني أمية .

ومر الباحثون في العصر الحديث بهذه القضية بدون اعطائها ادنى اعتبار ذلك أنهم ركزوا جهودهم على تتبع أخبار العمليات العسكرية للثورات الخارجية ولم يهتموا بتاريخ الحزبية السياسية وتطورها الا اهتماماً سطحياً ، من ذلك مثلاً نجد عوض خليفات يقول لدى حديثه عن ظهور الخوارج المعتدلين والقعدة :

«كانت معركة النهروان المعركة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة ضد عدو واحد ، وبعد ذلك تفرق شملهم»[1]

وكنا نتمنى لو أخبرنا خليفات كيف تفرق شملهم ، ولكنه لم يفعل ، وفي الحقيقة كانت معركة النهروان المعركة الاولى والأخيرة التي اجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة ، لكنها لم تكن المعركة الاخيرة التي اجمعوا فيها على القتال ضد عدو واحد ، وهذا ما سنوضحه بعد قليل :

بعد النهروان لم يتوقف نشاط الخوارج الكوفيين ضد الامام علي بن أبي طالب ، وخرجت فئات منهم قليلة هنا وهناك ، تم القضاء على بعضها واستتر بعضها الآخر ، لكن هذا لم ينه حركتهم ، وظل لهم من يوافقهم على رأيهم في مدينة الكوفة[2] .

وبعد اغتيال خوارج الكوفة لعلي بن أبي طالب رأيناهم يحاولون اغتيال الحسن بن علي ، وبعدما دخل معاوية الى الكوفة شعر بضرورة ملاحقة الخطر الخارجي ، فأوعز الى واليه المغيرة القيام بهذه المهمة ، وفي خلال عدة سنوات تمكن المغيرة من وضع حد لنشاط خوارج الكوفة وابعاد شبح خطرهم عن مدينته ، وساعده على ذلك التوزع القبلي للخوارج وأهل الكوفة ، وقوة سلطته وفتوة الدولة

---

(١) : عوض خليفات ـ نشأة الحركة الاباضية ـ ط. عمان ١٩٨٧ ص ٦٤ .

(٢) : من أجل نشاط الخوارج بعد النهروان ضد الامام علي انظر المادة الممتازة التي أودعها أحمد ابن عبد الوهاب النويري في كتابة نهاية الارب ج ٢ ط. القاهرة ١٩٧٥ ص ١٨٠ ـ ١٩٠ ، ٢٠٥ ـ ٢٢١ .

الاموية الجديدة ، والسياسة الحديدية التي اعتمدتها في العراق ، واتجاه أهل الكوفة نحو التشيع لآل البيت «علي بن أبي طالب» ومن لم يفعل ذلك منهم أيد السلطة الاموية ونفذ سياساتها ، وحاول الخوارج أكثر من مرة استدراج الكوفيين للقتال ضد السلطة الاموية على اعتبار أنها عدوة لهم جميعاً فأخفقوا وأكثر من ذلك آثر الكوفيون القتال ضد الخوارج [1] .

لقد كان الكوفيون يؤثرون دوماً مصالحهم السياسة ولا يقيمون كبير اعتبار لميولهم العقائدية اذا تعارضت مع مصالحهم السياسية ومنافعهم الدنيوية ، فهم استدعوا الحسين بن علي اليهم ، وكانت قلوبهم معه ، لكن الأهم ان سيوفهم عملت لصالح بني أمية فقتلت الحسين وأبادت الأسرة الهاشمية ابادة شبه كاملة .

لقد عزا بعض الأوائل التقلب السياسي لدى الكوفيين الى طبيعة اقليمهم ، فقد تحدث كوفي شهد كربلاء عن رؤيته للنبي ﷺ مع علي في المنام ، وبعدما أكمل حديثه قال له أحد الحضور : «يا عبد الله كل من بر العراق واشرب من ماء الفرات ، فما أراك تعاين محمداً أبداً» [2] .

في الواقع بينما كان نشاط الخوارج يتضاءل في الكوفة ، أخذ هذا النشاط في الوقت نفسه يزداد في البصرة ، الى حد أن البصرة غدت مع الأيام مركز الخوارج الرئيسي ، وانعدم الوجود الخارجي في الكوفة ، ويعود هذا الى عدة أسباب أهمها على الاطلاق تمركز قبيلة تميم القوية في البصرة .

لقد سبق أن رأينا قبيلة تميم لا تشارك في معركة الجمل ، ورأينا أيضاً خروج اوائل المتمردين بعد الجمل على الامام علي منها ، كما وظهر منها أوائل زعماء الخوارج بعد صفين ، وكان زعيم تميم الأكبر هو الأحنف بن قيس ، وكان له وزنه السياسي والاجتماعي العظيم ، وهو لم يمحض بني امية الولاء ، بل أظهر لهم نوعاً من المعارضة ، كما أنه منع قبيلته من المشاركة في معركة الجمل ، وكان ولاءه للامام علي مشوبا بالحذر الشديد ، ومع أنه لم يتميز بلون سياسي موحد ، نجد

---

(١) : النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٢٧٠ ـ ١٨٣ . خليفات ـ المرجع نفسه ص ٦٤ .

(٢) : ابن عساكر ـ المصدر نفسه (ترجمة الحسين بن علي ـ ط. بيروت ١٩٧٨) ص ٢٩٨ ـ ٢٢٩ .

المصادر الاباضية تعده واحداً من رجال الطبقة الثانية عندهم ، ونحن وان كنا لا ندري مدى صحة ذلك يمكننا القول انه اهتم أولاً وآخراً بمصالح قبيلته من تميم ، هذا ويلاحظ أنه بعد وفاة الاحنف لم يخلفه أحد ملك السيطرة على قبيلة تميم كما ملكها هو[1] .

لقد أتت مصادرنا على ذكر عدد من الشخصيات التميمية التي اسهمت في النشاط الخارجي اسهاماً مؤثراً جداً ، ويتضح من مواد هذه المصادر على اختلافها ان ابرز التميميين كانا الأخوين : عروة بن أدية ، ومرداس بن أدية ، وكانت أدية امهما أو جدتهما ، وكان أبوهما يعرف باسم حدير ، ولذلك ورد ذكرهما احياناً تحت عنوان ابني حدير . وكان مرداس ابرز دوراً من أخيه عروة مع أن الأخبار تجمع على أن عروة كان أول من حكم ، وأنه حضر النهروان ونجا منها ، وعاد بعد ذلك الى البصرة ، لكن مع بداية حكم زياد للبصرة ، أقدم على قتله ، وبقتل زياد له آلت الزعامة الى أخيه أبي بلال مرداس ، وأول ذكر لنشاطه كان رده على زياد اثناء القائه لاحدى خطبه ، ولربما كانت خطبة البتراء[2] .

وتستحق شخصية أبي بلال مرداس وقفة خاصة ، حيث يبدو أن ثلاثة من بين الفرق الخارجية الأربع ارتبطت به من حيث اصولها ، كما ويبدو أنه هو الذي جعل من البصرة مركزاً رئيساً للخوارج بدلاً عن الكوفة .

لقد ورد ذكر مرداس في أكثر من مصدر ، ولحسن الحظ ان الدرجيني جمع في كتابه «طبقات المشايخ» جل ما ورد في المصادر حوله[3] ، وهو من حيث النسب كان تميماً من تميم البصرة .

---

(١) : الزبير بن بكار ـ الاخبار الموفقيات ـ ط. بغداد ١٩٧٢ ص ١٥٨ . الدرجيني ـ المصدر نفسه ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ . وترجم ابن العديم للاحنف ترجمة طويلة في كتابه بغية الطلب انظر ج ٣ ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ـ ص ١٣٠٢ ـ ١٣٢٢ .

(٢) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ١ ص ١٥٦ ـ ١٦٢ . ابن أبي الحديد ـ نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٩ . الدرجيني ـ المصدر نفسه ج ٢ص ٢١٤ ـ ٢٢٦ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٣١٤ ـ ٤٨٢ . الشماخي ـ المصدر نفسه ص ٦٢ ـ ٦٥ .

(٣) : الدرجيني ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٤ ـ ٢٢٦ .

ويبدو انه لم يشارك في القتال في معركة الجمل ، ذلك أن قبيلة تميم لم تشارك فيه ، لكنه شارك في معركة صفين إلى جانب الامام علي بن أبي طالب وكان مع اخيه علي رأس الذين رفضوا التحكيم ، وحوله وحول أخيه تمحور النشاط الحروري الأول في البصرة ، وقد شارك مرداس في معركة النهروان ، ومن ثم نجا منها واستقر في البصرة ، وآثر أثناء استقراره فيها السكون ، ومن هذا السكون صدر - كما سنرى - عقيدة الخوارج المعتدلين الذين عرفوا بالقعد ، لكن هذا القعود لم يكن قعودا مطلقا وسكونا بلا حركة ، فهو لم يتوقف عن النشاط الفكري والعقائدي ، ولاشك أنه كان لهذا النشاط أبعد الآثار . ويبدو أنه ومعه أخاه اصطدما بزياد اثناء مباشرته لولاية البصرة لمعاوية بن أبي سفيان وكان زياد - كما مر معنا - هو الذي قتل أخاه عروة .

وكان ايمان مرداس بالاسلام عميقا ، وقد التزم بعقيدته التزاما شديدا ،وزهد بالحياة وملاذها زهدا مطلقا ، حتى أنه عندما أودعه ابن زياد في السجن رق له صاحب السجن، وسمح له بمغادرته وزيارة أهله، ويروى أنه في أحد الأيام قرر ابن زياد قتل سجنائه من الخوارج ، وكان مرداس في زيارة لأهله ، وعرف ذلك فتهيأ للرجوع الى السجن فقال له أهله : «اتقي الله في نفسك ، فإنك ان رجعت قتلت فقال : ما كنت لالقى الله غادرا ، فرجع الى السجان فقال : اني علمت ما عزم عليه صاحبك ، فقال : أوعلمت ورجعت ؟![1] .

ويروى أيضا أنه رأى اعرابيا يهنأ بعيرا له ، والبعير يرغي ويزبد ، فسقط مرداس مغشيا عليه ، وسئل بعد ذلك عن سبب ما اصابه فقال موجها خطابه للاعرابي :

«رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم فأصابني ما رأيت[2] » .

---

(١) : الدرجيني - المصدر نفسه ج٢ص٢١٧ .

(٢) : المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص ٩٩٠ - ٩٩١ . الدرجيني - المصدر نفسه ج٢ ص٢١٧ .

لقد دخل مرداس سجن ابن زياد أكثر من مرة ، وكان معه في السجن ابرز شخصيات خوارج البصرة ، لاسيما نافع بن الازرق ، ويبدو أنه خرج مع غيره من السجن في أواخر حكم ابن زياد ، ثم اضطر الى مغادرة البصرة واعلان الخروج على السلطات الاموية .

ويبدو ان عدد الذين لحقوا به كان ضئيلا ، وقد عسكر مع أتباعه بمنطقة آسك - موقع بين رامهرمز وأرجان - ولم يكن في نيته أو نية أصحابه القيام بأعمال عسكرية ، انما كان قصده كما قال لاصحابه : «ننتبذ عنهم ، ولا نجرد سيفا ، ولا نقاتل الا من قاتلنا[1]» .

ومر به في أحد الأيام ركب كان يحمل مالا لابن زياد ، فأخذ من المال أعطيته وأعطيات أصحابه، وكانوا أربعين رجلا، فأثار هذا حفيظة ابن زيادة فأرسل ضده قوة، قيل انها تألفت من ألفي رجل ، وأخفقت هذه القوة الكبيرة في مهمتها ، وهزمها أبو بلال ، وبعد هذا جهز ابن زياد قوة جديدة قيل انها ضمت مالا يقل عن ثلاثة آلاف من المقاتلين ، واستطاعت هذه القوة الحاق الهزيمة بأبي بلال وصحبه ، وقد قتل فيها أبو بلال وكان ذلك سنة /٦١/هـ [2]وهي السنة التي شهدت فاجعة كربلاء وتبدلات هائلة في جميع المجالات بالنسبة لجميع القوى الاسلامية والأحزاب .

لقد كان لمقتل مرداس أبعد الآثار على تاريخ حركة الخوارج، فهو لم يكن شخصا عاديا ، بل كان المثل الأعلى للشخصية الخارجية ، ولقد كان الموجه والمعلم للشخصيات الخارجية القيادية من قبيلة تميم : وهم نافع بن الأزرق وعبد الله بن الصفار ، وعبد الله بن اباض ، وشكل هؤلاء ثلاثة من أربعة من بين قادة فرق

---

(١) : المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص ٩٩١ . ياقوت الحموي - معجم البلدان (مادة آسك)

(٢) : المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص ٩٩١ - ٩٩٨ . الطبري - المصدر نفسه ج ٥ص ٤٧٠ - ٤٧١

الدرجيني - المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣ . خليفات - المرجع نفسه ص ٦٩ - ٧٠ .

الخوارج الرئيسية ، كما كان من قبيلة تميم بنو المحاحوز : عبد الله وعبيد الله والزبير وحنظلة بين بيهس[1].

ومن المهم بالنسبة لنا أن نتناول أولا بالبحث شخصية نافع بن الأزرق ذلك أن اسمه أعطي لأكثر حركات الخوارج شدة وتطرفا في بداية العصر المرواني ، والرائج لدى بعض الناس ان نافع الأزرق كان من قبيلة «حنيفة» فهذا ما ذكره على سبيل المثال ابن حزم الاندلسي في جمهرته[2] .

وكانت حنيفة كما هو معروف من أعظم قبائل شبه جزيرة العرب . وبالنظر لموقفها من الاسلام ، ولردتها الكبيرة الشأن التي تزعمها مسيلمة الكذاب والفناء الذي نزل بها ، ولسياسة الدولة أيام أبي بكر وعمر لم تشارك حنيفة في حركة الفتوحات سواء على جبهة الشام او على جبهة العراق ، كما اننا لم نسمع بوجود حنفي في الكوفة والبصرة بعد تمصيرهما ، ومن المرجع أن بقايا حنيفة ظلت في ديارها في بلاد اليمامة ، وفي الحقيقة ان أول نشاط علني ظهرت به حنيفة هو عام /٦٢/هـ حين خرج نجدة بن عامر ، وأعلن عن تبنيه لرأي الحرورية ، وبما أن ابن حزم كان أندلسيا فإن الروايات المشرقية لاسيما القديم منها يؤخذ بها ترجيحا ويتم اعتمادها .

والعمدة في الأنساب العربية هو ابن الكلبي ، ولم يأت ابن الكلبي في جمهرته على ذكر نافع بن الأزرق ولكنه ذكر نجده بن عامر[3] .

وذكر الطبري زعماء الخوارج من تميم بقوله : «فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي ، وعبد الله بن صفار السعدي من بني صريم بن مقاعس ، وعبد الله بن اباض أيضا

---

(١) : ابن الكلبي ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٤٦ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣

(٢) : ابن حزم المصدر نفسه ص ٣١١ . (من المرجح ان كلمة حنظلي صحفت الى حنيفي من قبل أحد النساخ أو من قبل محقق جمهرة ابن حزم) .

(٣) : ابن الكلبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٤ . وانظر أيضا كتاب النسب لأبي عبيد القاسم بن سلام ـ رسالة ماجستير دمشق ١٩٨٧ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨ .

من بني صريم ، وحنظلة بن بيهس ، وبنو الماحوز : عبد الله وعبيد الله والزبير ، من بني سليط بن يربوع حتى أتو البصرة»[1] .

جاء حديث الطبري هذا لدى روايته خبر مفارقة زعماء الخوارج لعبد الله بن الزبير في مكة ، والتمييز في هذا الحديث بين الزعماء التميميين وسواهم واضح تماما ، لنستمع الى بقية الرواية قول الطبري : «فانطلق أبو طالوت من بني زمان ابن مالك بن صعب بن علي بن مالك بن بكر بن وائل ، وعبد الله بن ثور أبو فديك من بني قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسود اليشكري الى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي ، فأما البصريون منهم فانهم قدموا البصرة وهم مجمعون على رأي أبي بلال[2] .

وذكر النويري أيضا بشكل واضح ان نافع بن الأزرق كان حنظليا من بني تميم بقوله : «وتفرق القوم ، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي ، وعبد الله بن صفار السعدي ، وعبد الله بن اباض ، وحنظلة بن بيهس ، وبنور الماحوز : عبد الله وعبيد الله والزبير من بني سليط بن يربوع ، وكلهم من تميم حتى اتوا البصرة[3]» .

ان التوصل الى معرفة النسب الصبح لنافع بن الأزرق يسهل علينا فهم تزعمه لخوارج البصرة الذين كانوا في غالبيتهم من قبيلة تميم ، وجاءت فرصة التزعم هذه مع انهيار السلطة الأموية في العراق ، ومغادرة عبيد الله بن زياد للبصرة ، في تلك الآونة ، كان ـ كما هو معلوم ـ جيش يزيد بن معاوية يحاصر مكة المكرمة التي أعلن فيها عبد الله بن الزبير ثورته وحقه بالخلافة ، وأبدى عبد الله بن الزبير أثناء حصاره مرونة كبيرة ـ ان لم نقل انتهازية عظيمة ـ فأظهر للناس ما أوحى للحرورية أنه يرى رأيهم ، وسهل ذلك عليه بعض علاقاته البصرية منذ أيام معركة الجمل وأنه لم ينتم لا لبني أمية ولا الى شيعة علي بن ابي طالب العدوين الأساسيين للحرورية ، وأدى هذا الى قدوم نجده بن عامر الى مكة لمساعدة ابن الزبير في الدفاع عن الحرم ضد الجيش الاموي ، وفي تلك الاثناء كان ابن الزبير

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٦

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧

(٣) : النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

قد أرسل مبعوثين عنه ومن قبله الى الأمصار لاسيما الى العراق لاستنفار المسلمين للدفاع عن الكعبة ، وكان أبرز الدعاة في هذه المهمة من تميم البصرة وكذلك المستجيبين له[1] .

واستجاب زعماء خوارج البصرة ، وتوجهوا الى مكة المكرمة ، ولعل وجودهم في مكة وتعاونهم مع ابن الزبير كان من بين المؤثرات على ابن الزبير في رفضه عرض ابن نمير عليه الذهاب معه الى الشام .

يتضح من مواد الكامل للمبرد أن ابن الأزرق كان يلقى أثناء وجوده في مكة عبد الله بن عباس وكان يتوجه إليه بالاسئلة ، وغالبا ما كانت هذه الاسئلة تحمل في مضامينها مؤثرات التطرف[2] .

ان اسئلة ابن الأزرق التي طرحها على ابن عباس أظهرت مدى تعمقه ورغبته في زيادة المعرفة ، وكان الذي أورده المبرد ـ كما يبدو ـ مجرد نماذج ، وقبل التعمق في بحث هذه المسألة الحساسة ، لنتذكر ان عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه كان من كبار شخصيات الخوارج ، ولابد من سؤال عن الجهة التي جاءته منها المؤثرات الخارجية وعن دور ابن عباس ، ولقد كان لابن عباس حلقة خاصة به في مكة ، ويرجح أنها كانت ساحة لقاء وتفاعل بين شخصيات الخوارج وافكارهم ويستخلص من بعض الروايات ان ابن عباس كان يوجه المناقشات شخصيا[3] .

وبعد انسحاب الجيش الاموي شعر ابن الزبير بقوة موقفه وأنه لم يعد بحاجة لتأييد الحرورية ، وبدأت بعض المشاكل تثور بينه وبينهم ، وأخيرا قرر البصريون بزعامة نافع بن الازرق التوجه الى ابن الزبير لامتحانه حيث قالوا : «ندخل على هذا الرجل فننظر ما عنده فإن قدم أبا بكر وعمر وبرىء من عثمان وعلي ، وكفر

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥٠ .

(٢) المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٥٧ ـ ٩٦٨ .

(٣) : أحمد بن حجر العسقلاني ـ تهذيب التهذيب ط . حيدر أباد الدكن ١٣٢٦ . ج ٧ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣ .

أباه وطلحة بايعناه ، وان تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يجدي علينا»[1] .

وبالفعل قام حوار طويل بينهم وبين ابن الزبير أدى في النهاية الى عدم الاتفاق ، ووضح أن ابن الزبير يعمل في سبيل مصالحه الذاتية وليس لصالح الاهداف الخارجية ، ولهذا «تفرقت الخوارج عن ابن الزبير . . . فسارت طائفة الى البصرة وطائفة الى اليمامة[2] .

ويبدو ان بوادر الشقاق قد ظهرت بين فئات الخوارج وهم في مكة ، ولعل هذا يعلل سبب ذهاب جماعة منهم الى البصرة واثنتان الى اليمامة واحدة بزعامة أبي طالوت واخرى بزعامة نجدة بن عامر الحنفي لأن الغلبة في اليمامة كانت لبني حنيفة ولم تكن ليشكر وبكر بن وائل .

لقد كان نجدة بن عامر منذ قدومه الى مكة يعتبر نفسه أميراً للمؤمنين وفي موسم الحج خرجت له راية خاصة به وذلك بالاضافة الى راية ابن الزبير وراية والي بني امية على مكة ، ولقد حدث هذا قبل وصول جيش الحرة الى مكة .

هذا ولو ان حرورية البصرة بايعوا نجدة أو أظهروا أدنى تعاون معه لأشارت المصادر الى ذلك ، لاسيما أنه لم يكن بين هؤلاء من ادعى الامامة أو اعترف بزعامة امام حروري معلن في المشرق ، يضاف الى هذا مسألة ارسال أبي طالوت وأبي فديك عبد الله بن ثور الى اليمامة» حيث وثبا اولا باليمامة ثم اجتمع الحرورية بعد ذلك على نجدة بن عامر وتركوا أبا طالوت[3]» .

على هذا من الممكن القول : انه بعد مغادرة شخصيات الحرورية مكة انقسموا الى شطرين عراقي وحنفي يمامي ، ومالبث بعد هذا أن تمزقت الجماعة التي ذهبت الى

---

(١) المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص١٠٢٣ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٥٦٦ - ٥٦٧ . النويري - المصدر نفسه ج٢٠ ص٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٢) - المبرد - المصدر نفسه ج٣ ص١٠٢٣ - ١٠٣٠ . الطبري - المصدر نفسه والصفحة . النويري - المصدر نفسه والصفحة .

(٣) : الطبري - المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٤ - ٥٦٧ . النويري - المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥١٩ - ٥٢٣ .

العراق إلى ثلاثة أحزاب رئيسية هي : الصفرية ، والأزارقة ، والاباضية وبما ان الأزارقة كانت أبرز هذه القوى ، وهي التي سيطرت على ساحة النشاط فلنبدأ الحديث عنها اولا .

الأزارقة :

بعدما عاد نافع مع صحبه الى البصرة أقام هناك لبعض الوقت في التذاكر في أمور تعلقت بكثير من جوانب العقيدة والدين وكانت اتصالا لما كان يثار في مكة المكرمة، وكان نافع حتى استقراره في البصرة مايزال يؤمن بالقعود وعدم استعراض المسلمين اقتداء بآراء أبي بلال مرداس ، لكن المناقشات قلبت رأيه ، حيث أنه تأثر بآراء بعض المتطرفين من صحبه ، وهناك أكثر من رواية تتحدث عن السبل التي تأثر بها نافع فبدل نتيجتها موقفه والآراء التي كان يؤمن بها .

من ذلك ما رواه المبرد في كامله : «ولم يزالوا على رأي واحد يتولون أهل النهر ومرداسا ومن خرج معه حتى جاء مولى لبني هاشم الى نافع فقال له: «أن أطفال المشركين في النار ، وان من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الاطفال لنا حلال ، قال له نافع : كفرت وأدللت بنفسك ، قال له : ان لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني (قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) ـ سورة نوح الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ ـ فهذا أمر الكافرين وأمر اطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعا في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر الا من أظهر ايمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ، ومتى جاء منهم جاء فعلينا ان نمتحنه ، وهم ككفار العرب لانقبل منهم الا الاسلام او السيف ، والقعد بمنزلتهم والتقية لاتحل[1]» .

ويعزو المبرد الى تغيير نافع لمواقفه تحرك نجدة وأصحابه في اليمامة ، الامر الذي أدى الى خلع أبي طالوت ، ومهما يكن من أمر لم يلجأ نافع الى ممارسة العنف والاخذ بسياسة استعراض المسلمين مباشرة ، فقد جرت مراسلات بينه وبين

---

(١) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٣١ ـ ١٠٣٢ .

الثلاثة المتبقين من زعماء الحرورية ودعا نافع كل من نجدة وعبد الله بن اباض وعبد الله بن الصفار الى رأيه ومن ثم الى الالتحاق به ولكنهم رفضوا القبول بمبدأ تكفير جميع المسلمين ولاسيما الاطفال منهم ، ولم يقبلوا بمبدأ استعراض الناس واستمر الجدل بين هذه الاطراف بعض الوقت ، واتسعت رقعة المناقشات ، وكانت فيما بينهم وبين نافع وفيما بين بعضهم بعضا ، وخلال المناقشات شارك ابن اباض نافعا بعض المشاركة في آرائه ، لكن ابن الصفار تشبث بمواقفه ورفض جميع آراء ابن الأزرق .

روى الطبري انه عندما وصلت رسالة من نافع الى ابن اباض وابن الصفار التقيا وتناقشا بالامر فقال ابن اباض بعد قراءته لرسالة نافع : «صدق نافع بن الأزرق ، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأيا وحكما فيما يشير به ، وكانت سيرته كسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في المشركين ، ولكنه قد كذب وكذبنا فيما يقول ، ان القوم كفار بالنعم والاحكام ، وهم براء من الشك ، ولاتحل لنا الا دماءهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام ، فقال ابن صفار بريء الله منك فقد قصرت ، وبرىء الله من ابن الأزرق ، فقد غلا ، برىء الله منكما معا ، وقال الآخر : فبرىء الله منك ومنه[1] » .

ورجحت آراء نافع ولاقت رواجا بين صفوف الخوارج فاشتدت شوكته وكثرت جموعه ، ومع هذا لم يقدم على عمل عسكري حاسم وظل مترددا الامر الذي ضاق به بعض اتباعه وكان من هؤلاء أبو الوازع الراسبي «وكان من مجتهدي الخوارج كان يذكر نفسه ويلومها على القعود ، وكان شاعرا ، وكان يفعل ذلك بأصحابه ، فأتى نافع بن الأزرق ، وهو في جماعة من أصحابه يصف لهم جور السلطان ، وكان ذا لسان عضب ، واحتجاج وصبر على المنازعة ، فأتاه أبو الوازع فقال : يا نافع لقد أعطيت لسانا صارما ، وقلبا كليلا ، فلوددت أن صرامة لسانك كانت

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨ . المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٣٢ ـ ١٠٤٠ .

لقلبك ،وكلال قلبك كان للسانك ، أتحض على الحق وتقعد عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عليه[1]» .

وكان واقع هذا اللوم شديدا على نافع وأثر عليه تأثيرا حاسما ، فأقر أولا بتقصيره ، وأعلن عن عزمه القيام بعمل حاسم لا يستطيع بعده العودة أو التراجع ، «ثم مضى فاشترى سيفا ، وأتى صيقلا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ، فشاوره في السيف فحمده ، فقال : اشحذه فشحذه حتى اذا رضيه حكم وخبط به الصيقل ، وحمل على الناس فتهاربوا منه ، حتى أتى مقبرة بني يشكر[2]» ، وهناك اجتمع اليه من كان يرى رأيه وبلغ عددهم مئات ، فغادروا البصرة الى الأهواز ، وكان برفقة نافع أبناء الماحوز الأخوة الثلاثة ، «وأقام نافع بالاهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال» وكان ذلك في آخر شهر شوال سنة /٦٤/هـ (حزيران ٦٨٤ م)[3] .

ويمكننا الآن ان نلخص صورة الأوضاع الجديدة بالكلمات الموجزة التالية : مع تخلي الحرورية عن عبد الله بن الزبير وما تلا ذلك من احداث جسام صار حزب الخوارج مقسوما من حيث المبدأ على الأساس الاقليمي لا العقائدي الى قسمين من حيث المنطلقات العقائدية، قسم متطرف بزعامة نافع بن الازرق ، وقسم معتدل انما ليس بدرجة واحدة من الاعتدال[4] .

عندما مارس نافع بن الأزرق سياسة الاستعراض وخرج من البصرة الى الأهواز كانت الفوضى السياسية والتمزق والحروب المحلية قد تحكمت بجميع ديار

---

(١) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢١ ـ ١٠٢٢ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٨ .

(٢) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢٢ .

(٣) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٢٢ ، ١٠٤١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٨ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤ . معروف ـ المرجع نفسه ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(٤) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٣٨ ـ ١٠٤١ . الطبري المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

الخلافة . ففي بلاد الشام مركز الثقل السياسي للدولة الاسلامية كان النزاع على أشده حول الخلافة بعد يزيد بن معاوية ، وفي الحجاز كان ابن الزبير يعمل جاهدا في سبيل تأسيس نفسه ونيل الاعتراف به ، ومد سلطانه الى جميع الأقاليم لاسيما العراق والشام ، وكانت العراق تعيش في دوامة الفوضى ، فبعض أهل الكوفة تحركوا وتنادوا للثأر لدم الحسين وهم التوابون ، وأخذت الكوفة تسير مسرعة نحو الاصطباغ باللون الشيعي ، أما أهل البصرة فقد خلت مدينتهم من السلطان ، وباتوا يعيشون في فوضى سياسية ، لكن مالبثت الامور ان انجلت ، فقد عقد مؤتمر الجابية في الشام ، وتمت البيعة لمروان بن الحكم ، ثم كانت معركة مرج راهط ، وآل الحكم في البصرة الى ابن الزبير الذي اعترفت به كذلك معظم الزعامات في خراسان .

أما الكوفة فقد نجح المختار بن أبي عبيد الثقفي بالسيطرة عليها بعد قلاقل واضطرابات والمختار هو الآخر كان ـ كما سنرى ـ مع ابن الزبير في بداية الامر ، ثم تخلى عنه بعد ذلك كما فعل الخوارج[1] .

عسكر نافع لدى مغادرته البصرة أولا في منطقة الجسر ـ جسر أبي عبيد الثقفي ـ وبعد مضي وقت قصير عبر دجلة الى الأهواز ، وباتت الأهواز مسرحا لنشاطاته وعملياته ، منها يهدد البصرة ، ومن أهلها يجبي الخراج والضرائب للانفاق على أتباعه ونفسه .

هذا ولا ندري بشكل مؤكد هل منح نافع نفسه لقب امام أو أمير مؤمنين ، ولكن الذي يتضح لنا ان اختيار الاهواز كان له بعض الآثار الجانبية على حركة الخوارج ، فحتى الآن كانت هذه الحركة حركة عربية صافية ، لا شأن لغير العرب بها ، جل رجالاتها من قبيلة تميم ، بيد ان الاستقرار في الأهواز ومن ثم الاضطرار بعد ذلك الى الانتقال الى عمق الأراضي الايرانية هيأ الفرصة الى دخول بعض العناصر غير العربية في حركة الخوارج ، وسيؤدي هذا الدخول في المستقبل الى نتائج خطيرة جداً ، فهو سيمزق حركة الازارقة ، وسيكون سببا مباشراً لدمارها ،

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨ ـ ٣٣٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٩٦ ـ ٥٨٢ .

وهو أيضاً سيهيء الفرصة لالتحاق أعاجم آخرين بميادين النشاط الخارجي الأخرى، كما سيفعل عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية في تيهرت .

حاولت سلطات البصرة الزبيرية القضاء على نافع بن الإزرق وصحبه وجرت المعارك كثيرة بين الطرفين ، ولا يهمنا كثيراً البحث في أخبار هذه المعارك بقدر ما يهمنا أثرها على تطور حزب الازارقة وغير الازارقة من القوى الاسلامية ، ففي اثناء الحروب سقطت زعامات هذا الحزب وقامت الحاجة لاختيار زعامات جديدة وبالمقابل ان اخفاق أهل البصرة وقواها لفترة طويلة في القضاء النهائي على حزب الازارقة أدى الى سقوط بعض الزعامات البصرية ، وبالتالي الى ظهور زعامات جديدة اختصت اختصاصاً كاملاً بحرب الازارقة ، وقادتها نجاحاتها الى احتلال مكان مرموق ، ومن ثم شغلت دوراً كبيراً وفعالا على مسرح الأحداث الأموي .

فمع حركة الفتوحات العربية الكبرى ارتبط ظهور الزعامات بين العرب بمدى الدور المشغول في حركة الفتوحات ، لكن مع قيام الحروب الأهلية بات الطريق الى الزعامة مرتبطا بالدور المشغول في هذه الحروب ، فمعاوية بن أبي سفيان وصل الى زعامة الامة عن طريق الحروب الاهلية ، وعمرو بن العاص ـ فاتح مصر ـ عاد الى ولاية مصر بوساطة دورة في الحروب الأهلية ، ولا شك أن الأثار السلبية لهذا الوضع كانت عظيمة على تاريخ الاسلام والمسلمين .

لقد قتل نافع بن الازرق في الحروب ضد أهل البصرة وكان ذلك سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٥ م ، فآلت زعامة الآزارقة بعده الى عبيد الله بن الماحوز ، وما لبث ابن الماحوز أن قتل ، وهكذا أخذ الازارقة والبصريون يتابعون صراعاتهم وكل منهم يأتي بزعيم من عنده حتى ظهر على مسرح الاحداث قطري بن الفجاءة من جانب الازارقة ، والمهلب بن أبي صفرة من جانب البصريين[1] .

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ . المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٣٢ ـ ١٠٩٩ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٦١٣ ـ ٦٢٢ . الدينوري المصدر نفسه ص ٢٦٩ ـ ٢٧٦ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢٠ ص٥٢٣ ـ ٥٢٧ .

ويلاحظ انه عندما حدث هذا كان حزب الازارقة قد خطا خطوات كبيرة في تنظيمه وبات زعيمه يحمل لقب أمير المؤمنين . فهذا كان حال قطري بن الفجاءة .



صورة دينار ضربة قطري بن الفجاءة سنة ٧٥ هـ حسب
الطراز الساساني وواضحة عليه عبارة
«لا حكم الا لله»

علما بأن المصادر لا تشير الى أن أيا من زعماء الازارقة ـ شروعا بنافع بن الأزرق وحتى قطري بن الفجاءة ـ قد حمل لقب الأمير المؤمنين ، وهذا واضح تمام الوضوح من مراسلات نافع مع زعماء الخوارج وسواهم ، وطبعا لم يكن ذلك حفاظاً على حرمة هذا اللقب ووحدته ،ففي سنة ست وستين كان عدد الذين حملوا لقب الامامة وامرة المؤمنين أربعة : عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن الزبير

ونجدة بن عامر وابن الحنفية ، «وفيها حج نجدة بن عامر ، فوقف ابن الحنفية بأصحابه ، ووقف نجدة بأصحابه ، ووقف ابن الزبير بجماعة الناس[1]» .

واستمرت زعامة قطري بن الفجاءة للخوارج الأزارقة مقدار عقدين من الزمن تولى خلالها القتال ضد جيش جل عناصره من البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة ، وكان المهلب من قبيلة الأزد اليمانية ، وبالمقابل كان قطري من قبيلة تميم العدنانية ، وأمام هذه الأوضاع لا بد من سؤال : هل جاء تعيين المهلب للقتال ضد الأزارقة محض صدفة وهل القضية ارتبطت فقط بمواهبة العسكرية أم لها خلفيات أخرى كبيرة جدا وكانت حاسمة ؟ .

اذا ماعدنا نحو تاريخ البصرة المبكر في محاولة للتعرف الى أهم القبائل التي سكنت فيها ، نلاحظ أنه تصدر القبائل جميعا كل من الازد وتميم ، ولربما كانت الازد أكثر عدداً من تميم ، وكان هنالك بالاضافة الى هاتين القبيلتين : ضبة وناجية ، وعدي ، وبكر بن وائل وغيرهم كثير ، وفي معركة الجمل قاتلت الازد الى جانب عائشة وفقدت بضعة آلاف من رجالها قدرتهم بعض الروايات بأربعة آلاف[2] .

ووقفت قبيلة تميم يوم الجمل على الحياد ، وكانت بزعامة الأحنف بن قيس ، وحين دعت عائشة أم المؤمنين الأحنف للوقوف الى جانبها رفض بشكل واضح ،ثم دعاه بعد ذلك الامام علي فتعلل بأن قومه ليسوا مع القتال وقال للامام علي : «يا أمير المؤمنين اخترمني واحدة من اثنتين : أن أكون معك مع مائتي رجل

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٣ . المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص١٠٣٣ ـ ١٠٤٠ .

(٢) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٧ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ١٤٤ ـ ١٥٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٩٢ ـ ٥٣٥ . ابن الأعثم الكوفي ـ المصدر نفسه ص ٩١٣ ـ ٩٢٩ . ل . ماسينيون ـ خطط البصرة وبغداد ـ ترجمة عربية ط . بيروت ١٩٨١ ص ١٨ ـ ٢٥ . صالح أحمد العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ـ ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٣٥ ـ ٤٤ .

من قومي ، وإما أم أرد عنك أربعة آلاف سيفَ ؟ فقال علي رضي الله عنه : لا بل ردهم عني[1]» .

يستدل من هذا أن عواطف التميميين كانت عواطف بصرية ، ومع ذلك آثر التميميون عدم التورط في القتال حفاظا على وحدة القبيلة وقوتها ، وبعد معركة الجمل ظلت عواطف التميميين بصرية واضحة ، وليستْ مع علي بكل وضوح[2] . وازداد الموقف وضوحا فيما بعد خلال القتال في صفين ، ومن ثم خروج المحكمة للمرة الاولى .

ولقد مر معنا أن أول من حكم كان من تميم ، واذا ما استعرضنا بعد هذا أسماء أكبر زعماء الخوارج وأشدهم تأثيراً ، لا سيما بعد انتهاء المرحلة الكوفية وانتقال زعامتهم ونشاطهم الى البصرة ، نراهم جميعاً ـ في العراق ـ من قبيلة تميم ، الى حد أن الأحنف بن قيس عدته المصادر الاباضية من الخوارج انما ممن لم ير الاخذ بسياسة الاستعراض وتكفير المسلمين قاطبة[3] .

هذا ويلاحظ أن الذين حكموا البصرة بعد عام /٦٠ هـ/ شعروا أن مشكلة الخوارج مشكلة تميمية ، ومن المستحسن ايجاد حل تميمي لها ، ففي سنة /٦١ هـ/ بعدما خرج مرداس بن أدية ، أرسل عبيد الله بن زياد ضده جيشا فيه ثلاثة آلاف مقاتل عليه عباد بن الاخضر التميمي ، وقد تمكن هذا الجيش من قتل مرداس[4] .

وبعدما خلت البصرة من السلطات اثر فرار عبيد الله بن زياد منها ، وقبل ان تستقر الأمور فيها لصالح أية قوة من القوى المتصارعة ، تفجر صراع عنيف ودموي في هذه المدينة سنة ٦٤ هـ بين تميم والأزد ، ولم ينجم عن هذا الصراع حسم تقرير السيادة لصالح أي واحد من الفريقين ، بيد أن هذا الصراع مع أجواء الحرب والاضطراب كانت من بين الأسباب التي ساعدت نافع بن الأزرق على

---

(١) : ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٩٠٦ . مع مصادر الحاشية السالفة .

(٢) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٢٤ ـ ٢٦ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٩٠٦ .

(٣) : الدرجيني ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٤) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٩٦ ـ ١٠٠١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٧١ .

حسم مواقفه وعجلت بخروجه من البصرة والعسكرة أولا في الجسر ثم بالاهواز ، وبعد هذا بفترة وجيزة أصبحت البصرة تابعة لابن الزبير[1] .

ورأت الادارة الزبيرية أن البصرة مهددة من قبل الازارقة ، فكان أن قامت سنة /٦٥ هـ/ بتكليف المهلب بن أبي صفرة ، وكان أبرز زعماء الأزد ، بقيادة الجيوش ضد الأزارقة[2] .

لقد كانت قبائل تميم تشكل قوة قبلية متميزة في البصرة ، فقد عدد خليفة ابن خياط ـ وهو بصري ـ أسماء ثمان وأربعين عشيرة من مختلف قبائل العرب سكنت البصرة والمثير للانتباه الوجود المتميز للأزد ولتميم ، فثلاث عشرة عشيرة من المجموع العام كانت من تميم ، في حين أن بعض القبائل الأخرى كثقيف وقريش وكنانة وهوازن لم يكن لكل منها أكثر من عشيرة أو عشيرتان[3] .

وقاد المهلب الحروب ضد الازارقة وطالت مدة الصراع وكانت النجاحات لفترة طويلة محدودة ، وكانت مسارح الصراع داخل الاراضي التي تبعت البصرة ، وحدة المعارك التي دارت بين الطرفين وطول مدتها وروح المثابرة فيها عنت ان العصبية الأزدية تولت القتال ضد العصبية التميمية ، وقد تدثرت العصبية الأزدية بدثار الشرعية الزبيرية أولاً ثم الأموية ، وتابعت تميم في ارتداء الدثار الخارجي .

لقد استمر الصراع قرابة عقدين من الزمن وحين هزم الأزارقة جاء ذلك بمثابة انتصار أزدي ، فقد صعد نجم أسرة المهلب ، وهكذا تهيأت السبل امام هذه الأسرة للقيام بدور كبير في تاريخ البصرة والعراق وخراسان ، وليس على هذا من المغالاة القول ان تدمير حزب الازارقة قد أفسح المجال لظهور حزب المهالبة[4] .

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٩ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٦١٥ .

(٣) : خليفة بن خياط ـ كتاب الطبقات ط . دمشق ١٩٦٦ ج ١ ص ٤٠٩ ـ ٤٤٣ .

(٤) : من أجل تفاصيل المعارك بين الازارقة والجيوش التي قادها المهلب انظر : المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ ص٦٦٩ ـ ١١٧٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٦١٣ ـ ٦٢٢ ، ج٦ ، ص١١٩ ـ ١٢٧ ، ١٩٥ ـ ١٩٩ ، ٢١١ ـ ٢١٥ ، ٣٠٨ ـ ٣١١ ، ٣٢٥ ـ ٣١٦ ، ٣٥٤ ـ ٣٥٥ . النويري ـ المصدر نفسه ج٢١ ص١٤٧ ـ ١٦١ .

لقد كانت الأراضي التي شهدت الحروب بين الأزارقة وجيوش المهلب قد وقعت شرقي البصرة من الأهواز حتى خراسان ، ولم تكن شعوب هذه الأراضي عربية ، بل أعجمية وأدى هذا مع طول مدة الصراع الى دخول بعض العناصر غير العربية في حركة الأزارقة ، مما كان له أبعد الآثار ، وأدى الى دمار هذه الحركة فيما بعد مع نتائج أخرى ، فقد تمزقت صفوف الازارفة ، ومن المعروف ان التمزق يقود دوما الى الدمار[1] .

لقد أفقد هذا الدمار الأزارقة ساحة للصراع استثمروها طويلاً ، ليشغلها سواهم بشكل فعال قاد بالنهاية الى الاطاحة بالدولة الأموية ، وفقدان ساحة الصراع المشرقية والضربات المدمرة التي ألمت بصفوف الأزارقة لم تغيبهم عن ساحات الثورة ضد الخلافة وكان لابد للعناصر التي نجت من المشرق من أن تبحث عن ساحة لنشاطها جديدة ، ووقع الاختيار الآن على الجزيرة في اعالي بلاد الرافدين .

فالى الجزيرة هرب صالح بن مسرح التميمي ، ونظراً لعدم وجود عناصر تميمية في الجزيرة نشط صالح في أوساط قبائل بكر لا سيما شيبان ، وبذلك أرسى القواعد لنشاط الازارقة لفترة طويلة من الزمن في الجزيرة في أيدي قادة من قبيلة شيبان ، انما لم يقدم هذا النشاط أية تغييرات سياسية أو عقائدية ، ونظراً لكون الجزيرة من أراضي ادارة الكوفة ، فقد باتت الكوفة الآن من جديد مسرحا للنشاط الخارجي العسكري وكان هنالك العديد من الغزوات الجريئة والمعارك برز فيها دور متميز للعنصر النسائي غير أنها ما لبثت أن أخمدت[2] .

وقاد اخماد نشاط الأزارقة في الجزيرة نحو نهاية هذا الحزب واختفائه من على مسرح الاحداث ، وهذا وحيث أن الازارقة لم يتمكنوا من تأسيس دولة أو نظام

---

(١) : المبرد ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١١٣٩ ـ ١١٦٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ٦٠ ص ٣٠٠ ـ ٣١١ . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢١ ص ١٥٢ ـ ١٦٠ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١٦ ـ ٢٨٤ (حوادث سنوات / ٧٥ ـ ٧٧ هـ) . النويري ـ المصدر نفسه ج ٢١ ص ١٦٤ ـ ١٩٩٠ .

حكم سياسي له صفة الاستمرار ، لم تتح أمامهم السبل لانتاج أدب عقائدي مدون كما كان الحال بالنسبة للاباضية .

وليس من شأننا الحديث عن تأسيس الاباضية لأنفسهم ولدولتهم في تيهرت من المغرب العربي فذلك قد حدث مع بداية العصر العباسي ، لكن الذي يهمنا كيفية انتقال الفكر الاباضي وغيره من العقائد الخارجية الى الشمال الافريقي مع التعرف الى الذين تولوا عملية النقل هذه من المشرق .

واذا ماعدنا الى مجموعات الاخبار نجد أنه بعد ما تخلى الخوارج عن عبد الله ابن الزبير ، كان ـ كما أسلفنا القول ـ أبرز زعمائهم : نافع بن الأزرق ، وعبد الله ابن اباض ، وعبد الله بن الاصفر ، ونجدة بن عامر الحنفي .

أما نجدة فقد جعل ـ كما سنرى ـ ساحة نشاطه ديار حنيفة في شبه جزيرة العرب مع أجزاء من الجزيرة ، أما ابن اباض وابن الأصفر فلم يتابعا نافع في مقالته واستمرا في القعود في البصرة ، ونشطا فيها نشاطا فكريا وثقافيا ، وغالبا ماكان ذلك سريا ، ولاشك أنهما تطلعا نحو مناطق ليبثا فيها عقيدتهما كل على حده ، وكان امامهما الشمال الآفريقي وبعض الأطراف الجنوبية من شبه جزيرة العرب ، فوجها جهودهما اليهما وحققا نجاحات كبيرة ومؤثرة كتب لها الاستمرار .

ولايعود الفضل في تحقيق هذا النجاح ـ والحق يقال ـ لهما وانما لابي الشعثاء جابر بن زيد ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعلى هذا يتوجب علينا ايلاء هاتين الشخصيتين ماتستحقان من اهتمام ودراسة وبقدر مايفيد موضوعنا ويتعلق به .

وكان جابر بن زيد الأزدي ـ أبو الشعثاء من كبار التابعين وأعظمهم علما وفقها وحديثا ، كان اصله من أزد عمان وقد صحب عبد الله بن عباس وأخذ عنه وتأثر به أبعد الأثر ، ولد جابر كما هو مرجح مابين سنة ١٨ ـ ٢٢هـ في المنطقة الداخلية من عمان ، وعلى هذا فإن والده كان صحابيا بالمعاصرة ، ولعله رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى جابر عن أبيه ، ونشأ جابر في عمان وهناك تلقى علومه وهاجر في مطلع شبابه الى البصرة أيام الخليفة عثمان بن عفان ، ثم أمضى بقية

حياته في البصرة وفيها توفي سنة ٩٣هـ حسب أرجح الآراء[١] .

وعدت المصادر الاباضية الامام جابر امامها، لابل مؤسس حركتها وفقهها وقد قال عنه الدرجيني في طبقاته : «بحر العلوم العجاج ، وسراج التقوى ناهيك به من سراج ، أصل المذهب وأسه الذي قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضي الله عنه ، وكان أمهر من صحبه وقرأ عليه[٢]» .

أما عكرمة : فهو أبو عبد الله مولى ابن عباس ، كان بربري الأصل ، اشتراه ابن عباس ، ولازمه فنهل من علمه ومن معارفه حتى صار أعلم الناس لاسيما بالتفسير وكانت علاقته بجابر علاقة الزميل في حلقة الامام الواحد ، وقد قام فيما بعد بالتوجه الى القيروان والاقامة بها ، وبث العلم فيها[٣] .

ان أهم مايعنينا ـ الآن ـ في حياة جابر وعكرمة هو أصلهما وعلاقتهما بابن عباس ، ومن ثم علاقة بقية زعماء فرق الخوارج بابن عباس ، ومن المعروف أن الفكر الاباضي انتشر وكتب له الاستمرار والبقاء في عمان وأجزاء عديدة من بلدان الشمال الأفريقي .

هذا ويعزي الى عكرمة نقله لفكر الصفرية من الخوارج الى الشمال الافريقي ـ كما سنرى ـ ذلك ان مايعنينا الان هو البحث عن العلاقة بين زعماء الخوارج الاربعة الكبار وابن عباس ، حيث يبدو أنها كانت علاقة متميزة .

---

(١) ـ ابن خياط ـ (الطبقات) المصدر نفسه ج١ ص٥٠٢ . ابن سعد ـ المصدر نفسه ج٧ ص١٧٩ . الدرجيني ـ المصدر نفسه ج١ ص٢٥٣ . يحيى محمد بكوش ـ فقه الامام جابر بن زيد . ط . بيروت ١٩٨٦ ص١١ ـ ١٢ .

(٢) ـ الدرجيني ـ المصدر نفسه ج٢ ص٢٠٥ . وانظر أيضا أحمد بن عبد الله أبو نعيم الحافظ ـ حلية الاولياء ـ ط . القاهرة ١٩٣٣ ج٣ ص٨٥ ـ ٩١ . محمد بن أحمد الذهبي ـ تذكرة الحفاظ ـ ط . حيد أباد ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ ج١ ص٦٧ . سير اعلام النبلاء ط . بيروت ١٩٨١ ج٤ ص٤٨١ ـ ٤٨٣ . الشماخي ـ المصدر نفسه ج١ ص٧٠ ـ ٧٧ .

(٣) ـ أبو بكر المالكي ـ رياض النفوس ط . بيروت ١٩٨٣ ج١ ص١٤٥ ـ ١٤٦ . أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم ـ طبقات علماء افريقية وتونس ـ ط . تونس ١٩٦٨ ص٨٢ ـ ٨٣ . الذهبي (سير) المصدر نفسه ج٥ ص١٢ ـ ٢٢ .

من المعروف ان ابن عباس قد انتمت اليه الاسرة العباسية ، وأن السياسة العباسية قد أبرزت اخباره لاسيما العلمية ، وجعلت منه حبر هذه الأمة ، ولاشك أن هذه السياسة قد سعت نحو طمس جميع أخبار ابن عباس التي لم تتوافق مع توجهات الدولة العباسية العقائدية والدينية والسياسية ، ومع هذا ماتزال المصادر تحوي بعض الاشارات المتناثرة لاسيما المصادر التي دونت في بقاع لم تخضع لسلطات الرقيب العباسي ، واذا ماجمعنا هذا المتناثر يمكن أن نحصل على صور جديدة هي غير المتداولة عن ابن عباس ، وسنحاول من خلال هذه الصور الجديدة تبيان مدى أثر ابن عباس في تطوير عقيدة الخوارج .

ان الأمر بقدر ماهو مثير بقدر ماهو محفوف بالمخاطر ، لكن لابد من البحث فيه ، فهذا مايوجبه البحث التاريخي الذي يستهدف التنقيب عن الحقائق بكل وسيلة منطقية وعلمية ممكنة وثائقيا .

رافق ابن عباس الامام علي بن أبي طالب ، وكان بالنسبة لدولة الامام علي في بدايتها ، الرجل الثاني بعد الامام علي ، وقد اشترك الى جانبه في معركة الجمل ، كما اشترك في معركة صفين ، وروي انه اتخذ موقفا خاصا حيال القبول بالتحكيم ، ثم طلب أن يكون مرشح علي بدلا من أبي موسى الآشعري ليمثله في اجتماع الحكمين ، لكن هذا لاقى معارضة أهل العراق خاصة الكوفيين ، وبعد العودة الى العراق عينه الامام علي واليا للبصرة ، وعندما خرج الحرورية واجتمعوا للمرة الاولى بحروراء ، ثم تجمعوا بالنهروان بعثه الامام علي اليهم لمناقشتهم ومحاولة اقناعهم بالعودة الى صفه .

ومن استعراض مختلف الروايات التي تحدثت واصفة اللقاء بين ابن عباس والخوارج يلاحظ أن اللقاءات كانت ودية ولم تكن المناقشات متشنجة حادة ، وأن عواطف الخوارج نحو ابن عباس لم تكن عدوانية البتة كما كانت ضد الامام علي[١] .

---

(١) ـ مجهول ـ أخبار العباس وولده ـ ط . بيروت ١٩٧١ص ٣٦ ـ ٤١ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج٣ص٢٧ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤ . المبرد ـ المصدر نفسه ج٣ص٩١٠ ـ ٩١١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٧٦ ـ ٧٩ .

وعاد ابن عباس بعد هذا الى عمله بالبصرة ، وتحدثت المصادر عن سيرة ابن عباس أثناء ولايته للبصرة ، من ذلك مارواه صاحب أخبار العباس وولده قوله : «كان ابن عباس يفطر الناس في شهر رمضان بالبصرة ، فكان لاينقلبون كل ليلة أن يسمعوا فائدة في دين او دنيا»[1] .

ويلاحظ في الوقت نفسه ان عدد الذين شاركوا من البصريين في معركة النهروان كان قليلا ، ولاشك ان الفضل في هذا يعود الى وجود ابن عباس ودوره في البصرة[2] ، والمستعرض لاخبار خوارج البصرة يرى أن عقيدة القعود وعدم الاستعراض قد انتشرت بين صفوفهم ، ويبدو ان الفضل في ذلك يعود الى آراء ابن عباس ، وغالبا لم تتفق هذه الاراء مع آراء ومواقف الامام علي بن أبي طالب .

فقد أمر الامام علي باحراق قوم ارتدوا عن الاسلام ، فاعترض ابن عباس على ذلك ، وسأله معاوية مرة قائلا : «أنت على ملة علي ؟ فقال : لا ولاعلى ملة عثمان ولكني على ملة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]» .

وأوضح من هذا كله ان ابن عباس فارق الامام علي ، وحمل ماكان في بيت مال البصرة من أموال ، وتوجه به الى مكة حيث استقر بها ، وجرت اثر ذلك مراسلات بينه وبين الامام ، وتبادلا التهم الشديدة ، فقد اتهمه الامام علي فيما اتهمه به بالاستيلاء على أموال الأمة ، فكتب له ابن عباس : «لأن ألقى الله بكل ماعلى ظهر الارض وبما في بطنها أحب الي من أن ألقاه بدم مسلم[4]» .

والذي قصده ابن عباس هنا هو دماء أهل النهروان ، حيث يبدو انه كان معارضا للاحتكام الى السلاح والبطش بهم من قبل الامام علي ، فقد روي الشماخي في سيره أن ابن عباس قال للحسين : «انكم لأحق بيت في العرب ان تتيهوا كما تاهت بنو اسرائيل،قمتم بكتاب الله وبسنة نبيه عليه السلام ، فجاهدتم

---

(١) ـ مجهول ـ المصدر نفسه ص٢٩

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٧٨ ـ ٨٠

(٣) ـ مجهول ـ المصدر نفسه ص٣٥

(٤) ـ احمد بن علي المقريزي ـ المقفى ـ مجلدة باريس ـ ورقة ٢٠٠ظ (ترجمة عبد الله بن عباس)

بها ، ثم جعلتم حكما على كتاب ربكم ، ثم قتلتم خيار المسلمين وفقهاءهم ، وقد أفنوا المخ واللحم ، واجهدوا الجلد والعظم من العبادة ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله»[1] .

واذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على ان ابن عباس شارك الخوارج الاوائل مواقفهم، والمثير للانتباه هو صمت الخوارج المطبق تجاه ماقام به ابن عباس ، فهم حتى لم يعاتبوه لاستيلائه على بيت مال البصرة ، مع التذكر أن جلهم كان من هذه المدينة .

لقد كان خوارج البصرة يبدون نحو ابن عباس احتراما كبيرا ، وظلوا دوما متعلقين به ، يأخذون برأيه وينهلون من علمه ، وكان تعلقهم به تعلق التلميذ بشيخه ، وطبعا لم يقتصر هذا على عكرمة وجابر ، بل تعداه الى زعماء الخوارج الكبار ، وقبل الدخول في ميدان تفاصيل هذه العلاقات ، من المفيد الاشارة هنا الى أنه أثناء خلافة ابن الزبير واستقرار امره في مكة احتدم صراع شديد بينه وبين ابن عباس ، وكاد الامر ان يصل الى حد المواجهة بالسلاح ، فقد جاء الى ابن عباس واحدا من أتباعه وسأله قائلا : «أتريد ان تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله ؟ فقال : معاذ الله ، ان الله كتب بني أمية وابن الزبير محلين ، واني والله لاأحله أبدا[2]» .

ولابد من سؤال وجيه هنا : بأي قوى كان ابن عباس سيقاتل ابن الزبير؟ والجواب الأرجح هو : بقوى الخوارج ، هذا ولقد رأينا من قبل وقوف الخوارج الى جانب ابن الزبير أثناء حصار مكة ثم فساد هذه العلاقات بينهم وبينه ومفارقته معادين له ولمطامحه .

بعد هذا العرض لعله ليس من المخاطرة بمكان القول : ان ابن عباس كان المصدر العقائدي الاساسي والينبوع الفكري الرئيسي لخوارج البصرة في مدينة البصرة ثم في مدينة مكة ، فهو قد كانَ له موقفه المعارض لسياسة علي بالنهروان وأن الضربة المميتة التي نزلت بالخوارج في النهروان ومحقت الكوفيين منهم هيأت

---

(١) ـ الشماخي ـ المصدر نفسه : ص٥٤

(٢) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج٣ص٤٠ .

السبل أمام خوارج أهل البصرة للانفراد بالظهور والنشاط ، وأن وجود ابن عباس فيها واليا عليها ثم ماتلا ذلك من احداث يمكن ان يساعدنا على فهم ماحدث وأسهم في تطور حزب الخوارج في مرحلة مابين النهروان وبيعة ابن الزبير ، ومن ثم يساعدنا أيضا على ادراك قضية تمزق الخوارج الى عدة قوى بعد هذا لاسيما قوى ترى القعود ، وأخرى ترى الاستعراض .

ستبقى هذه المسألة اجتهادية في حدود الفرضية التي يمكن ان تزداد مع الايام رسوخا وقبولا بفضل اكتشاف مواد تاريخية جديدة ، أو بادخال تفسيرات اضافية على الموضوع تغنيه ، انما هي بحد ذاتها خطير وهامة جدا ، خطيرة لانها تخالف المتداول والرائج بين الناس ، وهامة جدا لأنها وحدها تمكننا من حل العديد من المعضلات المتعلقة بالتطور الفكري والعقائدي والسياسي للخوارج .

وحتى يستنفد هذا الفصل مقاصده وغاياته لا بد من الحديث عن ظهور الحركات الخارجية في المغرب ، ويقتضي مثل هذا الحديث القاء نظرة فاحصة على أوضاع بلدان المغرب لا سيما من الجانب الاجتماعي والاقتصادي ، وعلى العموم كانت هذه البلدان مشابهة بأوضاعها من جميع النواحي بلدان المشرق العربي ولا سيما البلدان التي وقعت على حوض البحر المتوسط .

وقد عرفت المناطق الساحلية نمط الاستقرار من أنماط حياة المدن وقد خضعت لحكم الامبراطورية الرومانية وأخيراً لحكم بيزنطة ، وشهدت صراعات كبيرة متنوعة ولا سيما الصراع بين روما وقرطاج والصراعات ضد الوندال[1] .

أما المناطق الداخلية فقد كانت مكونة من عدة ديارات عاش في كل ديار منها قبيلة من القبائل ، وقد أطلق العرب على قبائل الشمال الافريقي اسم البربر ، ويرجح أنهم ورثوا هذه التسمية من السلطات الماضية مع انهم عللوها فيما بعد تعليلات لغوية نسبية ، فكما اعتبر العرب أنفسهم قد انحدروا من جدين هما عدنان وقحطان ، اعتبروا البربر مثلهم قد انحدروا أيضاً من جدين هما : البتر

---

(١) شارل اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ـ ترجمة عربية ط . تونس ١٩٦٩ ج١ ص٧٤ ـ ١٠٦ ، ٣٢١ ، ٣٦٤ . ا.ف غوتييه ـ ماضي شمال افريقيا ـ ترجمة عربية ط . طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٠ ص٨٨ ـ ١٠٦ .

والبرانس ، وكما حدث في العصر الأمــوي حين تورط البيت الأموي فيما عرف باسم العصبية القبلية اندرج هذا على أوضاع البربر وسلوك السلطات العربية مع قبائلها .

هذا ولم تختلف أنماط المعيشة والحياة الاقتصادية لدى قبائل البربر عن أنماط الحياة عند القبائل العربية ، وهو أمر يزيد من قوة حجج القائلين بأن الشعبين من أصل واحد[٢] ، وكما تعرضت قبائل العراق وقبائل خراسان لتقلبات السياسة الأموية مع ما نجم عنها من نتائج اقتصادية حدث الشيء نفسه في الشمال الافريقي ، وهكذا وجدت نزعات للتمرد والاستقلال ـ وهي نزعات أصيلة لدى البداة ـ متنفساً لها كما كان الحال في المشرق ، وكما تمركزت دعوات الخوارج في المشرق بين بعض القبائل بشكل خاص دون سواها ، حدث الأمر نفسه في الشمال الافريقي ، فلقد تمركز النشاط الخارجي في البصرة بين صفوف قبائل تميم ، ولنحاول الآن التعرف الى القبائل التي انتشر بين صفوفها مذهب الخوارج في المغرب .

لقد لاقت أفكار ومبادىء كل من الصفرية والاباضية القبول والانتشار في صفوف قبائل المغرب العربي الكبير ، ويستخلص من المصادر ان عصر عمر بن عبد العزيز ـ أي مطلع القرن الثاني للهجرة ـ كان نقطة الانطلاق بالنسبة لدعاة الخوارج الى الشمال الافريقي ، وعلى هذا يمكن القول : انه في الوقت الذي انطلق فيه دعاة الدعوة العباسية انطلق دعاة الخوارج ، ولعل اختيار الخوارج لأطراف شبه جزيرة العرب وللشمال الافريقي يعطينا أحد التعليلات الكامنة وراء اختيار العباسيين لخراسان التي كانت بعض أطرافها المسرح الأول للنشاط الخارجي ، لكنه دمر كما رأينا من قبل .

ولاقى المذهب الصفري قبولاً كبيراً في مناطق المغرب الأقصى وبعض المناطق القريبة منها في المغرب الأوسط ، لا سيما بين قبائل برغواطة ومكناسة وزناتة ومطفرة .

---

(١) جوليان ـ المرجع نفسه ج٢ ص١٣ ـ ٣٣ غوتييه ـ المرجع نفسه ص١٤٧ ـ ١٦٤ .

ولاقت الحركة الاباضية النجاحات بين قبائل المغرب الأدنى وما وقع وراء ذلك من مناطق المغرب الأوسط[1] .

ويروى أن الذي نقل النشاط والفكر العائد للخوارج الصفرية هو عكرمة مولى ابن عباس ، علماً بأن بعض المصادر الاباضية تشير الى أنه كان أيضاً له الأثر البالغ في ظهور حركتهم ايضاً في بلدان المغرب ، ومن الممكن تفهم هذا وقبوله على أساس أن الفوارق بين الصفرية والاباضية لم تكن آنذاك واضحة أو كبيرة ، وعلى أساس طرح المبادىء العامة للخوارج ، مع تذكرنا ان عكرمة وجابر بن زيد وعبد الله بن اباض ، وعبد الله بن الأصفر وغيره من الزعماء لحركة الخوارج كانوا تلاميذ شيخ واحد وعاشوا جميعاً في حلقته ، وكانوا بالتالي أصدقاء بينهم وشائج ود وتعاون .

وذكر أن عكرمة استقر في القيروان حيث أخذ يدرس في مسجدها فهناك صار له حلقة خاصة به ، وفي القيروان اتصل به بعض زعماء قبائل المغرب الأقصى وكان أبرزهم ميسرة المطري[2] .

لا نعرف بالتأكيد تفاصيل كيفية هذا الاتصال ، لكن يلاحظ أن عكرمة ـ كما ورد في مختلف المصادر ـ كان كثير الأسفار ، واسع الجولات ، ولا شك أن أصله قد ساعده ، أو لنقل شجعه على التنقل في الشمال الافريقي بعد عودته ، كما انه ليس من المستبعد ان يكون قد شكل في القيروان نواة حركة لها دعاتها ، فتجربة الدعاة تجربة اسلامية قديمة الظهور وكانت في مطلع القرن الثاني تجربة متداولة

---

(١) جوليان ـ المرجع نفسه ج٢ ص٣٤ ـ ٥٠ . غوتييه ـ المرجع نفسه ص١٩٧ ـ ٢٢٤ . محمود اسماعيل ـ الخوارج في المغرب الاسلامي ط . بيروت ١٩٧٦ ص٣٥ ـ ٨٠ . محمد بن عميرة ـ دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي ط . الجزائر ١٩٨٤ ص١٥ ـ ٩٥ . بحاز ابراهيم بكير ـ الدولة الرستمية ط . الجزائر ١٩٨٥ ص٥٩ ، ٧٥ موسى لقبال ـ المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ط . الجزائر ١٩٨١ ص١٤٥ ـ ١٦٨ .

(٢) ابو العرب ـ المصدر نفسه (طبقات) ص٨٢ ـ ٨٣ . مع مصادر الحاشية رقم/١/ .

معروفة من قبل جميع الحركات المناوئة للحكم الأموي ، وإذا صح هذا الافتراض يمكن على ضوئه ان نفهم السبب الذي دفع ببعض زعماء قبائل المغرب الأقصى للقدوم الى القيروان للالتقاء بعكرمة والأخذ عنه لكن بشكل مستتر ، فنحن عندما نعود الى ما ورد في مصادرنا حول شخصية ميسرة نراها تسميه أحياناً ميسرة الحقير أو ميسرة الخفير ويقول بعضها انه عمل سقاء في القيروان ، وهذا يعني ان هذا الزعيم البربري اضطر أثناء وجوده في القيروان الى التستر والتمويه .

والمهم هو ان ميسرة تلقى على عكرمة أصول المذهب الصفري ، ثم عاد الى ديار قومه حيث نشر أفكاره وقام بالثورة ، وليس من شأننا البحث في ثورات الصفرية ووقائعها في الشمال الافريقي ، فالذي نستهدفه هو الحديث عن ظهور حزبهم هناك ، ويلاحظ في تاريخ هذا الحزب أنه كان متطرفاً ، ونتيجة للتطرف عانى ـ كما عانى الأزارقة من قبل ـ من التمزق وتغير الزعامات ، ولعله أيضاً نتيجة لتطرفه العقائدي سبب ظهور برغواطة ومن ثم تميزها عقائديا عن مسلمي المغرب من خوارج وسواهم ، ولسوء الحظ لم يخلف الصفرية أدباً مدوناً عقائدياً كان أم تاريخياً اخبارياً حتى يمكن من خلاله التعرف اليهم بشكل أقرب[1] .

وعلى عكسهم كان حال الاباضية فقد خلف هؤلاء تراثاً أدبياً ودينياً وتاريخياً كبيراً ، ويعود الفضل في ذلك الى قوة قاعدتهم في البصرة أولاً ، والى قيام دولة لهم فيها بعد في تيهرت .

وسلف بنا القول انه يعود الفضل في تنظيم الدعوة الاباضية الى جابر بن زيد ، وقد اعتبره الدرجيني أول الأئمة الاباضية حتى انه عده أعلى مكانة من عبد الله بن اباض نفسه ، فقد وصف الدرجيني عبد الله بن اباض بقوله : «وكان رأس القعد ، ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار ، والمتقدم في حلبة الفضل بين اولئك الأخيار ، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير انكار ، وقنع بالخمول من غير

---

(١) بحاز ـ المرجع نفسه ص٦٤ ـ ٦٥ . ابن عميرة ـ المرجع نفسه ص٦٧ ـ ٧٦ . محمود اسماعيل ـ المرجع نفسه ص٣٥ ـ ٦١ . جوليان ـ المرجع نفسه ج٢ ص٣٤ ـ ٤٠ . غوتييه ـ المرجع نفسه ص١٩٩ ـ ٢١١ .

انكار ، وقنع بالخمول من غير قصور ولا اقصار ، وقلى ما اعتقده ابن الأزرق في المحمدية ، وعدل عن طريقي البيهسية والنجدية وسلك محجة العدل»[1] .

وفي الوقت نفسه وصف الدرجيني جابراً بأنه كان : «أصل المذهب وأسه الذي قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضي الله عنه وكان أمهر من صحبه وقرأ عليه[2]» .

وكان أبرز تلاميذ جابر بن زيد أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، فقد لازم جابر فترة طويلة ، قيل انها بلغت الاربعين سنة ، وتفرغ بعد وفاة جابر للعلم ولتدوين ما تلقاه ونقله عن استاذه ، وقد خلف لنا أقدم مصنف في الحديث النبوي هو الجامع الصحيح ، وقراءة هذا الأثر القديم مفيدة جداً ، لا سيما أسانيد جل أحاديثه مع بعض المتون المتعلقة بالامامة والسياسة .

في هذا الجامع /١٠٠٥/ من الأحاديث المتنوعة قرابة التسعين بالمائة منها سلسلة الاسناد فيها : «أبو عبيدة عن جابر عن عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم» أضف الى هذا أن جل الشروح مقتبسة عن ابن عباس ، ومن بين أحاديث هذا الجامع : «أبو عبيدة عن جابر عن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خير أمتي قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ويعملون بأمري ولم يروني ، فأولئك لهم الدرجات العلى إلا من تعمق بالفتنة» . و«أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : انكم ستختلفون من بعدي ، فما جاء عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فعني وما خالفه فليس عني» . و«ابو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها الى النار ما خلا واحدة ناجية ، وكلهم تدعي تلك الواحدة[3]» . و«ابو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال الأمر - يعني الولاية في قريش ما دام فيهم رجلان - وأشار بأصبعيه - ولكن الويل لمن افتتن بالملك[4]» .

(١) الدرجيني - المصدر نفسه ج٢ ص٢١٤ .
(٢) الدرجيني - المصدر نفسه ج٢ ص٢٠٥ .
(٣) الربيع بن حبيب - الجامع الصحيح - ط . دمشق ١٩٦٨ ص١٧ .
(٤) الربيع - المصدر نفسه ص١٨ .

ونقرأ فيه ايضاً : «قال الربيع بن حبيب رحمه الله : سمعت جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تكن طعاناً ولا لعاناً ولا تقل في الدين ما لم يأذن به الله . وقال صلى الله عليه وسلم : ستكون بعدي أئمة لا يستنون بسنتي ولا يهتدون بهداي ، فقالوا : كيف المخرج يا رسول الله ؟ فقال : أطيعوهم ما لم يمنعوكم الصلوات الخمس وقال صلى الله عليه وسلم : رحم الله من سكت فسأل أو قال فغنم[1]» .

وواضح من هذه الأحاديث تمام الوضوح ما ذهب اليه الخوارج من توليهم لأبي بكر وعمر فقط ، ومن أخد ـ الاباضية ـ منهم بفكرة القعود ، وجواز الخلافة في غير قريش ، وهو على العموم يؤكد مجدداً العلاقات الوشيجة لعقيدة الخوارج ولحركتهم بابن عباس ، مع الأخذ بعين الاعتبار ان كتاب الجامع الصحيح قد صنف قبل ان تستقر أمور الخلافة لأبي جعفر المنصور المؤسس الفعلي للدولة العباسية .

ومن المرجح ان جابر بن زيد قد توفي عام ٩٣هـ ، وقبل وفاته كانت الدعوة الاباضية قد لاقت قبولاً كبيراً على الرغم من سريتها ، وعلى الرغم من بطش الحجاج بن يوسف الثقفي ، وبعد وفاة جابر بعامين تزعم ابو عبيدة مسلم بن كريمة حركة الاباضية ، وكان ابو عبيدة هذا تميمياً ، وقام ابو عبيدة بتكوين مجتمع اباضي سري في البصرة ، ولا يستبعد انه استعار الخبرة له والتجربة من التنظيمات السرية التي عرفتها مختلف الحركات الاسلامية لا سيما في العراق ، فالفترة هي فترة ولادة تنظيم الدعوة العباسية وغيرها من التنظيمات .

ولقد استحق أبو عبيدة بما أدخله من تنظيمات وأعمال تطوير على تنظيمات الأباضية لقب مؤسس الحركة الاباضية تنظيمياً وعقائدياً ، فهو قد أوجد مدرسة سرية (دار دعوة) في داخل البصرة ، كان تلاميذها يجتمعون في سراديب تحت الأرض ، وتولت هذه المدرسة تخريج الدعاة الذين انتشروا في مختلف الآفاق وحققوا نجاحات كبيرة ولا سيما في المغربين الأدنى والأوسط ، وقد حملت هذه

---

(١) الربيع ـ المصدر نفسه ص٢٠٣ .

النجاحات أبا عبيدة نفسه الى التوجه نحو المغرب والعمل من هناك، ومع ذلك ظلت البصرة المركز العقائدي للاباضية حتى بعد تأسيس الدولة الرسمية في تيهرت [1]..

ولما كان نشاط الخوارج في المغرب العربي الكبير قد تفرع بالاصل عن النشاط الذي ظهر بالمشرق ، وأنه لم يعن ظهور حزب جديد ، بل فروع لحزب متقدم التأسيس ، لذلك لن نتعرف لوقائع هذا النشاط ، ولعله يكفينا القول : إن حركات المعارضة التي شهدها المغرب الكبير في العصر الأموي ثم في بدايات العصر العباسي قادتها القبائل التي تبنت عقيدة الخوارج من الصفرية والأباضية ، وعلى هذا شغل الخوارج دوراً بالغ الأهمية في تاريخ المغرب العربي في عصر تكوينه الاسلامي الأول .

---

(١) : بحاز - المرجع نفسه ص ٧٣ - ٨٠ . عوض خليفات - النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان - ط . عمان ١٩٨٢ ص ١٥ - ١٩ . التنظيمات السياسية والادارية عند الاباضية في مرحلة الكتمان - ط . سلطنة عمان ص ٥ - ٩ . الاصول التاريخية للفرقة الاباضية ط . سلطنة عمان ص ٣٦ - ٤٣ .

« الفصل الثالث »

«الشيعة»

الفصل الثالث

«الشيعة»

كثرت في أيامنا ومن قبل الكتابات حول الشيعة والتشيع ، ويلاحظ أن جل الكتاب الماضين قد ركزوا جهودهم على الجوانب المذهبية العقائدية وعلى مدى انطباقها على علي بن أبي طالب والأئمة من بعده ، أو صدورها عنه أو عنهم ، ومن المعتقد أن جل ما نسب الى فرق الشيعة بشكل عام من عقائد قد تطور وأخذ أشكاله الأساسية أو شبه النهائية في العصر العباسي .

ولما كان بحثنا بحثاً سياسياً يرتبط بتاريخ العصر الأموي فسنحاول تجاوز غالبية الأمور المذهبية والعقائدية ، وأن نركز الجهد على عدد من المشاكل السياسية تجيب على مجموعة من الاسئلة يتصدرها :

متى نشأ حزب الشيعة ومن أنشأه ، وأين نشأ وكيف ولماذا ، وما هو دور أئمة هذا الحزب في انشائه ومن ثم تطوره وبعد ذلك انقساماته ؟ وإثر هذا كله : ما هو اثر البيئة والموقع والمصالح الاقليمية والقبلية في نشوء هذا الحزب وتطوره وما هي الخلفيات العقائدية والمواريث الثقافية للأقاليم التي أسهمت في صنع تاريخ هذا الحزب ، أضف الى هذا : ما هي الأدوار التي مر بها تاريخ هذا الحزب وأسباب ذلك ؟ .

لسنا أول من يطرح مثل هذه الأسئلة ، ولسنا بالتالي أول المجتهدين في محاولة الاجابة عليها ، اننا سنحاول الاسهام بدورنا والادلاء بدلونـا ، وأن نأتي بتصوراتنا التي توصلنا اليها نتيجة اجتهادنا وعملنا خلال هذا الموضوع الشائك .

ذهب المستشرق الكبير برناردلويس ـ مثله مثل غيره من المستشرقين ـ الى القول مؤرخاً لقيام حزب الشيعة :

«بدأ التشيع بوفاة محمد (ﷺ) حركة سياسية محضة تطلب أن يكون علي خليفة للرسول ، وكانت خلال عهدها الأول عربية تفصح عن مطامع شرعية ولم تتأثر بِأفكار اجتماعية ودينية ولا بمشاكل عالم الشرق الأدنى» [1] .

أما الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء فقد قال :

«ان أول من وضع بذرة التشيع في حقل الاسلام هو نفس صاحب الشريعة الاسلامية ، أي أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الاسلام جنباً الى جنب وسواء بسواء ، ولم يزل يمارسها ويتعهدها بالسقي والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته» [2] .

لقد فسر لويس بعد توقيته لظهور حركة التشيع ظهورها تفسيراً سياسياً بدون خلفية دينية أو إجتماعية ، وهذا أمر غير مقبول ، كما أنه لم يحاول أن يسأل : من الذي أنشأ التشيع ، الأمر الذي تصدى له كاشف الغطاء فعزاه إلى النبي ﷺ ، لكن تفسيره هذا جاء على اساس ديني محض ، وفيه اتهام خفي بازدواجية العقيدة الاسلامية التي جاء بها النبي ﷺ وبشر ، وهذا ما لا يمكن قبوله على شكله المجرد ، وبناء عليه يظل السؤال قائماً : متى نشأ حزب الشيعة ومن الذي انشأه وأين وكيف ولماذا ؟؟ .

ونعود ـ بحثاً عن الجواب ـ الى كتب الفرق وما أكثرها ، فنجد هذه الكتب جميعاً منطلقة من مبدأ الفرقة الناجية من بين فرق الاسلام ، وهي تهتم بأحصاء اسماء الفرق وما ذهبت اليه واعتقدته احصاء سردياً متناقضاً أحياناً ، لهذا علينا ان نلجأ إلى مصادر أخرى مع محاولة استقراء جميع الأخبار بشكل تحليلي، وبما أن

---

(١) : برنارد لويس ـ اصول الاسماعيلية ـ ترجمة عربية ـ ط . بغداد ١٩٤٧ ص ٨٣ .

(٢) : محمد حسين آل كاشف الغطاء ـ أصل الشيعة وأصولها ـ ط . بيروت (بدون تاريخ) . ص ٨٧ .

محور قيام الحزب الشيعي هو شخصية الامام علي بن أبي طالب فلنحاول ان نعرف أولاً هل أنشأ هذا الامام الجليل حزب الشيعة سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر .

الامام علي بن أبي طالب هو ابن عم النبي ﷺ ، كان أبوه أخاً شقيقاً لعبد الله أبي النبي ﷺ ، ولذلك تولى كفالته بعد وفاة جده عبد المطلب دون سواه من أبناء عبد المطلب ، وظل النبي ﷺ يعيش مع عمه أبي طالب حتى فترة زواجه من خديجة أم المؤمنين ، ولا شك أن أبا طالب كان بعيد التأثير على تكوين النبي ﷺ ونشأته من النواحي الأخلاقية والعملية الادارية والاجتماعية ، ويمكن أن نعزو الى زوجته تأثيرها لأنها كانت بمثابة الأم له ﷺ .

وفي بيت أبي طالب كان علي أبرز أولاده ، وقد تعلق بابن عمه ـ وأخيه ـ النبي ﷺ ، واتخذه مثله الأعلى وعندما تزوج النبي ﷺ وباتت أحواله المادية ميسورة بعض الشيء أخذه اليه ورباه في بيته ورعاه[1] .

وبعد مبعثه ﷺ كان أول من آمن به وصدقه أهل بيته ، وكان قوام أهل بيته آنذاك خديجة أم المؤمنين وعلي بن أبي طالب ، وعلى هذا كانت خديجة أول امرأة تدخل في الاسلام ، وكان علي أول فتى يعتنق دين التوحيد ، وعاش علي سنوات الدعوة الاسلامية في مكة ، ولازم ابن عمه ﷺ ملازمة لم تعرف الانقطاع ، وهكذا أتيحت السبل أمامه لأن ينهل من ينابيع الاسلام الاولى ، فكان حقاً أول الناهلين وأكثرهم ، ويوم قرر النبي ﷺ الهجرة بات علي في فراشه ، معرضاً حياته لخطر الاغتيال ، ذلك أنه اتسم بالشجاعة المطلقة وبالصفاء العقائدي ، وعلى هذا اجتمع في شخصه معرفة الاسلام أكثر من غيره مع الشجاعة والصفاء العقائدي

---

(١) : ابن عساكر (ترجمة علي) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠ ـ ٩٠ ـ ٩١ . وانظر قوله تعالى (ووجدك عائلاً فأغنى) سورة الضحى الآية ٩٣ .

وصاحب ذلك فتوة وجسد قوي معافى ، وبعد هجرة النبي ﷺ لحق به بالمدينة ، وحين آخى النبي ﷺ بين المسلمين آخاه من بينهم [1] .

وبعد الاستقرار في المدينة زوجه النبي ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء ، وقد ولدت الزهراء : الحسن والحسين ، وهما الذكران الوحيدان في أسرة النبي وصلة الوصل النسبية المباشرة به ﷺ [2] .

ومن الملاحظ في تاريخ الاسلام أن النبي ﷺ باشر بعد هجرته الى المدينة مهام جديدة هي مهام رجل الدولة ، واقتضى حاله الجديد مع أوضاع تطور الأمة الاسلامية الناشئة ، وضع قواعد للتعامل معه ورسوم أو قواعد تتعلق بوضع أسرته وسلوك أفرادها ، فقد بات الآن على الناس القدوم اليه ﷺ وسؤاله حتى يقبلهم في الاسلام ، كما بات على نسائه وأهل بيته الأخذ بالحجاب كما حظر عليه ﷺ وعلى أهل بيته أخذ الصدقات ، بكلمة واحدة لقد بات من الممكن الحديث بعد الهجرة الى المدينة عن ظهور أسرة «مقدسة» متميزة هي آل البيت ، وإذا كان النبي ﷺ هو سيد هذا البيت وزعيمه فإن علي بن أبي طالب بات هو الشخصية الاولى بعده ، فأخويه (علي) جعفر وعقيل لم تتهيأ أمامهما الفرص التي تهيأت لعلي ، فقد توفي عقيل مبكراً ، أما جعفر فعاد متأخراً من هجرته الى الحبشة وما لبث أن استشهد في مؤتة ، كما أن عم النبي حمزة قد استشهد مبكراً في أحد وتأخر اسلام العباس بن عبد المطلب الى يوم فتح مكة ، وبعد اسلامه حاول العباس منافسة علي على مكانته [3] .

لقد مثل الامام علي النموذج الكامل للشخصية المسلمة الجديدة ، لهذا كان من الطبيعي أن يتعلق به بعض المسلمين ، ولا سيما الذين عاشوا في المسجد

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٩١ ـ ٩٢ . ابن عساكر (ترجمة علي) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠ ـ ٢٤ .

(٢) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٧٧ ـ ١٨١ .

(٣) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ٨٤ ـ ٨٥ ، ١٦٣ ـ ١٦٥ .

واعتبروا من أهل الصفة أو من موالي آل البيت ، وكان على رأس هؤلاء : سلمان الفارسي ، والمقداد بن الأسود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر[1] .

ومع الأيام ثابر هؤلاء على التمسك بتعلقهم بعلي وارتباطهم به حتى وان كان ولاءهم الأصلي لقبيلة أخرى، كما كان الحال بالنسبة لعمار بن ياسر - الذي كان ولاءه لبني مخزوم - وتصر جميع مصادر التشيع على اعتبار هؤلاء الصحابة أول الشيعة في التاريخ ، ومن الممكن القبول بهذا الرأي من حيث المعنى الأساسي لكلمة شيعة لغويا . فشيعة الرجل أتباعه والمعجبين به ، لكن لابد من التذكير أنه لئن وجد حول علي بن أبي طالب بعض الصحابة المعجبين به فان ذلك لم يكن ليعني نشوء نواة حزب أو أي شيء من هذا القبيل ، واستمرت الاوضاع على هذه الشاكلة حتى يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي مرضه الأخير طرح أكثر من سؤال واحد حول مستقبل الحكم ، وطلب العباس بن عبد المطلب من علي التوجه لسؤال النبي عن مستقبل السلطة ودورهما فيها فرفض[2] .

وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وانشغل أهله - يتقدمهم علي - في أمور تجهيزه ، وكان يوم السقيفة وبيعة أبي بكر ، وقيام مؤسسة الخلافة ، وهنا تباينت الروايات حول موقف علي مما حدث ، وصمتت حول موقف العباس ، ففي الوقت الذي لم تتحدث فيه أية رواية عن رفض أو قبول للعباس بما تم ، أو محاولة منه للقول بأنه جدير بالبيعة والاستخلاف ، نرى ان جل المصادر تجمع على أن علي بن أبي طالب لم يكن راضياً عما تم ، وتأخر في بيعته ، وهناك خلاف حول طول المدة التي تخلف فيها عن البيعة ، وتذهب بعض المصادر الشيعية - لا سيما الاسماعيلية منها - الى أنه ظل رافضاً البيعة حتى وفاة زوجته فاطمة الزهراء .

واذا صح هذا وصح معه ماروي عن مطالبة الزهراء أبا بكر بميراثها من أبيها وتعبيرها عن معارضتها لبيعته ، وقرن مع رفض علي سؤال النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته ، ثم بيعته لأبي بكر بعد وفاة زوجته ، يمكن القول أنه كان

---

(١) : الحسن بن موسى النوبختي - فرق الشيعة ط . استانبول ١٩٣١ ص ١٧ - ١٨ .

(٢) - الزهري - المصدر نفسه ص ١٣٣ - ١٣٤ .

شخصاً غير طامح بالسلطة ، وان الزهراء هي التي طمحت في أن يكون زوجها خليفة لأبيها [1] .

ومهما يكن من أمر لم يجاهر علي بن أبي طالب بمعارضته لولاية أبي بكر ، واتخذ الموقف نفسه بعد وفاة أبي بكر وتوليه عمر بن الخطاب ، وكانت علاقته بعمر على العموم علاقات جيدة حتى أنه زوجة ابنته [2] .

وفي أيام عمر بن الخطاب حدثت تطورات كبيرة جدا ، فمنذ تولية السلطة بات العرب على استعداد لقبول مبدأ قيام الخليفة بالعهد بالخلافة من بعده لرجل آخر من الصحابة ، فهذا ما أقدم عليه أبو بكر في عهده لعمر من بعده ، ولابد ان تعمق القبول بفكرة ولاية العهد وصل الى حد أخذ فيه كثير من الناس يتمنون على عمر بن الخطاب الاقدام على تسمية المرشح للخلافة من بعده ، لكنه هو تردد بعدما استعرض أبرز المرشحين وبعدما اعتبر أجدرهم علي بن أبي طالب [3] .

وظل عمر بن الخطاب يرى شأن البت في مستقبل السلطة رهن بقريش وبأهل المدينة ، وفي أيامه تطورت فكرة العشرة المبشرين بالجنة أو لنقل الممثلين لمجمل عشائر قريش البارزة [4] .

ومن الملاحظ أن أسرة النبي صلى الله عليه وسلم ـ أو بالاحرى آل البيت ـ كانت اسرة صغيرة بالمقارنة مع بقية اسر قريش ، لا سيما مع بني أمية وبني مخزوم ، فهؤلاء كانوا بارزين في مكة قبل فتحها ، وبعد فتحها حدث انقلاب سريع وحاسم لصالحها في ادارة الدولة الاسلامية الناشئة ، فقد بات الآن كبار القادة العسكريين والولاة هم من أرستقراطية مكة .

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص١٦٤ ـ ١٦٦ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٠٤ ، ١١٢ ـ ١١٩ ، ١٤٤ ـ ١٤٥ . القاضي النعمان ـ المصدر نفسه ص٦٣ ـ ٧١ .

(٢) ـ ابن اسحق ـ السير والمغازي ـ ط . بيروت ١٩٧٨ ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٣) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص١٤٣ ـ ١٤٦

(٤) ـ ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٧ ص٣١٥٤ ـ ٣١٥٥ .

لقد مارس رجالات هذه الارستقراطية نفوذا كبيرا على سكان شبه الجزيرة ، فقد كان هؤلاء السكان اما يقطنون احدى الحواضر التجارية ـ ونعني بذلك حصرا مدينة مكة ـ ويعملون بالتجارة ، أو يسكنون في المدن والواحات ويعملون بالزراعة والصناعة كما كان الحال بالنسبة للمدينة ـ يثرب ـ والطائف، وفيما عدا سكان المدن كانت الغالبية العظمى من بقية السكان بداة ، حياتهم غير مستقرة ، وقوام اقتصادهم رعويا .

لقد تحكم سكان المدن ـ لاسيما أهل مكة ـ بالشؤون الاقتصادية لشبه الجزيرة ، واستغلوا الى أبعد الحدود بداتها ، وعقدوا أحلافاً مع بعض القبائل التي تمر طرق التجارة عبر ديارها ومع زعماء القبائل لتيسير أمور البيع والشراء ومع أهل المدينة والطائف ، والذي يستعرض تاريخ نشوء الاسلام وقصة احلاف مكة لا سيما حلف الفضول منها ، يرى مدى عمق الصراع الاقتصادي والاجتماعي ، وأن سكان البادية كانوا يشعرون بوطأة استغلال ارستقراطية قريش لهم ، ولكن في الوقت نفسه كانوا يدينون بالولاء ، ويقبلون بفكرة سمو قريش وزعامتها ، لا سيما وان ذلك ارتبط مع مكانة مكة وكعبتها ، وكان الصراع بعد الهجرة بين المدينة وبين مكه ـ في كثير من الجوانب ـ صراعا اقتصادياً ، وقد سعى النبي صلى الله عليه وسلم الى حصار قريش اقتصاديا عن طريق قطع طرق القوافل والتحالف مع القبائل لا سيما قبائل الايلاف وانشاء أسواق بديلة لأسواق مكة في المدينة ، وبعدما دخلت قريش في الاسلام رأت ان مصالحها مع هذا الدين ، وأن باب المنافع أمامها واسع كل السعة ، وأنها ستجني من وراء اعتناق الاسلام مرابح طائلة ، فبعد فتح مكة استبدل رجالات قريش أعمالهم في التجارة بوظائف جديدة مالية وادارية ومناصب عسكرية فعاله ، وملكوا بذلك نفوذا ـ أو لنقل استردوا نفوذهم ـ على قبائل شبه الجزيرة ، وحافظوا على هذا النفوذ عن طريق السلطة والحرب والمغانم ، وعن طريق التصرف بالموارد المالية التي باتت عملاقة فقد توفر المال بلا حدود .

ومن يستعرض عصر عمر بن الخطاب يرى أن جميع ولاتـه وقادته قد اتهموا باستغلال موارد الدولة والتصرف بها ، ولم يملك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على

صرامته سوى سلاح العزل أو المقاسمة بالثروة أو المصادرة للثروة أو شطر منها ، وقد فعل هذا مع الكثيرين ولم ينج منه حتى خالد بن الوليد[1] .

ويستخلص من مجمل أخبار الفتوحات وتنظيم الأمصار المفتوحة أنه قد تجمع في أواخر أيام عمر بن الخطاب جند العرب في الأمصار والجبهات في مراكز رئيسه هي : البصره والكوفة في العراق والجابية في الشام والفسطاط ، ولا بد أن قوى الجند هذه بات لها رأيها في مستقبل السلطة وأنها أسمعت هذا الرأي بشكل أو آخر ، ويمكن ان نرى اقدام عمر على عدم تسمية علي بن أبي طالب من بعده على الرغم من اعترافه بجميع المؤهلات التي امتلكها ، ومن ثم أخذه بحل الشورى كمخرج ، أقدم عليه خشية أن يواجه معارضة[2] ما في الأمصار ، وبرز بعد اغتيال عمر واجتماع الشورى ، بكل وضوح أن أبرز المرشحين للخلافة علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، أما علي فلما امتلكه من مؤهلات شخصية ولقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم ، أما عثمان ـ الذي كان متقدما بالسن ـ فلأنه مثل البرجوازية الأموية ومعظم القيادات العسكرية والادارية في الأمصار والجبهات ، وقد يعلل لنا هذا كيف سارت الامور داخل اجتماعات الشورى وأسباب إختيار عبد الرحمن بن عوف وتكليفه باختيار واحد من بين اثنين : علي أو عثمان ، ولقد كان ابن عوف أقرب الى الارستقراطية من حيث الثروة والانتماء الطبقي والقرابة ، ولذلك أقدم بعد مناورة بارعة على اختيار عثمان بن عفان ، والمثير للانتباه في هذا الموقف هو أن علي بن أبي طالب والذين تحلقوا حوله وتمنوه خليفة ، لا سيما عمار بن ياسر ، عبروا عن معارضتهم بشكل علني لاختيار عثمان ، وليس بالأمر أدنى مجازفة اذا ذهبنا الى الافتراض باعتبار لحظة انتخاب عثمان ساغة ولادة ما سيعرف باسم الحزب الشيعي كحزب معارض للسلطة القائمة ، فبسمة المعارضة انطبع الحزب الشيعي تاريخيا :

---

(١) ـ ابن عساكر (مخطوطة الظاهرية) المصدر نفسه ج٥ ص٢٨١ و : ط . ابن العديم المصدر نفسه ج٧ ص٣١٥٧ ـ ٣١٦٠ .

(٢) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص١٤٣ ـ ١٤٦ .

ولقد ولد هذا الحزب في ظل ظروف المعارضة القائمة على وجاهة الحجة والشعور بالغبن ليس لمصالح أسرة آل البيت بل للمسلمين ، وفي ظل معطيات المعارضة وظروفها الشاقة تطور الحزب وتمزق ، وظل طوال فترات التاريخ يحمل صفات المعارضة مع تطلعات جمهور واسع من المسلمين .

ولننتقل الآن من الحديث المجمل الى شيء من التفاصيل الموضحة لما حدث : اختار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للشورى ستة من السبعة الباقين أحياء من الصحابة العشرة الاوائل المبشرين بالجنة ، وقد اجتمع خمسة منهم اثر وفاته ومعهم عبد الله بن عمر وهم : علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، عبد الرحمن بن عوف ، الزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وتغيب طلحة بن عبيد الله لسفره ، ولم يدخل عمر ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان المطلوب من المجتمعين الاقدام على اختيار واحد منهم خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام ، وأوصاهم بجمع أمراء الجيوش ، وبعد مداولات أوكل المجتمعون ـ كما قلنا ـ الى عبد الرحمن بن عوف مسألة استطلاع آراء المسلمين وبعد عملية استطلاع مكثفة أقدم ابن عوف على اعلان ما يلي موجها خطابة الى علي بن أبي طالب: «أما بعد فاني نظرت في الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل يا علي على نفسك سبيلا[1]» .

ولم يوضح ابن عوف من هم «الناس» لكن لا شك اذا كان قد قصد بهم رجالات السلطة وأمراء الجند ، فقد كان جل هؤلاء من الأرستقراطية القرشية ، ومن الطبيعي أنهم ما كانوا ـ والفرصة قد تهيأت ـ ليعدلوا عن اختيار عثمان ، ولقد قال معظم الباحثين ان الذي حدث في اجتماع الشورى هو أن الأيام عادت سيرتها الأولى ، فكما كانت الأوضاع في مكة تعيش قبل الاسلام أجواء الصراع على السلطة بين بني هاشم وبني أمية باتت الآن تعيش في المدينة أجواء الصراع على الخلافة بين عثمان الاموي وعلي الهاشمي ، وطبعا انتصر عثمان وأعلن علي عن معارضته ، أي كما حدث من قبل حين قام حلف الفضول معارضا للسياسة الاموية بزعامة بني هاشم وبني تيم ، وكما قامت ثورة الاسلام معارضة للنظام

---

(١) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص١٦٩ .

الذي كان سائداً في مكة وشبه الجزيرة ، عاد بنو هاشم بعد فترة قصيرة من توليهم للزعامة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم فاخذوا وضع المعارضة ، وكانوا أقل عددا ومالا من بني أمية ، وبالنسبة لمقاييس شبه الجزيرة - آنذاك وربما كل مكان - من ملك المال والعشيرة ملك السلطة ، ومع هذا كله انه لما يلفت الانتباه أن نلاحظ أن أبرز حركات المعارضة في أواخر العصر الراشدي ومن ثم في العصر الأموي قد ارتبطت برجالات الشورى ، فالزبير مع طلحة كانا بطلا المعارضة يوم الجمل اعتمادا على البصرة وجندها ، وانتمت - كما قيل - الى سعد بن أبي وقاص ، الذي لم يمتلك القوة العسكرية ، بدايات الاعتزال ، فهل ياترى يجوز لنا القول : ان محصلات شورى الصحابة كانت نقطة انطلاق لظهور أحزاب معارضة غير حزب الشيعة ؟ .

اذا قبلنا بهذا فمعناه أن الزبير وربما سعد لم يكونا راضيين تمام الرضى عن اختيار عثمان ، لكنهما سلما بهذا الاختيار ، كما سلم علي لان عثمان كان مرشح قادة الجند والأرستقراطية القرشية .

وروى الزهري لدى حديثه عن ولاية عثمان وسيرته وصفا لابن عباس قال فيه : «فعمل بعمل صاحبيه ستا لا يخرم شيئاً الى ست سنين ، ثم ان الشيخ رق وضعف فغلب على أمره» [1] .

وردد ابن الأعثم الكوفي هذا الوصف مع شيء من التوضيح بقوله في مطلع كتابه الفتوح : «لما صار الأمر الى عثمان بن عفان ، واجتمع اليه الناس ، ارسل الى عمال عمر بن الخطاب ، فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم انه بعث اليهم فعزلهم عن الأعمال ، وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية ، فولاهم الولايات . . ثم كثر المال عليه ، فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه . . حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم ، ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص فوصله بثلاثمائة ألف درهم ، ثم

(١) - الزهري - المصدر نفسه ص١٦٩ .

بعث الى الحكم بن أبي العاص فرده الى المدينة ، وهو طريد رسول الله ، ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين ، وجعل له خمس أفريقية»[1] .

ويفيد هذا أنه عندما ولي عثمان السلطة كانت غالبية رجالاتها من بني أمية ، لكنه بعد فترة أقدم على جعل جميع الولايات بيد بني أمية ، محولا بذلك دولة الخلافة الاسلامية الى دولة أموية السلطة وأموية في التصرف بموارد الدولة ، وفي أواخر ايام عثمان توقفت حركة الفتوحات بعض الشيء وبتوقف حركة الفتوحات لم يعد هناك غنائم يحصل عليها الجند فبات عليهم الاعتماد على موارد الولايات والامصار المفتوحة ، لكنهم وجدوا ان بعض هذه الموارد باتت نهبا بين أفراد الأسرة الاموية يتصرفون بها حسب رغباتهم ، لابل زاد هؤلاء الامويون في أن اعلنوا ان سواد العراق وجميع أراضي الدولة بستانا لهم ، وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الى النقمة على عثمان والمعارضة لسياسته ، ويروي أنه عندما شعر كبار الصحابة بمخاطر نتائج سياسة عثمان هذه دخل علي بن أبي طالب على عبد الرحمن بن عوف فعاتبه وحمله المسؤولية ، فاعتذر بأنه لم يكن يعلم الغيب ثم قال لعلي : «والآن فخذ سيفك وآخذ سيفي»[2] ، أي أنه دعاه للثورة على عثمان وعزله بقوة السلاح ، وطبعا ماكانت هذه الدعوة لتصدر عن عبد الرحمن بن عوف لو لم تكن الأمور قد وصلت الى حد كان لايطاق .

ومن الملاحظ أن المعارضة ظهرت ضد سياسة عثمان في كل الأمصار ، ففي الشام تزعمها أبو ذر الغفاري ، وفي مصر تزعمها أكثر من واحد ، لكنها كانت الأشد في الكوفة[3] .

ولئن استطاع معاوية بحزمه وقدراته الادارية ان يتخلص من أبي ذر ويقضي على حركته ، لم يستطع ولاة عثمان على الكوفة ايجاد علاج ناجع لمشاكل مصرهم .

---

(١) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص٨٠٦ .

(٢) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص٨٠٦

(٣) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٣٠٨ ـ ٣٢٩ . الزهري ـ المصدر نفسه ص١٥٣ .

وفي عودة الى كتب الفتوح وأخبار التنظيمات الادارية بعد اليرموك والقادسية نجد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أقدم على تعديل فتوحات العراق ، وجعل أراضي الجزيرة تابعة لجند الكوفة [1] ..

وفي أيام عثمان ألحق هذا الخليفة ولاية الجزيرة بمعاوية بن أبي سفيان وذلك بعدما جمع له ولاية الشام [2] ، ولقد تضرر من هذا جند الكوفة حيث أصبحت مواردهم رهن تصرف معاوية ، واذا أضفنا الى هذا السياسة المالية العامة للدولة نستطيع أن نفهم الاسباب التي دعت أهل الكوفة لتزعم المعارضة ضد عثمان وتطويرها الى ثورة .

وفي الوقت نفسه نلاحظ أنه لم يحدث تعرض مباشر لموارد أهل البصرة وجندها ، كما ان الخلافات التي تفجرت في مصر كانت حول توزيع الغنائم لم تقد الى ثورة كما كانت الحالة بالنسبة لأهل الكوفة ، وأورد ابن الأعثم وغيره نصوص تقارير وصلت الى عثمان من ولاته حول خطورة الوضع لديهم ، وأقدم عثمان اولا على نفي بعض زعماء المعارضة الكوفيين ، لكن ذلك جاء بمثابة حل مؤقت لأن الأمور والسياسة العامة لم تتبدل ، ففر المنفيون من الشام وعادوا الى العراق .

ليس من أهدافنا البحث هنا في تفاصيل أحداث الفتنة الكبرى ، بل كل مانستهدفه تبيان نقطة هامة هي أن المعارضة حملت عثمان شخصيا مسؤولية الانحراف وإنه خلال ذلك كله كانت هي وعثمان يلجآن الى علي بن أبي طالب في سبيل المساعدة على الوصول الى حل أو مخرج للازمة يحقن الدماء ويصون المصالح ، وحتى أن عليا كفل أخيرا تعهدات عثمان في الاقلاع عن سياسته والأخذ بمنهج سياسي اسلامي مرض لمصالح الأمة ، لكن هذا لم يثمر ، وأخيرا قرر الكوفيون يساعدهم بعض المصريين التخلص من عثمان ، فكان حصاره ومقتله [3]

---

(١) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص١٦٠ ـ ١٦٣ .

(٢) ـ ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج١ ص١٥٧ ، ١٩٥ .

(٣) ـ الزهري ـ المصدر نفسه : ١٥٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٣٤٠ ـ ٣٦٥ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص٨٠٦ ـ ٨٧٨ .

ويبدو ان زعماء الثورة وصلوا الى قناعات خلصت الى أن التخلص من عثمان فيه وضع حدود للتجاوزات، وأن علي بن أبي طالب وحده القادر على اعادة الأمور الى نصابها واصلاح مافسد ، لكن القضية الحقيقية باتت أكبر من ذلك ، فقد وضح أثناء حوادث الفتنة الكبرى أن سيطرة الخليفة كانت شبه منعدمة على ولاته وعلى زعماء الجند في الأمصار ، وأن النزعات الاستقلالية والطموح الى السلطة ظهرت عند الولاة وعند قادة الجند ، فهذا معاوية بات الآن سيد أهل الشام وابن عامر سيد البصرة، وكلاهما لايأبهان تماما لمصير عثمان مع أنه كان بامكانهما تقديم النجدة له وارسال قوات للتفريج عنه ، والسبل كانت متيسرة أمام معاوية أكثر من سواه فالمسافة بين الشام والمدينة المنورة لم تكن طويلة البتة .

وتمت بيعة الامام علي بن أبي طالب من قبل الثوار ، ولقد كان لوضع أهل المدينة ودورهم خلال ذلك مؤثرات كبيرة وكثيرة منها أن المدينة فقدت سلطانها السياسي والعسكري ، وأن مركز ثقل القوة الفعلية قد انتقل الى الامصار ، وان الامصار لاشك مقبلة على الصراع على السلطة في حال الاخفاق في التوصل الى تسوية تقوم على اساس استقلال كل مصر عن الآخر وزوال وحدة ديار الخلافة ، وانه لامر مدهش حقا ان يعتقد المسلمون أثناء نشوء أحداث الفتنة الكبرى أن مشاكلهم قد نجمت عن مسلك رجل فرد ، وأن بامكان فرد آخر تدارك الأخطار مع أن المسألة تعلقت أساسا بتغيير لمناهج السياسة التي فرضتها الظروف الادارية والمالية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع المواريث القرشية ومواريث ومشاكل الأقاليم المفتوحة ، ولهذا لم يستطع الامام علي بما ملكه من كفاءات وطاقات ايجاد حل ناجع يمكن تطبيقه للخروج من المشاكل التي واجهها ، ونلاحظ ايضاً ان علي بن أبي طالب اختاره ثوار أهل الكوفة ، وحين تزعم هؤلاء الثوار لم يكن قط طرفا من أطراف الاعداد لثورتهم ، كما أنه لم يسبق له زيارة الكوفة ، فالامام علي ـ كما هو معروف ـ لم يشارك في عمليات الفتوحات ولاقبل ذلك في عمليات جيوش المدينة ضد الردة ، وكان بالتالي لايعرف شيئا ملموسا عن أوضاع ديار الدولة خارج اطار مكة والمدينة .

لقد نصح الامام علي في بداية توليه للخلافة بالاعتراف بالموقع المتميز لولاة الأمصار ولاسيما لمعاوية بالشام فرفض [1] لأنه كان قد جاء لاصلاح ماحدث أيام عثمان ، كما كان مشبعا بالايمان بوحدة المسلمين وديارهم ، فهو أكثر من غيره ، كان يعرف ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم وما استهدفه الاسلام من انشاء أمة واحدة ، وحين رفض اقرار معاوية ، ورفض أهل الشام السماح لواليه البديل - سهل بن حنيف - بالدخول الى بلادهم ، كان ذلك يعني - لأول مرة في تاريخ الاسلام - اللجوء الى استخدام القوة للعزل ، وفيما الامام علي مشغول بهذه المعضلة اذا به يفاجىء بمضي عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير الى البصرة ، واستيلائهم عليها انتزاعا من والي علي [2] عليها ، ومثلت البصرة بجندها واحدا من مراكز الصراع على السلطة في الشرق ، وذلك بالاضافة الى الكوفة والشام .

وراسل عثمان بن حنيف والي البصرة لعلي المدينة وأخبر الامام علي بما حدث ، فتوجب عليه التحرك بسرعة وأخذ الطريق نحو العراق ، نحو الكوفة بالتحديد ، ليس فقط لأن أهل الكوفة هم الذين تزعموا الثورة على عثمان وبايعوه بالخلافة ، بل لأنه لم يكن أمامه مجال غير مجال الكوفة ، وحين وصل الى الكوفة اضطر قبل كل شيء لمعالجة مشكلة البصرة ، ليتفرغ بعد ذلك لمعالجة مشكلة الشام ، ثم ليتورط بمعالجة مشكلة الخوارج ، وقد اغتيل وهو منشغل بهذه الأمور والملاحظ مجددا أنه أثناء وقائع صفين ومحاولات ايقاف القتال ، ثم المناقشات التي جرت أثناء اجتماع الخوارج في حروراء ثم بالنهروان ، تمركزت الأمور كلها حول علي وتمحورت ، فالخوارج طلبوا منه التوبة لا من سواه وقتلوه غيلة بعد ذلك .

أضف الى هذا أن الصراع في الجمل كان صراعا بين فئة قرشية وأخرى على السلطة ، وكذلك كان الصراع في صفين أمويا هاشميا ، وقد حسم هذا الصراع لصالح بني أمية ، ومن جديد لم تفد السلطة بني هاشم كثيراً ، وتحولوا الى صفوف المعارضة .

---

(١) - الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٤٣٩ - ٤٤٣ .
(٢) - الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٤٥٨ - ٤٦٨ .

وخلاصة الأمر كان بنو هاشم زعماء المعارضة في مكة ، ثم صاروا زعماء المعارضة منذ تاريخ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم استأنفوا هذا الدور منذ مصرع الامام علي بن أبي طالب ، واجتمع ميراث المعارضة القديم والمثالية التي اتسم بها مع حاجة القوى المسلحة التي تضررت من السلطة الأموية وسواها ، فكان طبيعيا أن يتزعم بنو هاشم ، أو بالحري أن يستمر بنو هاشم في تزعم قوى المعارضة ، ونظراً لان الاسلام مزج بين المفاهيم ، ولكون أسباب المعارضة وعواملها الدافعة والمحرضة كانت في أغلب الأحيان اقتصادية واجتماعية ، فقد تجلت صور المعارضة على شكل مطالب سياسية وبأعمال عسكرية ، ومنحها هذا كله بعض السمات الدينية على قاعدة الحلال والحرام وغيرها من قواعد المزج .

ولئن كانت جذور المعارضة قديمة تمتد الى ما شهدته مكة من أحداث قبل الاسلام ثم ما شهدته الساحة الاسلامية فيما بعد ، فان أشكال وثمار هذه الجذور تبدلت تبعا لمقتضيات الحال والبيئة والموقع الجغرافي ونبقى في اطار ما طرحناه في البداية حول نشوء حزب الشيعة ومكان نشوئه .

لقد ارتبط تاريخ التشيع ارتباطاً وثيقاً بمدينة الكوفة والعراق ، ولئن مثل بنو هاشم بمواريثهم زعامة المعارضة والمناداة بالاصلاح ، فان ثوار أهل الكوفة فجروا ثورة لم يشارك بها بنو هاشم ، وجاءوا بالهاشمي علي بن أبي طالب لتزعم ثورتهم لكن بعدما حققت هذه الثورة أول أهدافها بالاطاحة بعثمان ، وعلى هذا يمكن القول أن تكوين المعارضة كحزب والثورة والتخطيط لها لم يكن لعلي دور فيها ، كما أن الذين أحبوا الامام علي بن أبي طالب والتفوا حوله أيام النبي صلى الله عليه وسلم ونخص بالذكر منهم : سلمان الفارسي ، والمقداد وعمار وأبي ذر الغفاري ، لم يشاركوا فيما حدث بالكوفة ، فأبو ذر كان قد توفي من قبل ، وانتقل عمار بن ياسر الى الكوفة مع الإمام علي ولاقى مصرعه في صفين .

لقد كان الأشتر النخعي [1] ، وبعض شخصيات الكوفة الآخرين هم الذين خططوا للثورة على عثمان وتولوا تنفيذها ، ونشأت علاقتهم بعلي بعد تفجر ثورتهم وليس قبل ذلك ، واذا ما اعتبرنا ما حدث بالكوفة مقدمات لقيام حزب الشيعة

(١) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٨٠٦ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٣٠٨ ـ ٣٢٩ .

فان هذه المقدمات تختلف تمام الاختلاف عن المقدمات التي ظهرت في المدينة منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقودنا هذا الى التعرف على مشكلة تميز بها حزب الشيعة هي مشكلة الازدواجية بين المخطط والمنفذ للثورة من جانب وبين الزعامة من جانب آخر .

صحيح أنه عندما نشأ حلف الفضول كان المحرض عليه قوة متضررة من غير أهل مكة ، لكن دور المعارضة الهاشمية كان فعالا وحاسماً في حلف الفضول ثم فعالا أكثر في ثورة الاسلام .

فثورة الاسلام قادها منذ البداية وحتى النصر النبي (ص) لكن الآن في الفتنة الكبرى وما تلاها من أحداث طلب من الزعامة الهاشمية تسيير الأمور بعدما وصلت الى حد حرج جداً ، وقبل التوغل في إيضاح هذه الازدواجية نسمح لأنفسنا بضرب أمثلة أخرى فنحن سنواجه بعد قليل توجيه الدعوة للحسين بن علي من قبل أهل الكوفة ، كما سنواجه قيام المختار في الكوفة ومناداته بامامة (محمد بن الحنفية) وبعد ذلك بفترة استدعاء أهل الكوفة لزيد بن علي لتزعم الثورة ضد هشام بن عبد الملك ، وفي جميع هذه الحالات لم يكن للزعامة الهاشمية أدنى دور في عمليات التخطيط الأولى ، ولا المشاركة في احداث الكوفة التي جعلت الكوفيين يفكرون بالثورة ، وان هذه الازدواجية والتناقض بين الزعامة لما سيعرف باسم حزب الشيعة وبين المفجرين الفعليين للثورات ، ستسم هذا الحزب بسمتها السياسية بل أكثر من هذا بسمتها العقائدية فلطالما طرح سؤال كبير هو : من الذي أوجد عقائد الشيعة وطورها ، ثم مدى دور الأئمة في ذلك كله ؟

بعد هذا العرض التحليلي لنحاول استعراض المراحل التي مر بها حزب الشيعة خلال العصر الأموي حتى أخذ شكله المقرر ، ومن ثم بات مشكلا بالخط الامامي بشكل رئيسي مع محاولة دراسة أوضاع الكوفة وأثر من ذلك على تطور حزب التشيع .

الكوفة كما هو معلوم مدينة أسست مع نجاح الفتوحات العربية في العراق وقد قامت في البداية على شكل معسكر للجنود ، أو بالأحرى على شكل عدة مضارب لقبائل الجند ، وقد كان ذلك قبل سنة ١٧ هـ/٦٣٨ م .

ومن أخبار معركة القادسية وما سبقها من معارك فتوح العراق نلاحظ أن الجند كانوا قد جلبوا معهم نساؤهم وأولادهم وأهليهم ، أي أن عملية الفتوح كانت أشبه بهجرة بشرية كبرى ، وحين عسكر الفاتحون في الكوفة عسكروا على شكل قبائل ، وكان من الطبيعي أن تعسكر كل وحدة من الوحدات القبلية الى جانب بعضها والذين شاركوا في فتوح العراق ، لا سيما في القادسية مثلوا مجمل قبائل شبه الجزيرة في الشمال والجنوب .

وكان قرابة نصف الذين استقروا في الكوفة من القبائل القيسية والنصف الآخر من القبائل اليمانية ، وكانت بجيلة ، والنخع ، والأزد ، أبرز القبائل اليمانية .

وكان بين القبائل القيسية : ثقيف ، وعامر بن صعصعة ، ولدى استعراض أسماء الزعامات البارزة التي ساندت الامام علي أثناء وجوده في الكوفة وخلال القتال في صفين نجد أن معظمها من القبائل اليمانية ، وفي الحقيقة انتشر التشيع أولاً بين القبائل اليمانية ، وبسبب النزاع القيسي اليماني فان القبائل القيسية اتخذت موقفا معادياً للموقف اليماني ، وساندت العرش الأموي ، ومن هنا نرى أن كبار الولاة الأمويين على العراق كانوا غدنانيين مثل : زياد ، والمغيرة ، والحجاج بن يوسف ، ويوسف بن عمر الثقفي .

واعتمادا على مسألة الصراع بين العصبيتين الكبيرتين نستطيع أن نفهم أسباب اخفاق العديد من مشاريع الحركات الشيعية في الكوفة ونجاح السلطة الأموية في القضاء عليها ولعل هذا الصراع كان أحد العوامل الرئيسية في إخفاق علي بن أبي طالب في تحقيق النصر الحاسم ضد معاوية ، أو في قيادة حملة جديدة ضده بعد إخفاق عملية التحكيم وسحق الخوارج في النهروان ، ومهما يكن من أمر شهدت أرض الكوفة جميع الحركات الشيعية التي استهدفت تغيير السلطة الأموية بوساطة القوة العسكرية ، ويمكن أن نعتبر هذه الحركات مراحل قامت بتطوير حزب الشيعة وتحويله من حركة سياسية محضة لها أسباب اقتصادية واجتماعية الى حركة ذات محتوى عقائدي وديني .

ولا بد هنا من التنبيه الى أن الوسط الذي نشأت فيه الكوفة وسط حضاري عريق له مواريثه العقائدية التي تمتد جذورها الى فجر التاريخ ، لأن الكوفة تحولت

خلال ولاية المغيرة لها بين سنة ١٧ الى ٢٢ للهجرة من معسكر للجند الى حاضرة جزء كبير من الدولة العربية الناشئة ، وأقبل على سكناها بالاضافة الى العرب أعداد كبيرة من الفرس ومن سكان سواد العراق [١] .

وهؤلاء كانوا متميزين بالامكانات الاقتصادية والحرفية والثقافية الادارية ، وقد تعاملوا وهم يحملون مواريثهم مع العرب [٢] ولا سيما مع زعاماتهم ، ولا شك أنهم أثروا بهم ، وسنرى هذا التأثير جلياً في بعض جوانب حركة التوابين وأكثر من ذلك في ثورة المختار بن أبي عبيدة الثقفي .

من الممكن أن نقول إن استقرار الامام علي بن أبي طالب في الكوفة ومقتله فيها قد غرس بذور التشيع الأولى لا سيما بين قبائل النخع وهمدان ومراد ، وكندة . وبعد وفاته بايع هؤلاء ابنه الحسن وتصدروا أعمال المعارضة لتسليم الحسن السلطة لمعاوية بن أبي سفيان ، وبعد استلام معاوية للسلطة ومغادرة أبناء علي العراق الى الحجاز هدأت الأمور بعض الشيء ، ولكن لم تتوقف الزعامات القبلية الموالية لعلي عن تبادل الزيارات واستعراض الأمور ، والتعبير عن المعارضة للسلطة الأموية ، ويمكن أن نصف هذا ببداية تكوين لتنظيم سري للمعارضة الشيعية في الكوفة ، انما بمعزل عن أبناء علي بن أبي طالب ونعني الحسن والحسين [٣] .

كانت بيوت الكوفة متلاصقة وربما كانت معظم البيوت بلا أبواب [٤] ، وكان من السهل أن يعرف كل انسان أخبار البيوت المجاورة له وأسرارها ،وعلى هذا يكون استخدامنا لكلمة سرية لا يعني السرية التامة بل هي سرية مكشوفة ، وقد ساعد على هذا الكشف الوضع القبلي وروابط القرابات والزواج ، ومعرفة سكان الكوفة لأهل البلد الأصليين وتمييزهم عن الغرباء أو المارة .

---

(١) ـ ل . ماسينون ـ خطط الكوفة وشرح خريطتها (ترجمة عربية) ط . صيدا ١٩٣٩ ص ٩ ـ ١٢ ، ١٥ ـ ١٩ .

(٢) ـ ماسينون ـ المرجع نفسه ص ٦ ، ٧ ، ٢١ ، ٢٦ .

(٣) ـ عمر بن أحمد بن العديم ـ الحسين بن علي وحجر بن عدي ط . دمشق ١٩٨٩ ، ص ١٤١ ـ ١٤٧ .

(٤) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص ٦٩ ـ ٧٢ . روايته عن المغيرة بن شعبة واتهامه بالزنا .

لذلك.كان بامكان السلطات الأموية الاطلاع كل يوم على مختلف التفاصيل في الكوفة ، ومعرفة أوصاف كافة الغرباء الذين دخلوا المدينة والأماكن التي استقروا بها والذين التقوا بهم من الكوفيين ، حتى تفاصيل الأحاديث . وقد سهل هذا على السلطة الأموية رصد تحركات الشيعة رصداً دقيقاً ، وبناء عليه نلاحظ أن الثورات التي شهدتها الكوفة تحت لواء حزب الشيعة قد تفجرت في الأوقات التي كان فيها الوضع مضطرباً في دمشق حاضرة الدولة الأموية .

كانت أهم المراحل التي مر بها على هذا تاريخ التشيع في الكوفة ، ثورة الحسين بن علي مع فاجعة كربلاء ، ثورة التوابين ، وحركة المختار ، وأخيراً ثورة زيد بن علي ، وكان لهذا كله مقدمات أبرز أحداثها اعتقال حجر بن عدي الكندي ورفاقه ، وإرسالهم الى الشام لقتلهم ولنحاول أولاً التعرف الى هذه الواقعة .

كان حجر بن عدي صحابياً من زعماء كندة الكبار ، وقد شارك في أعمال الفتوحات لا سيما في فتوحات الشام تحت لواء خالد بن الوليد، وبعد اليرموك واستتباب الأوضاع في الشام ، رجع مع من رجع من جيش خالد الى العراق واستقر في الكوفة ، وبعد أحداث الفتنة الكبرى ومجيء الامام علي الى الكوفة تأسست بينه وبين حجر علاقة وطيدة ، وقد أخلص حجر للقضية التي مثلها الامام علي اخلاصاً كبيراً وآمن بصحة هذه القضية وشيعتها ، ولهذا عارض معارضة شديدة ما أقدم عليه الحسن بن علي من التنازل لمعاوية .

روى البلاذري أن حجر لم يزل : «منكراً على الحسن بن علي صلحه فكان يعزله على ذلك ويقول : تركت القتال ومعك أربعون ألفاً ذوو نيات وبصائر في قتال عدوك»[1] . وأسند معاوية ولاية الكوفة في أول حكمه الى المغيرة بن شعبة وأقام المغيرة والياً للكوفة تسع سنوات ، وخلال هذه السنوات لم يتوقف حجر عن

---

(١) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢١١ (القسم الأول من ط . القدس) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) ج٤ ص١٣٢ و ـ ط . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢١٠٩ ـ ٢١١٠ ، محمد بن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ط . بيروت ١٩٦٠ ، ص٢١٧ ـ ٢٢٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٥٣ ـ ٢٥٧ .

النيل من معاوية ، فكان يعتبره مغتصباً للسلطة ، واستطاع المغيرة أن يضبط الأمور بطول صبره وحبه للعافية .

وهكذا لم يتعد نشاط حجر النطاق الكلامي وظلت الكوفة هادئة شؤونها مستتبة تمام الاستتباب ، وبعد وفاة المغيرة أسند معاوية ولايتها الى زياد ، وبذلك جمع له حكم العراقين .

ليس لدينا ما يوضح فيما إذا كان حجر قد تولى أثناء نيله لمعاوية مناشدة المسلمين بالثورة عليه واستبداله بحاكم من أبناء علي بن أبي طالب ، أو لنصغ العبارة صياغة اخرى : لا ندري هل قام حجر بالدعوة لإمامة الحسين بن علي بن أبي طالب أو لانسان آخر من آل البيت .

وتعتبر المصادر الشيعية حجراً أول شهيد شيعي بارز في التاريخ ، وينبغي هنا أن نفرق بين الرجل الذي تعلق بحب علي وكرهه في الوقت نفسه لمعاوية ، وتمنى لو أن علياً بقي حياً ولم يتعد ذلك ، وبين آخر لم يقتصر على هذا بل تجاوزه للدعوة لامامة الحسين أو غيره من أبناء علي .

كانت العلاقات جيدة بين حجر وزياد بن أبيه في بداية حكمه ، لكن زياد أقدم على النيل من علي بن أبي طالب وآله كما أنه حاول استمالة حجر الى جانبه ولطالما قال له :

«يا أبا عبد الرحمن ان الأمر الذي كنا فيه مع علي كان باطلاً ، وإنما الأمر ما نحن فيه الآن[1]» .

ورد حجر على زياد هذا الرأي وتمسك بالاعلان عن حبه لعلي وكراهيته لمعاوية وقد تهدده زياد وأنذره ، وكان من عادة زياد امضاء ستة أشهر في الكوفة وستة أشهر اخرى بالبصرة ، واعتاد المعارضون للحكم الأموي على النشاط خلال فترة غياب زياد ، فكانوا يترددون على بيت حجر ويسمعون منه ، ويدعو البلاذري هؤلاء المترددين باسم الشيعة[2] . ولا يذكر البلاذري فيما إذا كان هؤلاء الشيعة قد

---

(١) البلاذري - المصدر نفسه ج٤ ص٢١١ . ابن عساكر - المصدر نفسه ج٤ ص١٣٣ وابن العديم - المصدر نفسه ج٥ ص٢١١٠ - ٢١١٢ .

(٢) البلاذري - المصدر نفسه ج٤ ص٢١٣ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٢٥٧ - ٢٥٧ .

دعوا لواحد من أبناء علي ، بل روى أن حجراً لم يحمل تحذير زياد له محمل الجد ، لذلك أخذ يجتمع مع أصحابه بعد ذهاب زياد الى البصرة في المسجد : «فيذمون معاوية ، ويشتمونه ويذكرون زياداً فينتقصونه[1]» .

وخشية أن تستفحل الأمور ، كتب خليفة زياد اليه فجاء مسرعاً الى الكوفة لمعالجة القضية ، وتمكن زياد بحزمه أن يحول بين حجر وبين اعلان الثورة في الكوفة ، وساعده على ذلك تفريقه بين قبائل مضر واليمن[2] .

وهكذا تمكن من اعتقال حجر مع بعض أصحابه ، ولم يتجرأ زياد على البطش بحجر فكتب الى معاوية ، وكان معاوية لديه معلومات كبيرة عن نشاط حجر ومواقفه منذ أيام المغيرة .

ففي احدى المرات كان المغيرة قد شتم عليا بن أبي طالب فقام اليه حجر وقال له : «والله إن عدت لمثلها لأضربن بسيفي هذا ما ثبت قائمه»[3] .

كان عدد زعماء أصحاب حجر الذين أودعهم زياد في السجن أربعة عشر رجلاً بما فيهم هو ، وهم : الأرقم بن عبد الله الكندي ، شريك بن شداد الحضرمي ، صيفي بن فشيل الشيباني ، قبيسة بن ضبيعة ، حرملة العبسي ، كريم بن عفيف الخثعمي ، عاصم بن عوف البجلي ، وفاء بن سمي البجلي ، كدام بن حيان العنزي ، عبد الرحمن بن حيان من بني هميم ، محرز بن شهاب المنقري ، وعبد الله بن حوية الأعرجي ، عتبة بن الأخنس السعدي ، سعيد بن نمران الهمداني .

كتب زياد محضراً رسمياً حول ما حدث في الكوفة وضع عيه شهادات عدد من كبار شخصيات الكوفة ، ونص هذا المحضر ان الشهود قد شهدوا : «ان حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة

---

(١) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢١٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٥٦ ـ ٢٥٩ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢١١٣ ـ ٢١١٥ .

(٢) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢١٧ . الطبري ج٥ ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

(٣) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢٢٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٥٤ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢١١٣ .

وجمع اليه جموعاً يدعوهم الى نكس البيعة ، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، فكفر بالله كفرة صلعاء وأتى معصية شنعاء»[1] .

ليس في هذا المحضر تهمة الدعوة الى فئة معارضة ولا الإشارة الى وجود تنظيم يمكن تسميته بالتشيع ، كما أن مجريات الأحداث لا تشير الى دعوة حجر الى بيعة امام أو خليفة بديلاً لمعاوية ، ولا تذكر وجود مراسلات بينه وبين الحسين أو سواه .

وعلى هذا الأصح أن نصف حركة حجر بحركة تمرد كوفية على الحكم الأموي ، وانه بالنظر للعلاقات المسبقة الوطيدة بين حجر والامام علي ، ولما شهدته ساحة الكوفة فيما بعد ، وصفت هذه الحركة بالتشيع .

لا شك أنها استغلت مع محصلاتها لصالح العمل الشيعي ، وهي على هذا كانت حركة شيعية المواريث لكن عراقية التطلعات .

أرسل زياد بالمعتقلين الى معاوية ليحكم فيهم حسب مشيئته ، ويبدو أن ارسالهم أحرج معاوية لا سيما وأن معظم أعوانه في الشام كانوا من القبائل اليمانية ، ولذلك تحرك معاوية بسرعة وبسرية تامة حيث أنه ما ان عرف بوصول المعتقلين الى ريف دمشق حتى أمر ببقاءهم خارج المدينة في مرج عذراء ، وأرسل معاوية أمراً قضى بقتل حجر وأصحابه فوراً وعدم ادخالهم الى دمشق ، ونفذ الأمر وأثار ضجة كبرى في الشام والعراق وحتى في داخل المدينة المنورة ، فقد استنكرت جميعها ما أقدم عليه معاوية حتى يروى أن : عائشة أم المؤمنين نادت بالثورة على معاوية لكن ما لبثت العاصفة أن هدأت ، وتخلص زياد ومعاوية من زعماء المعارضة[2] في الكوفة إنما جاء هذا الحل مرحلياً فقط ، وأفاد المعارضة فائدة كبرى فدم حجر وأصحابه بات محرضاً للثأر والثورة ، وحين سيجد أهل الكوفة الفرصة المناسبة سيحاولون الثأر من السلطة الأموية كما سنرى .

---

(١) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٢) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٢٢٣ ـ ٢٣٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٦٥ ـ ٢٧٧ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٤ ص١٣٤ و ـ ط . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢١١٠ ـ ٢١١٠ .

وسواء أكان ما نادى اليه حجر مجرد الطلب بالثورة على معاوية أو أرفقه باعلان الرغبة عن بيعة واحد من أبناء علي ليحل محله ، سواء أكان هذا أم لم يكن هو ليس مهماً بقدر ما يثبت تحرك حجر مسألة ما سميناها بالازدواجية في تطور تاريخ حزب الشيعة .

فحيث المعارضة كانت تقوم بالكوفة لأسباب ارتبطت بواقع الكوفة والعراق ، وبالتالي كان رجالاتها يتطلعون ـ باختيار أو بغير اختيار ـ نحو تسمية واحد من أبناء علي لزعامتهم ، فهؤلاء لم يكونوا من رأي الخوارج ولهم صداقات قديمة مع علي ، وثوار على الحكم الأموي فمن الطبيعي توجههم توجهاً علوياً .

ومع هذا التوجه لا يمكننا أن نثبت وجود اتصالات بين حجر والحسين بن علي أو أي نوع من أنواع التنسيق[1] .

وشكلت حركة حجر بن عدي مسيرة التطور الازدواجي لحزب الشيعة انطلاقة في غاية الأهمية ، ذلك انها كانت حركة المعارضة الأولى للحكم الأموي ، فالأحداث التي سبقتها ارتبطت جميعاً بالعصر الراشدي وبالفترة الانتقالية من هذا العصر الى عصر الدولة الأموية ، لكن الآن بعد قيام هذه الدولة والاعتراف بخلافة معاوية ، جاءت حركة حجر كأول شرارة معارضة لسلطان بني أمية وأهل الشام .

وعلى هذا يمكن أن نقول مثلت حركة حجر لحظة ولادة الحزب الشيعي كحركة معارضة للحكم الأموي ، وجميع ما سبقها كان مجرد مقدمات ، وعلى ذلك كانت سنة (٥١هـ) هي تاريخ ميلاد الحزب الشيعي في العصر الأموي ، ومهدت هذه الحركة لما تلاها من أحداث لا سيما لفاجعة كربلاء ، فبعد حجر لم يتجرأ أحد من أهل الكوفة على الثورة ، وجاءت الفرصة مع وفاة معاوية والبيعة لابنه يزيد ، وكان قد توفي وحدث فراغ سياسي بعده بالكوفة استغله الثوار ولا شك أنه قد شجعهم ما تواتر من أخبار حول رفض الحسين بن علي البيعة ليزيد . ولنبدأ مع الأحداث المستجدة خطوة بخطوة .

---

(١) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٢٢ ـ ٢٣٦ مع مصادر الحاشية السابقة .

* كربلاء :

توفي معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠هـ ، وكان ابنه يزيد خارج دمشق فضبط الضحاك بن قيس الفهري الأمور في دمشق ، وجاء يزيد الى دمشق مسرعاً فتولى شؤون الخلافة ، وكانت الأمور ممهدة تمهيداً كاملاً ، وكان أول اجراء اتخذه هو كتابته رسالة مختصرة الى واليه في المدينة يخبره فيها بوفاة معاوية وبيعته ، ويطلب منه الحصول على بيعة كبار أبناء أئمة الصحابة : الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ويروى أن رسول يزيد وصل الى المدينة ليلاً فبادر والي المدينة الى استدعاء مروان بن الحكم وكان شيخ بني أمية في الحجاز ، وأخبره واستشاره ولا سيما بالنسبة لبيعة أبناء الصحابة ، فأشار عليه مروان باستدعائهم ليلاً وعدم اطلاق سراحهم حتى يبايعوا ، وبالفعل أقدم على استدعاء الحسين وعبد الله بن الزبير ، وبما أن عملية الاستدعاء جرت في الليل ، وكان الرجلان يعلمان مسبقاً بمرض معاوية فقد توجسا من استدعائهما في ساعة متأخرة من الليل شراً ، واحتاطا لأمريهما ، وبعد لقائهما بالوالي رفضا البيعة أو بالحري طلبا تأجيلهما الى الصباح ، فقبل الوالي على الرغم من معارضة مروان ، ما ان غادرا منزل الوالي حتى بادر كل منهما بالسفر نحو مكة للاعتصام بها ، وهكذا أقدما بعملهما هذا على الشروع في اعلان الثورة ضد يزيد ، ولما كانت مكة المركز الروحي للمسلمين ، فسرعان ما انتشرت الأخبار منها في كل مكان ، ووصلت هذه الأخبار الى الكوفة فتحرك أهلها وأخذوا يعدون العدة للثورة[1] .

لقد جاء استلام يزيد بن معاوية للخلافة بمثابة صدمة عنيفة لأهل العراق ، فهم قد عانوا كثيراً من وطأة الارهاب والظلم في أيام معاوية وواليه زياد بن أبيه ، والآن معاوية وزياد قد توفيا ، وحدثت تبدلات ، والحسين التجأ الى مكة مقرراً عدم البيعة ليزيد ، ولم يمض وقت طويل على مقتل حجر بن عدي ، أضف الى هذا كله ان السلطة في الكوفة لم تكن حازمة . فقد كان والي الكوفة هو النعمان بن

---

(١) ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص٣٨١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٢٥ ـ ٣٤٧ . ابن عساكر ـ (ترجمة الحسين ـ المصدر نفسه ص٢١٠ ـ ٢١٥) . ابن العديم ـ بغية الطلب ج٦ ص٢٥٨٠ ـ ٢٥٨٧ .

بشير الأنصاري ، وكان رجلاً يحب السلامة وعدم سفك الدماء وكان شعاره : «ان أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون قوياً في معصية الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله[1]» .

وأخذ أهل الكوفة الرافضون للحكم الأموي يجتمعون ويتباحثون في ما ينبغي الإقدام عليه ، وبرز الآن من بين صفوفهم سليمان بن ورد الخزاعي ، واجتمع الزعماء الكوفيون في منزل سليمان في وقت بدت الكوفة فيها وكأنها بدون سلطة ، واتفقوا على مراسلة الحسين ودعوته للقدوم الى الكوفة لبيعته ، وكان مما جاء في رسالة سليمان الى الحسين : «أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك قبلك الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وتأمر عليها وغصبها فيئها وتأمر عليها بغير رضاها ، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود .

ثم انه قد بلغنا ان ولده اللعين قد تأمر على هذه الأمة بلا مشورة ولا اجماع ولا علم من الأخيار ، ونحن مقاتلون معك وباذلون أنفسنا من دونك فأقبل الينا فرحاً مسروراً مأموناً مباركاً سديداً وسيداً مبراً مطاعاً اماماً خليفة علينا مهدياً ، فإنه ليس علينا امام ولا أمير إلا النعمان بن بشير ، وهو في قصر الامارة وحيداً ، طريداً ليس نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه الى عيد ، ولا نؤدي اليه الخراج ، يدعو فلا يجاب ، ويأمر فلا يطاع ، ولو بلغنا أنك قد أقبلت الينا أخرجناه عنا حتى يلحق بالشام ، فأقدم الينا فلعل الله أن يجمعنا بك على الحق[2]» .

وقام أيضاً عدد كبير من شخصيات أهل الكوفة بكتابة رسائل مماثلة للحسين كلها تدعوه للقدوم الى الكوفة . هذا وان دراسة نصوص هذه الرسائل لا سيما نص رسالة سليمان هذه يعطينا معلومات في غاية الأهمية لا سيما قوله : «اماماً خليفة مهدياً» .

فاستخدام هذه المصطلحات بالغ الخطورة ، وهي أساسية لدى جميع الشيعة ، والتمييز بين الامامة والخلافة ، وطرح فكرة المهدية في هذه الفترة المبكرة

---

(١) الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٤٨ .

(٢) ابن اعثم ـ المصدر نفسه ١٤٠٢ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٥٢ .

يدل على أن تطوراً كبيراً من الجانب العقائدي قد شهده مجتمع أهل الكوفة ، فمن المعروف بالنسبة لما جاء في كتب الشيعة أن النبي(ص) جمع في ذاته السلطتين الدينية والدنيوية ، وان علياً بن أبي طالب هو الوريث الشرعي لهاتين السلطتين . وعندما تولى ابو بكر السلطة تولى الخلافة التي هي الأمور الدنيوية ، وبقي علي محتفظاً بمبادئه الدينية (الامامة) . وان يكون أهل الكوفة في هذه الفترة المبكرة قد عرفوا عقيدة الخلافة والامامة واعتبروا امامهم المنتظر مهدي زمانه أمر يبعث على الدهشة الكبيرة ، وفي الوقت نفسه يدفع الى التشكك بعض الشيء في أن تكون هذه العبارات قد أقحمت من قبل الرواة في رسالة سليمان بن صرد وغيره .

ومما يلفت الانتباه ان سليمان لم يكتف باخبار الحسين بأوضاع الكوفة السياسية وإنما أعلمه بالاستعداد للاستيلاء على السلطة فيها في حال قبوله بمبدأ القدوم عليهم ، وكان مثل هذا الشرط ضرورياً من بعض الجوانب حتى لا ينتهي أمره وأمر أهل الكوفة الى ما آل اليه أمر حجر بن عدي من قبل ، واختلف هنا الحال عما شهدته الكوفة من قبل ، فالكوفيون حين ثاروا على عثمان لم يراسلوا علي بن أبي طالب ، وحين ثار حجر لم يراسل بدوره أحداً ، لكنهم الآن قاموا قبل اعلان الثورة بمراسلة الحسين بن علي ولا بد من سؤال هنا : هل سبق هذه المراسلة مراسلات اخرى ، أو بكلمة ثانية هل كانت هناك اتصالات سياسية بين الحسين وأهل الكوفة بعد مقتل حجر بن عدي ؟ يرجح مثل وجود هذه الاتصالات فلولاها لكان الاحتمال ضعيفاً في ذهاب الحسين الى مكة وعزمه على عدم البيعة ليزيد[1] .

انه من غير المعقول ان يقدم الحسين على رفض البيعة دون وجود مستند قوي لديه ، وإذا صح هذا فإنه يعني حدوث تطور تنظيمي كبير هو الأول من نوعه في تاريخ حزب الشيعة كحركة معارضة ، اي الغاء لمسألة الازدواجية في العمل وتنسيق مسبق بين القيادة والقاعدة الثورية .

لقد لاقت مراسلات أهل الكوفة القبول الكلي لدى الحسين ، لكن أهله وأصدقاؤه حذروه وطلبوا منه اتخاذ بعض الخطوات الاحتياطية لا سيما وان السلطة

---

(١) ابن العديم - المصدر نفسه ج٦ ص٢٦٠٦ (نقلاً عن ابن سعد كاتب الواقدي)

الرسمية في الكوفة ما زالت أموية مع الأخذ بعين الاعتبار قضية التوازن القبلي في الكوفة نفسها ، وكون الذين تولوا مراسلة الحسين كانوا من أصل يماني ، ولم يراسله أحد من زعماء العدنانيين ، وفي الوقت نفسه أظهر ابن الزبير نفسه مؤيدا للحسين ، انما كان في الواقع يخطط لنفسه ويريد إزاحة الحسين ، وسفره من الحجاز ، لذلك حرضه وشجعه كثيراً على السفر بلا تمهل نحو الكوفة ، قام الحسين بارسال مسلم بن عقيل ابن عمه الى الكوفة ليمهد له الأمور هناك ، ولاقت مهمة مسلم نجاحاً كبيراً ، وقام بمراسلة الحسين واخباره وتشجيعه على القدوم الى الكوفة . وضربت مواعيد للثورة والاستيلاء على مقاليد الأمور في الكوفة وقام بعض الكوفيون بمراسلة يزيد بن معاوية يخبرونه بما يجري في مدينتهم ، فبادر يزيد بالكتابة الى واليه على البصرة عبيد الله بن زياد فولاه الكوفة وأعلمه بأن أهل الكوفة يتوقعون وصول الحسين ، وان مسلم بن عقيل موجود في مدينتهم وعليك اعتقاله وقتله ، وسارع ابن زياد بالتوجه الى الكوفة ودخلها ملثماً فظنه أهل الكوفة الحسين ، لذلك كان لا يمر على مجلس من مجالس أهل الكوفة أثناء توجهه نحو قصرها «فيسلم إلا قالوا : عليك السلام يا بن بنت رسول الله[1]» .

استطاع ابن زياد بسرعة أن يضبط الأمور في الكوفة عن طريق استخدام القبائل العدنانية وتهديد زعماء القبائل اليمانية بقطع الأعطيات والسجن والقتل .

كما استطاع ان يتعقب مسلم بن عقيل وان يكتشف مكان وجوده ، وفي الوقت نفسه أقام المحارس حول الكوفة ليمنع القدوم اليها والخروج منها ، وهذا يعني ان الادارة الأموية عرفت أسرار التنظيم وكانت على بينة بمغادرة الحسين بن علي للحجاز وأخذه الطريق نحو الكوفة ، وانها عزمت على استدراجه نحو العراق للتخلص منه والحيلولة بينه وبين الاطلاع على مستجدات الأمور التي جرت في الكوفة[2] .

---

(١) الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٤٨ ، ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص١٤٠٣ ـ ١٤١٢ .

(٢) ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص١٤٠٦ ـ ١٤١٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٥٦ ـ ٣٥٨ .

جاء الحسين المطمئن الى نجاحاته المستقبلية في الكوفة ومعه جميع أفراد أسرته من أبنائه وأخواته واخوانه ، وضم ركبه قرابة الثمانين بما في ذلك النساء والرجال وسار سيراً طبيعياً نحو الكوفة ، ويروى أنه صدف في طريقه الشاعر الفرزدق فسأله عما استجد في الكوفة وكيف الأحوال فيها ، وهنا تذكر بعض الروايات أن الفرزدق أخبره أن قلوب أهل العراق معه وسيوفهم مع بني أمية ولم يزد على ذلك .

وتقول روايات أخرى أنه أخبره بدخول ابن زياد الى الكوفة ، وتزيد هذه الروايات فتقول إنه أيضاً أعلمه بمقتل مسلم بن عقيل على يد ابن زياد ، وان الحسين فكر بالعودة ، فقام آل مسلم بالضغط عليه لمتابعة السير نحو الكوفة .

ومن المرجح أن الفرزدق تحدث مع الحسين حديثا عاما فقط ، وأنه لم يحمل اليه شيئا عما جرى في الكوفة بالنظر للحصار الذي فرضه ابن زياد على المدينة ، لكن الرواة أوجدوا تعليلاً لسفر الحسين أو لمتابعة السفر الى الكوفة فاخترعوا مسألة ضغط آل مسلم عليه ، وقام رواة الشيعة المتأخرين فيما بعد ، بتجاوز هذه الرواية وقالوا : أن الحسين كان يعلم مسبقاً بما هو مقدم عليه وأنه سار على طريق الشهادة فتابع نحو الكوفة ولم يتوقف [1] .

لقد اقتضى هذا القول الصياغة الملحمية لما حدث مع الحسين ، وفي هذه الصياغة الملحمية كما هو معلوم أدخلت فكرة الفداء المقدس ، وهي فكرة عراقية قديمة كانت الأصل لفكرة الفداء التي تطورت تطوراً كبيراً في المسيحية [2] . وتتنافى فكرة الفداء هذه مع محتوى العقيدة الاسلامية ، فاذا صح وكان الحسين يعرف مسبقا انه مقتول فان في متابعة سيره نوعاً من أنواع الانتحار المحرم في الاسلام ، وأخذه لأهله معه لا مسوغ له ، ولذلك من المرجح أن الحسين لم يعرف أبدا بما حدث بالكوفة ، وأن السلطة الأموية تعمدت تعمية الأخبار عليه ، واستهدفت

---

(١) - ابن اعثم - المصدر نفسه ص ١٤٢٩ - ١٤٩٠ . الطبري - المصدر نفسه ج٥ ص٣٨٢ - ٣٨٩ ابن عساكر - المصدر نفسه ص٢٦٩ - ٢٧٣ . ابن العديم - المصدر نفسه ج٦ ص٢٦٤٦ - ٢٦٥٥ .

(٢) - انظر سهيل زكار - الجامع في اخبار القرامطة ط. دمشق ١٩٨٨ ج١ ص٤٧

استدراجه الى فخ أعدته له باحكام ، فهي قد أرادت التخلص منه وتصفيته جسدياً مالكة القوة والمسوغ ، ويؤكد هذا ما ذكره مختلف الرواة من أن ابن زياد كان قد بث العيون والمحارس على طول الطريق الذي يقود نحو الكوفة لاطلاعه على سير الحسين ، وللاستعداد للبطش به ، واستنفر ابن زياد جيشاً كبيراً من أهل الكوفة ، بثه في أطراف العراق ، ذلك أنه ما أن دخل الحسين العراق حتى وجد نفسه مطوقاً بقوات ابن زياد ، ويروى هنا أنه حاول التملص بالعودة الى الحجاز أو التوجه باتجاه آخر فمنع واضطر لمتابعة سيره نحو الكوفة وطبيعي أن يفعل ذلك على أمل أن يثور الكوفيين اذا علموا بقدومه ، ويهبوا للدفاع عنه على الأقل ، لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ، وكان ابن زياد قد بطش بمسلم بن عقيل وبعدد من زعماء اليمانيين في الكوفة ، وكلف عمر بن سعد بن أبي وقاص القرشي بقيادة جيش كبير جداً يتولى اعتراض طريق الحسين ومن ثم القيام بتصفيته جسدياً .

ونفذ عمر بن سعد مهمته ولم تعط للحسين أية فرصة ، وعومل بفظاظة متناهية فلقد كان القرار المتخذ قتله وقتل من كان معه من أهله [1] .

لقد وجدت السلطة الأموية فرصتها الآن في انزال ضربة قاصمة ببيت علي بن أبي طالب ، فهي كانت قبل فترة وجيزة قد تخلصت من الحسن بن علي والآن جاء دور الحسين وبقية آله .

لا شك أنه كان بامكان جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص ـ الذي قيل انه تجاوز العشرون ألفاً ـ اعتقال الحسين وأصحابه بعد حصارهم لمدة أيام ومنع الأطعمة عنهم ، لكن التعليمات كانت تريد قتل الحسين وآله لا اعتقالهم وهكذا نفذت جريمة قتل آخر سبط على وجه الأرض لخاتم الأنبياء ، وكانت كارثة فريدة من نوعها اقترفتها السلطة الأموية عن سابق إصرار وتعمد [2] كما اقترفت قبل أعوام

---

(١) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ص١٩٦ ـ ٢٢٢ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٦ ص٢٦١٢ ـ :٢٦٣٠ . أبو مخنف لوط بن يحيى ـ كتاب المقتل ط . بيروت ١٩٨٣ ص١٢٥ الدينوري ـ المصدر نفسه ص٢٤٣ ـ ٢٦١ .

(٢) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ص٢٨٧ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٦ ص٢٦٢٥ ـ ٢٦٦٧ . الدينوري ـ المصدر نفسه . من ٢٤٤ ـ ٢٦١

يسيرة قتل حجر بن عدي وأصحابه ، ومرفوض هنا ما ذهب اليه بعض الفقهاء وفي فترات تالية ، من ان الحسين قد «قتل بسيف جده[1]» .

لم يقتل الحسين بن علي بسيف جده لانه لم يكن برقبته بيعة ليزيد بن معاوية ، فهو لم يبايعه بالخلافة ورفض من قبل الاعتراف به وليا لعهد المسلمين ، ولذلك لم يكن من اهل الفتنة ثم انه لم يشهر السلاح ضد أحد ، وملك مع اهله حرية التنقل والسفر ، وجل ماكان يحق لبني امية القاء القبض عليه ومحاكته لكنهم لم يريدوا ذلك واستهدفوا قتله . ومادامو قد عزموا على ذلك يبقى ماقيل عن الحسين انه لم يستمع الى ما اشار الاصدقاء والاهل عليه ، وانه تصرف بدون حذر وحيطة يبقى مثل هذا مرفوضا .

لقد تصرف الحسين بكل حذر وارسل ابن عمه الى الكوفة ليعد العدة له وليهيء هذه المدينة لقدومه ، ودل بذلك على تبصر وعقل وحكمة ، لكن الحسين لم يملك المال لينفق على أصحابه من أهل الكوفة ، أو على غيرهم لتجنيدهم لصالحه ، ولتعويضهم في حال قيام السلطات الاموية بقطع الاعطيات عنهم ، وقام عبيد الله بن زياد بتوجيهات من الخليفة الذي استمع الى مشورة سرجون الرومي فقام باعدام الحسين .

هذا ولايفوتنا ان نذكر ما ذهب اليه عدد من الباحثين من ان يزيد بن معاوية لم يحمل في نفسه الحقد الاموي على بني هاشم فقط ، بل حمل احقادا اخرى أضيفت اليها أحقاد سرجون ، فسرجون لم يكن مسلما ، وكانت ميسون ام يزيد مسيحية أيضا ، ويرجح انها لم تدخل الاسلام . ونشأ معها ابنها يزيد في وسط بدوي غير اسلامي حيث نشأ معها في مضارب كلب قرب تدمر وباديتها وقرى حمص ، وحين توفي معاوية كان يزيد مقيما قرب بلدة صدد ، وهذه البلدة لم تزل حتى الان متميزة بطابعها غير الاسلامي .

وخلاصة الامر تتحمل السلطة الاموية ممثلة بشخصية يزيد وواليه عبيد الله ابن زياد بشكل كامل مقتل الحسين بن علي وآله[2] .

---

(١) ـ ابو بكر بن العربي ـ العواصم من القواصم ط . الجزائر ١٩٧٤ ص٤٥٠ ـ ٤٥٧ .

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٤٨ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص٢٤٣ ـ ٢٦١ . ابن =

ومهما يكن من امر شكل مصرع الحسين مع الايام نبعا لاينضب من الافكار والالهامات ، وكان نقطة تحول عظمى بالنسبة لتاريخ حزب التشييع وتطوره ، وقتل الحسين في ارض بابل ، وهي أرض ذات مواريث ملحمية معروفة لذلك مالبث ان تحولت أخبار مصرعه الى ملحمة أعيدت صياغتها مرارا ، ورويت قديما ومازالت تروى . صيغت نثرا وشعرا وأقحمت فيها عقائد بلاد الرافدين القديمة والغنية جدا[1] .

كان لفاجعة كربلاء نتائج مباشرة وبعيدة المدى ، وقد ارتبطت بها معظم التطورات التي شهدتها بلاد العراق وشبه جزيرة العرب في ايام يزيد وبعده لاسيما مسألة ثورة المدينة وخروج ابن الزبير في مكة . ومع اننا سنتناول هاتين القضيتين فيما بعد يهمنا ان نشير هنا الى أن السلطة الاموية لم ترع ايام يزيد اي حرمة من الحرمات ، وبعدما اقدمت على ابادة آل البيت سهل عليها بعد هذه العملية ان تقدم على استباحة المدينة ، وعلى ضرب الكعبة بالمنجنيقات وغيرها ، وكأنما صوره الحال ثورة من السلطة الاموية على حرمات الاسلام وقرار بتدمير هذه الحرمات تدميرا كليا[2] وفي ذروة هذا النشاط توفي يزيد بن معاوية وهو في ريعان الشباب ، ومع ان المصادر لاتحدثنا عن اسباب وفاته الا انه ليس من المستبعد انه تم التخلص منه لايقاف مسلسل الردة الجديدة على الاسلام وحرماته اعتمادا على السلطات العسكرية للدولة المسلمة .

بعد مقتل الحسين جلبت نساء آل البيت في حالة لاتوصف من سوء المعاملة والتنكيل ، وأحضروا امام عبيد الله بن زياد ودفعت ماأقدمت عليه الدولة من عدم مراعاة للحرمات ان قام بعض رجال عبيد الله بن زياد بالعبث بنساء آل البيت

= عساكر - المصدر نفسه ص٢٢٢ - ٢٨٧ . ابن العديم ج٦ ص٢٦٢٢ - ٢٦٦٦ .
فؤاد انيس الخوري - يزيد بن معاوية - رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ غير منشورة - الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٧٤ ص٣ - ٦ ، ٥٦ .

(١) - انظر محتويات كتاب المقتل لأبي مخنف لوط بن يحيى ط. بيروت ١٩٨٣ .

(٢) - ابن العديم - المصدر نفسه ج٦ ص٢٦١٤ - ٢٦٣٣ .

حتى ان احدهم طلب ان يمنح بعض النسوة كجارية يتسرى بها[1] .

وبعدما عبث ابن زياد برأس الحسين أمر بحمل هذا الرأس مع النسوة الى يزيد بن معاوية ، وبعد وصوله الى عند يزيد سرح النساء وبصحبتهم الطفل علي بن الحسين الى الحجاز ، وأمر بعرض رأس الحسين والتشهير به فبعدما طيف بالرأس في دمشق عرض في جانب من جوانب مسجد بني أمية ، ثم حمل الى مدن الشام وأخيرا دفن حسب احدى الروايات في مدينة قيسارية او في الفسطاط عاصمة مصر[2] .

وبعد فترة وجيزة من هذا الحدث الجلل توفي يزيد دون ان يترك رجلا من أولاده يستطيع القيام بمقاليد الامور ، فاضطربت الاوضاع في جميع المناطق ، ووجد اهل الكوفة الفرصة للتحرك للثأر لدم الحسين وقد ندموا على تخاذلهم وعدم الاقدام على نجدته ، وتلاقى زعماء الكوفة الذين راسلوا الحسين وفي مقدمتهم سلميان بن صرد الخزاعي وتدارسوا ماحدث ووجدو أنه لايغسل عنهم الاثم والخطأ الا ان يخرجوا فيقتلوا من قتله ويأخذوا بدمه حيث كان في مشارق الارض ومغاربها[3] .

وفي اثناء هذا النشاط المحموم في الكوفة وبينما الدعوة للثأر للحسين تلاقي اعظم النجاحات ، حدث ان وصل الى الكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي قادما من الحجاز واعلن انه مرسل من قبل محمد بن الحنفية أخي الحسن لأبيه ووصيه مكلفا بالدعوة لامامة محمد بن الحنيفة والثأر للحسين ، وإثر قدوم المختار هذا ارتفع حماس اهل الكوفة حتى كاد ان يشل حركتهم وكادت الفتنة تقع بين صفوفهم وترمي بأسهم بينهم وعندما ادرك المختار مخاطر ماتورط به التزم الصمت وانما بعدما وجه

---

(١) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٤٥٥ ـ ٤٥٧ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٦ ص٢٦٣٢ ـ ٢٦٣٣ .

(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٤٦٠ ـ ٤٦٧

(٣) ـ ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص١٥٥٧ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٠٤ ـ ٢٠٥ ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج١ ص٣٣٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٥٥١ . علي بن الحسين المسعودي ـ مروج الذهب ط . القاهرة ١٩٥٨ ج٣ ص١٠٠ ـ ١٠٢

ضربة قاسية للدعوة التي عرفت باسم دعوة التوابين وقد تزعم هذه الدعوة خمسة هم :

سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبه الفزاري ، وعبد الله بن سعد ابن نوفل الازدي ، وعبد الله بن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي[1] .

وتدل انساب هؤلاء الزعماء الخمسة انهم مثلوا قبائل الكوفة العدنانية والقحطانية ، ويدل هذا على تحول نوعي في اوضاع الكوفة كما يشير الى انتشار الولاء لآل البيت او انتشار الدعوة الشيعية اكثر فأكثر في الكوفة ، الامر الذي جعلها بعد فترة تصبغ بالصبغة الشيعية كلها تقريبا . وتابع الزعماء الخمسة نشاطهم في الكوفة وكانت الامور قد اضطربت اضطرابا كبيرا في بلاد الشام ، وقامت النزاعات على السلطة فيها بعد اخفاق معاوية الثاني ووفاته ، وعقد في هذه الاثناء مؤتمر الجابية الذي تمخض عن البيعة لمروان بن الحكم بالخلافة وابعاد البيت السفياني عن السلطة ، وخاض مروان معركة مرج راهط وسيطر على الشام واخذ يتطلع الى بسط سيطرته على العراق ، وكان عبيد الله بن زياد ممن شهد احداث مؤتمر الجابية وابدى استعداده لاسترداد العراق ، فوجهه مروان على رأس قوة عسكرية نحوها ، وقامت حركة التوابين بتكليف سليمان بن صرد بزعامتها وخرج التوابون من الكوفة واتجهوا اولا نحو كربلاء حيث قبر الحسين وعندما رأوه أخذوا يقولون : «اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا وقد أسأنا وأخطأنا فاغفر لنا ماقد مضى من ذنوبنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، اللهم ان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[2]» وعندما وصل الناس الى قبر الحسين اقاموا عنده يوما وليلة يصلون ويبكون ويتضرعون ، ثم نادى فيهم سليمان بن صرد بالرحيل فجعل الرجل بعد الرجل يأتي القبر فيودعه ويترحم علي الحسين ويستغفر الله له ، ثم انهم ازدحموا على القبر كازدحامهم على الحجر الاسود وهم يقولون : «اللهم انا قد خرجنا من الديار والأموال وفارقنا الأهلين والأولاد نريد جهاد الفاسقين المحلين الذين قتلوا ابن بنت نبينا فتب علينا وارزقنا الشهادة ياأرحم الراحمين ، اللهم انا نعلم أنه لو

---

(١) ـ ابن اعثم ـ المصدر نفسه ١٥٥٧ .

(٢) ـ ابن اعثم ـ المصدر نفسه ١٥٦٩ .

كان الجهاد فيهم بمطلع الشمس أو مغرب القمر أو بمنقطع التراب لكان حقيقيا علينا أن نطلبه حتى نناله فان ذلك هو الفوز العظيم والشهادة التي ثوابها الجنة[١]» .

ونلاحظ هنا أن هذه الحركة وإن وصفت بالتشييع واعتبرها الباحثون بمثابة نقطة تحول جديدة في تطور الحزب الشيعي انها لم تدع الى امامة واحد من آل البيت سواء لعلي بن الحسين أو أخي الحسين محمد بن الحنيفة كما فعل المختار ، أو لانسان آخر من أبناء الحسين بن علي .

كما ويلاحظ انها افتتحت عملاً ما زال أساسياً حتى الآن في الممارسات الشيعية وهو زيارة قبر الحسين والترحم عليه هناك ، وهذا يعني مرحلة جديدة في تحول حزب الشيعة من حركة سياسية محضة الى حركة دينية سياسية .

ومع هذا كله نلاحظ أن التوابين اتخذوا قراراً باعلان الجهاد ضد قتلة الحسين ، وكان بامكانهم فعل ما أقدم عليه المختار في تصفية الناس الذين تولوا قتل الحسين من الجيش الذي جنده ابن زياد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك واعتبروا ان المسؤول عن مقتل الحسين النظام الأموي بدمشق ، وقرروا الانتقام من هذا النظام ، إنما في الوقت نفسه وهم قد اتخذوا هذا القرار لم ينسوا مصالح الكوفة ورعوها مثلما رعتها الثورات السالفة .

لقد كان من المفترض أن يتوجهوا نحو دمشق عبر طريق قصير مباشر لكنهم اتجهوا نحو الجزيرة الشامية . والجزيرة كما سلف بنا القول كان خراجها لأهل الكوفة .

في مطلع ربيع الأول سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م خرج سليمان بن صرد مع أربعة آلاف من أصحابه ، وتوجه نحو الأنبار ومنها أتى قرقيسيا «البصيرة حالياً في سورية» التي كان معتصماً فيها زفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس المهزوم في مرج راهط ، وجرت اتصالات بين الطرفين لكن لم يقم تعاون ولا تنسيق عسكري لأن الأهداف كانت متباينة .

ويلاحظ أن عدد الذين خرجوا مع سليمان بن صرد كان صغيراً نسبياً ولا يمثل إلا نسبة ضئيلة من الطاقة القتالية للكوفة ، ولا شك أن مرد هذا الى

---

(٣) - ابن اعثم - المصدر نفسه ١٥٧٠ .

أسباب عديدة كان منها ظهور المختار في الكوفة وما دعا اليه ، ثم كون الكوفة باتت رسمياً ولاية تابعة لعبد الله بن الزبير ، وهذا الخليفة هو الذي ملك الآن الأموال والقدرة على الأعطيات ، ومن المؤكد ان ابن صرد وأصحابه لم يملكوا المال ولا الامكانات الاقتصادية التي ترغب الناس في معظم الأحيان ، فحاجة التوابين المادية هي التي دفعتهم الى القبول بمساعدات زفر بن الحارث ويعني هذا ان الأربعة آلاف التي خرجت مع سليمان بن صرد كانت قد اتخذت قراراً بالتكفير عن تقصيرها عن طريق التعرض للقتل ، وخط هذا خطأً جديداً في الفكر الشيعي ، ومسألة الخروج أو ما يعرف عموماً باسم السير على طريق الشهادة التي سار عليها الحسين ما زال حتى يومنا ركناً فعالاً في عقائد الشيعة . والتقى التوابون بالجيش الأموي ، وكانوا قد علموا قبل ذلك أن مروان بن الحكم قد توفي وان ابنه عبد الملك قد بويع بالخلافة ، وأن هذا الأخير قد أرسل الى قائد الحملة الأموية عبيد الله بن زياد كتاباً أقره به في منصبه وطلب منه متابعة تنفيذ المهمة التي أسندها اليه أبوه مروان ، وسار ابن زياد وكان جيشه كبيراً ، وقيل انه وصل تعداده الى عشرين ألفاً وكان فيه بعض كبار الشخصيات العسكرية الأموية مثل : الحصين بن نمير ، والتقى التوابون بهذا الجيش في عين الوردة قرب عين العرب وهي في سورية الآن ، وراسل الحصين بن نمير سليمان بن صرد وطلب منه البيعة لعبد الملك بن مروان لكن ابن صرد لم يكتف بالرفض بل تهدد الحصين وطلب منه تسليمه ابن زياد لقتله بالحسين بن علي ، كما طلب منه خلع عبد الملك ومساعدته على الاستيلاء على البيت وكان من غير المعقول الاستجابة لهذه المطالب ، وكان لابد من الحرب ، ونشبت معركة غير متكافئة انتهت بمصرع التوابين مع زعيمهم سليمان بن صرد ، وكان الذين نجوا قلة عادت الى العراق لتساهم في الكوفة بحركة اخرى[1] .

فقد كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قد انتهز سفر التوابين وخلو الساحة من الزعامات الشيعية الكبرى ، فتحرك في الكوفة بتخطيط جديد وبأفكار ـ أيضاً ـ جديدة ، وقبل أن نخوض في البحث بما قام به المختار من المفيد التنبيه الى أن

(١) ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص١٥٧٠ ـ ١٥٨٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٥٩٥ .

معركة عين الوردة أسدلت الستار على فصل جديد من تاريخ التحرك المعارض للسلطة الأموية في الكوفة ، هذا التحرك الذي وسم بالتشيع ، وان عدم تبني هذه الحركة لامام من آل البيت ليس مرده الى انفعاليتها وانعدام التخطيط فيها فقط ، وإنما مرده ايضاً الى الموقف الذي اتخذه آل البيت بعد كربلاء ، فقد استخلصوا العبر ، وقرر غالبيتهم الالتزام بعدم التورط في عمل عسكري مهما كان نوعه ، وهكذا لزموا سكنى الحجار ، وطوروا هناك خطاً خاصاً بهم ، وهذا الخط هو الذي أطلق عليه عموماً اسم الخط الامامي ، وهو الذي مثل حزب الشيعة خلال المتبقي من العصر الأموي بشكل عام ، ومع هذا بما أن ثورة المختار استغلت توجهات الناس وعواطفهم في الكوفة نحو آل البيت لا يمكن أن ندرجها ضمن ثورات الشيعة ، لا سيما وأن النتائج التي نجمت عنها لم يقتصر اسهامها على تطور حركة المعارضة في الكوفة ، وإنما أسهمت فيما بعد في تقرير مستقبل الخلافة الأموية ، لكن بمقتل الحسين رجع تاريخ الشيع وتطور حزبه ليسير على قاعدة الازدواجية ، وانعدم مرة اخرى التنسيق بين أحداث الكوفة وبين الامامة في الحجاز ، وكان ذلك الآن على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي .

وشخصية المختار متميزة في تاريخ بني ثقيف ، فهذه القبيلة كانت حليفاً قديماً لبني أمية ، وأبو المختار كان من قادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كان قد أرسله على رأس جيش أثناء فتوح العراق ، وقد قتل في معركة الجسر ، ويروى ان ابنه المختار كان معه وكان له من العمر ثلاث عشر سنة ، وفي أيام الخليفة علي بن أبي طالب عاش المختار مع عمه سعد بالمدائن وكان واليها لعلي ، ويقال انه أشار على عمه ان يعتقل الحسن بن علي يوم جرح أثناء توجهه لحرب معاوية بن أبي سفيان ولذلك كان متهماً عند الشيعة ويرون انه كان عثمانياً[1] ، ولا غرابة في هذا فقد كانت ثقيف حليفة لبني أمية منذ ما قبل السلام ، وبرز هذا التحالف بعد تأسيس الدولة الأموية ، حتى أن الباحث في تاريخ هذه الدولة يخيل اليه ان الحكم فيها كان أموياً ثقفياً ، ولا شك ان العديد من رجالات ثقيف كانوا من أصحاب المطامح ، وقد حققوا مطامحهم السلطوية في التعاون وقد سعى المختار أولاً الى

---

(١) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢١٤ .

تحقيق مطامحه من خلال ابن الزبير فقد اتصل به أثناء اعلانه الثورة في مكة لكن الوفاق بينهما لم يستمر طويلاً ، فقد كان ابن الزبير صاحب اثرة مقتراً في انفاق الأموال ضيق الأفق في كثير من الجوانب السياسية ، في حين كان المختار واسع المطامح الى حد أنه رأى في نفسه الجدارة في الحكم وأنه لا يقل جدارة عن أي من أبناء الصحابة ، وأن قريش ليست أفضل من ثقيف ولا أعلى منزلة بل قد يكون العكس هو الصحيح ، ولذلك تخلى المختار عن ابن الزبير وتوجه نحو الكوفة بُعدما عرف بوفاة يزيد بن معاوية ، وقد رأيناه ينشط في الكوفة أثناء تحرك التوابين ، ورأينا كم كان أثره كبيراً على هذه الحركة .

وعلى الرغم من المطامح العالية لدى المختار ومن اعتداده بنسبه الثقفي أدرك تمام الادراك انه كان بحاجة الى غطاء قرشي ، لذلك ادعى في الكوفة أنه مرسل من قبل محمد بن الحنفية ، يدعو الى إمامته ويعمل للثأر للحسين .

كان محمد بن الحنفية من أبناء علي بن أبي طالب من زوجة اتخذها من سبي بني حنيفة واسمها خولة جلبت بين أسرى حروب الردة ، وكان أسن أبناء علي بعد الحسين ولم يشارك في كربلاء ، وادعى المختار ان الحسين قد جعل محمد وصيه ولذلك يستحق الامامة من بعده ولعله بدعواه هذه ادخل الى الفكر الشيعي فكرة الوصاية بالامامة من امام الى واحد يليه متجاوزاً بذلك قاعدة التوريث ، وهي القاعدة التي تبنتها الشيعة الامامية ، كما انه في دعوته لمحمد بن الحنيفة تجاوز ايضاً قاعدة الانتساب الى فاطمة الزهراء وأخذ بمبدأ انه يمكن لأي واحد من أبناء علي تولي الامامة .

نشأ المختار في العراق وكان يعرف أوضاع الكوفة معرفة جيدة ، وكان مدركاً لصورة الأحوال الاجتماعية فيها والصراعات بين طوائف الناس الذين عرفوا باسم الموالي من السكان المحليين للعراق وغيرهم ممن دخل في الاسلام من جانب والعرب من جانب آخر ، فقد طالب الموالي بالمساواة مع العرب في الوظائف والأعطيات على أساس ما جاء به الاسلام ، ورفض العرب هذه المطالب ، كما انه كان يعرف تمام المعرفة الصراعات بين العرب أنفسهم ، بين الذين شاركوا في الفتوح الاولى للعراق والذين هاجروا فيما بعد مع مسألة الصراعات القبلية ، لقد سعى المختار لاستغلال هذه الأحوال لصالحه وهنا نلاحظ ان بعض الباحثين يرى

فيه مصلحاً وثورياً اسلامياً مبكراً ، وبعضهم الآخر يرى فيه انتهازياً ، ومهما كانت صورة الحكم عليه ، لا شك أن المختار حين تنبه لمسألة الصراعات الاجتماعية والاقتصادية منح الحزب الشيعي المتطور زاداً فكرياً جديداً ، فحزب الشيعة مع المختار لم يعد مجرد حركة سياسية تريد احلال أسرة حاكمة محل اخرى بل تريد تحقيق برنامج اصلاحي اقتصادي واجتماعي ، ويمكن للمتتبع لتاريخ الثورات الشيعية ان يرى هذا الأثر تجلياً في مبادىء هذه الثورات .

ومع تنبه المختار للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية أحسن فهم سلاح الدين وأتقن استغلاله فقد منح نفسه وأضفى عليها جلالة دينية وبات كمن يعلم الغيب أو يأتيه وحي من السماء ، لقد أخذ يتصرف مثلما كان يتصرف الكهان في شبه جزيرة العرب قبل الاسلام ومثلما كان يفعل كهان الزرادشيتية في أراضي الامبراطورية الساسانية .

وفي الوقت نفسه سعى المختار الى استغلال القبلية ووجد ان سبيله الى النجاح يمكن ان يتحقق بالتحالف مع بعض القبائل اليمانية ، لا سيما مع ابراهيم بن الأشتر النخعي الذي كان أبوه زعيم الثورة الاولى في الكوفة ، واستطاع بالتعاون مع ابراهيم الأشتر أن يستولي عليها وينتزعها من عامل ابن الزبير(1) .

لقد شك بعض أهل الكوفة في صحة التعاون بين محمد بن الحنيفة والمختار ، فذهب وفد منهم إليه الى الحجاز وسألوه فأعطاهم إجابة عامة أنه يؤيد كل انسان يخرج للطلب بدم الحسين ، ويهمنا من هذا الخبر ان الزعماء الكوفيين كانوا راضين بمبدأ الاعتراف بامامة محمد بن الحنيفة وفي هذا ما عنى صلاح الامامة وجوازها في أي من أبناء علي بن أبي طالب وليس حصراً في أبناء الحسين بشكل عام من بين ابني فاطمة الزهراء من زوجها الامام علي بن أبي طالب ، لكن يبدو ان الوفد الكوفي لم يبايع ابن الحنيفة بالامامة ، ولم يدعه للقدوم الى الكوفة ولهذا تعليلات كثيرة منها ان ابن الحنيفة نفسه لم يكن يرغب بالذهاب الى الكوفة ، ومنها

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٦ ـ ٢٢٠ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ١٥٨١ ـ ١٥٨٣ .

ان المختار أضفى عقائد جديدة حول شخصية الامام وقداسته حتى قال ان الحديد لا يعمل فيه ، وانه لمثير جداً ان نشهد تبني الحركة التي قادها المختار لعدد كبير من العقائد الجديدة على الاسلام من ذلك مسألة القتل الطقوسي واستخدام الأسلحة الخشبية بدلاً من السيوف الفولاذية مع فكرة البداء ، وهي ان الله تعالى بعدما يكون قد اتخذ قراراً في قضية من القضايا قد يعيد النظر ويغير القرار ، ويروى ان المختار قال بهذه الفكرة لتغطية اخفاقه بالتنبؤ في بعض الأحيان ، خلاصة الأمر ان حركة المختار أدخلت الى عقائد الحزب الشيعي المتطور في الكوفة المسائل الاجتماعية والاقتصادية مع أمور دينية جديدة تعلقت بصفات الامام وبمسائل التوحيد والقضاء والقدر عند الله تعالى .

لقد ادعى المختار انه وزير ونصيح وثقة وأمين محمد بن الحنيفة ومفوض من قبله تمام التفويض ، وأن له الأعنة والمنابر وحكم كل بلد استولى عليه[1] .

إن هذا التطور جديد كل الجدة وهام في الوقت نفسه ، وصورة من صور الازدواجية في تاريخ الحزب الشيعي تختلف عما سبقها .

فيما مضى تمت التطورات بمعزل عن رأي الزعامة العلوية ولم يكن هناك من حاجة الى القول ان رأيها قد أخذ قبيل أي تحرك ، وهذا ما رأيناه واضحاً في الاعداد لقدوم الحسين الى الكوفة ، وفي ثورة التوابين لكن الآن رأينا مع المختار الامام شخصية دينية محضة تقيم بعيداً عن مركز النشاط والتحرك ، وان كل شيء أوكل الى قائد التنظيم والدعوة ، ونعني بذلك المختار ، ولا شك أن هذا جاء بمثابة السابقة التي اعتمدت عليها الدعوة العباسية التي ورثت حركة المختار حين أبدعت منصب الوزارة وحين أراد الوزير ان يملك الخليفة الامامة ولا يحكم .

مع صورة الأحوال هذه انحصرت مطامح المختار في الكوفة ، ويبدو أنه لم يفكر فيما عداها ، فقام أولاً على قاعدة ثورات الكوفة المتقدمة بالاستيلاء على منطقة الجزيرة ، فقد أرسل قواته التي جندها من أهل الكوفة للتصدي لجيش عبيدالله بن زياد ولتأمين اقليم الجزيرة ، ونجحت جيوش المختار في مهمتها

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ . ابن اعثم ـ المصدر لفسه ص ١٥٨٢ ـ ١٥٨٤ .

فهزمت الجيش الأموي وقتلت عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وغيره من كبار قادة الأمويين[1] .

كان الذي حقق النصر في الجزيرة هو ابراهيم بن الأشتر النخعي وقد صار ابراهيم الآن سيد الجزيرة والرجل القوي في حركة المختار ، ومن هذا الموقع اتجهت أنظار دولة عبد الله بن الزبير نحوه وكذلك دولة عبد الملك بن مروان كل منهما يسعى لفصله عن المختار وكسبه الى جانبه .

ويبدو أن ابراهيم بن الأشتر لم يثق بالمختار ثقة كاملة ، ولعل الأواصر بينهما تزعزعت بعض الشيء لتتحول الى شرخ كبير بسبب سياسة المختار التي اتبعها في الكوفة ، فقد كان انتماء ابراهيم بن الأشتر الى طائفة زعماء الكوفة ، أو بالحري الى طائفة الأشراف ، وكان المختار بعدما توطدت أركانه في الكوفة لم يقتصر على القيام بتصفية جميع الشخصيات التي شاركت في قتل الحسين ، بل قرب الموالي اليه ، وأغضب بذلك أشراف الكوفة وتحول الغضب الى عداء بين الطرفين حيث أخذ هؤلاء الأشراف يسعون للقضاء على المختار .

اقتصر المختار في نشاطه على الكوفة وأراضيها ولم يكن له أدنى أثر فيما كانت تشهده بقية أجزاء العراق لا سيما البصرة حيث كان عبد الله بن الزبير قد ولاها لأخيه مصعب ، واستطاع مصعب ان يضبط أمور البصرة كما استطاع ان يجلب اليه أشراف الكوفة الذين قالوا له : «لقد تأمر هذا الرجل علينا بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عصتنا عبيدنا[2]» .

في هذه الأثناء كسب مصعب الى جانبه ابراهيم بن الأشتر وبذلك جرد المختار من معظم ما ملكه من طاقات عسكرية ، كما استدعى اليه المهلب بن ابي صفرة الذي كان يقاتل ضد الخوارج ، فجمع بذلك جيشاً كبيراً قاده نحو مدينة

---

(١) : البلاذري المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤٨ - ٢٥٢ .
(٢) : البلاذري - المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ٢٤٨ - ٢٥٢ .

الكوفة وبعد اشتباكات عسكرية انهزمت قوات المختار وحوصر هو نفسه في قصر الكوفة حتى قتل وكان ذلك سنة ٦٧هـ[1] .

من الممكن أن نعتبر القضاء على ثورة المختار في الكوفة عملاً انتقامياً قامت به البصرة لهزيمتها يوم الجمل ، وكان ذلك بمثابة تمييز كامل بين ما اتسمت به الكوفة وما اتسمت به البصرة ، فقد باتت الكوفة مدينة غلب عليها التشيع والبصرة مدينة غلبت عليها الأهواء العثمانية ، هذا ولم يكن لمقتل المختار تأثيرات كبيرة على محمد بن الحنفية ، فمحمد والمختار ما زال حياً كان قد راسل عبد الملك بن مروان وبايعه كما ترجح معظم الروايات ، ولا شك أن هذا أحرج موقف المختار احراجاً كبيراً فأسرع الى تأويله تأويلاً باطنياً بأنه بايع ظاهرياً لكن من حيث الواقع الباطني أمر آخر[2] ، والأخذ بالتأويل الباطني كان له فيما بعد أبعد الآثار على تطور حزب الشيعة عقائدياً وفلسفياً .

لقد اعتبر كثير من المؤرخين وعلماء الملل والنحل والفقهاء المختار مؤسساً لفرقة شيعية عرفت باسم الكيسانية ، واختلف في أصل هذه التسمية ولا تهمنا نحن قضية التسمية بقدر ما يهمنا الوقوف على حقيقة تشكل فرقة جديدة ، فهذا التشكيل يعني أول عملية تمزق في تاريخ الحزب الشيعي وسيكون لهذا التمزق نتائج مباشرة وأخرى بعيدة ، فقد نظر زعماء خط الامامة الشيعي نظرات ريبة وعداء للكيسانية ولم يتعاونوا معهم ، ولذلك عندما توفي ابو هاشم عبد الله بن

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ـ ص ٥ ـ ١٦ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥٨٥ ـ ١٥٨٨ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٤ ـ ٢٧٣ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٢ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٤ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٣٠٦ . المسعودي ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٧ .
مجهول ـ تاريخ الخلفاء ـ المصدر نفسه ص ٢٢٠ ـ ٢٥٣ . علي حسني خربوطلي ـ مرآة العصر الاموي ـ ط . القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٩٤ ـ ٣٢٠ .
وداد القاضي ـ الكيسانية في التاريخ والادب ـ ط . بيروت ١٩٧٤ ص ٩١ ـ ١٣٦ .

(٢) : القاضي ـ المرجع نفسه ص ١٤٧ ـ ١٥٧ .

محمد بن الحنيفة قام بالتوصية بزعامة الفرقة الكيسانية من بعده لعلي بن عبد الله بن عباس ولم يوص بها لواحد من أبناء الحسين[1] .

إن الصراع الذي نشب بين الكوفة والبصرة أضر ضرراً كبير اً بمصالح العراق في قدرته على مواجهة عبد الملك ابن مروان ، فقد بات الآن على عبد الملك بن مروان القضاء على مصعب بن الزبير فقط حتى يستولي على العراق ، ولم يعد يفكر بمواجهة الكوفة العدو التقليدي لبني أمية ، وسنحاول البحث في فصل منفرد في هذه المسألة ولدى الحديث عن الحزب الزبيري .

إن القضاء على ثورة المختار لم يقض على المعارضة الكوفية ولا على التحرك الشيعي فيها ، ولا شك أن أعداداً كبيرة من الذين سايروا المختار ، تحولوا بعد مقتله الى الخط الشيعي الذي رأى أمامه أبناء الحسين بن علي ، وارتبطت التحركات الشيعية في الكوفة بواقع ما شهدته هذه المدينة بعدما دخلها عبد الملك بن مروان ، ونتيجة للسياسة التي تبناها الحجاج بن يوسف الثقفي وغيره من ولاة بني أمية .

وكانت ابرز الثورات التي شهدتها الكوفة ثورة زيد بن علي :

ان المدة الفاصلة بين هذه الثورة وثورة المختار تقارب نصف قرن من الزمن ، وقد شهدت ديار الخلافة خلال هذا النصف قرن تطورات هائلة ، فقد استتب الامر للاسرة المروانية ، وعاش العراق في ظل حكم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أدار البلاد بالحديد والنار[2] ، وبرز الى الوجود العديد من التيارات الفكرية والاجتماعية والعقائدية ، وذهبت أجيال قديمة وجاءت اجيال جديدة ، كما أن الدولة الاسلامية خطت خطوات واسعة وتطورت من المجال الاداري والسياسي والفكري ، ففي هذه الفترة تم تعريب الدواوين والنقود وتم استئناف حركة الفتوحات في المشرق وما وراء النهر وعلى الجبهة البيزنطية والأندلس ، وكان أهم التيارات الفكرية تياران مثل أولهما الى حد بعيد وجهة النظر الرسمية وعرف

---

(١) : مجهول ، اخبار الدولة العباسية - ط . بيروت ١٩٧١ ص ١٧٣ - ١٩٠ .

(٢) : للحجاج بن يوسف ترجمة واسعة جداً في كتاب بغية الطلب انظرها في ج ٥ ص ٢٠٣٧ - ٢٠٩٩ حيث أورد فيها مواقف الناس على اختلافهم من الحجاج .

باسم تيار الجبرية ، وعرف التيار الآخر باسم اهل العدل ، وكان مناقضاً فيما ذهب اليه تمام المناقضة لأقوال الجبرية ، فقد طالب رجالات هذا التيار بالانصاف والمساواة بين المسلمين ورفع الحيف عنهم ، وعبر هذا التيار عن نفسه في عدة مجالات فكرية وثورية وذلك من خلال ثورة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث وثورة يزيد بن المهلب ، وكان هذا التيار قد حقق اولى انتصاراته الرسمية بولاية عمر بن عبد العزيز للخلافة ، فقد استعان هذا الخليفة في تنفيذ برنامجه الاصلاحي الواسع بأبرز شخصيات أهل العدل مثل غيلان الدمشقي وغيره وجعل شعاره «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر» ، بدلاً من شتم علي بن أبي طالب وأهله [1] .

لكن عمر بن عبد العزيز اغتيل وتبع وفاته عمليات تصفية كاملة لأعوانه ولما نادى به [2] وسارت الدولة الاموية من جديد على سياسة القبضة الحديدية مما ولد مجدداً الاستعداد للثورة لا سيما في العراق ، وأجل انفجار الثورة هناك بعض الوقت السياسة الحكيمة التي اتبعها خالد بن عبدالله القسري اثناء ولايته ، لكن سياسة القسري لم توافق عليها اوساط البلاط في دمشق فجرى عزله واستبدل بيوسف بن عمر الثقفي وهو خريج مدرسة الحجاج ومنفذ للسياسة الحجاجية نفسها ، وجاء يوسف الى العراق يحمل افكار وسياسات مضى عليها قرابة النصف قرن وباتت مرفوضة غير ملائمة ابداً ، لذلك توفرت من جديد الاجواء الثورية وباتت هذه الاجواء تفتش عن قيادة علوية لها .

كان معظم ابناء علي بن الحسين بن أبي طالب قد التزموا بعدم التورط بالاعمال العسكرية العنيفة ومع ذلك استطاع الكوفيون ان يجلبوا الى صفهم زيد

---

(١) : سنعالج هذه التيارات في فصل مقبل .

(٢) : ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٦١ ـ ٤٧١ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٥٥٠ ـ ٥٧٣ . عبد الرحمن بن عبد الحكم ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ط . دمشق ١٩٦٤ ص ١٤١ ـ ١٤٦ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص ٣٣١ . عماد الدين خليل ـ ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ط . بيروت ١٩٧٠ ص ٨١ ـ ١٧٧ .

ابن علي بن الحسين بن أبي طالب وكان زيد من ألمع شخصيات عصره واسع الثقافة بدأ دراسته في المدينة المنورة فنهل العلم على العلماء فيها من أبناء الصحابة والتابعين ، وكان أول اساتذته أبوه علي بن الحسين (زين العابدين) ثم أخذ بعد ذلك على أخيه محمد بن علي الذي شهر بلقب الباقر لأنه بقر العلم واستوعبه [١] وتأثر زيد بأفكار اهل العقل ، والقدرية ، ذلك أن هذه الافكار ارتبطت الآن ارتباطاً وثيقاً بما أخذ ينادي به رجالات الشيعة المعارضين للسلطة الاموية وجميع محبي آل البيت ، والروايات متباينة حول اسباب ثورة زيد ويذهب بعضها الى ما يفيد أنه تورط بها ولم يشارك في التخطيط لها في الكوفة ، فقد قيل ان يوسف ابن عمر قام بمحاسبة خالد القسري وسأله عن أموال كثيرة ، وأن خالد القسري ادعى ايداعه بعض الأموال لدى بعض شخصيات المسلمين ومنهم زيد ابن علي ، فكتب يوسف الى الخليفة هشام بن عبد الملك فاستدعى هشام زيداً اليه ليحقق معه ثم أجبره على الذهاب الى العراق لاكمال عملية التحقيق ، مما جعل يوسف يوجه الاهانات اليه ويقوم بسجنه ، لكن عندما علم هشام بذلك أمر بإطلاق سراحه وهنا اتصل به الكوفيون وأغروه بتزعم ثورة اعدوا لها [٢] .

اذا ما تمعنا في هذه الرواية وفي تفاصيلها نلاحظ عدة أمور أولاها ان زيد ابن علي سبق له زيارة الكوفة أيام ولاية القسري لها وان زيد كان له مايمكن تسميته بتنظيم خاص به ، حيث يروى انه عندما لقي هشام للمرة الأولى عامله بقسوة ووجه اليه عدة تهم حتى قال له : «بلغني انك تؤهل نفسك للخلافة وانت ابن امة» ؟ [٣] . وقد أراد هشام من ذلك تعييره بأمه غير العربية والطعن بأحقيته للخلافة لأن الذي ساد أيام بني أمية عدم جواز الخلافة لمن لم يكن عربي الأبوين ، فلعل الخليفة عرف بنشاطات زيد وتطلعاته فأراد أن يسيء اليه وينال من مكانته

---

(١) : ابن سعد ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٤٠ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢٠٨٨ ـ ٢١١٢ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢٠٨٨ ـ ٢٠٩٣ .

(٣) : اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٩٢ .

الدينية والسياسية ويتهمه بشكل غير مباشر بالتعامل مع ولاة بني امية وأخذ الأموال منهم ، وهذه تهمة كانت بلا شك كبيرة جداً ، واذا صح هذا كله مع انكار زيد لأخذه الأموال من القسري ، لكن دون ان ينكر سفره الى العراق من قبل ، اذا صح هذا كله فمعناه ان السلطة الاموية عرفت بوجود تنظيم في الكوفة مرتبط بزيد بن علي ، وانها لذلك وجدت فرصتها بالقضاء على زيد وعلى التنظيم في آن واحد اثناء اعتقال القسري وكادت تنجح في ذلك ، وكاد زيد ان يقلع عن نواياه في الثورة حيث غادر الكوفة بعد اطلاق سراحه وأخذ الطريق نحو الحجاز لكن أهل الكوفة لحقوا به واقنعوه بالعودة معهم [1] .

لا نعرف هؤلاء الكوفيين الذين اقنعوا زيداً بالعودة ، لكن نعرف أنهم قالوا : «انا لنرجو أن تكون المنصور وان يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية» [2] والمنصور واحد من الالقاب التي اطلقت على شخصيات ذات صفات مهدوية ، ونعرف ان هذا اللقب تبناه فيما بعد الخليفة العباسي الثاني ، واطلاق هذا اللقب له دلالاته فهو يشير الى أنه راجت بين المسلمين في الكوفة ، وربما في غيرها عقيدة المهدي المنتظر رواجاً كبيراً ، ومن المعروف أن عقيدة المهدي المنتظر شغلت دوراً كبيرا في تاريخ حركات التشيع وما تزال تشهد هذا النوع حتى هذا اليوم .

عاد زيد الى الكوفة بعدما قال له زعماء المدينة : «اين تذهب عنا ومعك مائة الف سيف من أهل الكوفة يضربون بني أمية دونك وليس قبلك من أهل الشام الا عدة قليلة» [3] .

وتولى فيها الاعداد بشكل سري للثورة ولا ندري المدة التي امضاها زيد في الكوفة ، لكنها تجاوزت الأشهر الخمسة ، وكانت الكوفة منذ أيام الحجاج قد أصبحت مدينة عادية من الناحية السياسية والادارية ذلك أن الحجاج كان قد بنى

---

(١) : اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٩١ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ٢٩١ ـ ٢٩٣ .
الطبري ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ .

(٢) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ .

(٣) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢٠٩١ ـ ٢١١٢ .

مدينة واسط واتخذها عاصمة له ووضع فيها حامية عسكرية شامية ، لذلك لم يعلم يوسف بن عمر بوجود زيد ونشاطه في الكوفة الا بعد مضي وقت طويل امضاه في تنظيم صفوف اتباعه والاعداد للخروج لهم وقد حدد موعداً للخروج هو الأول من صفر عام ١٢٢ هـ ، ويروى أن هشام بن عبد الملك عرف بوجود زيد قبل أن يعرف بذلك يوسف بن عمر فكتب اليه يلومه وينبهه .

لقد كانت هذه المرة الأولى في تاريخ الحزب الشيعي وحركاته تولى فيها زعيم شيعي الاشراف مباشرة على الاعداد للثورة ، فلم يسبق في تاريخ ما شهدته الكوفة من ثورات أن اشرف واحد من الزعماء العلويين على عمل من هذا القبيل ، وبعدما عرف يوسف بن عمر بالامر تحرك بسرعة وحزم فاستدعى زعماء الكوفة للاجتماع في المسجد الجامع وبعد ذلك أمر الجند الشامي بتطويق المسجد واستدرج بذلك زيداً للخروج ، وخرج زيد في ليلة شديدة البرد محاطاً بأصحابه ولم يكونوا أكثر من أفراد ، وأمضى الليل كله يجمع اعوانه فلم يزدادوا على الخمسمائة وكان جند اهل الشام خمسة عشر الف فارس ، وقامت في شوارع الكوفة معارك غير متكافئة تخلى خلال القتال فيها معظم الذين كانوا مع زيد عنه ، وأصيب زيد اثناء القتال بسهم في جبهته أدى الى قتله فدفنه اصحابه خارج المدينة ، لكن يوسف بن عمر عرف موقع القبر فاستخرج الجثة ومثل بها وقطع رأس زيد وأرسله الى دمشق ، وبذلك طوى صفحة جديدة - هي الأخيرة من نوعها في العراق - من صفحات المقاومة الشيعية للسلطة الاموية [1] .

وفي وقفة لمعرفة الاسباب التي ادت الى اخفاق هذه الثورة نتساءل : هل كان هناك نقص في التنظيم ، أي أن الاخفاق كان مرده الى سجن الزعماء في المسجد ام ظهور الجند الشامي وسيطرته على المدينة ؟ يبدو أن زيداً نظم ثورته تنظيماً محكماً وكان واعياً للظروف التي احاطت به في مدينة الكوفة ، فهو قد عقد

---

(١) : الطبري - المصدر نفسه ج ٧ ص ١٦٠ - ١٩١ . ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٦ . اليعقوبي - المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ . أبو الفرج علي بن الحسين الاصبهاني . مقاتل الطالبيين - ط . القاهرة ١٩٤٩ ص ١٢٧ - ١٥١ .

ارتباطات بين قبائل الكوفة اليمانية والعدنانية وسعى بالوقت نفسه الى مد تنظيمه الى البصرة ثم واسط والجزيرة وخراسان والري [1] .

ويقال ان ديوان زيد أحصى /١٥,٠٠٠/ رجلاً واذا صح هذا فإن ما جلبه يوسف بن عمر من جند شامي كان يعدل هذا الرقم من حيث التعداد ويتفوق عليه من حيث الطاقة القتالية ، مع الأخذ بعين الاعتبار ان يوسف لم يكتف بذلك بل سجن زعماء المدينة الذين كانوا وحدهم قادرين على استنفار زعماء القبائل ومقاتليها .

اذا أخفقت الثورة لا لسوء في التنظيم ولكن لاسباب عسكرية ، انما ينبغي ان نتذكر ان الكوفيين كانوا قد وعدوا زيداً بمائة الف سيف ولم يحص ديوان زيد أكثر من ١٥,٠٠٠ سيف فأين ذهبت البقية ؟ لعل الكوفة كانت آنذاك ليست كلها ميدان معارضة للسلطة الاموية بعد ما نزل فيها من ضربات أيام الحجاج ومن قبله ، ومن المرجح أن طاقاتها القتالية والبشرية كانت دون المائة الف ، ولعلها عرفت نشاط تنظيمات سرية اخرى اهمها التنظيم العباسي حيث حكي عن وجود داود بن علي في الكوفة وتحذيره لزيد من الثورة والاعتماد على الكوفيين [2] .

ومهما يكن الامر ان اخفاق هذه الثورة في الكوفة كان بعيد الاثار ، فقد هيأت الاجواء لاستقبال الحزب العباسي الذي قطف ثمار هذه الاجواء ، وأحسن فيها بعد استثمار احدى نتائجها الكبيرة عندما هرب يحيى بن زيد نحو خراسان وقتل .

لقد نتج ايضاً عن هذه الثورة تشكيل فرقة شيعية جديدة هي فرقة الزيدية التي انتشرت انتشاراً كبيراً كمذهب فقهي ، وعمت في وقت من الاوقات مناطق كبيرة في خراسان والجبل واليمن ، وهي ما تزال موجودة في اليمن .

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٧ ص ١٦٧ ـ ١٩١ . ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٦ . الاصبهاني (مقاتل) المصدر نفسه ص ١٣٧ ـ ١٣٨ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٨٣ .

(٢) : محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد) كتاب الارشاد ط . بيروت ١٩٧٩ ص ٢٣٥ .

واخفاق هذه الثورة افاد من بعض الجوانب الخط الشيعي الذي عرف بالخط الامامي والتزم بعدم التورط في اعمال الثورة والعنف ، ومثله في ايام زيد محمد الباقر ، ومن ثم ابنه جعفر بن محمد الذي شهر بلقب الامام الصادق ، ويستحق هذا الخط منا وقفة للدراسة والتعرف لا سيما وانه الخط الذي مثل حزب الشيعة عبر العصور وما زال يمثل غالبيتها .

نجا واحد من ابناء الحسين من القتل يوم كربلاء هو علي الاصغر ، وكان طفلاً لم يبلغ ، وقد احتضنته عمته وجالت دون الفتك به ، وحمل علي مع النساء من آل الحسين الى عبيدالله بن زياد من ثم الى دمشق ، ومن هناك ارسل الى الحجاز ، وفي الحجاز انصرف علي نحو الاهتمام بدراسة العلم والمعارف الاسلامية فحصل تحصيلاً كبيراً ، والتزم بعدم التورط بالاعمال السياسية ، ولفت انتباه المسلمين اليه باستقامته وتقواه واقباله الشديد على العبادة ، ولذلك عرف بلقب زين العابدين ، ويبدو ان بعض رجالات الشيعة كانوا يقدمون الى زيارته والاستماع الى آرائه وبالوقت نفسه نيل اعطياته ، فقد كان كريماً جداً وقد وصفه الامام الزهري بقوله «كان علي بن الحسين افضل هاشمي ادركناه»[1] .

ولشدة اعجاب الناس به ولسمو مكانته قال فيه الفرزدق :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من انكرت والعجم[2]

وقد اتخذ علي بن الحسين موقفا في غاية الحذر من الازمات السياسية لعصره ولم يتورط في اي منها .

لقد كان له مجلسه في مكة ولاشك أن الناس كانوا من الكثرة بمكان من الذين اعتادوا على زيارته والاجتماع ببيته وحضور مجلسه ، ويمكننا ان نفترض ان مجلسه كان من حيث المنطلقات مجلسا علميا محضا ، ولابد أن المشاكل التي أثيرت به

---

(١) : ابو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني ـ الأغاني ط . القاهرة (دار الكتب ج ١٤ ص ٧٦ .

(٢) : الشيخ المفيد ـ المصدر نفسه ص ٢٤٢ .

شكلت في جوهرها نوعا من انواع المعارضة السلبية لنظام الحكم الاموي ، وهذا النوع من المعارضة هو ماتسم به بشكل عام الخط الشيعي الرئيسي الذي عرف باسم خط الامامية .

وبعد وفاته سنة ٩٥ هـ خلفه ابنه محمد بن علي ولقب بالباقر لانه كما قيل بقر العلم وتبحر به ، ويبدو أنه ترأس المجلس الذي كان أبوه يرأسه من قبل ، وأن هذا المجلس كان واحدا من ينابيع الفكر المعارض لاسلوب السياسة الأموية، أو كما عرف فيما بعد اسم فكر اهل العدل ، وكان لهذا الفكر آثاره ليس فقط على حركات المعارضة للحكم الاموي وانما على تطور بعض الحركات الاسلامية الاخرى مثل حركة الاعتزال ، حتى يروى أن عمرو بن عبيد بن باب قدم اليه واخذ عنه [1] . ويمكن ان نستخلص من مجمل الروايات التي نقلت عن الباقر لاسيما تلك التي تحدثت عما تلقاه من اسئلة واجوبة عليها انه ملك اداة المنطق وتمكن من القدرة على النقاش وتقديم الدليل .

فقد سأله اعرابي : «هل رأيت الله حين عبدته؟ قال : لم أكن لأعبد من لم أر ، قال : كيف رأيته ؟ قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ورأته القلوب بحقائق الايمان ، لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات ، لا يجوز بالقضيات ، ذلك الله الذي لا اله الا هو ، فقال الاعرابي : الله أعلم حيث يجعل رسالته» [2] . ان اتقان استخدام المنطق واعطاء الدليل له دلالات كبيرة فلعل الشيعة مثلهم مثل بقية المسلمين اهتموا بالعلوم الفلسفية وبوسائل الاحتجاج فأقبلوا على تعلمها .

ويروى ان بعض أقدم الكتب التي ترجمت الى العربية ترجمت منذ أيام عمر ابن عبد العزيز أو قبله تعلقت بهذه الموضوعات [3] .

---

(١) - ابراهيم بن علي الحصري - زهر الاداب ط. القاهرة ١٩٥٣ ج١ ص١١١ .

(٢) - الحصري - المصدر نفسه ج١ ص٨٥

(٣) - ابن العديم - المصدر نفسه (ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية) ج٧ ص٣١٨٧ ، ٣١٩٢ ، ٣١٩٣

ومن يقرأ فيها بعد الفكر الشيعي يلحظ مدى استخدام هذا الفكر لادوات المناظرة والمحاجة ، ومدى تأثره بالعلوم الفلسفية على اختلاف أنواعها ، ويلفت الانتباه ايضا الحاح المصادر على ان علي بن الحسين ثم ابنه الباقر قد كان من أعلم الناس وأتقاهم ، والعلم عند الشيعة ركن أساسي في العقيدة، فقد قيل ان علي بن أبي طالب كان أعلم الناس بعد رسول الله (ص) حتى أنه روى عنه (ص) قوله :

«أنا مدينة العلم وعلي بابها» [1] .

وانطلاقا من قاعدة العلم نلاحظ ان بعض المصادر الشيعية قالت : ان الامام في وقته هو أعلم الناس وان العلم عنده منحة وعطاء رباني ، ويمكنه ان يتقن كل لغة من اللغات ويعرف المغيبات ، وبصرف النظر عن هذا فقد تعلم الشيعة لأسباب كثيرة ان العلم ينقسم الى نوعين : علم ظاهري وعلم باطني ، وان لكل ظاهر باطن ، وعلى هذا الاساس نسبت مصادر الشيعة الى كل واحد من الأئمة أمورا لانجدها الا لديها [2] .

ومهما تحدثنا عن المكانة التي احتلها كل من علي بن الحسين وابنه محمد بن علي ، نجد ان المكانة التي احتلها الامام السادس جعفر بن محمد أعلى بكثير فقد اصبح سيد اهله سنة ١١٤هـ وهي السنة التي توفي فيها أبوه .

والامام الصادق اعتبر الامام السادس بين ائمة الشيعة حيث يبدو انه في أيامه بعد اخفاق ثورة زيد بن علي وضح للناس جميعا ان خط الامامة الصحيح هو الخط الذي يمثله جعفر بن محمد وان جعفرا هو السادس في هذا الخط علما انه هو الرابع بين ابناء الحسين بن علي بن أبي طالب .

---

(١) - بسيوني زغلول - المصدر نفسه ج٢ ص٥٢٦ .

(٢) - محمد بن جرير بن رستم الطبري - دلائل الامامة ط . النجف ١٩٦٣ ص١٢٠ - ١٤٥ . محمد بن علي بن الحسين بن بابويه - عيون أخبار الرضا ط . بيروت ١٩٨٤ ج٢ ، ص٤٧ - ٦٩ . محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني - الاصول من الكافي ط . بيروت ١٤٠١هـ ج١ ص٢٢١ - ٢٨٦ .

لقد بات هذا الخط يؤمن ان الامامة محصورة في أبناء الحسين بن علي وأن أول الائمة علي بن أبي طالب وثانيهم الحسن وثالثهم الحسين ورابعهم علي بن الحسين وخامسهم الباقر وسادسهم الصادق .

وعللوا تعليلات مختلفة عملية انتقال الخلافة من الحسن الى الحسين وهما أخوان ، ذلك أنهم ثبتوا فكرة الوراثة في الامامة لاسيما من قبل الابن الأكبر ، اللهم الا في احوال استثنائية لها تعليلاتها [1] .

ونلاحظ ان الرقم (٦) هو نصف الرقم (١٢) ، والنظام الذي عرفته العراق كان نظاما ستينيا، لذلك يرجح أنه لهذا السبب اعتبر جعفر الصادق الامام السادس ، وأدخل الحسن بن علي في سلسلة الأئمة مع أنه كان يتوجب حذف اسمه لانه فقد حقه بالامامة لتنازله عنها لمعاوية بن أبي سفيان . بيد انه لو حذف لأصبح الصادق خامس الأئمة ، ولما كان موطن الشيعة وتطور فكرهم هو العراق .

ولم يكن النظام الستيني ساريا في ايران لان الخمسيني هو النظام الايراني والمقصود هنا هو القول : ان دور العناصر غير العراقية في تطور الفكر الشيعي في منطلقاته الاولى ليس موجودا [2] .

حظي الامام جعفر الصادق بمكانة عالية جدا في أيامه وقد اشتهر بعلمه واستقامته ، وتمنع عن التورط في أي عمل عسكري مهما كان نوعه، فهو لم يتورط فيما شهدته الكوفة في اواخر العصر الأموي ، كما أنه حافظ على شخصية أيام اضطراب الامور وقيام الثورة العباسية ، حتى أن أبا سلمة الخلال حاول توريطه فأخفق ، لكن جهوده بتمسكه بعدم التورط يبدو انها لم ترض بعض الناس الذين

---

(١) ـ الكليني ـ المصدر نفسه ج١ ص٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٢) ـ جيو وايدنغرين ـ ماني والمانوية ـ ترجمة عربية ط . دمشق ١٩٨٥ ص٧٧ ـ ٧٩ ، ١٢٩ ومن الممكن ملاحظة استمرار النظام الخمسي في ايران حتى اليوم حيث نقرأ في مطلع كتاب شرح دعاء السحر للامام الخميني ـ ط . بيروت ١٩٨٢ ص١٧ قوله : «والصلاة والسلام على مفتاح الوجود ، والروابط بين الشاهد والمشهود ، باب الابواب بغيب الهوية ، المتردي بردائة العمائية ، الحافظ للحضرات الخمس الالهية » .

باتوا الآن ،يعتبرون اتباعا للخط الامامي مما ادى الى شطر هذا الخط وقيام فرع جديد له يعرف باسم السبعية او الاسماعيلية .

وتتحدث الاخبار عن قيام اتصالات بين الائمة الثلاثة الذين جاؤوا بعد الحسين والذين عرفوا باسم الشيعة لاسيما في الكوفة، ونتساءل: هل وجد حقا تنظيم سري أو أي نوع من أنواع التنظيمات أداره هؤلاء الائمة الثلاثة ؟ من الصعب الاجابة بشكل يقيني على هذا السؤال وان كان يرجح عدم وجود مايمكن تسميته بتنظيم ، وانما كل الذي وجد مجرد تجمع ،ولعل اول عملية تمت لاحداث تنظيم له الشكل السري كانت اثر الانشطار وقيام ماعرف باسم السبعية ، ومع هذا اذا ماعدنا الى الرواية التي تحدثت عن اتصال أبا سلمة الخلال بالامام الصادق نرى انها توحي للوهلة الاولى ان الصادق كان له تنظيمه وانه رفض عرض الخلال لانه غريب على هذا التنظيم - العباسي - والتمعن في الخبر يفيد ان الصادق كان لايعرف الخلال ولايعتبره من أصحابه ، ولربما عرف بوجود التنظيم العباسي ودور الخلال به ، ومهما يكن من أمر يمكن ان نقول : انه مع انهيار النظام الأموي اخذت الشيعة تنظم نفسها على شكل حزب ، وتعددت الجماعات داخل هذا الحزب ؛ ويلاحظ ان جميع هذه الجماعات تلتقي ببعضها بعضا مع جعفر الصادق ، ولاغرابة في هذا فالصادق كان آخر الائمة في العصر الاموي [1] .

---

(١) - الكليني - المصدر نفسه ج١ ص٣٠٦ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٥٢٥ . ابن رستم الطبري - المصدر نفسه ص١١١ - ١٢٠ . محمد بن طولون الصالحي - الأئمة الاثنى عشر ط . بيروت ١٩٥٨ ص٨٣ - ٨٦ . علي بن محمد بن أحمد عرف بابن الصباغ - الفصول المهمة في معرفة أصول الآئمة ط. النجف ص٢٢٢ - ٢٣١ . علي بن عيسى الاربلي - كشف الغمة في معرفة الأئمة ط . بيروت ١٩٨١ ج٢ ص٣٦٦ - ٤١٣ . هاشم معروف الحسيني - سيرة الأئمة الاثنى عشر ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص٢٤٦ - ٣٠٦ . أسد حيدر - الامام الصادق والمذاهب الاربعة ط . بيروت ١٩٨٣ ج٢ ص١٧ - ٢٥٥ .

« الفصل الرابع »

« الزبيرية والفئات الفكرية ودورها في الحياة السياسية

« الفصل الرابع »

الزبيرية والفئات الفكرية ودورها في الحياة السياسية

الحزب الزبيري :

ينتمي هذا الحزب الى عبد الله بن الزبير ويتعلق تاريخه به حينما حاول ان ينال الخلافة ويحل نفسه محل الاسرة الاموية ، وشغل هذا الحزب كما سنرى دورا كبيرا لمدة تقارب العقد من الزمن ، وكان أبرز شخصياته بعد عبد الله أخوه مصعب وأخاهما عمرو ، وعبد الله هو : ابن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب ، وكانت عشيرة أسد التي انتمى اليها من أبرز عشائر قريش البطاح التي كانت أعلى عشائر مكة مكانة ، وشغلت هذه العشيرة دورا كبيرا في تاريخ مكة قبل الاسلام ، وكان أبرز زعمائها خويلد بن أسد جد الزبير بن العوام وعثمان بن الحويرث بن أسد [1] .

---

(١) ـ محمد بن حبيب . المنمق في أخبار قريش ـ ط . بيروت ١٩٨٥ ص٣٣٢ . الفسوي ـ يعقوب بن سفيان ـ المعرفة والتاريخ ط . بيروت ١٩٨١ ج١ ص٢٧٨ . الفاسي ـ محمد ابن أحمد الحسني ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ط . القاهرة ١٩٦٥ ج٤ ص٤٢٩ .

لقد أنجبت هذه العشيرة عددا كبيرا من العلماء والمؤرخين كان أقدمهم عروة بن الزبير ومن أشهرهم الزبير بن بكار قاضي مكة ، وترك لنا هذا العالم كتاب جمهرة نسب قريش =

وفي أثناء الصراع علىٰ السلطة في مكة بين أبناء قصي بن كلاب لا سيما بين بني عبد مناف وبني عبد الدار كان بنو أسد يحملون أيضاً الدرجة نفسها من المطامح السلطوية ، وبرز من بين أفراد هذه العشيرة ، عثمان بن الحويرث الذي اشتهر بلقب البطريق ، وقد حصل على لقبه هذا من الإمبراطورية البيزنطية ، حيث يروى أنه قدم علىٰ قيصر بعدما رأى موقع حاجة القرشيين إليه :

«ومتجرهم ببلاده ، فذكر له مكة ورغبه فيها وقال : تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى ، صنعاء فملكه عليهم وكتب إليهم[1]» .

وبعد عودته إلىٰ مكة كاد ان ينجح بمهمته وأن يوليه المكيون ملكا عليهم لكن ما لبث ان أخفق ويقال انه قتل أو أنه لحق بقيصر . .[2] .

علي هذا كانت المطامح السلطوية لدىٰ عشيرة بني أسد قديمة ، وظهرت هذه المطامح منذ أيام عمر بن الخطاب ، فقد كان الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو من رجال الشورى الستة ، ورشحه للخلافة مكانته العشائرية وقرابته من النبي (ص) ـ فهو ابن عمته صفية بنت عبد المطلب ـ وسابقته بالإسلام .

فهو كان خليل النبي (ص) وحواريه وقد أسلم بعد أبي بكر ، وكان رابعا أو خامسا في الإسلام ، هاجر إلىٰ الحبشة ثم عاد إلىٰ المدينة وشهد معظم المشاهد النبوية كما شهد معركة اليرموك ، وكان له دوره الحاسم في فتح مصر .

لذلك كان من الطبيعي ان يكون من أبرز المرشحين للخلافة . . إنما لوحظ ان الصراع على الخلافة أيام اجتماع رجالات الشورىٰ قد تمحور بين علي وعثمان ، وأخيراً ولي عثمان الخلافة ولم يشارك الزبير في أعمال الفتنة الكبرىٰ ، لا بل أراد الدفاع عن عثمان ، ويروى انه كلف ابنه عبدالله بالوقوف على باب دار عثمان

= وأخبارها الذي وصلتنا قطعة منه جل ما فيها أخبار عشيرة بن أسد ،طبعت في القاهرة سنة ١٣٨١ هـ .

(١) ـ آلزبير بن بكار ـ المصدر نفسه ص ٤٢٥ .

(٢) ـ الزبير بن بكار ـ المصدر نفسه ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ . ابن هشام ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥ .

والدفاع عنه وبعد مقتل عثمان كان الزبير مرشحاً بارزاً للخلافة ولكنها آلت إلىٰ علي بن أبي طالب ، وقد أصر علي على عدم قبولها إلا اذا بايعه الزبير ثم طلحة بن عبيدالله .

تزوج الزبير من أسماء بنت أبي بكر الصديق وأنجبت له فيمن أنجبت ابنه عبدالله ، وقد ولد عبدالله في المدينة في السنة الأولىٰ من الهجرة ، وكان أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين بالمدينة ، ونشأ عبدالله في المدينة وشارك في نشاطات الدولة الإسلامية وقاتل في حركة الفتوحات لا سيما في فتوح افريقية ويروى أنه هو الذي تولىٰ قتل جرجير[1] .

وقد بدأت الأحاديث عن عبدالله بن الزبير بعد مصرع عثمان مباشرة فقد ذهب مع خالته عائشة أم المؤمنين وأبيه إلىٰ البصرة وشارك في القتال في موقعة الجمل ، ووجه النقد إلىٰ أبيه عندما توقف عن القتال وغادر الجيش ، ومن الواضح انه كان مرشح عائشة أم المؤمنين لتولي الخلافة ، ذلك ان عائشة لم تنجب وكان عبدالله بن الزبير بمثابة ابنها ، ذلك أنه «لما ولدت أسماء عبَدالله بن الزبير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة ، اكتني بابنك عبدالله ، فان الخالة والدة[2]» . ولا شك ان مواريثه ، ومطامحه الشخصية ، وترشيح خالته له وكونه ممثلا لاحدىٰ أبرز عشائر قريش البطاح قد جعله يرىٰ في نفسه ما يؤهله لتولي الخلافة .

وصف ابن الزبير بشدة الذكاء والدهاء والحنكة والجرأة في الوقت نفسه ، وظهر هذا بشكل واضح في أيام معاوية بن أبي سفيان ، حين سعى لتأمين البيعة لابنه يزيد ، فهو الذي تولىٰ الحديث مع معاوية باسم العبادلة من أبناء الصحابة والحسين بن علي ، وناقشه في مسألة ترشيح ابنه يزيد وقد تهدده معاوية وتوعده ، وقد قام معاوية بتحذير ابنه يزيد منه بشكل خاص حيث قال له في وصيته

---

(١) ـ عبد الرحمن بن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ـ ط . ليدن ١٩٢٠ ص ١٧١ ـ ١٧٣ .
أحمد بن علي المقريزي ـ المقفى في أخبار مصر نسخة مصورة عن مخطوطة باريس في مكتبة د . سهيل زكار . (ترجمة عبدالله بن الزبير ص ١٤١) .

(٢) ـ الامام الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري ـ معرفة علوم الحديث ط . بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ص ١٩٠ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٨٢٢ .

المشهورة : «إني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأجرالذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن علي فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبي بكر فرجل ، ان رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، ليس له همة إلا في النساء واللهو ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا[1]» .

وحين بلغ إلى المدينة خبر وفاة معاوية بن أبي سفيان ، لم يبايع ابن الزبير وهرب من المدينة إلىٰ مكة ، ولم يستطع التحرك والنشاط في مكة لوجود الحسين بن علي فيها ، لذلك شجع الحسين على الاستجابة لدعوة الكوفيين ومغادرة مكة وكان ابن الزبير كما نقل البلاذري قال حين استقر بمكة :

«إنما أنا عائذ . . ولزم جانب الكعبة فكان يصلي عندها عامة نهاره ويطوف ويأتي الحسين بن علي فيشور عليه بالرأي كل يوم أو ثلاثة أيام ، والحسين أثقل الناس عليه لعلمه بأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بالبلد ، لأن حسيناً كان أعظم في أنفسهم وأطوع عندهم[2]» .

وحين عرض عليه الحسين خبر مراسلة أهل الكوفة له قال له : «لو كان لي بها مثل شيعتكم ما عدلت بها ، ثم خشي ان يتهمه فقال : لو انك أقمت بالحجاز ما خولف عليك الامر انشاء الله ، ثم خرج من عنده فقال الحسين : ما من شيء من أمر الدنيا أحب اليه من الخروج عن الحجاز لأنه قد علم انه ليس معي من الأمر شيء[3]» .

---

(١) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ . أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد ـ المعمرون والوصايا ـ ط . القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٥ .

(٢) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ١٣ ـ ١٤ .

(٣) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ١٤ .

وغادر الحسين مكة ، وكانت فاجعة كربلاء وبوادر الثورة في المدينة ، فأعلن ابن الزبير عصيانه في مكة وقرر الدعوة لنفسه ، وعندما علم يزيد بذلك قرر التصدي له والقضاء على حركته ويمكن ان نقسم الحياة السياسية الآن لابن الزبير إلىٰ مرحلتين :

المرحلة الأولىٰ وهي قصيرة نسبيا أيام يزيد بن معاوية ، ثم المرحلة الثانية بعد يزيد وإثر وصول الأسرة المروانية إلىٰ الخلافية حيث يروى ان ابن الزبير قام في أهل مكة خطيبا بعد مقتل الحسين فذم أهل الكوفة لخذلانهم الحسين ، وهاجم يزيد بن معاوية وأخذ يسعى للاستيلاء على مكة وطرد والي يزيد منها وهو عمرو بن سعيد الاشدق ، وعلم يزيد بنشاط ابن الزبير بمكة وأراد معالجة القضية بشيء من الروية ، فلم يرسل على الفور جيشا ضده في مكة ، فابن الزبير لم يكن بعد قد استولىٰ عليها ، أضف الىٰ هذا كان يزيد محرجا جدا ، حيث لم يكن من السهل ارسال جيش ضد مكة ودم الحسين لم يجف بعد ، لذا يروى أنه بعث إلىٰ واليه على مكة بقيد من فضة وطلب منه تقييد ابن الزبير وارساله اليه[1] .

ويروى ان يزيد بن معاوية أرسل إلىٰ ابن الزبير وفداً ضم شخصيات الشام الأولىٰ ، وقامت مباحثات مطولة بين الوفد الأموي وابن الزبير أخفقت في النهاية ، ولم يرض ابن الزبير في تسليم نفسه والبيعة ليزيد[2] .

وهنا لجأ يزيد إلىٰ وسيلة أخرىٰ فكتب إلىٰ واليه على المدينة يأمره أن : «يوجه إلىٰ عبدالله بن الزبير جيشاً من أهل العطاء والديوان لمحاربته[3] .

وقع اختيار عمرو بن سعيد الاشدق على عمرو بن الزبير أخو عبدالله بن الزبير لأبيه ، وكان صاحب شرطة عمرو بن سعيد الأشدق ومباينا لأخيه عبدالله ، يظهر عيبه ، ويكثر الطعن فيه ، وسار الجيش نحو مكة وكانت السلطات الأموية

---

(١) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ، ج ٤ ق ٢ ص ١٧ .

(٢) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٢٠ ـ ٢١ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١١ ـ ١٥١٤ .

(٣) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٢٣ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٥ ـ ١٥١٦ .

كلها أمل في نجاحه بمهمته ، وان يتم الخلاص من ابن الزبير ، وكأن ما حدث هو صراع بين أخوين ، لكن جيش عمرو بن الزبير أخفق وهزم وأسر عمرو .

«فلما اتى به عبدالله قال : من كانت له قبل عمرو بن الزبير مظلمة فليأخذها منه ، فكان عبدالله يخرجه إلىٰ الناس فيلطم ويوجأ ويضربه ضارب بعصا ويشجه آخر بحجر اقتصاصا ثم يرد إلىٰ السجن»[1] .

وظلت حاله كذلك حتى توفي ، وقد أضرت أعمال عبدالله بن الزبير بأخيه وبسمعته ، ونفرت بعض الناس عنه وأثرت على شعبيته[2] .

واثر هذا شهدت شبه الجزيرة أحداث كثيرة ، كان أهمها ثورة المدينة وواقعة الحرة ، وسنبحث في ثورة المدينة فيما بعد ، ويهمنا ان نذكر هنا ان يزيد بن معاوية جهز جيشاً قوياً بقيادة مسلم بن عقبه المري كلفه بالقضاء علىٰ ثورة المدينة ، ثم ثورة ابن الزبير ، وبينما الجيش الأموي يفتك بأهل المدينة ويستعد للزحف ضد مكة تقاطرات قوات اسلامية كبيرة نحو مكة للدفاع عنها ، وكان من أبرز من جاء إليها أتباع الخوارج من العراق واليمامة ، وكان مسلم ابن عقبة المري قد توفي بعد مغادرة جيشه المدينة ، وآلت امرة الجيش الأموي إلىٰ الحصين بن نمير السكوني ، وواجه الجيش الأموي وضعاً مختلفاً عما واجهه في المدينة ، فقد كان الدفاع عن مكة منظماً وقوياً ، فألقي الحصار عليها ، وقذفت بحجارة المنجنيق ، لكن مكة صمدت ولم يستطع المهاجمون اقتحامها ، وفي أثناء الحصار بلغ ابن الزبير خبر وفاة يزيد بن معاوية[3] .

روى البلاذري : عن أبي مخنف قوله : «مكث أهل الشام يقاتلون ابن الزبير حتى اذا مضى من شهر ربيع الأول أربعة عشر يوماً مات يزيد فمكثوا أربعين

---

(١) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٢٤ ـ ٢٥ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٦ .

(٢) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٢٥ ـ ٢٩ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٦ ـ ١٥١٧ .

(٣) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٢٨ ـ ٣٠ ، ٤٦ ـ ٥١ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٩ ١٥٢٠ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ .

يوماً لا يعلمون بموته ، وبلغ ابن الزبير موته قبل ان يبلغ الحصين وقد ضيقوا على ابن الزبير في مكة ، وحاصروه حصاراً شديداً ، فقال : يا أهل الشام لماذا تقاتلون وقد هلك طاغيتكم[1]» .

وكانت وفاة يزيد في النصف من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ وعندما بلغ الخبر الى الحصين بن نمير ، وكان يعرف أن يزيد توفي في شرخ الشباب وليس بين اولاده من يستطيع حمل أعباء الخلافة من بعده تصور أن الحكم الأموي قد انتهى ، واذن ابن الزبير للحصين وأصحابه بالطواف بالكعبة والدخول والخروج الى مكة ، وأراد المدافعون عن مكة من الخوارج منعهم لكن ابن الزبير استطاع اقناعهم بالسماح لهم واجتمع الحصين بابن الزبير اثر معرفته بوفاة معاوية بن يزيد ، وهو ولي عهد يزيد ، فقال : «انك احق الناس بهذا الأمر اليوم ، فهلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا الى الشام ، فاني من أهله بمكان قد علمته ، والجند الذين معي اشراف اهل الشام وفرسانهم فليس يختلف عليك منهم اثنان اثنان ، والشام معدن الخلافة اليوم اذ نقله الله اليها[2]» .

لقد كان الحصين يسر هذا الكلام لدى مخاطبته ابن الزبير لكن ابن الزبير قابله بالرفض رافعاً صوته مما ضايق الحصين وجعله يقود قواته ويعود الى الشام . ويروى ان الحصين اتهم ابن الزبير بالقصور في فهم عرضه وان الذين نسبوه الى الدهاء اخطأوا . ويبدو أن ابن الزبير حين أجاب الحصين علانية فعل ذلك لارضاء أعوانه آنذاك في مكة وهم الخوارج فقد كان الخوارج يشكلون القوة الضاربة من أصحاب ابن الزبير في مكة وكان بحاجة الى مداراتهم ، ولعل ابن الزبير رفض عرض الحصين انطلاقاً من ادراك موقفه بين اصحابه في مكة ، هذا ويروى ان ابن الزبير طالب الحصين بالبيعة له وقال : «قد مات يزيد وأنا أحق الناس بهذا الامر لأن عثمان عهد إليّ في ذلك عهداً ، صلى به خلفي طلحة والزبير

---

(١) ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٥١ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥٢٥ ـ ١٥٢٦ .

(٢) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٤ ق ٢ ص ٥٢ . ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥٢٥ ـ ١٥٢٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٠١ .

وعرفته ام المؤمنين فبايعني وأدخل فيما يدخل فيه الناس»[1] ، ولكن يؤخذ عادة على ابن الزبير تمسكه بالبقاء في مكة وعدم خروجه منها الى احد الامصار ، وأن معنى ذلك عدم ادراكه ان مكة قد فقدت مكانتها العسكرية والسياسية منذ الفتح الاسلامي لها ، هذا صحيح من بعض الاوجه لكن من وجوه اخرى فيه تحامل على ابن الزبير حيث لا بد من مواجهة السؤال التالي : الى أين كان بإمكان ابن الزبير مغادرة مكة ؟ أيغادرها الى المدينة ، وهي الأخرى كانت قد فقدت مكانتها السياسية والعسكرية منذ أحداث الفتنة الكبرى ، وهي في الوقت نفسه لم تفق بعد مما نزل بها مؤخراً اثر وقعة الحرة !

ومن البديهي انه ما كان لابن الزبير الذهاب الى الكوفة فهي كانت موزعة الولاء تشهد ساحاتها نشاطات الشيعة التي تجلت بخروج التوابين والمختار من بعدهم ، وفي الوقت نفسه ما كان بإمكانه ان يذهب الى البصرة فهو قد سبق وشهد الهزيمة بها يوم الجمل ، وكانت البصرة ايضاً تعيش نشاطات حزب الخوارج ، وكان كما سنرى حلفه مع الخوارج هدنة على دخن ، وما استجد من احداث في الشام اثر موت يزيد لا شك كان يحول بين ابن الزبير وقرار القبول بمرافقة الحصين بن نمير الى الشام ، فبعد وفاة يزيد لم يستطع معاوية ابنه تحمل اعباء الخلافة وقيل انه اعتزل ثم توفي ، وعقد مؤتمر الجابية (قرب بلدة نوى حالياً في سورية) .

وخلاصة الأمر لم يجد ابن الزبير في كثير من الجوانب امامه مكاناً يعتصم به ويتخذه مقراً له غير مكة التي حلم بها عثمان بن الحويرث في أن يجعلها دار ملك له فلم ينجح بتحقيق حلمه ، ذلك أن المكيين لم يكونوا جميعاً يدينون بالولاء لابن الزبير ، أضف الى هذا ان مكة لم تمتلك آنذاك جهازاً ادارياً متطوراً مثل أجهزة دمشق وبقية الامصار ، وهذا يعني ان ابن الزبير لم يكن لديه المستشارين والاعوان بل كل ما امتلكه بعض الحلفاء المؤقتين مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، الذي تخلى عنه عندما تعارضت مطامحه مع مطامحه ، وكذلك الخوارج الذين ما لبثوا ان

---

(١) : ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٥ .ص ٧٩ و ـ ظ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٨٢٢ .

تخلوا عنه وناصبوه العداء لعدم تبرئه من عثمان بن عفان ، وفي الحقيقة لا ندري لماذا تمسك ابن الزبير حين اثار الخوارج معه هذه القضية بآرائه المعارضة للخوارج .

لعل ذلك كان من بعض الجوانب عقائدياً فهو كان من الذين قاتلوا في الجمل طلباً لدم عثمان ، وأعلن الآن عن عهد عثمان له ، ولعله اراد ايضاً أن يكسب مع حزب العثمانية بعض الموالين لبني امية على الاقل في مكة ، فابن الزبير ما أن رفع الحصار عنه حتى اصطدم بزعماء الاسرة الهاشمية من قريش (عبدالله ابن عباس ، محمد بن الحنفية) ولم يستطع ارغام محمد بن الحنفية على بيعته ، فقد ارسل المختار قوات من الكوفة للدفاع عن ابن الحنفية في مكة ، ونجحت هذه القوات ، ويدل هذا على أن ابن الزبير لم يمتلك قوة عسكرية قادرة خاصة به في مكة ، وسنرى اثر ذلك على مستقبله .

توجه ابن الزبير بنظره نحو العراق وساعدته الظروف على الاستيلاء على البصرة ، وفي الوقت نفسه اراد ان يتظاهر في سيرته في مكة بتقليد سيرة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، لكنه اخفق في ذلك وتعرض الى سخرية المكيين منه حتى قال شاعرهم :

ما زال في سورة الاعراف يقرؤها حتى فؤادي كمثل الخز في اللين
يقول للناس بطني غير ما كذب شبرا هنيا ودون القوت يكفيني
لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين [1]

وسبب هذا الشعر ان ابن الزبير كان يصعد المنبر فيقول :

«أيها الناس ان بطني شبراً وما عسى يكفي شبراً انما يكفيني في كل يوم قبضة من طعام ، وانما اريد ان اسير فيكم بسيرة الصالحين وسيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، قال : وكثيراً ما كان يقرأ سورة الأعراف على المنبر ويقرأها حرفاً حرفاً ، وكان يدور في أسواق مكة يتشبه بعمر بن الخطاب» [2] .

---

(١) : ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٦ .

(٢) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥١٧ .

كان العصر الذي عاشه ابن الزبير يختلف الآن عن عصر عمر بن الخطاب ، كما أن الفوارق كانت هائلة بين شخصية عبد الله بن الزبير وشخصية عمر بن الخطاب ، ففي الفترة التي حكم فيها معاوية بن أبي سفيان سن هذا الخليفة سنة هي دفع المال بلا حدود لشراء ولاء الاعوان ، وكان ابن الزبير حريصاً غاية الحرص مقتراً في الانفاق ، فالناس في أيامه كانوا يريدون خليفة موائده منصوبة ، ومجالسه مفتوحة ، وأعطياته جاهزة ولا يريدون من يتلو عليهم سورة الاعراف ، ويقول قبضة من طعام تكفيني ، وهذا أيضاً أحد الجوانب التي أثرت تأثيراً واسعاً على مستقبل ابن الزبير فهو قد واتته الظروف في الوصول الى السلطة لكنه كان بلا حزب مكون من قبل ، ولم يستطع تكوين مثل هذا الحزب ، ولم يتمكن من اصطناع الاعوان لذلك اخفق فقال فيه شاعر مكي :

لم نر من سيرة الفاروق عندكم   غير الازار وغير الدرة الخلق [1]

وأخفقت ادارة ابن الزبير وأساء عماله السيرة ومالوا الى الخيانة فقال احد الشعراء في ذلك :

يا بن الزبير أمير المؤمنين ألم   يبلغك ما فعل العمال بالعمل
باعوا التجار طعام الارض واقتسموا   صلب الخراج شحاحاً قسمة النفل [2]

فاضطر ابن الزبير مرة تلو الأخرى الى تبديل عماله لا سيما على البصرة لخروج الكوفة من بين يديه ، وأخيراً وفق بأخيه مصعب ، واختلف مصعب عن أخيه تماماً فقد كان فتى قريش كريماً شجاعاً يتقن صناعة تكوين الاعوان وكاد ابن الزبير مراراً ان يقدم على عزل أخيه خوفاً منه ، وكانت تطورات كثيرة قد شهدتها ساحات بلاد الشام أهمها موت مروان بن الحكم بعدما أعاد مصر الى الحكم الاموي وبعدما سيطر سيطرة تامة على جميع اجزاء بلاد الشام ، وأوقع هزيمة ماحقة بحزب المضريين الذي تدثر بدثار زبيري شفاف [3] .

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩١ .

(٣) : سنتناول هذا الموضوع بالفصل اللاحق لدى الحديث عن مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط .

وآلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان فعقد العزم على استرداد العراق وأخفقت جيوش عبد الملك أولاً أمام جيوش المختار بن أبي عبيد الثقفي لكن ما أن قضى مصعب بن الزبير على المختار حتى شعر عبد الملك ان الفرصة مهيأة أمامه للقضاء على ابن الزبير، وأدرك ان القضاء عليه ليس بارسال جيش ضده الى مكة بل في القضاء على مصعب أولاً ، وبالفعل نجح في ذلك وقتل مصعباً. وهنا باتت مسألة ابن الزبير مسألة وقت ليس أكثر.

وجهز عبد الملك جيشاً على رأسه الحجاج بن يوسف تمكن من حصار مكة وقتل ابن الزبير، ويلفت انتباهنا هنا ان معظم أعوان ابن الزبير حتى أولاده تخلوا عنه اثناء حصار الحجاج له ، وهو نفسه قد راودته أفكار التخلي عن المقاومة والاستسلام للحجاج لولا أن أمه قد منعته من ذلك ، وبمقتل ابن الزبير زال من الوجود ما أطلقنا عليه اسم الحزب الزبيري . لكن المؤرخين اطلقوا على الفترة التي حكم فيها ابن الزبير اسم الفتنة الزبيرية ، ولم يظهر أحداً من عشيرة ابن الزبير بعده له مطامح سياسية ، ولم يحاول أي من الثوار الدعوة لأي فرد من الأسرة الزبيرية ، وحركة ابن الزبير لم تخلف اي نوع من التراث العقائدي مثلما شاهدنا لدى الشيعة والخوارج، مع العلم أن عدة شخصيات من الاسرة الزبيرية اشتهرت بالعلم والعفة، وتلك مسألة اخرى .

المعتزلة :

اعتاد جميع الذين بحثوا في أمر المعتزلة وتاريخ نشوء حركتهم على الانطلاق من أصل تسميتهم ، والاسباب التي أدت الى هذه التسمية ، وهل نبذوا باسم المعتزلة من قبل غيرهم أم أن الاعتزال اسم اتخذته حركتهم وتبنته لنفسها ؟ وتستقطب معظم الروايات حول عدة نقاط أساسية أشهرها : ارتبط بقصة خلاف نشب بين الحسن البصري وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، أو الاثنين معاً مما قاد الى الانفصال عن حلقة الحسن البصري وعقد حلقة خاصة فسمي الذين تحلقوا حول واصل وعمرو بن عبيد باسم المعتزلة .

هذه أشهر الروايات وتفيد ان اسم الاعتزال اسم نبذ به الناس الذين تركوا الحسن البصري وتحلقوا حول واصل وعمرو بن عبيد ، وهناك من يذهب الى القول إنهم اطلقوا علي أنفبسهم اسم المعتزلة ، فالقاضي عبد الجبار الهمذاني يذكر أن القرآن الكريم وردت فيه كلمة الاعتزال والمطالبة بالاعتزال ، فاعتزل جماعة من المسلمين عن الباطل فسموا بذلك المعتزلة [1] .

من المرجح أن هذا مجرد تعليل متأخر يشبه التعليل الذي أخذ به الخوارج حين قالوا انهم سموا بالخوارج لا لخروجهم على الامام علي بل لأنهم خرجوا من جادة الباطل الى جادة الحق .

لم يذكر المؤرخون الوقت الذي اعتزل فيه واصل وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري ، لكن لا شك أن ذلك كان في البصرة وربما حدث في مطلع القرن الثاني للهجرة ، فقد روي ان قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاكمة «المتوفي سنة ١١٧ هـ أو ١١٨ هـ» كان يدور البصرة اعلاها وأسفلها بغير قائد وكان تابعياً وعالماً كبيراً ، فدخل مسجد البصرة مرة فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه فأمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصري ، فلما علم أنها ليست له قال : انما هؤلاء «المعتزله» ثم قام عنهم ومن يومئذ سموا المعتزلة [1] .

لا تقتصر الفائدة من هذه الرواية على الوصول الى تأريخ لعملية الا اعتزال وانما يستفاد منها ان الاعتزال سبق هذه الحادثة بدليل ان قتادة قال : «انما هؤلاء المعتزلة» ولم يقل انما هؤلاء (لمعتزلة أو معتزلة) فاستخدامه /الـ/ التعريف يفيد انهم كانوا موجودين أو كان هناك من حمل هذا الاسم ، ومن هذا المنطلق ذهب بعض الباحثين المعاصرين الى القول : ان حركة الاعتزال قامت قديماً منذ احداث الفتنة الكبرى وما تلاها يوم بيعة الامام علي بالخلافة،فقد اعتزل بعض الصحابة ما كان يجري بالمدينة ولم يحاولوا المشاركة بالاحداث سلباً أم إيجاباً،بعضهم غادر المدينة الى مكة أو سواها ولم يشهد ما حدث ، ويلاحظ ان بعض المسلمين نصح الامام علي

---

(١) : القاضي عبد الجبار الهمذاني ، فرق طبقات المعتزلة ط . القاهرة ١٩٧٢ ص ٧ . زهدي جاد الله . المعتزلة ط . بيروت ١٩٧٤ ص ٢ - ٣ .

(١) : القاضي عبد الجبار- المصدر نفسه ص ٥ . جاد الله المرجع نفسه ص ٢ - ٤ .

بالسفر الى قرية ينبع واعتزال الفُتنة ، ويستطرد اصحاب هذه النظرية قولهم عندما جرت بيعة الامام علي رفض بعض الصحابة البيعة لا شكاً في عدم أهلية علي وانما قرروا الاعتزال كلياً عن الاحداث وعدم المشاركة فيها . وكان أبرز هؤلاء عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة الانصاري ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وسعد . بن أبي وقاص .

وقد حفظ لنا الرواة تفاصيل ما جرى بين سعد والإمام علي فقد روى ابن الأعثم قوله : «وأقبل سعد بن أبي وقاص إلىٰ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال : يا أبـا الحسن والله ما أشك فيك أنك على الحق ، ولكني أعلم أنك تنازع في هذا الأمر ، والذي ينازعك فيه هم أهل الصلاة فان أحببت اني أبايعك ، فأعطني سيفا له لسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر حتى أقاتل معك من خالفك بعد هذا اليوم ، فقال علي رضي الله عنه : يا بن نجاح يا سعد أترىٰ لو أن سيفا بخلاف ما أنزل جبريل عليه السلام هل كان إلا شيطاناً ، ليس هكذا يشترط الناس على واليهم بايع واجلس في بيتك فاني لا أكرهك على شيء ، فقال سعد : انظر في ذلك يا أبا الحسن»[1] . ولم يبايع سعد واعتزل جماعة المسلمين ولم يشارك بأي من الاحداث التي تلت في الجمل وصفين وغيرها ، وقيل أيضاً أن أصل التسمية جاء يوم التحكيم ، فقد شهد بعض الصحابة وأبناؤهم الحكمان وأراد عمر بن سعد بن أبي وقاص أن يشهد أباه اجتماع الحكمين عله يرشح للخلافة ويبايع ،لا سيما وأنه كان واحداً من رجال الشورىٰ ومن العشرة المبشرين بالجنة ، فرفض سعد وأصر على رفضه واعتزل المسلمين وعاش في البادية[2] .

لا شك في صحة هذه الاحداث لكن المشكلة فيها ان المصادر تجمع على أن ما من واحد من الذين لم يبايعوا علي وسعد بن أبي وقاص قد قام بأي نشاط فكريٰ أو عقائدي أو تجمع حوله اناس بشر بهم بأية نوع من الأفكار سلبا أو ايجابا ، وعلى هذا فان ما قام به هؤلاء لم يتعد نوعاً من الأعمال الفردية التي لم يكن لها ادنىٰ انعكاس على مجرى الاحداث العامة ، وهذا الموقف هو موقف سلبي ، في حين

---

(١) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ٨٨٤ .

(٢) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ، ١٢٣٩ ـ ١٢٤٢ . المصدر نفسه ج ٥ ص ٦٧ ـ ٧١ .

اننا سنجد لدىٰ تفحصنا لما طرحه حزب المعتزلة ان عقيدتهم لم تتسم بالسلبية بل كانت كلها ايجابية وذات محتوى فكري خصب ، ولذلك علينا هنا بدلا من البحث بلا جدوىٰ ان نعود إلىٰ البصرة بحثا عن أصل الاعتزال ، لكن ليس انطلاقا من أصل التسمية ، وانما انطلاقا من اجواء البصرة كجزء من الاجواء العامة للعراق وديار الخلافة الأموية مع التركيز على ما مثله الحسن البصري عقائديا وسلوكيا وما مثله واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بالمقابل ، وخلفيات كل واحد من هذه الشخصيات الثلاثة مع أصولها العرقية وأنسابها .

يجمع المؤرخون على القول ان المعتزلة نادوا بخمسة أفكار رئيسة هي :

- العدل
- التوحيد
- الوعد والوعيد
- المنزلة بين المنزلتين
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]

والمتتبع لتطور تاريخ هذا الحزب يلاحظ ان مسألة التوحيد هي التي شغلت الدور الأكبر في تاريخه لا سيما فيما بعد في العصر العباسي أيام المأمون ومن بعده المعتصم ، والواثق، وبها ارتبطت مسألة ما عرف باسم خلق القرآن .

وهنا لا بد من التساؤل لماذا اثار المعتزلة هذه القضايا وتمسكوا بها خلافا لغيرهم من الاحزاب التي دار نشاطها كله واستقطب حول قضايا الحكم من خلافة وامامة ، كما رأينا لدى الخوارج والشيعة ؟ فالمعتزلة لم يجعلوا البحث فيها عرضيا في ثنايا الموضوعات الرئيسة ، وهنا يلاحظ ان التمسك بمسألة التوحيد قد يحمل في طياته ردا على من شكك بالتوحيد .

ومعروف ان المعتزلة خلال بحثهم في التوحيد قالوا : بنفي الصفات الربانية وبتنزيه الوحدانية ، والسؤال هنا لماذا تمسكوا بذلك ؟ والبحث عن اجابة مقنعة لهذا السؤال قد نجدها في واقع الصراعات العقائدية والدينية لمنطقة البصرة وبلاد العراق في مطلع القرن الثاني للهجرة .

---

(١) ـ جاد الله ـ المرجع نفسه ص ٥١ ـ ٧٥ .

والشيء نفسه ينطبق على مبدأ العدل ، والتمسك بعدل الله ونفي الظلم عنه، ولعل في التمسك بهذا المبدأ نوع من أنواع الرد على ما روجته اوساط السلطة الاموية من ان الله تعالى قضى باستلام الأمويين للسلطة ولامرد لقضائه، وما عرف باسم تيار الجبرية ، ونفي الظلم عن الله تعالى هو نقض لافكار الجبرية وفيه نوع من أنواع المعارضة للنظام الأموي القائم ، أما فكرة المنزلة بين المنزلتين فقد قيل : في سبب الأخذ بها ان أوساط المسلمين شهدت منذ يوم الجمل مناقشات كبيرة حول مصير قتلى الجمل لدى الطرفين ونشطت هذه النقاشات وتطورت تطوراً كبيراً في الفترة التي نشطت فيها الازارقة في البصرة فقد كفر الازارقة مقترف الكبيرة من المسلمين وأباحوا لأنفسهم استباحة دماء القعده وكل من لم يشايعهم ويأخذ بأفكارهم ، وعارض كثيرون من أهل البصرة وسواها تكفير أصحاب الذنوب وهنا اختلفوا في الاسم الذي يمكن أن يطلق على مقترف الذنوب فهو ليس بمؤمن كامل وفي الوقت نفسه لا يمكن تصنيفه بين الكفار والمشركين ، وفي البداية قال بعض الناس ان مقترف الكبيرة منافق ، إنما ما لبث المسلمون أن رفضوا هذه التسمية فقد حدد الاسلام موقفه من النفاق منذ أيام النبي (ص)، وبحث رجال الفكر في أوساط البصرة عن تسمية أخرى ، وقال مفكروا المعتزلة مقترف الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن بل هو منزلة بين المنزلتين وليس هو النفاق بل الفسق[1] .

قبل الاستمرار أكثر في عرض هذه المرتكزات نحاول اولا التعرف بعض الشيء الى شخصيتين هما : واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد مع شخصية الحسن البصري، وفي الوقت نفسه إلى التعرف الى أجواء البصرة والعراق دينيا وفكريا .

لدى استعراضنا لأهم الأحداث التي شهدها المجتمع الاسلامي وما أثير حولها من أفكار نلاحظ ان الكثير من المسلمين ارتأوا أن ما أصابهم من ذنوب ومن خير ومن شر انما هو قضاء مقضي من الله تعالىٰ ، في أثناء حصار المسلمين لعثمان قال المحاصرون له : اننا نحاصرك بقضاء الله وقالوا له حين رموه : «لسنا نرميك

---

(١) ـ القاضي عبد الجبار (فرق وطبقات) المصدر نفسه ص ٤ . علي محمد زيد ـ معتزلة اليمن ط . بيروت ١٩٨١ ص ٢٦ . جاد الله ـ المرجع نفسه ص ٥٤,٥ . أحمد محمود صبحي ـ المعتزلة ـ ط . الاسكندرية ١٩٨٢ ج ١ ص ١٦١ .

يا عثمان ولكن الله يرميك ، فقال عثمان : كذبتم لو رماني ربي لما أخطأني[1] .

فالمحاصرون لعثمان أوحوا بشيء من الجبرية ، وأنكر عثمان هذه الجبرية في رده، ويروى ان بعض الناس قال لعبدالله بن عمر :

«يا أبا عبد الرحمن ان اقواما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون : كان هذا في علم الله فلم نجد بداً منه فغضب ثم قال : سبحان الله العظيم قد كان ذلك في علمه انهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها»[2] .

ويروى أيضاً أن أحد المسلمين سأل الامام علي عند انصرافه من صفين «أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ . . . فقال عليه السلام : والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديا ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر ، فقال الشيخ : عند الله احتسب عنائي ، مالي من الاجر شيء ، فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الاجر في مسيركم وأنتم سائرون وفي منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها مضطرين ، فقال الشيخ : كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام : لعلك تظن قضاء واجبا ، وقدرا حتما ، ولو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الاحسان أولىٰ من المسيء ولا المسيء بعقوبة المذنب أولىٰ من المحسن . تلك مقالة اخوان الشياطين وعبدة الأوثان وخصماء الرحمان ، وشهود الزور ، أهل العماء عن الصواب في الأمور هم قدرية هذه الأمة ومجوسها[3]» .

أهم ما في هذه الرواية الاشارة إلىٰ وجود قدرية بالأمة الإسلامية وربط هذه القدرية بالمجوس .

ومن الواضح ان المقصود بالمجوس هم أتباع أديان الزرادشتية التي كانت ديانة الإمبراطورية الساسانية الرسمية وهي ديانة ثنوية ، ولعل اتهام القدرية بالمجوس أو ربطها بالمجوس نوعا من الاتهام بالكفر ، والأهم من هذا كله

---

(٢) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٨٦٩ . القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٢٥ .

(١) ـ القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٢٥ ـ ٢٦

(٣) ـ القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٢٤

السؤال : هل أثيرت مسائل القضاء والقدر بين صفوف المسلمين في فترة مبكرة، اي منذ أيام عثمان ابن عفان ؟

ان هذا الامر لايستبعد مطلقا بسبب التطورات الكبيرة التي ألمت بالمسلمين والمواجهات التي قامت بين المسلمين واحتكاك المسلمين بأتباع الديانات القديمة وورثة الثقافات والعقائد المختلفة في بلاد الشام والعراق ومصر ، ويرجح ان النقاش حول القضاء والقدر قد ازداد حدة وتطور أثناء الحكم الأموي .

ونجد هذه المناقشات شكلت بمحصلاتها جزءا مما نادت به الحركة الكيسانية فهذه الحركة نادت بالمساواة ورفع الظلم وبالعدل بين المسلمين ، كما ويلاحظ ايضا ان هذه الافكار رددتها ثورة زيد بن علي مع شيء من التطور والحركة الكيسانية، وثورة زيد وان اتسمت بالسمة الشيعية ، الا ان هذه السمة اختلفت عما اتصف به الخط الامامي والذي مثله في ذروة تطوره الامام جعفر الصادق .

وبعد العودة الى الكتب التي أرخت لظهور الاعتزال نراها جميعاً تركز على دور الحسن البصري ومن ثم على دور واصل بن عطاء وبعد ذلك دور عمرو بن عبيد ، واذا عدنا الى سيرة حياة كل واحد من هؤلاء الثلاثة نجد اولا ان الحسن البصري هو ابو سعيد الحسن بن يسار ، كان ابوه من اسرى فتوحات العراق ، حمل الى المدينة وصار مولى لزيد بن ثابت الانصاري وفي المدينة تزوج يسار من امرأة اسمها خيرة كانت مولاة لام سلمة ام المؤمنين، ومن خيرة ولد ليسار الحسن البصري ـ لسنتين بقيتا من خلافة عمر ـ [1] .

وفي المدينة نشأ الحسن بن يسار ، وتلقى معارفه الاسلامية على الصحابة ولهذا عد بين التابعين ، ويروى عنه قوله : «كنت في المدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن اربع عشرة سنة»[2] .

وعلى هذا عاش الحسن البصري أحداث الفتنة الكبرى ، ثم ما تبعها من حروب أهلية واستلام بني أمية للسلطة ، وقد هاجر الحسن البصري الى مدينة

---

(١) : القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٣٣ . أحمد غسان سبانو ـ الحسن البصري ط . دمشق ١٩٨٢ من ٢٦ ـ ٣٦ .

(٢) : القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٣٣ .

البصرة واستقر بها ويرجح أنه تكوّن ثقافيا ، وتميز في البصرة ، وفيها نشط في الوعظ في مسجدها ، وكان مجلسه في الوعظ يتناول العديد من قضايا المسلمين آنذاك ، ويلاحظ ان الوعظ الذي اخذ به الحسن البصري تمحور حول الزهد ، فهو كان يقول : «أيها الناس انكم لا تنالون ما تحبون الا بترك ما تشتهون»[1] .

كما أنه كان يدعو في زهده الى قلة «مسافدة النساء»[2]

وتوجه هذا الزهد هو سلبي وليس ايجابيا ويختلف في محور معانيه عن الزهد الذي نادى به الاسلام وتمثل بالايجابية ووضح في سيرة النبي (ص)، الذي كان يصوم ويصلي وينكح النساء وكان خير الناس جميعا ، والزهد الذي نادى به الحسن البصري يمكن ان نجد خلفياته في الزهد الذي تبنته الديانة المانوية ولذلك اطلق على زهده الزهد الأعجمي ، ويرجح ان البصري تأثر بمواريث المانوية وبنظرتها نحو الحياة الدنيا وضرورة انتهاء الوجود البشري ، ولهذا كان يقول ينبغي على العاقل ان لا يأخذ من الدنيا الا قدر قوته :

«وانما الدنيا ، اذا فكرت فيها ثلاثة ايام : يوم مضى لا ترجوه ، ويوم انت فيه ينبغي ان تغتنم ، ويوم يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا ، ولاتدري لعلك تموت قبله »[3] .

ويختلف هذا تمام الاختلاف عما أوصى به النبي : اذا قامت القيامة على احدكم وبيده فسيلة فليكمل زرعها، كما ويختلف عن النظرة الاسلامية نحو الحياة الدنيا والتعامل مع شؤونها، ومن الاستعراض لمختلف الاخبار التي وصلتنا حول الحسن البصري يلاحظ ان الرجل احتل مكانة كبيرة في الوعظ ، وكان جريئا له رسائل وعظ وجهها الى الخليفة عبد الملك بن مروان، كما انه كانت له مجالسات ومناقشات مع الحجاج بن يوسف الثقفي[4] .

وفي المدينة نشأ واصل بن عطاء وكان أيضاً مولى لبني هاشم اولغيرهم ،وقيل ولد

---

(١) : سبانو ـ المرجع نفسه ص ٥٥

(٢) : سبانو ـ المرجع نفسه ص ٥٤

(٣) : سبانو ـ المرجع نفسه ص ١٦١

(٤) : القاضي عبد الجبار (فرق) ـ المصدر نفسه ص ٣٦ ـ ٣٨

سنة ٨٠هـ وتأثر بمحمد بن الحنفية ، ولازم ابو هاشم عبد الله بن محمد اثناء الدراسة واخذ عنه وعن ابيه ، ومن المعروف ان أبا هاشم تولى بعد مقتل المختار زعامة الجزء الاكبر من الكيسانية ، وكان أتباعه منظمون تنظيماً سرياً محكماً، وانه استدعي الى دمشق للتحقيق معه وهو الذي أورث العباسيين حركته، وهي حركة كانت تستهدف الاطاحة بالحكم الاموى، وقد نجحت في ذلك(١) .

وهاجر واصل الى البصرة ، وهناك تتلمذ على الحسن البصري وتعرف الى عمرو بن عبيد وتزوج أخته ، وكان عمرو بن عبيد بدوره مولى أصله من سبي مدينة كابل من سجستان ، وايضا لازم عمرو بن عبيد مجلس الحسن البصري حتى انفصل واصل عنه وكان سبب الانفصال عقائديا محضا ، حيث اختلفت نظرة واصل الى الامور عن نظرة الحسن البصري ، وتنبه واصل الى مسألة التأثير المانوي فكان ان استمر بالرد على المانوية . ويروى انه كتب كتابا فيه الف مسألة في الرد على المانوية(٢) .

من الموقف من المانوية ومن أفكارها والتأثر بها بشكل مباشر او غير مباشر جاء الخلاف بين الحسن البصري وواصل بن عطاء ، ويلاحظ ان واصل بن عطاء هو الذي قال - أو صاغ - الاصول الخمسة التي أخذ بها المعتزلة ، والاصل الاول - كما رأينا - الذي تعلق بالتوحيد من حيث الاهداف أراد التصدي للعقيدة المانوية التي اعتبرت كل صفة من الصفات قوة الهية من الآلهة وذلك بحكم مواريثها لديانات بابل القديمة التي قامت على الايمان بوجود مجمع للآلهة كل واحد اختص بصفة من الصفات، وطبعا كان على رأس هذا المجمع اله كبير(٣).

قام واصل بإيجاد تنظيم خاص به فقد (بلغ من بأسه وعلمه انه اوفد أصحابه الى الآفاق وبث دعاته في البلاد قال أبو الهذيل : «بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب ، وبعث القاسم الى اليمن وبعث بحفص بن سالم الى خراسان ، وبعث

---

(١) : جاد الله - المرجع نفسه ص ٣١ ، ٣٣ ، ٤٢ .

(٢) : القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٤٧ .

(٣) : جيو وايدنغرين - ماني والمانوية - ترجمة عربية ط . دمشق ١٩٨٥ ص ٧٥ - ٨١ س . هـ هوك . ديانة بابل وآشور ترجمة عربية ط . دمشق ١٩٨٧ - ص ٣٥ - ٧٢ .

أيوب الى الجزيرة ، وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة ، وعثمان الطويل الى أرمينية[1]) .

يفيد هذا ان واصل احدث تنظيما عقائديا كانت له أهدافه ،ومن تفحص هذه الاهداف يمكن لنا ان نستخلص أشياء كثيرة ،وبديهي أن نعتبر النقاط الخمس هي المحور الذي دارت عليه عقيدة حزب واصل . ففي النقطة الاولى وهي التوحيد تمسك بما جاء به الاسلام وحارب جميع القوى المعادية لهذا الدين .

وفي مبدأ العدل اعلان عن معارضة الفكرة الجبرية التي تبناها النظام الاموي، وفي الوقت نفسه شعار ينادي بضرورة اقامة العدل بين المسلمين ، وهذا الشعار تبنته ثورات المعارضة للحكم الاموي في القرن الثاني للهجرة : تبنته ثورة يزيد بن المهلب وثورة زيد بن علي وثورة يحيى بن زيد وأخيرا الثورة التي جاءت بالعباسيين الى السلطة ، وبالمناسبة كان للائمة العباسيين في دور الخفاء صلات مباشرة بالحركة التي انشأها واصل وعمرو بن عبيد. فقد تأثر محمد بن علي بن عباس بأبي هاشم استاذ واصل وكان ابو جعفر المنصور يلازم عمر بن عبيد وقد تأثر به كثيرا[2] .

أما النقطة الثالثة من برنامج واصل وهي الوعد والوعيد مرتبطة من حيث المبدأ بفكرة العدل وبالمعارضة الجبرية ، ذلك انها تتمحور حول وجود ثواب وعقاب عند الله وان الانسان يحاسب ويعاقب على ما يقترفه من آثام ،وبهذه ايضا يمكن ان تربط النقطة الرابعة وهي فكرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذه فكرة اسلامية أصيلة تستهدف تقويم الاعوجاج والاصلاح للمجتمع والسلطة،وعندما نقف عند الفكرة الخامسة وهي المنزلة بين المنزلتين : نراها قامت للرد على ما نادى به الأزارقة ، وبنظرة مجملة الى هذا البرنامج نجد فيه عقيدة متكاملة تستهدف على المدى البعيد التغيير في بنيان المجتمع الاسلامي سياسيا وعقائديا ،فهي تريد اولا : ازالة القوى المتطرفة من بين صفوف المسلمين وإعادة اللحمة الى هذه الصفوف

---

(١) : القاضي عبد الجبار ـ المصدر نفسه ٤٤ . أبو القاسم البلخي ـ فضل الاعتزال ط . تونس (الدار التونسية) ص ٢٣٧ .

(٢) : القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ٣٢ . المقريزي ـ المصدر نفسه (ترجمة المنصور العباسي) ٨٤ ط ١٠١و١٠٢ظ .

وفي الوقت نفسه احداث الاصلاح ، والمثير للانتباه كما اشرنا من قبل ان هذا البرنامج لم يتعرض لمسألة الامامة التي تمحور حولها نشاط الاحزاب الاخرى ، وهنا لاندري هل رأى حزب واصل ان الخلافة يمكن ان يصل اليها أي واحد من المسلمين وأنها بالتالي ليست وقفا على قريش ، أم كان للحزب موقف آخر ؟

والمثير للانتباه ان تنظيم واصل كان تنظيما عقائديا محضا، ولم يكن له جهاز عسكري ،ولم يفكر باستخدام العنف كوسيلة للتغير،ويشبه في هذا الباب ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكية من تاريخ الدعوة الاسلامية ، أضف الى هذا ان بعض الاحداث تشير الى ان هذا الحزب ربما رأى امكانية التغيير والاصلاح من خلال السلطة القائمة او من خلال بعض الشخصيات المرشحة[1] .

لاشك انه كان لهذا الحزب أبعد الاثار على تكوين عمر بن عبدالعزيز،فعمر بن عبد العزيز بعد استلامه للخلافة استعان بأصحاب فكرة العدل وكان منهم غيلان الدمشقي وغيره،وكان غيلان من تلامذة الحسن بن محمد بن الحنفية الذي سنقف عنده أثناء الحديث ، ولاشك ان عمر بن عبد العزيز قد نجح الى حد بعيد في احداث الاصلاح من خلال السلطة ، ومن الممكن ان نجد في ثورة يزيد بن الوليد ابن عبد الملك (الناقص) خلفيات ومؤثرات لما نادى به أهل العدل[2] ولقد أشرنا قبل قليل الى علاقة أبي جعفر المنصور بابن عبيد .

لعل حزب واصل استهدف الاصلاح ولم يستهدف الوصول الى السلطة، ولاشك ان نشاط رجالات هذا الحزب قد أفاد كثيرا دعاة الدعوة العباسية وساعده على تهيئة الاجواء لنجاح الثورة العباسية وتقبلها من قبل المسلمين .

المرجئة :

ما أن توفي النبي(ص) حتى واجهت الأمة الناشئة مشاكل عاصفة كان أولها وأعظمها معالجة ما أطلق عليه اسم مشكلة الردة ، فقد كان الاسلام على لسان

---

(١) : القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص ١٨٧ ـ ١٩٠ . صبحي ـ المرجع نفسه ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٧ . جاد الله ـ المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٢) : ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٤٨ ـ ٥٥٠ الطبري ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

النبي قد حدد شروط القيام بعمل قتالي ضد المعلنين للاسلام وان كان تظاهراً ، وبناء عليه رأى بعض الصحابة عدم جواز اعلان الحرب على الذين منعوا الزكاة ، لكن رأي الصديق تغلب فهو قد أصر على قتال المرتدين ولو منعوا عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله(ص)،ومنذ تلك اللحظة ، وربما قبل ذلك أخذ المسلمون يناقشون مسألة الايمان والكفر ، ولعل هذه المناقشات كانت وراء التمييز بين مراتب :الاسلام والايمان ، والاحسان ، فقد روي عن النبي قوله : «الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً» وقوله : «الايمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» وقوله : «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1]» ورأى جمهور كبير من المسلمين انه يكفي الانسان أن ينطق بالشهادتين ، لكن غيرهم أصر على ان الايمان بالقلب أو اللسان ينبغي أن يعبر عنه العمل ، وتطورت هذه المناقشات مع الأيام ولا شك أن احتكاك العرب بشعوب الأراضي المفتوحة ، وهي شعوب غنية بتراثها اللاهوتي سواء الكتابي أو غير الكتابي قد أغنى هذا الاحتكاك وأوجد قضايا كثيرة تتعلق بتحديد طبيعة الايمان وضرورة ترابطه مع العمل .

وجاءت أحداث الفتنة الكبرى وما تلاها من حروب أهلية ، فقد منع الامام علي أصحابه يوم الجمل من أخذ الغنائم ، واسترقاق الأسرى كما هي العادة في قتال غير المسلمين[2] ، واحتج بعض جنده على ذلك ومن تجديد لاقت مناقشات تعريف الايمان والكفر وغيرها من القضايا دفعاً جديداً .

وفي الوقت نفسه كنا رأينا بعض كبار الصحابة مع غيرهم من المسلمين قد رفضوا المشاركة في أحداث الحروب الأهلية ، ولا شك أن حلقات المساجد في المدينة والشام والعراق ومصر قد كان شغلها الشاغل البحث في كل القضايا المتعلقة بطبيعة العقيدة ، وهناك إشارات الى أن بعض الترجمات لكتب أو أبحاث لاهوتية وفلسفية قد تم ، وتزود المسلمون بمواد هذه الأبحاث وطوروا بها ما ملكوه من أدوات ، فالعربي بفطرته يميل نحو استخدام المنطق ومحاكمة الأمور عقلياً .

---

(١) كنز العمال ج١ ص٢ ، ٢٦ ، ج٣ ص٤٩ - ٥٠ .

(٢) ابن مزاحم ، المصدر نفسه ص٨٠٦ . ابن العديم - المصدر نفسه ج٢ ص٣٠٢ .

وهذا واضح تمام الوضوح في كثير من آيات القرآن الكريم .

ففي القرآن سأل الله تعالى نبيه ابراهيم قال : «أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» (البقرة ـ الآية : ٢٦) .

وكان من أهم القضايا مسألة مصير قتلى الحروب الأهلية ومصير قاتليهم ، وقد تحرج كثير من المسلمين في ابداء آرائهم حول هذا الموضوع وأبدوا آراءهم حول جميع ما حدث .

فبعضهم قال : كان علي على حق لكن الذين قاتلوه في الجمل وصفين كانوا بغاة ، بينما قال بعض آخر : دماء لم نخض بها بأيدينا ولا نود أن نخوض بها بألسنتنا[١] ، ولعل الفئة الاولى منها تفرع ما عرف بالمعتزلة وأهل العدل ، أما الفئة التي تحرجت في الإجابة ، فهي التي صدر عنها ما عرف باسم المرجئة لأنها ارجأت الحكم في كل أمر الى الله تعالى .

وتطورت هذه الفئة تطوراً كبيراً في مطلع القرن الثاني للهجرة ، وبات يقول بأفكارها عدد من كبار التابعين والفقهاء لا سيما الزهاد منهم ، فالخليفة عمر بن عبد العزيز رفض الخوض بموضوع مصير قتلى صفين ، وكذلك من بعده الامام ابي حنيفة[٢] ، انما لا ندري هل ترسخ في العصر الأموي ما نسب الى المرجئة من أقوال ثابتة وعقائد ، أم أن ذلك تم في العصر العباسي بعد نشاط حركة الترجمة وحركات الجدل الديني ضد الزنادقة وسواهم ، ومهما يكن من أمر أجمعت المصادر على القول : ان جمهور المرجئة قال : «الايمان معرفة الله تعالى بالقلب ، والتصديق به فحسب ، وإن لم يكن معها شاهد بلسان ولا اقرار بنبوه ولا تأدية فريضة[١]» . ومثل هذا الرأي خطير جداً وله انعكاسات شديدة على الاسلام ، حيث كان بموجبه يدعي كل انسان الايمان ، فالايمان في الاسلام قول وعمل ، والله تعالى يقول :

---

(١) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٢٨٤ ـ ٣٠٨ .
(٢) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
(٣) لفرق والتواريخ (كتاب منسوب للامام الغزالي) ص١٦٣ (نسخة خطية مصورة بمكتبة د . سهيل زكار) .

«وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة[1]» .

ويقول أيضاً جل جلاله : «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون[2]» .

ويقول أيضاً : «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك المؤمنون حقاً[3]» .

كما وقال : «وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة[4]» .

ويمكن للانسان ان يستعرض عدداً آخر من آيات القرآن الكريم كلها تربط بين الايمان والعمل، كما أن سيرة النبي(ص) وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده والصحابة كلها تعطي الانطباع الايجابي ، فالمسلمون واجهوا كل شيء بروح ايجابية محضة ، والاسلام سعى لمعالجة كل قضية من القضايا ولم يؤجل البت بواحدة منها .

ويدفعنا هذا الى القول ان حركة الارجاء تمت بفعل مؤثرات خارجية ربما شامية عراقية ،فالمجتمع المسيحي قبل الاسلام وبعد الفتوحات كان مشغولاً بقضايا تتعلق بالايمان والكفر وتحديد طبيعة الأقانيم الثلاثة وعلاقتها بين بعضها بعضاً،كما كان مجتمع العراق وغيره يعيش في أجواء فيها هذا النوع من المناقشات ولنتذكر هنا ان الأجزاء الشمالية الشرقية من بلاد الشام هي موطن الغنطوسية التي تلح على ان الايمان والمعرفة نور ، وان هذا النور كفيل بقواه الذاتية بطرد ظلمات الكفر وتحقيق النجاة لحامله ، وكان قد دخل في الاسلام أعداد كبيرة من أصحاب هذه التقاليد والمواريث ، كما عمل في خدمة المسلمين ادارياً وغير اداري ، كأطباء ومستشارين عدد من أعلام المسيحيين المحليين[5] وغيرهم .

---

(١) سورة البينة الآية : ٥ .

(٢) سورة التوبة الآية /١١١/ .

(٣) سورة الانفال ـ الأيتان ٣ ـ ٤ .

(٤) سورة فصلت الأيتان ٦ ،٧ .

(٥) ماني ـ المرجع نفسه ص١٨ ـ ٣٨ . عبد الرحمن بدوي ـ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ط . القاهرة ١٩٤٦ ص٤٠ ـ ٧٥ ، ١٠١ ـ ١٠٢ .

ويكفي أن نتذكر ان ابن المقفع الكاتب المبدع كان مانوياً «زنديقاً»[1] وسبق وأشرنا من قبل الى الحسن البصري والى الخلفيات التي كانت وراء نمط الزهد الذي مارسه ونادى به ، وفي الحقيقة يفصل خيط دقيق جداً بين مجمل حركات القدرية من معتزلة ، وأهل عدل وبين المرجئة ومن شابههم ، ولا يمكن أن نعزو أدواراً ملموسة لآثار هذه الحركة . فمن شبه المؤكد ان هذه الآثار لم تتجاوز المواقف السلبية ، ومالت سياسة الأمويين في كثير من الأحيان الى الرضى بالمواقف السلبية . وجل ماكانوا يخشوه ويقيمون له الوزن : الثورات المسلحة .

لكن لا بد من أن نوضح أن توفر الأجواء السلبية يساعد على نشر ـ أو بالأحرى تهيئة الظروف ، والمعطيات لنشر ونجاح الأفكار الثورية . فجميع الذين درسوا تاريخ الدعوة العباسية ـ أكدوا انها عملت بالتبشير العام لسنوات طوال تجاوزت أو قاربت ربع قرن من الزمن ، وبعد ذلك لجأت الى استخدام القوة المسلحة فحققت نجاحاً كبيراً وتمكنت من تدمير الدولة الأموية[2] .

وفي عصرنا الحالي بات كثير من المفكرين وحتى الساسة يقيمون وزناً كبيراً جداً لآثار الحركات السلبية ، ويرون ان الحركات السلبية قادرة على تدمير السلطة ورجالاتها نفسياً ، وقادرة في الوقت نفسه على شل الاقتصاد ومرافق الحياة العامة ، ولا شك أن المؤثرات النفسية أشد نفاذاً وأعظم دوراً في كثير من الأحيان من المواجهات الايجابية ، فقد يستطيع بسهولة أي حاكم أن يواجه بقواه المنظمة الحركات التي تتفجر بالعنف ضده ويقضي عليها قضاء مبرماً ، ولكن ليس ممكناً أن يقاتل أي حاكم أية حركة غير مرئية ، ويقضي عليها بوساطة أعوان ايمانهم مخلخل مهزوز .

ومن هذا الباب مرة أخرى نلح على أهمية الدور الذي قام به حزب الارجاء ويمكن ان نتصور ذلك من خلال نجاحات عدد من الثورات التي سبقت الثورة العباسية ، فلولا الأجواء المهيئة لما تمكن يزيد بن المهلب وقبله عبد الرحمن بن

---

(١) بدوي ـ المرجع نفسه ص١٠١ ـ ١٠٢ . محمد كرد علي ـ أمراء البيان ط . بيروت ١٩٦٩ ص٩٩ ـ ١١١ .

(٢) فاروق عمر ـ طبيعة الدعوة العباسية ط . بيروت ١٩٧٠ ص١٠٧ ـ ١٢٨ .

محمد بن الأشعث من النجاح السريع والقبول الباعث على الدهشة .

ففي ثورة ابن الأشعث شارك كبار الفقهاء والمتدينين على اختلاف انواعهم في الثورة[1] .

ومقرر ان الظلم وحده لا يكفي لاعلان الثورة ، لكن لا بد من اعداد النفوس وشحنها حتى وان كان ذلك سلبياً، كما ومقرر في أيامنا علمياً أن الشحنة السالبة تؤدي الى عطاء هائل عندما تلتقي بالشحنة الموجبة .

القدرية :

لدى البحث في القدرية وتاريخ ظهورهم الى الوجود نلاحظ ان الكتاب العرب الأوائل أوضحوا ان التسمية مشتقة من أفكار القدر ، والأخذ بمبدأ حرية الارادة والاختيار ، وهذا الكلام غير مقنع بكليته وكلمة قدر وقدرية تعني لغوياً : الايمان بالقدر وحتميته وانها بالتالي هي مثل كلمة الجبرية . ومن هنا قال أحد القدرية في العصور المتأخرة : «ان من يقول القدر خيره وشره من الله أولى باسم القدرية منها»[2] .

ولا بد هنا من البحث عن سبب منطقي لاطلاق اسم القدرية على الذين قالوا بحرية الاختيار، وقد ذهب بعض الباحثين الى القول :

«انهم سموا هكذا لأنهم اتخذوا من القدر أولاً وبالذات موضوعاً لبحثهم ودراستهم»[3] وذهب بعض آخر الى القول انهم سموا بالقدرية من باب الاشتقاق من القدر وضربوا مثلاً على هذا ان حزب الخوارج أطلق عليه اسم حزب المحكمة «مع أنه كان يتكون من الذين رفضوا التحكيم باعتباره مخالفاً لما أمر به القرآن»[4] .

---

(١) سهيل زكار ـ تاريخ العرب والاسلام ـ ط . بيروت ١٩٧٥ ص١٦٧ ـ ١٧٥ ، ٢١٤ ، ٢١٧ .

(٢) عبد الرحمن بن أحمد الايجي ـ المواقف (شرح الجرجاني) ط . القاهرة ١٣٢٧هـ ج٨ ص٣٧٨ ، كنز العمال ج١ ص٥٦٦ ، ٦٤٥ ، ٦٥١ . عبد الرحمن بدوي ـ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ط . القاهرة ١٩٤٦ ص١٩٨ .

(٣) بدوي ـ المرجع نفسه ص٢٠٢ .

(٤) بدوي ـ المرجع نفسه ص٢٠٣ .

وفي هذا التعليل تقصير في الفهم ، وبناء عليه فالقياس غير صحيح لأن الخوارج عرفوا بالمحكمة اشتقاقاً من شعارهم الذي أطلقوه يوم صفين «الحكم لله لا لك ياعلي» ، وبحثاً عن حل مقنع نعود الى ما ورد حول واحد من مشاهير القدرية في العصر الأموي وأعظمهم وهو : غيلان الدمشقي فقد أورد ابن عساكر في الترجمة المطولة له أكثر من رواية ان غيلان دخل على عمر بن عبد العزيز فسأله عمر بن عبد العزيز :

«ويلك ما هذا الذي أحدثته في الاسلام فقال : يا أمير المؤمنين ما أحدثت في الاسلام شيئاً ! قال بلى قولك بالقدر»[1] .

فرد عليه غيلان بأنه يقول في ذلك انطلاقاً من قول الله تعالى : «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . . الى قوله : إما شاكراً وإما كفوراً» فقال عمر تمم السورة ويحك أما تسمع ان الله يقول : «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله»[2] .

ثم تلا عليه عدة آيات من القرآن الكريم فأجابه غيلان «يا أمير المؤمنين لقد جئتك جاهلاً فعلمتني وشاكاً فهديتني فقال : اخرج ولا يبلغني أنه تتكلم بشيء من هذا»[3]

ومن هذه الروايات نخلص ان الاسم اشتق مما جاء في القرآن الكريم وليس من باب آخر ، لكن يبقى سؤال وهو: متى بدأ الناس يذهبون الى القول بالقدر ، وأين ، وهل بالفعل تاب غيلان ، أم استمر يؤمن بأن الانسان صانع لقدره ؟

روى ابن عساكر عن الاوزاعي قوله : «أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد»[4] .

---

(١) ابن عساكر ـ المصدر نفسه (مخطوطة الظاهرية) ج١٤ ص٩٣ظ .

(٢) ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٤ ص٩٣ظ . سورة الانسان الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج١٤ ص٩٣ظ . انظر بقية الترجمة حيث كرر الروايات بأسانيد مختلفة .

(٤) ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج١٤ ص٩٣ .

وذهبت بعض الدراسات الى القول انه قال بالقدر بعدما تأثر بيوحنا الدمشقي وهو من حفدة سرجون الرومي الذي تنسب بعض الدراسات الاوروبية اليه مسؤوليته عن تسليم دمشق الى العرب الفاتحين أو مصالحتهم عليها وأن العرب كافؤوه على عمله فجلعوه المسؤول عن الأمور المالية في الادارة الشامية، وان سرجون كان رجل ادارة ودين بارزاً بين مسيحيي دمشق» .

وعمل سرجون في ظل معاوية بن أبي سفيان وبات واحداً من مواليه وقد خلفه في ولاية ديوان الخراج ابنه منصور بن سرجون، وانه ولد لمنصور ولد سماه يوحنا ، وكان منصور قد اشترى عبداً اسمه كوسماس وأصله راهب أسره العرب في احدى غاراتهم على ايطاليا ، فاتخذه مؤدباً لابنه يوحنا وتأثر يوحنا بمعلمه هذا وانصرف ، واشتهر يوحنا في المجال الديني المسيحي ، لكنه مع ذلك ظل يعمل في الادارة الأموية الى أيام هشام بن عبد الملك حيث استأذنه فأقاله فلحق بمعلمه كوسماس الى دير القديس سابا في القدس حيث رسم قساً في الكنيسة وتوفي يوحنا قبل سنة ٧٤٣م[١] .

ولعل هذه القصة حول يوحنا تشكل احدى خلفيات الرواية التي انفرد فيها ابن حزم في كتابه نقط العروس حيث ذكر أن أيوب بن سليمان بن عبد الملك قتله أبوه لأنه ارتد الى النصرانية[٢] .

وضع يوحنا عدداً كبيراً من المؤلفات كان أهمها «ينبوع الحكمة»، وأثار عدداً من المشاكل حول ألوهية المسيح وطبيعة العلاقات بين الأقانيم الثلاثة والعلاقة بين الناسوت واللاهوت في شخصية المسيح . وكان لآراء يوحنا أبعد الآثار على تطور المسيحية الارثوذكسية حيث انتقلت أفكاره الى القسطنطينية وغيرها، وكانت قد أثارت الجدل الكبير حول هذه الأمور وحول عبادة الصور[٣] .

---

(١) بدوي ـ المرجع نفسه ص٢٠٠ ـ ٢٠١ . بابادوبولس ـ المرجع نفسه ص٥٥٤ ـ ٥٥٧ .

(٢) علي بن أحمد بن حزم ـ نقط العروس (ضمن رسائل ابن حزم) ط . بيروت ١٩٨١ ، ج٢ ص٥١ .

(٣) حتي ـ المرجع نفسه ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧ . بابادوبولس ـ المرجع نفسه ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

والأمر الذي هو موضع الشك في هذه الرواية هو : متى وكيف التقى يوحنا بغيلان ، وكيف تأثر به غيلان الدمشقي ؟

غيلان ويوحنا عاشا في مدينة واحدة ولا يستبعد قيام لقاء بين الرجلين وتفاعل ما،لكن مصادرنا العربية لم تأت على ذكر ذلك وأصرت على ان الذي قال بالقدر لم يكن غيلان بل نصراني من أهل العراق أخذ عنه معبد الجهني ، ومعبد ناول ذلك الى غيلان، والالحاح على دور غيلان أكثر من دور معبد مرده الى أسباب : ان غيلان طور مسألة القول بالقدر وناقش حولها وبشّر بها وكان لـه علاقات مباشرة بالسلطات الأموية أيام عمر بن عبد العزيز ثم بعده .

ولعل الفرص التي تهيأت لغيلان لتطوير فكرة القول بالقدر مردها الى انتشار تيارات أهل العدل في أيام عمر بن عبد العزيز والى خلفيات غيلان ، فهو قد كان بالأصل قبطياً ثم صار مولى لعثمان بن عفان .

ويبدو أن غيلان كان نشيطاً فكرياً في دمشق قبل استلام عمر بن عبد العزيز للخلافة، ولعل رواج تيار أهل العدل وغيرهم كان من خلفيات اقبال سليمان بن عبد الملك على اختيار عمر بن عبد العزيز ، وبعد استلام عمر بن عبد العزيز للخلافة كتب اليه غيلان ينصحه بقوله :

«أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الاسلام خلقاً بالياً ، ورسماً عافياً ، فيا ميت بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتشفع ، طفىء أمر السنة وظهرت البدعة أخيف العالم فلا يتكلم ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالامام وربما هلكت بالامام، فانظر أي الامامين أنت»[1] .

وفي هذه الرسالة واضحة أفكار القدرية تماماً لا سيما في قوله : «فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضي ما يعذب عليه ؟ أم هل وجدت رشيداً يدعو الى الهدى ثم يضل عنه ؟ أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة أو يعذبهم على الطاعة، أم هل وجدت عدلاً

---

(١) القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص٣٩ .

يحمل الناس على الظلم والتظالم . وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم ؟»[1] .

ويستفاد من بعض الروايات ان عمر بن عبد العزيز تأثر بما قاله غيلان فدعاه وقال له : (اعني على ما أنا فيه ، فقال غيلان ولني بيع الخزائن ورد المظالم فولاه فكان يبيعها وينادي عليها ويقول : تعالوا الى متاع الخونة تعالوا الى متاع الظلمة ، تعالوا الى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته»[2] .

واستعانة عمر بن عبد العزيز بغيلان تثير أولاً سؤالاً حول طبيعة العلاقات بين الرجلين، وهل :كان عمر بن عبد العزيز يؤمن بالقدرية؟ وتدل من جانب آخر ان القدرية مثلت تياراً فكرياً معارضاً للسلطة الأموية في داخل بلاد الشام ونشط بين أوساط السلطات الحاكمة .

ينبغي ان نميز هنا بين ما راج بين المسلمين خاصة بين أحزاب المعارضة من المطالبة باحقاق الحق والعدل والمساواة، وهو ما شهر باسم تيار أهل العدل ، وبين القدرية ، فعمر بن عبد العزيز لم يكن قدرياً لكنه كان من أهل العدل إذ أنه إأمر خطباء الجمعة باحلال الآية الكريمة : «ان الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القربى» بدلاً من لعن علي بن أبي طالب وآله، مع سعيه الحثيث الى الغاء المظالم واحقاق الحق»[3] .

وكذلك موقفه من أفكار غيلان ومحاججته دوماً له وسعيه لاقناعه بالاقلاع عن القول بالقدر .

فقد روى ابن عساكر عن اسحق بن أبي فروة قال :

«لقيت غيلان القدري فقلت له : من كان أشد الناس عليك كلاماً ؟ قال : أشد الناس عليّ كلاماً عمر بن عبد العزيز ، كان يلقن من السماء ولقد كنت أطلب له مسائل أعنته فيها ، فبينما أنا ذات يوم بالسوق إذ دراهم بيض يقلبها اليهودي والنصراني والحائض والجنب، قلت : ان يكن إأظفر به فاليوم، قال :

---

(١) القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص٤٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ـ المصدر نفسه ص١٢٣ ، ١٣٧ ـ ١٤٠ .

فدخلت عليه فقلت : يا أمير المؤمنين هذه الدراهم البيض فيها كتاب الله يقلبها اليهودي والنصراني والحائض والجنب فإن رأيت فامر بمحوها فقال : أردت أن تحتج علينا الأمم ان غيرنا توحيد ربنا واسم نبينا قال :فبهت فلم أدر ما أرد عليه»[1] .

لكن لماذا استعان عمر بن عبد العزيز بغيلان ؟ لعله فعل ذلك لما رآه فيه من أمانة ، ولأنه كان بحاجة الى من يعاونه على تنفيذ برنامجه الاصلاحي ، ومهما يكن السبب فإن عمر بن عبد العزيز ذهب ضحية برنامجه الاسلامي حيث دس له السم فمات بسببه وكذلك حل المصير نفسه ببعض أعوانه لا سيما بغيلان ، ذلك ان غيلان غادر دمشق اثر وفاة عمر بن عبد العزيز وذهب الى بلاد ارمينية وفي أيام هشام بن عبد الملك أرسل في طلبه مع صاحب له : اسمه صالح فحبسهما فترة ثم أمر بقتلهما . وقيل في سبب اقدام هشام على قتل غيلان انه حقد عليه منذ أيام عمر بن عبد العزيز ففي أثناء بيعه لما حوته الخزائن الأموية مر به هشام بن عبد الملك فقال :

«أرى هذا يعيبني ويعيب آبائي ، والله ان ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه»[2] ، لكن يستدل من هذه الرواية بالذات ان هشاماً قتل غيلان لاستمراره على القول بالقدر وليس حقداً عليه ، فقد قيل ان هشام أمر بقطع يديه ورجليه وفي أثناء تعذيبه «مر به رجل والذباب على يده فقال له : يا غيلان هذا قضاء وقدر قال ـ أي غيلان : كذبت لعمر الله ما هذا قضاء ولا قدر ، فبعث اليه هشام فصلبه»[3] .

لقد اتهمت المصادر بعض المسلمين غير غيلان بالقول بالقدر ،ومن المدهش ان من اتهموا كانوا من ذوي الخلفيات المسيحية .

فهذا محمد بن اسحاق صاحب السير والمغازي الذي انحدر من أسرة كتابية

---

(١) ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج١٤ ص٩٣ظ .
(٢) القاضي عبد الجبار (طبقات) المصدر نفسه ص٤٠ .
(٣) ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج١٤ ص٩٤ . القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص٤٠ .

مسيحية وتأثر كثيراً بالثقافة المسيحية فأقحمها في كتابه في السير تحت عنوان ما عرف بالاسرائيليات ـ قد اتهم بالقدر وشهر فيه بالمدينة لذلك[1] .

وقيل أيضاً ان فكرة القدرية انتشرت منذ فترة مبكرة في التاريخ الأموي فقد روى البلخي في كتابه البدء والتاريخ : «ان معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان قدرياً»[2] . وان يزيد بن الوليد بن عبد الملك كان ايضاً قدرياً وانه لهذا ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وخلعه[3] .

ونسب الى القدرية عدد كبير آخر عاشوا في أواخر العصر الأموي ، ويبدو ان في المسألة شيء كبير من اللبس يتعلق بالتمييز بين فكرة العدل والقول بالقدر ، وقد شهد الربع الأول من القرن الثاني للهجرة انتشاراً كبيراً للدعوات التي طالبت بالعدل والانصاف والمساواة حتى ان يزيد بن المهلب نادى بذلك أثناء ثورته ، وكذلك فعل من قبل عبد الرحمن بن الأشعث[4] .

إنما على العموم كانت حركة القدرية قد أثارت نشاطاً معارضاً للسلطات الأموية ويدلنا على مقدار آثارها كميات الأحاديث التي نسبت الى النبي(ص) في تكفير القدرية[5] .

ولا يعنينا كثيراً الخوض في القدرية والحديث عن الأمور الدينية والعقائدية ، لكن يعنينا ان القدرية سياسَياً مثلها مثل غيرها من الحركات المعارضة للسلطة الأموية نادت بالمساواة بين العرب ، وغير العرب من المسلمين،وطالبت بالاصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وبات الانسان يتحمل مسؤولية أعماله وان الله تعالى عادل لا يقبل الظلم ، ولا يمكن أن يرضى بأعمال وولاية ظالم مهما كان ، فالقدرية على هذا وقفت في وجه ما عرف باسم تيار الجبرية الذي نادى به رجالات بني أمية

---

(١) ابن اسحق ـ المصدر نفسه ص١٠ ـ ١٣ .

(٢) احمد بن سهل البلخي ـ البدء والتاريخ ط .باريس ١٩١٦ ج٦ ص١٧ .

(٣) حسين عطوان ـ الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي ـ ط .بيروت ١٩٨٦ ـ ص٤١ .

(٤) عطوان ـ المرجع نفسه ص٤٢ ـ ٤٤ .

(٥) كنز العمال ج١ ص٥٦٦ ، ٦٤٥ ، ٦٥١ .

في تسويغ ما طبقوه من سياسة مالية وما اقترفوه من أعمال قتل وتنكيل في حق المسلمين .

والقدرية أيضاً آمنت بعدم حصر الخلافة بقريش أو بين صفوف العرب، ورأت ان الخلافة شورى بين المسلمين ينالها أصلحهم وأجدرهم، واستشهدوا في جميع ما ذهبوا اليه بما جاء في القرآن والسنة . وفي الحقيقة يصعب جداً التمييز الدقيق بين رجالات القدرية والمعتزلة ، وهذا ما لاحظه مؤرخوا الاعتزال، فقد عد القاضي عبد الجبار الهمذاني رجالات القدرية من بين رواد طبقات المعتزلة[1] .

الجهمية :

من أقدم المسائل التي تناقش الناس فيها وما يزالون مسألة العلاقة بين الانسان والخالق وتوزيع المسؤوليات لا سيما بالنسبة للأعمال التي يقوم الانسان بفعلها فهو يفعلها بإرادته ورغبته أم يفعلها بإرادة ربانية ورغبة خالصة، وإذا كان يفعلها برغبة ربانية خالصة فما مدى مسؤوليته ولماذا بالتالي هناك الثواب والعقاب ؟ فالثواب والعقاب ينبغي أن يكون على عمل تم انجازه من قبل صاحبه تبعاً لرغبته وإرادته، لا أن يكون قد أنجزه بسبب ما صدر اليه من أوامر وما وجه به من توجيه مباشر ، لقد تناقش المسلمون حول هذه القضية والسؤال هنا: هل الانسان مسير أو مخير؟ وإذا كان مسيراً فإلى أي مدى وإذا كان مخيراً فإلى أي حد ، واختلفت آراء رجالات الفكر حول هذه القضايا لأسباب كثيرة منها فردية واخرى تعلقت بخلفيات كل واحد من الناس وثقافته .

ومنذ البداية نلاحظ ان حديث المصادر العربية حول الجماعات والأفراد الذين آمنوا بمسألة التسيير والاختيار .

متداخلة وبالتالي يصعب في كثير من الأحيان تحديد آراء كل فرد أو جماعة ومن ثم مواقفها من السلطة الأموية ، وينطبق هذا على الجهمية وهي جماعة انتسبت الى الجهم بن صفوان الذي كان تلميذاً للجعد بن درهم وقد قال هو وشيخه بأن الانسان لا يملك حرية الاختيار فهو مجبر لا يملك قدره ولا يستطيع

(١) القاضي عبد الجبار (فرق) المصدر نفسه ص٣١ - ٤١ .

أن يعمل إلا ما عمله ، ولهذا عرفت هذه الجماعة باسم الجبرية تمييزاً لها عن أهل العدل والقدرية ، ويلاحظ ان الذين قالوا بالجبرية لم يكونوا في منزلة واحدة ، في تحديد الجبرية ، ولذلك ميز العلماء بين جماعات الجبرية وقال الشهرستاني لدى حديثه عن جهم بن صفوان : «هو من الجبرية الخالصة»[1] .

ومفيد ان نقف بعض الشيء أولاً للتعرف الى شخصية الجعد بن درهم : هو مولى من أهل الجزيرة ، ويرجح انه كان من أهل حران، قيل كان مولى لسويد بن غفلة الجعفي، وقيل بل كان مولى للمروانيين[2] .

ومن هنا قيل انه سكن الكوفة في أول حياته ثم انتقل الى مدينة الرقة، وفي الجزيرة اتصل بمحمد بن مروان بن الحكم فاصطنعه وقدمه وأسند اليه تأديب ولده مروان ولهذا نسب مروان فيها بعد اليه فقيل مروان الجعدي[3] . وذهب الجعد بعد هذا الى دمشق وفي دمشق أظهر الجعد آراءه وقال أيضاً ان القرآن مخلوق، وأثارت آراؤه ومواقفه من القرآن حفيظة بني أمية فأرادوا البطش به فهرب الى الكوفة ، وفي الكوفة التقى به جهم بن صفوان فتتلمذ عليه وأخذ بآرائه ، وفي الكوفة نحره خالد بن عبد الله القسري والي العراقيين يوم النحر لسنة ١١٨ . .

من المرجح ان الجعد لم يدخل الكوفة إلا هذه المرة وأنه كان حرانياً ، وإذا صح هذا يمكن ان نفترض خلفياته الدينية، فحران كانت من أقدم المراكز الحضارية في بلاد الشام والشرق القديم ، وهي مركز كبير لعقائد الغنطوسية (العرفان) وكان للغنطوسية آثارها البعيدة على اليهودية والمسيحية والمانوية وعلى عدد كبير من الفرق الاسلامية ، ولهذا اتهم الجعد بالزندقة .

---

(١) الشهرستاني ـ المصدر نفسه (على هامش الفصل) ج١ ص١٠٩ . عثمان بن سعيد الدارمي ، الرد على الجهمية . ط . برل ليدن ١٩٦٠ ص٤ ـ ٨ . الامام احمد بن حنبل ـ الرد على الزنادقة والجهمية ط . حماة ١٩٦٥ ص٢٩ ـ ٣٣ . الامام علي بن اسماعيل الاشعري ـ الابانة عن أصول الديانة ط . القاهرة ادارة الطباعة المنيرية ص٢٥ ـ ٢٧ . .

(٢) البلاذري (مخطوطة استنابول) نسخة مصورة في مكتبة د . سهيل زكار ـ المصدر نفسه ص٢٤١ .

(٣) البلاذري ـ المصدر نفسه ج٢ ص٢٤١ . ابو زكريا الازدي ـ تاريخ الموصل ط . القاهرة ١٩٦٧ ج٢ ص٦٣ .

قال ابن حجر بكتابه لسان الميزان لدى حديثه عن الجعد : «مبتدع كان زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر والقصة مشهورة .

وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة ، منها انه جعل في قارورة تراباً وماء فاستحال دودا وهوام فقال : انا خلقت هذا لاني كنت سبب كونه فبلغ ذلك جعفر ابن محمد فقال : ليقل كم هو ، وكم الذكران منه والاناث ، ان كان خلفه»[1] .

ومن الصعب قبول هذه القصة لانها تتعارض مع فكرة الجبر وانعدام الاختيار،لكن من الممكن تصديق ماقاله الجعد حول عدم اتخاذ الله تعالى لابراهيم خليلا وعدم تكليمه لموسى ، لأن الجعد نفى الصفات وبنفيه للصفات يمكن ان ننفي عنه الزندقة، ويمكن ان نجد بينه وبين المعتزلة قواسم مشتركة لاسيما حول مسألة نفي الصفات وخلق القرآن ،. وهذه القواسم المشتركة كما أشرنا من قبل موجودة بين مختلف الجماعات الفكرية ومن هنا ذكر البغدادي : «حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية بالقدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم»[2] .

ومن هنا أيضا قيل عن الجعد وتلميذه الجهم بن صفوان كانا من المرجئة،على هذا شارك الجعد غيره من أبناء عصره في آرائهم واختلف عنهم في قوله «ان الانسان لايقدر على شيء ولايوصف بالاستطاعة وانما هو مجبر في أفعاله ، لاقدرة له ولاارادة ولااختيار ، وانما يخلق الله تعالى الافعال فيه حسب مايخلق في سائر الجمادات ، وتنسب اليه الافعال مجازا كما تنسب الى الجمادات ، كما يقال : أهوت الشجرة وجرى الماء ، وتحرك الحجر وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت»[3] .

ووجه الخطورة هنا أنه لاثواب ولاعقاب، والتبشير بمثل هذه الاراء خطير جدا على العقائد وعلى أية دولة ونظام حيث لايجوز للدولة ملاحقة العاصي والقضاء على

---

(١) ـ احمد بن علي بن حجر ـ لسان الميزان ط . بيروت ١٩٧٠ ج٢ ص١٠٥

(٢) ـ عبد القاهر البغدادي ـ الفرق بين الفرق ط . بيروت ١٩٧٧ ص١٩٩ ـ ٢٠٠

(٣) ـ الشهرستاني ـ المصدر نفسه ج١ ص٨٧ .

المتمردين والثوار ، كما أنه لايجوز للقضاء محاكمة أي مذنب أو مجرم وفي هذا تعطيل كامل ، ومن هذا الباب يمكن ان نرى المؤثرات المانوية في فكر الجعد فقد استهدفت المانوية التعطيل الكامل للحياة وارادت ايقافها.

لقد تمتع جهم بن صفوان بشهرة أكبر من الجعد بن درهم ، وجهم بن صفوان بدوره كان مولى من أهل خراسان وربما من مدينة ترمز ، ويرجح ان الرجل كان أيضا له خلفيات مانوية وقال جهم: «ان الجنة والنار تبيدان وتفنيان»[1].
وأشارت المصادر الى وجود نقاط لقاء كثيرة في آراء الجهم والمعتزلة والمرجئة لابل ان سيرة جهم تشير الى أنه اختلف عن المرجئة في انه حمل السلاح وشارك في الاعمال العسكرية وقاتل ضد السلطات الاموية في خراسان ، فلقد كان من ابرز المتمردين في خراسان الحارث بن سريج التميمي وكان الحارث يعتبر مرجئا، وكان جهم بن صفوان صاحب الحارث وكاتبه ومستشاره وقاضيه[2] فقد كان الحارث «يظهر أنه صاحب الرايات السود» وأنه هو الذي سيزيل ملك بني امية ويهدم سور دمشق[3] .

وتولى الجهمية كتابة سيرة الحارث وقراءتها في طريق مرو والمساجد، وبين عسكر الحارث وفي بيت الحارث أحيانا «فأجابه قوم كثير»[4] .
ويبدو ان جهم بن صفوان على هذا كان المنظر الفكري للحارث بن سريج وهكذا نظر اليه ولخطورة دوره سلم بن احوز ، ورجالات نصر بن سيار في خراسان فقد اسر سلم جهم بن صفوان ، وعزم على قتله ، فقال جهم لسلم : «ان لي ولثا (عهدا) من ابنك حارث، قال : ماكان له ينبغي له أن يفعل ولو فعل

---

(١) ـ الامام علي بن اسماعيل الاشعري ـ مقالات الاسلاميين . ط . القاهرة ١٩٥٠ ج١ ص٣١٢ البغدادي ـ المصدر نفسه ص١٩٩ ـ ٢٠٠ . محمد بن أحمد الملطي ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ط . القاهرة ١٩٦٨ ص١٤٠ . وايدنغرين ـ المرجع نفسه ص٨٨ ـ ٩٣ .
(٢) ـ ابن حجر ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٤٢ .
(٣) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٧ ص٣٣١ .
(٤) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٧ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

ماأمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب وأبرأك لي عيسى بن مريم مانجوت ، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك»[1] .
كان هذا سنة ١٢٨ للهجرة وكان جهم يكنى ابا محرز لذلك قال الناس حين قتل : قتل أبو محرز[2] .

على هذا اعتبر الخلفاء من بني أمية وعمالهم الجبرية لاسيما المرجئة منهم الذين آمنوا بحمل السلاح من أشد اعدائهم وأخطر خصومهم ، فعملوا على اهدار دمهم وقتلهم مهما كانت مكانة اي منهم ، فلقد اتهم سعيد بن جبير بأنه كان من مرجئة الجبرية فتهدده الامويون ولاحقوه حتى مدينة مكة، وصدرت الاوامر من قبل الوليد بن عبد الملك باعتقال أبرز شخصياتهم لاسيما سعيد ، فلقد كان مرجئة الجبرية فيمن خلع الحجاج وشارك عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث في ثورته، وكان سعيد بن جبير قد هرب من الحجاج الى اصبهان حيث تخفى هناك ثم الى أذربيجان ثم خرج معتمرا الى مكة والتجأ اليها في جماعة ممن يرون رأيه فكتب الحجاج الى الوليد بن عبد الملك :

«ان أهل الشقاق والنفاق قد لجأوا الى مكة ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم ، فكتب الوليد الى خالد بن عبد الله القسري فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهد وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار، فأما عمرو بن دينار وعطاء فأرسلها لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم الى الحجاج فمات طلق في الطريق وحبس مجاهد حتى مات الحجاج ، وقتل سعيد بن جبير[3] .

قتل الحجاج سعيد سنة ٩٤ هـ وكان لمقتله رنة أسى واسعة جدا في العراق وبقية ديار الاسلام، واعتبر مقتله احدى الجرائم الكبرى للحجاج حتى ان الحجاج خاف كثيرا بعد ذلك الى حد أنه روى أنه كان «اذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع

(١) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٧ ص٣٣٥ . ابن حجر ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٤٢
(٢) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج٧ ص٣٣٥ .
(٣) : الطبري ـ المصدر نفسه ج٦ ص٤٨٨ .

ثوبه فيقول : ياعدو الله لم قتلتني ؟ فيقول مالي ولسعيد بن جبير»[1] .
ولم يلبث الحجاج بعد سعيد «الا نحو من أربعين يوما [2]» .
واذا كان من الصعب الربط بشكل موثق بين جبرية المرجئة الذين خرجوا مع عبد الرحمن بن الأشعث وجهم بن صفوان فمن الممكن القول بذلك على أساس أن جهما التقى بالجعد في الكوفة وجاءت مشاركة المرجئة الاوائل في الكوفة أيضا، وعلى هذا نخلص الى القول :
ان الجبرية كانت من أخطر حركات المعارضة للنظام الاموي قادها علماء جلهم كان من اصل غير عربي ممن خلفياته العقائدية غنطوسية اومانوية، ومهدت هذه الحركة ضمن مجموعة الحركات الاخرى المعارضة للنجاح المستطير للدعوة العباسية ، فلقد رأينا قبل قليل جهما يرى في صاحبه الحارث بن سريج صاحب الرايات السود المزيل للملك بني أمية .

العثمانية

المستعرض لعصر الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان يلاحظ أنه لم يمتلك تنظيما سياسيا وعقائديا خاصا به فهو قد وصل الى الخلافة اثر مقتل عمر بن الخطاب وعن طريق ماحدث بين رجال الشورى الستة ، ورشحه لمنصبه سابقته في الاسلام وانحداره من بني أمية ، وقرابته من النبي (ص) .
فعثمان كان أبرز شخصيات بني أمية وأغناهم وقد دخل في الاسلام عن طواعية في حين ناصب بقية أفراد الاسرة الاموية بزعامة أبي سفيان الاسلام العداء، وتزوج عثمان مرارا وكان من بين أزواجه رقية ثم أم كلثوم ابنتا النبي (ص)[3] ووضح اثناء عملية اختياره للخلافة أنه كان مرشح الاسرة الأموية في مواجهة علي بن أبي طالب مرشح الاسرة الهاشمية ، وخلال احداث الفتنة الكبرى لم يتجمع حول عثمان أية أعوان من بين المهاجرين أو الأنصار أو غيرهم للدفاع عنه ، وطلب العون من عماله لاسيما من قريبه معاوية بن أبي سفيان فلم يأته العون .

---

(١) - الطبري - المصدر نفسه ج٦ ص٤٩١ .
(٢) - الطبري - المصدر نفسه ج٦ ص٤٨٨ - ٤٩١
(٣) - الطبري - المصدر نفسه ج٤ ص٤٢٠ .

وعلى هذا فإن عثمان لم يؤسس حزبا خاصا به بخلاف ماحدث بالنسبة للتشيع ، وبعد مقتله لم يخرج أي من اولاده للمطالبة بدمه ، وكان أبرز اولاده عمرو وأبان، أما أبان فقد انصرف عندما شب نحو الامور العلمية .

اماعمرو فقد ولاه معاوية جيشا أرسله الى خراسان[1] ، انما لاحظنا بعد مقتله طالب بالثأر له فئتان احداهما استقرت بالبصرة والاخرى في دمشق ، وكانت مدن البصرة ودمشق والكوفة أعظم مراكز تجمع الجند في الدولة الاسلامية الناشئة وكان كل مركز منها له مطامحه المتعارضة مع مطامح المركز الآخر ، ونظرا لان الكوفة كانت مقر الثورة على عثمان وكانت أقرب الى البصرة وسارعت البصرة الى التمرد على سلطة الكوفة والمطالبة بدم عثمان .

لقد خرج الى البصرة مطالبا بدم عثمان عائشة أم المؤمنين ومعها الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومن الصعب ان نقبل فكرة الخروج الى البصرة دونما تحضيرات واتصالات .

صحيح ان المصادر لم تشر الى شيء من هذا القبيل لكن لاعجب في ذلك ، فالمصادر صمتت عن رواية كثير من الاحداث، كما أن العديد من المصادر التي يحتمل ان وجد فيها بعض المواد قد فقدت .

انما منطق الاحداث يوجب علينا افتراض قيام اتصالات وتمهيد في القدوم الى البصرة، ويبدو ان هذه الاتصالات تمت بعد بيعة الامام علي والتجاء طلحة والزبير الى مكة التي كانت فيها عائشة أم المؤمنين .

ففي البداية كان الامام علي قد عين واليا على البصرة هو عثمان بن حنيف ، ولابد ان اتصالات سرية قامت بين الفئات التي تجمعت في مكة وزعماء مدينة البصرة ، الامر الذي شجع عائشة وأصحابها على التوجه نحو هذه المدينة[2] وبالفعل خرجوا نحو البصرة واستطاعو بسهولة الاستيلاء عليها ، ولم يتمكن عثمان

---

(٢) - ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج١ ص١٨١ - ١٩٨ . أحمد بن علي بن حجر - الاصابة في تمييز الصحابة ط . القاهرة ١٩٣٩ ج٢ ص٤٥٥ - ٤٥٦ .

(١) - ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج١ ص١٩٩ - ٢٠٠ . الطبري - المصدر نفسه ج٤ ص٤٣٧ - ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

ابن حنيف من مقاومتهم فاعتزل عن المشاركة في مجريات الاحداث مع قبيلة تميم ، لقد كان كل من عائشة وطلحة والزبير الذين خرجوا الآن الى البصرة للمطالبة بدم عثمان ممن ألب على عثمان وشارك في التحريض عليه، فقد كانت عائشة تخرج على الناس وتقول : «انظروا هذا قميص رسول الله (ص) لم يبل بعد ، وهذه سنته قد بليت على يدي عثمان» .

كذلك كان طلحة من المشاركين في حصار الدار [1] لكن الذي جعلهم يتخذون الموقف الجديد من بيعة علي بن أبي طالب هو أن عائشة كانت تكره الامام علي، وكانت العلاقات بين فاطمة الزهراء بنت النبي (ص) وعائشة سيئة، وكان علي قد أشار على النبي (ص) أيام حادثة الافك بطلاق عائشة والزواج ان شاء من غيرها . كما ان العلاقة بين فاطمة الزهراء وأبي بكر لم تكن طيبة ، فهي قد طالبت أبا بكر بميراثها من أبيها [2] .

ورأينا ان بعض الرواة يؤكد ان عليا لم يبايع أبا بكر الا بعد موت فاطمة ، ولعل عائشة طمحت الى السلطة شخصيا وأرادت ان تحكم ان لم يكن مباشرة فمن خلال ابن اختها عبد الله بن الزبير ، لكن كان محركها الاول للخروج كراهيتها لعلي قبل مطامحها ، ولاقت هذه المطامح القبول والاصغاء الكامل لدى طلحة والزبير ، فكل منهما كان يطمح للخلافة ، ولعل وجود السيدة عائشة جمع بينهما ، وحال دون خروج كل واحد منهما على حدة ، مع تذكر أنه لم يكن امامهما معا سوى البصرة ، وكان في الصراع فيما بينهم عليها اخفاق جماعي .

لقد فكر الذين تجمعوا في مكة التوجه نحو الشام ولكن وجود معاوية منعهم من ذلك ، ويستخرج من المناقشات التي جرت بين الاطراف قبل الخروج الى مكة ـ ومن بين المشاركين فيها مروان بن الحكم ـ ان عبد الله بن عامر والي عثمان السالف

---

(٢) ـ ابن خياط (التاريخ) المصدر نفسه ج١ ص١٨١ ـ ١٩٣ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٣٣٠ ـ ٤٢٦ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص١٣٩ ـ ١٤٠ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج٢ ص١٧٢ ـ ١٧٧ .

(٣) ـ الزهري ـ المصدر نفسه ص١٤٨ . ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص٢٩٧ ـ ٣٠١ . سعيد الافغاني عائشة والسياسة ط . بيروت ١٩٧١ ص٣٠ ـ ٣٩ ـ ٧٦ ـ ٩٤ .

هو الذي أشار عليهم بالبصرة ، وقد تمتع عبد الله اثناء ولايته لهذه المدينة بقسط وافر من الشعبية ولعله هو الذي هيأ للاتصال بالبصريين . ويلفت الانتباه ان الذين تجمعوا في مكة يريدون البصرة أعلنوا المطالبة بدم عثمان للثورة على علي بن أبي طالب ،ويشعر المرء من فحوى أحاديثهم ان من بين ما ازعجهم كثيرا ليس مقتل عثمان انما استيلاء «الغوغاء» على مقاليد الأمور[1] .

لقد رأينا من قبل ان السبب الرئيسي في الثورة على عثمان كان اقتصاديا وان الثوار ارادوا انصاف أنفسهم والحفاظ على حقوقهم ونشدوا المساواة في ظل الاسلام وان السواد ليس بستان قريش ، ووصف هؤلاء الثوار بالغوغاء فيه مايفيد ان الذين تجمعوا حول عائشة ام المؤمنين كانوا ذوي تفكير «ارستقراطي» يؤيدون بشكل او بآخر تحصيل الثروات لانفسهم وإن كان ذلك على حساب غيرهم ، فقد كان الزبير بن العوام ثريا جدا جدا ، امتلك الممتلكات الواسعة والأموال في الحجاز ومصر وغيرها من الأماكن[2] .

جاء في الطبري قيل : ان عائشة بعدما عادت الى مكة اثر معرفتها بمقتل عثمان «أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي وكان أمير عثمان عليها فقال : ماردك يا أم المؤمنين ؟ قالت : ردني أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام ، فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمي ، وذلك أول ما تكلمت بنو أمية ورفعوا رؤوسهم وقام معهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية ، وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة . . وقال القوم فيما ائتمروا به : الشام ، فقال عبد الله بن عامر : قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته ، فقال له طلحة والزبير : فأين ؟ قال : البصرة ، قالوا : يا أم المؤمنين . . اشخصي معنا الى البصرة . . فإنما نأتي بلداً مضيعاً وسيحتجون علينا فيه ببيعة

(١) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص٨٨٥ ـ ٨٨٦ ، ٨٩١ ـ ٨٩٦ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٤٤٤ ـ ٤٧٧ . الأفغاني ـ المرجع نفسه ص٩٦ ـ ١١٨ .

(٢) ـ أحمد بن عبد الله الرازي ـ تاريخ مدينة صنعاء ط . دمشق ١٩٨١ ، ص٥٩ ـ ٧٠ .

علي بن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين»[1] .

لقد خاض هؤلاء بعد استيلائهم على البصرة معركة الجمل تحت لواء الطلب بدمعثمان ، والحقيقة ان القتال في الجمل كان صراعاً بين البصرة والكوفة وهزم أهل الجمل ، وقبل هزيمتهم قتل طلحة ثم الزبير ـ بعد تخليه عن القتال ـ وردت بعد المعركة عائشة أم المؤمنين الى الحجاز[2] ولم تقم عائشة بعد الجمل بأي نشاط سياسي ، ومن الذين نجوا من الجمل وقام بالنشاط السياسي عبد الله بن الزبير ، وعبد الله كما رأينا أنشأ حول نفسه الحزب الزبيري .

وهنا لا بد من سؤال : من الذي أنشأ الحزب العثماني ، وهل وجد بالفعل حزب سياسي اسمه الحزب العثماني .

لم نسمع خلال العصر الأموي بوجود مثل هذا الحزب متذكرين أنه بعد الجمل خاض معاوية ضد علي بن أبي طالب القتال في صفين تحت شعار الطلب بدم عثمان ، ومعاوية لم يؤسس حزباً عثمانياً بل كان يسعى لنيل السلطة ونجح بالفعل وكون حوله حزباً هو حزب السلطة الأموية ، لا بل ان معاوية لم يشجع أبداً الحديث على الطلب بدم عثمان والانتقام من قتلته بعد توليه السلطة ، فهل يا ترى كان لنجاح معاوية في الوصول الى السلطة مؤثرات حالت دون قيام أو استمرار وتطور حزب العثمانية .

الملاحظ أن الشام لم تعرف من انتمى الى هذا الحزب ولا الكوفة ايضاً بل اقتصر الأمر على البصرة ، وهنا يرجح ان البصريين الذين لم ينتموا الى الخوارج او الى حركة اخرى ، وظلوا يطمحون بزعامة مدينتهم ، حتى بعد استيلاء بني أمية على السلطة هم قد ميزوا أنفسهم باسم العثمانية .

ميزوا أنفسهم عن الشيعة والخوارج ورجالات الدولة والسلطة الأموية، والعثمانية هنا ظلت نوعاً من أنواع الاتجاه الفكري ، والهوى المتحكم بالنفوس ووضح شأنها فيما بعد بالعصر العباسي أثناء الصراع الفكري بين فئات سكان أهل

---

(١) الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٤٤٩ ـ ٤٥١ .

(٢) ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص٩٠٤ ـ ٩٣٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٤ ص٥٠٠ ـ ٥٣٤ . الافغاني ـ المرجع نفسه ص١٨٩ ـ ٢١٩ .

البصرة ، وخلد شأنها الجاحظ أكثر من سواه في رسالته العثمانية[1] ومن المدهش ان المستعرض لهذه الرسالة يراها تتمحور حول فكرة أحقية الخلافة بين علي بن أبي طالب وأبي بكر وعمر ، وليس في الموضوع نصيب لعثمان بن عفان والمنادين بالتحزب له .

وخلاصة الأمر ان العثمانية حركة بصرية أرادت تمييز ذاتها عن بقية الحركات والأحزاب فتسمت بالعثمانية ، دون أن يكون للمطالبة بحكم أسرة عثمان أو للدفاع عن قضية عثمان مكانة لديها .

(١) طبعت رسالة العثمانية في القاهرة سنة ١٩٥٥ ، وقد رد عليها بعض الشيعة من ذلك كتاب «بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية» لأحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس ط . عمان ١٩٨٥ .

«الفصل الخامس»

العصبية القبلية

الفصل الخامس

العصبية القبلية

المتتبع لعدد كبير من الأبحاث التي استهدفت تعليل أحداث التاريخ الاسلامي ، على الأخص ما تعلق منها بالعصر الأموي ، يلاحظ وجود تركيز يبعث على الدهشة على مسألة حملت اسم «العصبية القبلية»،وقد أطلقت هذه التسمية على ما شهده العصر الأموي من صراعات بين الجماعات القبلية العربية ، وهذا الأمر لم يأت بدعاً ، فمنذ قرون قام المؤرخ ابن خلدون بالاهتمام به وبنى عليه فلسفته التاريخية كما ورد في مقدمته ، وتأثر المستشرقون الأوائل بفلسفة ابن خلدون ، فعللوا أبحاثهم في التاريخ الأموي على أساس الصراعات القبلية .

ويتضح هذا تمام الوضوح في كتابات فلهاوزن ودوزي[1] ، ومما لا شك فيه ان التركيز على أن الأزمات والصراعات قد تفجرت بسبب بسيط هو الخلاف في الانتماء القبلي فيه مغالاة كبيرة وبالتالي بعد عن الحقيقة ، وهجران للأسباب

(1) ايف لاكوست ـ العلامة ابن خلدون ـ ترجمة عربية ـ ط .بيروت ٩٧٤ب ص١٢٦ ـ ١٣٢ . دوزي ـ تاريخ مسلمي اسبانيا ـ ترجمة عربية ط .القاهرة ١٩٥٨ ص٣ ـ ٣٠ . فان فلوتن ـ السيادة العربية ـ ترجمة عربية ط .القاهرة ١٩٦٥ ص١٢ ـ ٢٠ .

الاقتصادية والاجتماعية والعقائدية وغيرها من أسباب ، لذلك لا بد من إعادة النظر بالموضوع والتخلي عن تلك المنهجية وتبني منهجية اخرى على أساسها نسأل أولاً : متى ظهرت القبلية في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وما معنى القبيلة ، وما هي العلاقة بين القبيلة والاسلام داخل شبه جزيرة العرب ثم خارجها ، وما هي المؤثرات التي أحدثها الاسلام مع الخروج من شبه الجزيرة العربية بركاب الفتوحات وبعدها على البناء القبلي بالاجمال والتفصيل ، وكيف تأثرت بذلك كله القبائل التي وجدت في بعض الأمصار المفتوحة قبل الاسلام ، وعلى الأخص قبائل بلاد الشام وأطراف الجزيرة والعراق ؟.

ان هذه الأسئلة مع أسئلة اخرى ستأتي في حينها تحتاج الى إجابة موثقة معللة ، وعلى ضوء هذه الإجابات يمكن لنا شرح ما شهدته ساحات الدولة الأموية من صراعات أطلق عليها اسم الصراعات القبلية .

وفي عودة الى كتب الأخبار نراها تتحدث عن هجرة قبلية كبيرة حدثت قبل الاسلام ربما بأكثر من ثلاثة قرون ، والمعني بذلك هجرة الأزد ، كما انها تتحدث بالوقت نفسه عن صراعات تلت ذلك تمخض عنها ظهور مايمكن ان نطلق عليه اسم الوحدات القبلية .

لقد جاء وصف الأزد وصفاً لكتلة بشرية كبيرة أشبه بما أطلق عليه العرب اسم جمهرة ، وقد قيل انه عندما وصلت هذه الجمهرة منطقة مكة انخزع عنها جماعة كبيرة حملت فيما بعد اسم خزاعة ، وقد استولت خزاعة على مكة وانتزعتها من جرهم[1] ، ولدى مرور هذه الجماعة بمدينة يثرب خلفت هناك جماعة كبيرة تكونت منها قبيلتا الأوس والخزرج ، ونزلت جماعة من هذه الجمهرة قرب بئر ماء اسمه غسان فتشكل هنا قبيلة جديدة هي غسان التي آل اليها حكم الشام الجنوبي في ظل الامبراطورية البيزنطية[2] .

وفي محاولة لتوثيق هذه الرواية نجد أمامنا نقش النمارة الذي يرجع تاريخه الى

---

(١) ابن هشام ـ المصدر نفسه ج١ ص١٣ ـ ١٤ ، ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) الحسين بن علي المغربي ـ الايناس في علم الأنساب ط. الرياض ١٩٨٠ ص٦١ ـ ٦٤ .

مطلع القرن الرابع ، وقد تحدث هذاالنقـش عن اخضاع «أسد ونزار وملوكهم»[1]
ومن شبه المؤكد أن «أسد» التي ورد ذكرها في هذا النقش هي جمهرة الأزد «فقد جاء في الايناس في علم الأنساب للوزير الحسين بن علي المغربي (٣٧٠ - ٤١٨هـ/ ٩٨٠ - ١٠٢٧م) : الأزد ويقال : الأسد بوزن العقل - وهو الأفصح»[2] .

ويستخلص من هذا ان الوحدات القبلية أخذت بالظهور من داخل الجماهر ، شروعاً من القرن الرابع للميلاد ، كما ويستخلص أن الهجرة من داخل شبه الجزيرة أثرت كثيراً على المهاجرين وعلى سكان المناطق التي وصلها المهاجرون ، وأن عمليات اندماج جديدة ظهرت نتيجة لذلك نجم عنها قبائل جديدة كما الحال بالنسبة لقبائل تنوخ التي استقرت بالعراق وغيرها وسيطر بعضها على الحيرة[3] .

ولعل من أوضح الروايات لدينا عن ظهور القبيلة الى حيز الوجود ما روي عن قصي بن كلاب واستيلائه على مكة وانتزاعها من قبيلة خزاعة ومن ثم استخراجه لقبيلة قريش من وسط جمهرة كنانة ، وقيامه بتشكيل هذه القبيلة واسكانها في مدينة مكة[4] .

ويستخلص من الأمثلة التي جرى الاستشهاد بها أنه فيما بين القرن الرابع والخامس ظهرت الوحدات القبلية الى الوجود في شبه جزيرة العرب ، ومع القرن السادس كان النظام القبلي قد تأصل وحلت القبائل محل الجماهر ، وحافظت القبائل المتقاربة بالنسب على نوع من التحالف فيما بينها ، ولقد تبنت كل قبيلة اسماً خاصاً بها مع انتماء ونسب أعادها الى واحد من أجداد العرب الكبار .

ولا حاجة بنا هنا لمناقشة قضية انحدار العرب من جدين شمالي وجنوبي هما قحطان وعدنان والذي يعنينا ذكره أن كل قبيلة أصبحت تتألف من عدة أفخاذ

---

(١) نينا فكتور - فنابيغوليفسكا - العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى القرن السادس ، ترجمة عربية ط . الكويت ١٩٨٥ ص٤٠ - ٤١ .

(٢) المغربي - المصدر نفسه ص٥٧ .

(٣) المغربي - المصدر نفسه ص٢٥٥ - ليفسكا - المرجع نفسه ص١٢٧ - ١٤٩ .

(٤) ابن هشام - المصدر نفسه ج١ ص١٢٣ - ١٢٩ . المغربي - المصدر نفسه ص١٠٩ - ١١٦ .

وعشائر وأسر ، كما أن نظام ادارة القبيلة وتحديد هويتها والانتماء اليها والزعامة فيها، كلها أمور أرسيت قواعدها الى حد أن القبيلة باتت أشبه بأمة لها لهجتها الخاصة بها ولها معبودها وديارها وشاعرها المعبر عن وجهة نظرها وأحلافها وعلاقاتها حتى مع قوى خارج شبه الجزيرة[1] .

وقام الاسلام في مكة المكرمة ، وسعى النبي صلى الله عليه وسلم للإفادة من النظام القبلي لتحقيق النجاح الأولي ، واستفاد من حماية عشيرته له ، ثم أخذ يعرض نفسه على القبائل ، لكن النجاح لم يحالفه نظراً للوشائج التي قامت بين زعامات قريش في مكة وزعماء العشائر في الطائف والمناطق القريبة من مكة[2] ، وأخيراً اتصل النبي صلى الله عليه وسلم بالأوس والخزرج وتمت الهجرة الى المدينة[3] .

وإثر الهجرة سعى النبي صلى الله عليه وسلم نحو الغاء النظام القبلي وانشاء الأمة العقائدية ، وواضح هذا مما قام به من اجراءات مؤاخاة واطلاق اسم المهاجرين على القرشيين ، واسم الأنصار على الأوس والخزرج ، ومما أثبت فيما يعرَف باسم صحيفة المدينة الأولى ، انما بعد مضي عدة أشهر أعيد الاعتبار الى القبيلة[4] وسعى النبي صلى الله عليه وسلم للإفادة من ايجابيات النظام القبلي داخل التنظيم العقائدي للأمة الناشئة وفي صراعاته مع قريش ، واستغل النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة التحالف بين القبائل كما استغلتها قريش وهذا واضح تمام الوضوح في وقائع غزوة الخندق وفي الأحداث التي تلت صلح الحديبية[5] .

ومع النجاحات الكبرى للاسلام وهزيمة قريش أخذت قبائل شبه الجزيرة تعلن عن تقديم الولاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويلاحظ هنا ان كل قبيلة أرسلت الى النبي من يمثلها ويبايعه باسمها ، لقد أرسلت وفودا ضم كل واحد منها

---

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى ـ العرب في العصور القديمة ط . بيروت ١٩٧٨ ص٣٢٠ ـ ٣٢٣ .
(٢) ابن هشام ـ المصدر نفسه ج١ ص٢٦٤ ـ ٢٦٧ ، ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ، ٤١٩ ـ ٤٢٨ .
(٣) ابن هشام ـ المصدر نفسه ج١ ص٤٢٨ ـ ٤٤٩ .
(٤) ابن هشام ـ المصدر نفسه ج١ ص٥٠١ ـ ٥٠٣ .
(٥) ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ ص٢١٤ ـ ٢٣٣ .

عبددا من الافراد ، لاعلى شكل موفد ومعاونين. وانما على شكل عدة زعماء ، فعلى الرغم مما شهدته القبيلة العربية من تطورات تنظيمية ، انها لم تعرف عند ظهور الاسلام الاندماج الكلي ومن ثم تسليم السلطة لشيخ واحد أو أمير ، بل كان في كل قبيلة عدة زعماء ، استمد كل منهم مكانته من ثرواته ومن عدد اقربائه وأتباعه الذين يمكن ان يساندوه في الحرب ، وعلى هذا كانت السمة الاساسية للزعيم سمة عسكرية الى حد بعيد ولم تكن قائمة على غير ذلك ، وفي احداث بئر معونة وموقف عامر بن الطفيل من جوار عمه ملاعب الاسنة مثال واضح تماما ، فعامر لم يأبه بعمه ولا بالجوار الذي أعطاه للمسلمين ، وخفر ذمته ، ذلك أنه ملك المال ، وكان بامكانه تجنيد الاتباع وقيادة عصابات مقاتلة خاصة به[1] .

ليس هنالك حاجة للتوسع هنا أكثر في هذا الباب ، وتكفي الاشارة الى مسألة الزعماء الذين أخذوا الأرباع والجرارين في الجاهلية وغيرهم ممن حفلت بذكرهم كتب الاخبار عن أحداث قبل الاسلام ، وظلت معضلة القبيلة هاجسا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فهو استهدف انشاء الأمة العقائدية الواحدة واحلال الرابطة العقائدية محل رابطة النسب ، لكن ذلك لم يتحقق ، وما ان توفي النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأينا كل قبيلة أو عشيرة ترى ان حلفها مع سيد المدينة قد انتهى ، وأنه بالتالي عليها البحث عن طرق اخرى للتعايش مع قوى شبه الجزيرة ، فالانصار حاولوا ان يقيموا زعيما منهم يوم السقيفة ، لكن المهاجرين عطلوا خططهم[2] ، وقامت حروب الردة ، ويلاحظ المرء ان الانصار رأوا في بدايات هذه الحروب عدم القتال[3] ، لأن الحرب ضد القبائل المرتدة كانت ستؤول لصالح قريش ، وأصر أبو بكر الصديق على ان الحرب ضد المرتدين هي من منطلق عقائدي محض ، ويلاحظ أنه أوعز الى قادة الجيوش بضرورة التخلي عن

---

(١) : ابن هشام ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٦ ، ٥٦٠ ـ ٥٩٨ .

(٢) : الزهري ـ المصدر نفسه ص ١٣٩ ـ ١٤٥ . ابن هشام ـ المصدر نفسه ج٢ص ٦٥٦ ـ ٦٦١

(٣) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ . ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ١٧ .

نظام الكتيبة القبلية المقاتلة ، ودمج عناصر الجيش وجعل كل قطعة منه تحتوي على أفراد من مختلف القبائل ، وأخفقت هذه المحاولة ، ووضح ذلك في الحرب ضد بني حنيفة ، واضطر خالد بن الوليد اثناء القتال الى اعادة الاعتبار الى الوحدة القبلية المقاتلة[1] .

لقد أعيد تنظيم الجيش على أساس القبائل ، وغالبا ما نجم عن ذلك بعض أعمال التنافس الداخلية حول من يقود القطعة القبلية المقاتلة ، واضطرت الخلافة في كثير من الأحيان للتدخل لايجاد الحل المرضي[2] ، ومنذ حروب الردة لم يحاول المسلمون الغاء الوحدة القبلية واعتمدوها في جيوش الفتح في العراق والشام ، وفي معركة اليرموك قسم خالد بن الوليد الجيش العربي الى عدة كراديس تجاوزت الثلاثين ، وفي الحقيقة كان كل كردوس عبارة عن وحدة قبلية مقاتلة[3] ، وأكثر من ذلك ساعدت الادارة المركزية في المدينة على اعادة تشكيل بعض القبائل التي كادت تتفتت وتذوب في جسم القبائل الاخرى ، وهذا ما صنعه عمر بن الخطاب مع قبيلة بجيلة بعد معركة جسر أبي عبيد[4] .

وفي أيام عمر بن الخطاب جرت أول محاولة في تاريخ العرب لتثبيت تشكيلاتهم القبلية نظاميا ورسميا فيما عرف باسم ديوان الجند ، ولقد رأى عمر ان كل عربي مسلم هو من أهل الديوان يحق له العطاء ، وأقوال عمر عن مسؤولياته تجاه المسلمين وفرضه العطاء وتفكيره في اعادة النظر في حجم العطاء ، والحكاية التي تحدثت عن حمله العطاء للاسرة الجائعة التي لجأت الى المدينة وغير ذلك فيه دلالة على أنه اعتبر جميع العرب المسلمين أهل ديوان ، ويلاحظ فقط ان عمر حين

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج٣ ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ . ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٦٧ ـ ٧٣ .

(٢) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ١٠٩١ ـ ١٠٩٢ . ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ١٨٨٩ ـ ١٩١٩ .

(٣) : محمد بن عبد الله الأزدي ـ فتوح الشام ط . القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١٧ ـ ٢٣٧ . ابن حبيش المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥١ .

(٤) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

فرض الأعطيات ميز بين الناس في حجم الأعطية وذلك حسب السابقة في الاسلام ودرجة القرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبذلك أدخل - أو بالحري أحل - مفاهيم جديدة حول المكانة الاجتماعية والتقدم بالوسط القبلي ، وذلك بدل المعايير التي كانت قائمة قبل الاسلام ، ووضح تبديل المعايير أيضا في إجراء آخر قام به عمر بن الخطاب نفسه حين الغى منح الأعطيات الخاصة لمن عرف باسم المؤلفة قلوبهم أيام النبي صلى الله عليه وسلم[1] .

وبعد معركة اليرموك أعاد عمر بن الخطاب توزيع القبائل على الأمصار المفتوحة ، ويمكن لنا أن نفترض أنه ربما أعاد النظر بلوائح ديوانه وأدخل تعديلات عليها ، أضف الى هذا من المحتمل ان لوائح الديوان حين سجلت للمرة الأولى لربما تولت دمج بعض الجماعات في وحدة قبلية جديدة[2] . .

واستقرت القبائل في المناطق المفتوحة ومالبثت معسكراتها الجديدة أن تحولت - على الأخص في العراق - الى مدن ، لكن من نوع خاص اختلفت في تنظيمها وأشكالها عن غيرها من المدن ، فكل قبيلة انفردت في رقعة من الأرض ، وكونت لنفسها مدينة داخل المدينة الكبرى ، ومن هنا نجد ولاة بني أمية الاوائل في العراق مثل زياد بن أبيه يعيدون أكثر من مرة عملية تنظيم القبائل وتقسيماتها[3] .

ويستخلص من أخبار الكثير من الأحداث أن القبائل لم تحافظ بعد الهجرة الى الأقطار المفتوحة على أنسابها تماما بل اندمجت بعض الوحدات الصغيرة داخل الوحدات الكبيرة مكونة قبائل جديدة ، ومن يعود الى معاجم الانساب يجد شكوكا حول صحة انتماء جماعات الى قبيلة ما مع تشابه في أسماء العشائر لقبائل مختلفة[4] .

---

(١) : أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم - كتاب الخراج ط . القاهرة ١٣٨٢ ص ٤٢ - ٤٤ . أبو عبيد القاسم بن سلام - كتاب الاموال ط . القاهرة ١٩٦٩ ص ٣١٩ - ٣٢٣ . الطبري - المصدر نفسه ج٤ ص ٢٠٩ - ٢١٤ .

(٢) : ابن حبيش - المصدر نفسه ج٤ ص ٦٧١ .

(٣) : ماسينيون (خطط الكوفة) المرجع نفسه ص ١٠ - ١٣ . ماسينيون (خطط البصرة) المرجع نفسه ص ١٦ - ٢٥ .

(٤) : ابن حبيش - المصدر نفسه ج ص ٦٧١ . المغربي - المصدر نفسه ص ٥٧ - ٦٢ - ٦٤ - ٦٦ . محمد بن حبيب - مختلف القبائل ومؤتلفها ط . الرياض ١٩٨٠ ص ٢٩١ - ٢٩٤ ، ولعل=

وفي مطلع العصر الأموي واجه معاوية بن ابي سفيان المشكلة القبلية ووزنها العسكري وشعر بخطرها قبل معركة صفين وفي اثناء القتال ، لذلك لجأ الى استغلال القبائل العربية التي كانت موجودة في الشام قبل الاسلام على الأخص قبائل قضاعة وعلى رأسها كلب ، وكان الاسلام قد انتشر في صفوف القبائل القديمة ، ومعنى هذا ان معاوية اعاد النظر بديوان عمر بن الخطاب ليدخل فيه العناصر الجديدة ، وهنا واجه معاوية مشكلة نسب قضاعة وهل سيلحقها بالقبائل العدنانية أو القحطانية ، وبما ان اكثرية قبائل الشام كانت آنذاك من أصل يماني فقد نالت قضاعة النسب اليماني[1] . . ويفيد هذا أن أنساب القبائل قد شهدت عملية تدوين رسمية ثانية مطورة ، وكانت عملية اعادة النظر الجديدة حاسمة وشبيه وشبه نهائية في تاريخ توزيع القبائل ، والمدهش فيها منذ البداية اعتبار العرب ينتمون الى جدين أحدهما قحطان وهو جنوبي من اليمن والآخر شمالي اسمه عدنان ، وليس من الصعوبة ان يفترض الانسان أنه منذ لحظة التدوين هذه انقسمت الطاقة العسكرية ، او بعبارة أخرى ، الجيوش العربية الى قسمين كانا في البداية على الأقل متنافسين ، لكن ما لبثا أن دخلا حلبة النزاع السياسي والحربي لأسباب كثيرة كان أدناها النسب .

وعبر التاريخ ما من حكومة قامت الا وواجهت مشكلة المعارضة مثلما تمتعت بالمساندة والولاء ، المعارضة من بعض القوى والولاء من بعضها الآخر ، والوان المعارضة التي عرفتها السلطات الأموية مختلفة تحكمت بها الجغرافيا والعقائد والأهواء ، ولون المعارضة في داخل بلاد الشام تحكمت به كما سنرى الجغرافية مع التقسيم النسبي الى عدنان وقحطان .

ونجد ان قراءة مجمل أخبار العصر الأموي توحي أنه مع استقرار أمور السلطة للأمويين ولدى مواجهة الدولة الأموية لبعض المشاكل الداخلية وبعد استئناف حركة الفتوحات واستغلال مرابح الحروب والمكاسب مع واردات

= هذا سبب ظهور المؤتلف والمختلف في انساب القبائل .

(١) : ابن حزم ـ المصدر نفسه ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ . المغربي ـ المصدر نفسه ص ٢٤٠ . ابن حبيب ـ المصدر نفسه ص ٣٢٩ .

الدولة ، قاد هذا الى التنافس بين قادة الجيوش ، الذين كانوا مع عناصرهم المقاتلة قبليين ، ووقفت الدولة في بعض الاحيان موقف الحياد والموازن بين القوى المتنافسة ، وتورطت في كثير من الأحيان بالانحياز والوقوف الى جانب فئة ضد اخرى ، وجاء هذا التورط اما على شكل تأييد معلن أو على شكل مصاهرة أو إيثار بأعطيات أو منح أو غير ذلك مما زاد من اوار اعمال التنافس وحولها الى صراعات دموية ، وفي بعض الاحيان أقدمت الدولة على هذه «اللعبة السياسية» في المركز وفي الولايات بحكم الضرورات السياسية التي غالبا ما اقتضت اثارة التنافس بين القادة الكبار لتأمين التوازن في الحكم والسياسة ، وبهدف اشغال قادة الجند بمشاغل تلهيهم عن التطلع نحو السلطة وتبقيهم دوما بحاجة ماسة الى السلطان ، ومن الممكن أن نسوق هنا عددا كبيرا من الأمثلة من وقائع التاريخ الأموي ، لكن لابد من أن نبين أن ما أطلق عليه في العصر الأموي اسم الصراعات القبلية أو مشاكل العصبيات كان صراعات بين مصادر الطاقة العسكرية للدولة الأموية المترامية الأطراف ، ولم يتورط في هذه الصراعات السكان المحليون الا في النادر ، كما ان بعض الكتل العسكرية اتخذت مواقف خاصة بها شذت بها عن قاعدة النسب لأنها رأت ان مصالحها مع الموقف الذي اتخذته ، كما فعلت قبائل قيس البصرة على رأسها قبيلة كلاب - وهذا ما سنوضحه بعد قليل - أو فعلت ذلك لأنها تميزت قبليا ولم تتعرض لعمليات الدمج والتعديل مثلما كان الحال بالنسبة لتميم العراق وأزدها .

ولقد انتشرت مختلف القبائل العربية في البلدان المفتوحة ، وما من بلد استقرت به هذه القبائل الا وشهد وقائع تنافس بين بعضها بعضا ، وتحولت أعمال التنافس الى صراعات عسكرية في عدد من الحالات ، ووضحت أمور الصراعات القبلية في بعض الأقاليم أكثر من غيرها ، وتلونت هذه الصراعات في بعض الاحيان وفي بعض الأمصار بألوان سياسية خاصة ، كان منها اللون الاقليمي أو اللون الحزبي الخارجي أو الشيعي أو الزبيري ، وهذا واضح فيما شهدته بلاد العراق وفي حروب المهلب ضد الخوارج .

وفي الحقيقة ان تتبع تفاصيل أخبار الصراعات القبلية في مختلف الأمصار عمل طويل وشاق ، ويحتاج الى أكثر من كتاب منفرد ، وبما أن بلاد الشام كانت

مركز ديار الخلافة الاموية ، ولأن الصراعات ظهرت في هذه البلاد جلية أكثر من غيرها ، مفيد ومناسب ان نتخذ من بلاد الشام نموذجا للدراسة ، خاصة وأن الصراعات القبلية في بلاد الشام لم تكن حاسمة فحسب في تحديد مصير الدولة الاموية وانما لم تتلون باللون الحزبي الا نادرا ، كما ولم يلاحظ أبدا أن القبائل أثناء صراعاتها أخذت باللون الشيعي أو الخارجي ، ومع اتخاذ بلاد الشام نموذجا للدراسة سنقف ايضا عند بعض الحوادث في بلاد العراق وخراسان والأندلس لالقاء المزيد من الأضواء ولعقد المقارنات .

والبحث في الصراعات القبلية في بلاد الشام يحتاج مثل كل بحث في تاريخ العرب والاسلام الى مقدمة عن الاوضاع قبل الاسلام ، ولقد أقدم أكثر من باحث على دراسة تاريخ القبائل في بلاد الشام قبل الاسلام مع نشاطاتها ، وهذا لا يعنينا بالتفصيل كثيرا ، ولا بالعمق الزمني ، والذي يعنينا هو ان نتعرف بشكل عام الى الوضع اثناء قيام الفتوحات العربية الكبرى .

ومن المرجح ان انتشار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الأسلام كان كبيرا ، وكانت السيطرة مع امرة عرب الشام للغساسنة[1] ، انما يبدو ان الغساسنة لم يكونوا آنذاك الاكثر عددا ، لقد راسل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أمراء غسان ودعاهم الى الاسلام ، انما عندما نتتبع أخبار عبور خالد بن الوليد من العراق الى الشام يتكون لدينا انطباع ان قبيلة كلب كانت هي الأكثر عددا من غيرها من القبائل .

واهتم الباحثون الذين كتبوا عن قدوم خالد من العراق الى الشام اهتماما كبيرا بتفاصيل المغامرة والتزود بالماء ، وبذلك أغفلوا أهدافها الاستراتيجية الكبيرة ، لقد كان هناك جيش بيزنطي قد جاء ضد المسلمين بقيادة تيودور أخي الامبراطور هرقل ، واقتضى الحال جلب الاخفاق لهذا الجيش[2] ، أضف الى هذا

---

(١) : محمد أحمد باشميل ـ العرب في الشام قبل الاسلام ـ ط . بيروت ١٩٧٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩ . ليفسكا ـ المرجع نفسه ص ٢١٥ ـ ٢٥٦ . يحيى ـ المرجع نفسه ص ٤١٠ ـ ٤١٣ .

(٢) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٥ ـ ١٩٤ . البلاذري (البلدان) المصدر نفسه ص ٦٤١ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٥٦٣ ـ ٣٥٦٤ .

أن هدف العرب الاستراتيجي كان فتح دمشق ، واقتضى العمل لفتح هذه المدينة عزلها عسكريا من جميع الجوانب ، والحيلولة دون وصول النجدات اليها أثناء حصارها ، وكانت النجدات يمكن ان تأتي الى دمشق اما من الجنوب ، أو من المناطق الساحلية ، او من اطراف البادية عبر مرج عذراء .

لقد خاض العرب عدة معارك في الجنوب ضد القوات البيزنطية ، مهدت لفتح دمشق وهي أجنادين وفحل ومرج الصفر ، وكانوا بحاجة آنذاك الى منع النجدات من الوصول الى دمشق عبر مرج عذراء والحيلولة بين قبائل البادية وبين تقديم العون للبيزنطيين ، ولذلك صدرت الاوامر الى خالد بن الوليد بالتوجه من العراق الى الشام، والمتفحص للطريق الذي سلكه خالد معتمدا على مختلف الروايات يجد أنه توجه من الحيرة شمالا يريد البشر ، فساير مجرى الفرات ، وبعدما وصل الى البشر انحدر يريد تدمر ، ومن تدمر قصد القريتين ، ومن ثم توجه الى الضمير فمرج عذراء فمنطقة باب الجابية خارج دمشق حيث التقى بأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وانتقل معه الى الجابية في حوران فإلى فلسطين .

لقد خرج خالد من الحيرة فسار الى الأنبار ، ومن هناك الى صيدوداء فضرب التجمعات من قبائل كندة وإياد[1] ، ثم خرج يريد عين التمر فأغار على بني تغلب والنمر بمنطقة البشر ، وجاءت اغارته مفاجئة تماما الى حد أن جماعة من النمر كانوا يشربون الخمر ليلا ويتناشدون الاشعار ، وفيما هم في ذلك انقض عليهم جيش خالد فدمرهم جميعا[2] .

وبعد هذا تهيأ للرحلة الى تدمر ، فأمن المياه لنفسه حسبما جاء في قصة الجمال المشهورة ، وفي طريقه الى تدمر أغار بعنف مدمر على تجمعات بهراء وكلب[3] حتى اذا وصل الى تدمر حاصرها فترة قصيرة وافتتحها ، وانتشرت اخبار

(١) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٨٣ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٥٦١ ـ ٣٥٦٣ .

(٢) : الأزدي ـ فتوح المصدر نفسه ص ٧٣ ـ ٧٥ . ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٥٦٢ ـ ٣٥٦٣ .

(٣) : الطبري ـ المصدر نفسه ج٣ ص ٤١٠ . ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

هذا التحرك المخيف في البادية وتواردت على قبائل غسان فتجمعت في مرج عذراء ومرج راهط قرب بلدة جوبر خارج دمشق ، وقدم خالد يوءم مضارب غسان وذلك بعدما فرغ من انجاز مهامه في تجمعات كلب وبهراء ، وأغار على غسان خارج دمشق صباح الاحتفال بعيد الفصح[1] ، وأسرع من هناك الى خارج باب الجابية حيث التقى بأبي عبيدة فتوجها معا نحو الجابية ومن ثم نحو أجنادين المعركة الفاصلة .

ان العمليات التي قام بها خالد في عبوره الى الشام قد سبقها عملية مشابهة حين جاء الى دومة الجندل[2] ، وتلاها ايضا عمليات لم تقل عنها عنفا وتأثيرا على قبائل الشام ، ففي معركة اليرموك التي شاركت بها القبائل الشامية بزعامة جبلة بن الأيهم الغساني ، لحق بهذه القبائل مالحق بالجيوش البيزنطية من قتل ودمار[3] ، وبعد اليرموك استرد المسلمون مدينة دمشق وزحفوا من هناك يريدون حمص ، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل قد ترك أنطاكية وتوجه الى منطقة الرها حيث بذل جهوده من أجل تجميع قوات جديدة استهدف أن يسترد بها الشام : قوات عربية وغير عربية ، وحينما أقبلت الجيوش الجديدة تزحف جنوبا اضطر المسلمون بقيادة أبي عبيدة الى التحصن في حمص ، وراسل أبو عبيدة الخليفة عمر بن الخطاب ، فأمر هذا الخليفة عماله وقادة قواته في العراق بالزحف شمالا للاطباق على القبائل والقوات التي توجهت جنوبا تريد حمص ، وأدى هذا التحرك الى تراجع معظم قوات الجزيرة والى نجاح المسلمين بانزال ضربات موجعة جدا بقبائل تنوخ وتغلب وعبس وطيء وغيرها ممن كان يقطن في الشمال حول قنسرين وكذلك حول الرقة ، ثم قام خالد بحصار قنسرين وتمكن من افتتاح هذه المدينة بعد معركة استقتل بها الروم ومن كان معهم من بقايا القبائل[4] .

---

(١) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٤ .

(٢) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج٢ ص ٤٣١ ـ ٤٤١ .

(٣) : ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج١ ص ٦٧ ـ ٦٣ .

(٤) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ . ابن حبيش ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٣٢ ، ج٢ ص ٦٧٣ ـ ٦٧٥ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٥٧٤ ـ ٥٧٩ .

• ان الضربات والهزائم التي لحقت بقبائل الشام لما قبل الاسلام مع انتهاء الحكم البيزنطي قد بدل صيغة الاشكال السياسية في البلاد المفتوحة و غير مراكز القوى فيها ، وباتت الكلمة الفصل الآن لجيوش الفتح ، ويلاحظ ان جل القبائل التي شاركت في فتح الشام كانت يمانية الأصل ، وبعد الانتهاء من أعمال الفتح استقرت هذه القبائل في منطقة حمص مفضلة اياها على الجابية واليرموك ووادي الاردن ، لقرب حمص نسبيا من الحدود مع بيزنطة ومن شواطىء المتوسط ، ولأن بقايا القبائل الشامية المغلوبة من كلب وبقايا غسان ظلت تعيش في الجنوب ، وإذا ما عدنا الى أخبار معركة صفين نجد ان معاوية بن أبي سفيان شعر بحراجة موقفه عندما سمع بنوايا علي بالزحف نحو بلاد الشام[1] .

وأرسل الامام علي قبل زحفه على الشام الى معاوية جرير بن عبد الله البجلي ، وطال مكوث جرير عند معاوية ، ولم يحظ من معاوية بجواب فصل حول موقفه ، ذلك ان معاوية كان يسعى الى تأمين مساندة زعماء القبائل المتمركزة في حمص ، وعندما أعلنت هذه الزعامات عن موقفها المساند لمعاوية ، قام بصرف جرير مع أعلامه أنه سيخوض الحرب ضد علي اذا ما حاول الزحف ضده ، وجرت المواجهة في صفين على مقربة من الرقة ، وأصرت معظم الروايات على ان جيش علي قد تجاوز تعداده الستين ألفا وان جيش معاوية تجاوز الثمانين[2] .

ولقد استمر القتال طويلا في صفين دون ان يحسم لصالح أي واحد من الفريقين ، وكانت الضحايا من الطرفين كبيرة جدا ، ووصلتنا روايات كثيرة وصفت طبيعة القتال الدموي في صفين من ذلك قول أحدهم : «لقد شهدتم يوما وقد شجرونا بالرماح وشجرناهم بها حتى لو شاء رجل ان يمشي عليها لمشى ، وأنا أسمع من هؤلاء لا اله الا الله والله أكبر ، وهنا لا اله الا الله والله اكبر ، ثم رأيتهم يوما آخر ودلفوا الينا ودلفنا اليهم ، واذا رجل قد نذر بين الصفين على رأس أحوى ذنوب ، حتى اذا كان بين الصفين لا يدري أهو الينا أقرب أم الى أهل الشام

---

(١) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ٥٠ ـ ٧٥ . اين أعثم ـ المصدر نفسه ص ٩٦٧ ـ ٩٧١ .

(٢) : ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص ١٥٣ ـ ١٨٧ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٩٦٧ ـ ٩٧٥ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣١٠ ـ ٣١٥ .

استدبر أهل الشام واستقبلنا فاذا هو الاشتر فقال : أيها الناس . . . لقد أسأتم الضراب أمس . . استقبلوا القوم بالهام ، وخذوا قوابع سيوفكم بأيمانكم وعضوا على النواجذ ، واطعنوا في الشراشيف فإنها مقاتل .

ثم التقى القوم فقتلوا منا صفوفا ، وقتلنا منهم مثلها ، فانتهينا الى الصف السادس الى العناق والكدم . . انها والله كانت العرب ليس فيها شائبة»(١).

لقد قدرت بعض الروايات قتلى الفريقين انها تجاوزت السبعين من الالوف ، وروي عن الزهري انهم كانوا يدفنون في القبر الواحد خمسين انسانا (٢) .

يستفاد من هذا كله ان معركة صفين كان لها أبعد الآثار على الطاقات القتالية لعرب الفتوحات ، فهذه المعركة قد أفقدت قبائل فتح الشام ، أو بعبارة أخرىٰ قبائل حمْص عماد قوتها مع زعاماتها وامكاناتها السياسية المتحكمة ، كما أفقدت قبائل العراق الطاقات نفسها ، ولا شك أن أخبار الأحداث التالية لمعركة صفين ، وعدم عودة العراقيين مع الإمام علي لحملة جديدة على الشام فيها ما يعلل شعور هذه القبائل بالضعف والخشية ، وبالوقت نفسه تعليل لانتصار معاوية واستيلائه على مقاليد الخلافة بعد اغتيال الإمام علي .

صحيح أن ما تبقىٰ في العراق من قوى قبلية قد أضعفته أحداث العراق لما بعد صفين خاصة خروج الخوارج ونزوح بعض القبائل إلىٰ الشام والجزيرة أو غيرها ، لكن يبقىٰ هذا التعليل فيه بعض النقص يتعلق بايضاح الغموض المتعلق بمعاوية وتأمينه لقوات جديدة بعدها فقد ما فقده في صفين .

لم تعرف بلاد الشام ما عرفته العراق من فتن بعد صفين أضف إلىٰ هذا أن معاوية قد ملك في جنوب بلاد الشام احتياطاً قبلياً كبيراً على الأخص من قبائل كلب ، فمن المقدر انه في الفترة التي مرت فيها بين فتوح الشام وصفين تعافت كلب وشرعت باسترداد قواها وأخذت بعض أسر الزعامة بالدخول بالاسلام ، وادراكا من معاوية لأهمية كلب المستقبلية تحالفَ معها عن طريق المصاهرة ، وصار

(١) : ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣١٣ .
(٢) : ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

بامكان معاوية بعد صفين القيام بتجنيد جيوش جديدة من كلب[1] .

ان نتائج معركة صفين لم يقتصر على هذا الجانب الخطير بل تجاوزته إلىٰ ما هو أهم ، فمعركة صفين وقبلها معارك الفتح أضعفت الوجود القبلي العربي في شمال بلاد الشام والجزيرة ، ويستخلص من بعض الأخبار ، وعلى الأخص ما أورده كل من ابن عساكر وابن العديم في ترجمتهما لكل من زفر بن الحارث الكلابي وربيعة بن عاصم العقيلي ان قبائل من قيس تتقدمها قبيلتا كلاب وعقيل وهي قبائل شمالية قوية جدا وكبيرة العدد كانت قبلَ معركة الجمل تقطن بالعراق في الكوفة والبصرة ، ورفضت هذه القبائل الوقوف إلىٰ جانب الإمام علي وشرعت بمغادرة العراق والهجرة إلىٰ بلاد الشام ، ويقول زفر بن الحارث : «أتبعنا علي خيلا تبيتنا حتى وردنا عانات ، قال : فمررنا بالجزيرة فاذا بلاد خصبة ريفية ومزدرع ، وسعة ، وقلة أهل ، وإنما كان الفرض والجند بحمص ، والجزيرة وقنسرين يومئذ من حمص ، فقالوا : من لنا بالمقام بهذه البلاد ولكن مهاجرنا إلىٰ غيرها ، فلما قدموا على معاوية ، قال : في الرحب والسعة . إنما هاجرتم إلىٰ دينكم ، وقد سبقكم اخوانكم من أهل الشام إلىٰ الريف والحدائق ، ولكن عليكم بالجزيرة فانزلوها ، فوافق قوله هواهم فرجعوا فنزلوا علىٰ أثناء الفرات»[2] .

لقد وقفت القبائل القيسية هذه إلىٰ جانب معاوية في معركة صفين فزفر ، قاد القوىٰ القيسية جميعها في صفين ، وكان رسول معاوية إلىٰ عائشة أم المؤمنين بأخبار هذه المعركة فقد روي عنه قوله : «كنت رسول معاوية إلىٰ عائشة بوقعة صفين ، فلما قدمت عليها قالت : من قتل من الناس ؟ قلت عمار بن ياسر ، قالت : ذلك رجل يتبعه الناس في دينه ، قالت : ومن ؟ قلت : هاشم الأعور ، قالت : ذاك رجل ما كادت ان ترد رايته»[3] .

لقدّ جمع ابن العديم مادة كبيرة عن حياة زفر بن الحارث ، من ذلك ما نقله

---

(١) ـ الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٢٩ .

(٢) ـ ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٦١٢ ـ ٣٦١٣ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ١٠٧ هـ .

(٣) ـ ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٧٩٧ .

عن أبي عروبة الحراني قوله : «في الطبقة الأولىٰ من التابعين من أهل الجزيرة : زفر بن الحارث الكلابي ، حدث عن عائشة ، وكان رسول معاوية إليها بوقعة صفين ، وكان نزل البصرة ثم خرج عنها بعد وقعة الجمل»[1] .

وفي رواية أخرى أوردها ابن عساكر في ترجمته لزفر قال فيها بعدما حكىٰ نسبه : «سكن البصرة ثم انتقل إلىٰ الشام ، وكان في جيش البصرة الذي خرج لاغاثة عثمان بن عفان في الحصر ، وشهد وقعة صفين ، وكان فيها أميراً على أهل قنسرين وهم في الميمنة»[2] .

علىٰ هذا كان زفر عثمانيا ، وقد التحق بمعاوية في الفترة التي تلت معركة الجمل ، وأثناء الأعداد لصفين اضطر إلىٰ استدعاء بعض قومه ، وتعرف خلال ذلك على ديار الجزيرة والشام الشمالي ، وبعد صفين أكمل ارتياد المنطقة ، وقرر استدعاء بقية قومه إليها لانه وجدها شبه خاوية ، ثم طلب من معاوية اقطاعه اياها ففعل ، وإثر هذا تمكن من انتزاع مدينة قرقيسيا ، (البصيرة حاليا في سورية) الحصينة من عياض بن غنم ، وأخذ يمد نفوذه ويوطده في مختلف مناطق الجزيرة وأعالي الشام ، وما أن انتهت الفترة السفيانية من العصر الأموي حتى أنجز أهدافه وتطلع نحو الجنوب حيث خاض معركة مرج راهط[3] .

وسنتعرض فيما بعد لبعض تفاصيل المعارك التي خاضها زفر بن الحارث حتى حقق لقبيلة كلاب السيادة على الجزيرة والشام الشمالي ، إنما لا بد من الاشارة هنا إلىٰ إنه حين وقع هذا كله كانت قبيلة تغلب ما تزال تتمتع بمكانتها وتفوقها ، ويبدو ان بعض القبائل القيسية التي قد قدمت مع كلاب من العراق كانت أقل حجما منها ، وان وتيرة الهجرة قد ارتفعت أثر حوادث معركة كربلاء وخلال فترة الصراعات على الخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية وحدثت مصادمات بين المهاجرين

---

(١) ـ ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٧٩٩ .

(٢) ـ ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١١ ظ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٨٠٠ .

(٣) ـ ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥٣٠ . ابن خياط ـ (التاريخ) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢ ، ٣٢٦ ـ ٣٢٧ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١١ ـ ٢١٣ ط ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٣٨٠١ .

وعناصر تغلب ، وأوقع المهاجرون عدة ضربات بالتغلبيين تردد صداها في ديوان الأخطل وفي نقائص جرير والفرزدق ، وكانت معركة البشر أوجع الضربات التي نزلت بتغلب وأدت إلىٰ فقدانها لنفوذها لقرون عديدة ، وسنتعرض لأخبار هذه الواقعة فيها بعد لدىٰ عرضنا لأخبار أهم معارك العصبيات[1] .

ويشكل تمركز القبائل القيسية بزعامة قبيلة كلاب في الجزيرة ومن ثم في شمالي بلاد الشام ، وانبعاث قبيلة كلب في الجنوب واستعادتها لقواها وتحالفها مع العرش الأموي يشكل هذا مدخلا لدراسة تاريخ الصراعات القبلية في بلاد الشام بعد معركة صفين ، فصورة الأوضاع القبلية لهذه البلاد قد طرأ الآن عليها تغيير جذري لعله من المفيد سرده مجدداً بعبارات موجزة .

آ ـ لقد أزالت حركة الفتوحات العربية زعامة غسان على القبائل العربية في بلاد الشام .

ب ـ تمركزت إثر ذلك القوىٰ بيد القبائل الجديدة التي تولت عملية الفتح ، وقطن معظمها في حمص .

جـ ـ فقدت هذه القبائل امكاناتها إثر معركة صفين ، واستردت كلب لمكانتها وتقدمت نحو الزعامة والتحالف مع السلطة الأموية .

د ـ جاءت قبيلة كلاب مع بعض القبائل القيسية من العراق نحو أعالي الجزيرة وأعالي بلاد الشام ، فاستبدت بها ، وباتت المواجهة الان بين كلب في الجنوب وكلاب في الشمال ، ولعل هذا فيه ايضاح لما سلفت الاشارة اليه عن ادخال التعديل في الأنساب والحاق قضاعة بقبائل اليمن ، حيث يبدو أن بقايا القبائل اليمانية التي عاشت بعد صفين قد تواءمت بشكل ما مع قبائل كلب ، وسعت كلب إلىٰ جعل سيطرتها كاملة على جنوب بلاد الشام ، كما فعلت كلاب بالنسبة للجزيرة والشمال الشامي ، وعلى هذا الأساس يمكننا فهم حوادث العصبيات بين الشمال والجنوب وأعمال التصفية في الجنوب والشمال والبادية وغير ذلك من ديار الشام .

---

(١) ـ ابن العديم ـ المصدر نفسه ص ٤٣١ ـ ٤٣٦ ، ٣٨٠٠ . الأخطل الشاعر التغلبي ديوانه ط . بيروت ١٨٩١ ص ١٣٤ . أبو تمام حبيب بن أوس ـ ديوان الحماسة (بشرح المرزوقي) ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ١٢١٧ ـ ١٢١٨ .

ومعروف ان النسابين العرب قد قالوا بأن عرب شبه الجزيرة قد انحدروا من جدين رئيسين هما : عدنان وقحطان ، وذهبت التفسيرات الحديثة إلىٰ القول ان هذا التقسيم قد صدر عن الواقع الجغرافي للجزيرة العربية ، فشبه الجزيرة جاءت بصورة اجمالية علىٰ قسمين شمالي وجنوبي ، وقد تميز الشطر الجنوبي عن الشمالي بوفرة الأمطار والامكانات الزراعية ، ولذلك عرف حياة الاستقرار ، وقامت في الجنوب عدة دول وحضارة مدنية ، أما الشمال فقد كان أكثر جفافا من الجنوب ، مناطقه الداخلية شحيحة الأمطار ، ولذلك سيطر طابع البداوة علىٰ الشمال ، وكانت أماكن الاستقرار قليلة فيه ، ارتبطت في بعض الأحيان بأسباب غير زراعية كما الحال بالنسبة لمكة المكرمة .

والمثير للانتباه في قضية بلاد الشام ، أنه بعد سيطرة زعماء قيس من كلاب على الجزيرة والشام الشمالي انحصرت قوىٰ كلب في الجنوب ، وبذلك عرفت بلاد الشام أسس الصراع الشمالي الجنوبي المشابهة لما عرفته شبه جزيرة العرب ، ومع الاقرار أن شمال بلاد الشام ليس مثل شمال شبه جزيرة العرب ولا الجنوب الشامي مثل الجنوب العربي ، إلا أن الفوارق واضحة بين الشمال في الشام والجنوب ، فالجنوب قريب من أطراف شبه الجزيرة ومن مصر وشواطىء البحر الأحمر ، في حين ان الشمال وثيق الصلة ببلاد الرافدين وبآسيا الصغرىٰ ثم ان الامكانات الاقتصادية في الشمال اختلفت عنها في الجنوب ، كما أن مصادر التأثير ومسالك الهجرة من شبه الجزيرة تباينت ، فقد كان المهاجرون إلىٰ الشمال يأتون عبر بلاد الرافدين ، بينما جاء المهاجرون إلىٰ الجنوب عبر طرق أخرىٰ ودخلوا إلىٰ الشام مباشرة إلىٰ فلسطين والجنوب الشامي .

وانطلاقا من هذا ان الباحث في تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية يرىٰ ان هذا التاريخ دار حول محورين رئيسين : شمالي وجنوبي ، وأن المظاهر الاجتماعية وصورة الاحداث السياسية تباينت ما بين الشمال والجنوب .

فبعدما انتصر العرب في معركة اليرموك لم يقوموا باستثمار نصرهم الحاسم هذا ، حيث لم يطاردوا فلول القوات البيزنطية داخل آسيا الصغرىٰ ، ولم يسعوا مباشرة إلىٰ اسقاط الامبراطورية البيزنطية ، كما فعلوا أثر معركة القادسية في العراق

حيث جرت ملاحقة الجيوش الساسانية ، فأزيلت الامبراطورية الإيرانية من الوجود ، واستمرت عمليات الفتح في المشرق حتى داخل الهند والصين .

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى استردت الإمبراطورية البيزنطية أنفاسها وشرعت بالدفاع عن أطراف آسيا الصغرى وحتى مهاجمة المسلمين في بعض البلاد المفتوحة كما فعلوا بالنسبة للاسكندرية في مصر[1] .

لقد تحولت مناطق الشمال الشامي إلى أرض مواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية ، وتحملت القبائل التي حازت بعد صفين على السيادة في الجزيرة والشام الأعلى مسؤولية أعباء المواجهة مع بيزنطة ، وعلى هذا كانت التحديات بالنسبة لهذه القبائل خارجية وداخلية بالوقت نفسه : خارجية بالمواجهة مع بيزنطة ، وداخلية بالصراع على السلطة مع الجماعات القبلية في الجنوب ، ومع المطامح والمصالح والمنافع ملكت القبائل القيسية هذه المسوغات والقناعة المحقة للمطالبة بالمزيد من الفوائد والصلاحيات بدعوى التصدي لأعداء الاسلام ، وانطلاقا من قاعدة الافتخار بالمكاسب وتحقيق الانتصارات على الروم ، ومن يتولى تتبع العناصر التي قامت عليها ملحمة ذات الهمة التي كتبت لتخليد انجازات بني كلاب في مواجهة البيزنطيين وغير ذلك من المواجهات الداخلية ، يخرج بانطباعات تؤيد هذه التصورات[2] .

لقد تشابكت المصالح ، وتغيرت صور الجغرافية السياسية لبلاد الشام ، فبعدما جعل معاوية من دمشق حاضرة الخلافة الأموية تقدمت حلب في الشمال على حساب قنسرين وأنطاكية ، وصارت سيدة الشمال ، إنما تحت نفوذ بني

---

(١) ـ عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ط . ليدن ١٩٢٠ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ . أمين سعيد ـ حروب الاسلام والإمبراطورية البيزنطية ـ ط . القاهرة ١٩٣٥ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٧ .

(٢) ـ نبيله ابراهيم ـ سيرة الأميرة ذات الهمة في سلسلة تراث الإنسانية ط . القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ج ٤ ص ٩٢٨ ـ ٩٤٣ .

كلاب[1] على عكس قنسرين التي كانت تحت نفوذ تنوخ[2] وطيء أثناء حوادث الفتوحات ، والمتتبع لأخبار العصر الأموي في الفترة المروانية يلاحظ أن الخلفاء تخلوا الى أبعد الحدود عن سكنى دمشق ، وآثروا الشمال فعبد الملك بن مروان أقام أثناء سعيه للقضاء على مصعب بن الزبير في بطنان حبيب خارج حلب ويقول الصاحب كمال الدين بن العديم : «وقد كان جماعة من بني أمية اختاروا المقام بناحية حلب وآثروها على دمشق مع طيب دمشق وحسنها وكونها وطنهم ، ولا يرغب الانسان عن وطنه إلا بما هو أفضل منه ، فمنهم هشام بن عبد الملك انتقل الى الرصافة وسكنها واتخذها منزلاً لصحة تربتها ، واختار المقام بها على دمشق ، ومنهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أقام بخناصرة واتخذها له منزلاً ، ومنهم مسلمة بن عبد الملك سكن بالناعورة وابتنى بها قصراً وبناه بالحجر الصلد الأسود[3] ، وأقام سليمان بن عبد الملك في دابق وهناك توفي» .

ان سكنى خلفاء بني أمية في حلب لم يصدر عن الحب وايثار مدينة على اخرى بقدر ما تطلبته مجريات الأحداث ، فسليمان بن عبد الملك قد أقام بمرج دابق بسبب اشرافه على حملته ضد القسطنطينية ، كما ان استمرار تدفق المهاجرين الى الشام الأعلى والجزيرة ومشاكل ولاية العراق وجبهة الخزر مع المخاطر البيزنطية كانت وراء اجتذاب الخلفاء الأمويين نحو الشمال ومن ثم العيش وسط قوى القبائل القيسية ، ومن هذا المنطلق لا بد من إعادة النظر في تعليل الأسباب التي دعت بعض الخلفاء الى تبديل مواقفهم تجاه صراع العصبيات ، فلربما اضطر هؤلاء بسبب السكنى والحاجة الى الحماية والتأييد الى نقل المواقف من الحياد أو من تأييد القبائل اليمانية الى مساندة القبائل الشمالية .

وإذا كانت قبائل الشمال قد انشغلت كثيراً بالوقوف في وجه التحديات الخارجية نجد بالمقابل ان قبائل الجنوب كونت نواة الجيوش الأموية التي استخدمت للقضاء على الثورات والفتن على الأخص في العراق وأحياناً في بلدان الشمال

---

(1) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٥٤٣ ـ ٥٥٢ .
(2) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٦٩ ، ٧٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٤ .
(3) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٤٥١ .

الافريقي والأندلس وكانت أبسط نتائج القضاء على الفتن توطيد الحكم الأموي ومن ثم المطالبة بالأجور، أي ان زعماءالجند الذين نجحوا في هذه المهام طالبوابالمزيد من المكاسب مع مسوغات للمطالبة بهذا المزيد ، وهكذا توفرت ايضاً أسباب اضافية للصراعات بين قبائل قيس الشام والقبائل اليمانية ، وأبداً لم تتفجر الصراعات من أسباب الخلاف في النسب ، بل فجر الصراعات تباين المصالح الاقتصادية والمنافع والمطامح ، وعزز ذلك كله خلافات بالبنية الاجتماعية بين الشمال في بلاد الشام والجنوب ، فقبائل الجنوب أقدم هجرة من قبائل الشمال وأكثر ميلاً نحو الاستقرار ، بينما كانت قبائل الشمال أقرب الى البداوة وظلت هكذا حتى عصور متأخرة[1] .

ومما لا شك فيه ان التكتلات القبلية قد تأثرت اجتماعياً الى درجة كبيرة بالهجرة من شبه الجزيرة الى البلاد المفتوحة ، فقد تطلبت الأعمال العسكرية ولحاجات الجبهات الاستثنائية تمزق القبيلة الواحدة ، ومن ثم مشاركة عناصر منها هنا وهناك على جبهات متباعدة ، وعلى سبيل المثال ، اننا نجد في كثير من الحالات عناصر من قبائل همدان قد شاركت في فتوحات العراق قبل القادسية وبعدها ، وعناصر من القبائل نفسها قد شاركت في فتوحات بلاد الشام ، ومن المرجح انه في هذه الأحوال قد قام الهمدانيون في الشام بإعادة تنظيم أنفسهم ، وكذلك فعلوا بالعراق ، وعلى هذا شكلوا وحدات قبلية همدانية جديدة ، وهذا التصور للتبدلات الاجتماعية التي ألمت بالقبائل في الأمصار المفتوحة يسهل علينا فهم ما حدث بصفين وغيرها من معارك الحروب الأهلية حيث تواجه على أرض صفين وتحارب همدانيون عراقيون ضد همدانيين شاميين[2] ، بيد أنه وان أعاد الهمدانيون أو غيرهم تشكيل وحداتهم القبلية ظلوا في واقع الأمر ينتمون الى همدان ، فنادراً ما انصهرت الجماعات القبلية المختلفة لتشكل قبيلة جديدة باسم ونسب جديد كل الجدة .

---

(١) ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٤ ص١٩٣٢ ـ ١٩٤١ .

(٢) ابن مزاحم ـ المصدر نفسه ص٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ . ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١١١٢ ـ ١١١٣ .

لقد سكن الفاتحون العرب في معسكرات جديدة تحولت مع الأيام الى مدن مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، أو خارج أو داخل بعض المدينة القديمة مثل دمشق وحمص ، ولم تساعد عمليات السكنى هذه على الانصهار المدني ومن ثم تكوين كتلة اجتماعية عناصرها مختلف القبائل ، ومرد ذلك ان كل قبيلة قد عاشت في مضارب خاصة بها ، تحولت فيما بعد الى خطة من خطط المدينة ، والخطط عبارة عن مدن صغرى داخل المدينة العظمى ، وحافظت كل قبيلة داخل خطتها على نقائها القبلي ، وحالت دون سكنى عناصر من غيرها معها ، واحتوت كل خطة على مجموعة من البيوت مع جبانة أو ساحة داخلية ومسجد خاص ، وما حق الشفعة الذي أخذ به المسلمون إلا احدى محصلات السعي نحو ابقاء النقاء القبلي داخل الخطة الواحدة، ويقضي حق الشفعة في أن يشتري الأقرباء ممتلكات ذويهم وأقربائهم في حال نزوحهم الى مكان آخر[1] .

واستمرت الهجرة من شبه جزيرة العرب ، وقدمت بذلك رفداً مستمراً للمهاجرين الأوائل ، وغالباً ما نزل مهاجروا كل قبيلة على أقربائهم ، ومع هذا فقد سببت الهجرة هذه الأزمات اجتماعية ومالية وبالتالي صراعات سياسية ، فلقد طالب المهاجرون الجدد بمساواتهم مع المهاجرين القدماء ، وبمنحهم حصصاً مساوية من فيء الأقاليم المفتوحة ، وغالباً ما رفض القدماء هذا المطلب ، على أساس أن الفيء حق لهم فقط لأنهم هم الذين تولوا أعمال الفتح ، ولقد قاد التفاوت بالدخل ـ من بعض الجوانب ـ الى تفاوت بالمكانة الاجتماعية ، وهكذا ولد مع الأيام في الأمصار المفتوحة جماعات من الأشراف ، بعضها جاء امتداداً للزعامة قبل الفتوحات وبعضها الأعظم أوجدته المعطيات الجديدة ، وحدث في كثير من الأحيان نزاع حاد بين الزعامات الجديدة والقديمة ، فقبل الزحف من الكوفة الى صفين كانت رئاسة كندة وزبيعة للأشعث فدعا علي حسان بن مخدوج فجعل له تلك الرئاسة ، «فتكلم في ذلك أناس من أهل اليمن ، منهم الأشتر ، وعدي الطائي ، وزحر بن قيس ، وهانىء بن عروة فقاموا الى علي فقالوا : يا أمير

---

(١) ماسينيون ـ (البصرة) المرجع نفسه ص١٦ ـ ٢٥ . ماسينيون (الكوفة) المرجع نفسه ص٩ ـ ١٣ . محمد كرد علي ـ غوطة دمشق ـ ط. دمشق ١٩٨٤ ص٩١ ـ ٩٢ .

المؤمنين ، ان رئاسة الأشعث لا تصلح إلا لمثله ، وما حسان بن مخدوج مثل الأشعث ، فغضبت ربيعة ، فقال حريث بن جابر : يا هؤلاء رجل برجل ، وليس بصاحبنا عجز في شرفه وموضعه ونجدته وبأسه ولسنا ندفع فضل صاحبكم وشرفه . . وغضب رجال اليمنية . . فتكلم حريث بن جابر فقال : يا هؤلاء لا تجزعوا ، فإنه إن كان الأشعث ملكاً في الجاهلية وسيداً في الاسلام فإن صاحبنا أهل هذه الرئاسة وما هو أفضل منها»[1] .

ويمكن أن نضيف هنا الى ما سبق ان استئناف حملات الفتح ، أو تولي قيادة ما أو المشاركة في بعض الحملات الداخلية جلبت منافع لفئات دون اخرى وأدى هذا الى استمرار الصراعات ، ولقد كسبت الصراعات القبلية والعصبية لوناً جديداً هو اللون الاقليمي ، كما حدث بالنسبة لمشاعر قبائل العراق نحو قبائل الشام[2] .

ومن الأسباب الاجتماعية التي كانت قد أججت العصبيات ذكريات الماضي والمصاهرات بين القبائل والأسر والعشائر ، لا سيما بين أفراد الأسرة الأموية وسواهم ، ويذهب احسان النص الى القول انه بسبب المصاهرات : «وجدنا خلفاء بني أمية وولاتهم وأشرافهم ينحازون تارة الى قيس ، وتارة الى كلب ، وتارة الى غيرهما ، وكان ايثار احدى القبائل على غيرها مدعاة لغضب القبائل وسخطها على الخليفة والوالي ، بل ان هذه المصاهرات قد أدت الى وقوع الخصومة والنزاع بين أبناء البيت الأموي أنفسهم ، فمن كانت أمهاتهم من قيس كانوا يؤيدون هذه القبيلة ، وربما حرضوا على الثأر لها ، وأثاروا الفتن والحروب بين القبيلتين ، فقد جاء في شرح الحماسة ان خالد بن يزيد لما ضاق بافتخار أبناء القيسيات من بني أمية عليه حرض حميد بن بحدل الكلبي على الايقاع بقيس ومهد له السبيل الى ذلك ، بافتعاله عهداً على لسان عبد الملك بأخذ الصدقة منهم .

---

(١) ابن مزاحم - المصدر نفسه ص١٥٣ - ١٥٥ . ابن أعثم - المصدر نفسه ص١٠٩١ - ١٠٩٤ .

(٢) ابن مزاحم - المصدر نفسه ص٦١٤ - ٦١٨ . ابن أعثم - المصدر نفسه ص٩٨٧ ، ١٢٣٦ .

ولما كان خلفاء بني أمية وأشرافهم يتعصبون للقبيلة التي يصهرون اليها أو لقبيلة أخوالهم كانت القبائل العربية تتعصب كذلك للخليفة أو الوالي الذي يمت اليها بصلة القرابة من طريق المصاهرة وتنتصر له إذا ثارت عليه القبائل الاخرى[1].

ومما لا شك فيه ان المصاهرات كانت ذات أثر كبير، لكن لا بد لنا هنا من أن نتذكر ان المصاهرات تمت مع قبيلة دون اخرى بسبب مكانة القبيلة وقوتها ومدى الحاجة اليها، فالمصاهرات غالباً ما تمت لأسباب سياسية، وهي وان كانت حدثاً اجتماعياً لقد نتج عن ذلك نتائج سياسية، ولقد رأينا معاوية بن أبي سفيان وقد أقدم على مصاهرة قبيلة كلب، ولعله ساعد على إلحاقها مع قبائل قضاعة بالنسب اليمني، لأن كلب باتت أقوى القبائل في ديار دمشق وأحوازها الجنوبية بعد معركة صفين، لكن بعد معاوية بأمد طويل حين اضطر بعض الخلفاء الى السكنى خارج دمشق تغيرت الموازين والتحالفات، فموقف هشام بن عبد الملك تجاه العصبيات تغير تماماً، وتحول من حزب الى آخر بعد سكناه لرصافة الرقة وهكذا عزل خالد بن عبد الله القسري ممثل الحزب اليماني واختار هشام بعد عزله لخالد القسري وأخاه أسد نصر بن سيار لولاية خراسان، وعادى نصر اليمانية ممثلين أولاً بجذيع بن علي الكرماني الأزدي، ولقد استغل دعاة الدعوة العباسية هذا النزاع، واستفاد ابو مسلم الخراساني من سياسة نصر القبلية فاستعان بالعناصر اليمانية أثناء تفجيره للثورة العباسية، وازداد أوار هذا الوضع اثر بيعة مروان بن محمد بالخلافة، فقد اعتمد هذا الخليفة على العناصر القيسية ووقف موقف العداء من اليمانية، فكان أن حصد الهزيمة مع انهيار الخلافة الأموية.

ولا بد من الاشارة الى أنه مع الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لجأ بعض الخلفاء والولاة الى إثارة العصبيات للتسلية أو لأسباب تعلقت بالتوازنات السياسية، لقد عمدوا الى التحريش بين زعامات بعض العصبيات، فقد ذكر ان

---

(١) احسان النص ـ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ـ ط.دمشق ١٩٧٣ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) الطبري ـ المصدر نفسه ج٥ ص٣٩٢، ٤٧٩. الدينوري ـ المصدر نفسه ص٣٣٥.

عياش بن الزبرقان دخل يوماً على عبد الملك بن مروان ، وعنده الزعيم اليماني روح بن زنباع ، فقال عبد الملك لعياش : أما ترى الى هذا اليماني يفخر عليك بقومه ؟ فنشب جدل بين الرجلين تحول الى شجار قاد الى الحرب ، وبعدما حقق قتيبة بن مسلم انتصاراته العظيمة في بلاد ما وراء النهر قام بالاحتفال بتلك المناسبة ، وفي أثناء الاحتفال عبث واحد من أخوته بالزعيم الحضين بن المنذر ، فأوغر ذلك الصدور ، مما سهل فيما بعد التخلص من قتيبة ومقتله[1] .

وبما أن بني أمية كانوا من قريش ، كانوا يؤثرون هذه القبيلة على غيرها من القبائل ، وقد قاد ايثار قريش الى ايثار قيس وبالتالي الى مواجهة بين قيس واليمانية ، واستعراض أخبار العصر الأموي تمنحنا الشاهد تلو الآخر على صحة ما ذهبنا اليه ، وتزيدنا ان مما أجج نيران العصبية السباق والتنافس بين الزعامات نحو حيازة المزيد من موارد الدولة المالية أو اقطاعات الأراضي وغالباً ما عبر عن صور الصراعات الاجتماعية والاقتصادية والحزبية السياسية والاقليمية الشعراء والخطباء ، وفي الحقيقة أثار الشعراء والخطباء في كثير من الأحيان العداوة بين قبيلة واخرى ، ولم يعرف تاريخ الأدب العربي عصراً شغل فيه الشعراء دوراً في نزاعات العصبيات أعظم من العصر الأموي ، وفي شعر النقائض بين الفرزدق وجرير والأخطل والراعي وسواهم ما لا يحصى من الشواهد التي ترسم معالم الدور الهائل الذي شغله الشعراء في نزاعات العصر الأموي على اختلاف ألوانها ، ولقد بعث الشعراء مواريث الجاهلية وذكرياتها وضغائنها ، وبذلك صبغوا صور الصراع بأشكال متداخلة متعبة للباحث لدى تعقبه لها . وعلى العموم اننا حين نتتبع أخبار ما أطلقنا عليه اسم العصبيات القبلية في العصر الأموي نلاحظ تصدر ثلاث كتل قبلية مجموعات القبائل العربية وهي : اليمن وربيعة ومضر ، وقد شغلت هذه الكتل أبرز الأدوار في معترك العصبيات ، وقد وحد اليمانيون صفوفهم منذ أيام صفين في وجه التكتلات الاخرى ، ولعله من الممكن القول ان الكتل الثلاث كانت أشبه بأحزاب سياسية داخل دولة مترامية الأطراف ، حزب مؤيد للسلطة ،

---

(١) ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٩٤٣ ـ ١٩٦٣ ، ٢٠٢١ ـ ٢٠٢٣ . البلاذري (البلدان) ٢٩٧٨ ـ ٢٩٨٠ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٦ ص٢٨٢٧ ـ ٢٨٤١ .

وآخر معارض وثالث وسط ، هذا ويلاحظ ان المعارضة في المركز غالباً ما امتدت الى الأمصار ، إنما مع شيء من الفوارق ، ثم انه في كثير من الأحيان تضاربت المصالح بين جماعات الكتلة الواحدة فأدت الى تمزقها ، والى خلخلة التوازنات بين العصبيات ، وقبل التعرض لأهم وقائع حروب وفتن الكتل الثلاث لا بد لنا من أن نشير إلى أن جل الأدب العربي في العصر الأموي قد لونته العصبيات بلونها ، وكانت مسؤولة عن ولادته وتطوره وشروحه فقد انتجت العصبيات الى جانب الشعر والخطابة مناقشات وأساطير وحكايات لا عد لها ولا حصر ، وأحاديث نسبت الى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد قيل انه في عصر معاوية بن أبي سفيان بدأت المحاولات الاولى لتدوين الأخبار وذلك حين استدعى معاوية المعمر اليماني عبيد بن شريه ، ووصلت الينا الأخبار التي قيل ان ابن شريه قد حكاها أو أملاها ، وإذا صحت نسبة هذه المواد الى عبيد ، نجد ان محتوياتها لم تتعد عن كونها حكايات تؤيد عصبية اليمانيين وتمجد تاريخ سكان اليمن على غيرهم[1] ، واليمانيون كما عرفنا كانوا حلفاء معاوية .

وكانت العصبيات أيضاً مسؤولة عن بعض الجوانب السياسية للدولة الأموية والتعامل مع الشعوب المفتوحة أو مع الذين حملوا اسم الموالي ، ومعروف ان بني أمية رأوا عدم تولية الخلافة لمن كانت أمه غير عربية ، ومرجح ان الاعتزاز بالنسب العربي وبالعصبية قد طور الاهتمام بالأنساب العربية ، وقاد الى تطور علم النسب ، وفي الوقت نفسه ان شدة التعصب كان واحداً من الأسباب التي حالت دون نجاح الخطط التي استهدفت انشاء أمة مستعربة دينها الاسلام ، فتماسك القبيلة والتعصب لها وقف سداً دون الانصهار الاجتماعي وتكوين الأمة التي أرادها الاسلام ، ذلك ان هذا التمسك كثيراً ما ترافق بنظرات الاستعلاء أو بالأحقاد والكراهية بين قبيلة واخرى ، وكانت الأحقاد والكراهية وسوء المعاملة والاستعلاء والازدراء وراء كثير من الفتن والثورات والمطالبة بالمساواة ، وقد صور الشعراء عمق الأحقاد القبلية وساعدوا على تأصيلها في النفوس ، من ذلك قول الأخطل :

إذا ما قلت قد صالحت بكراً أبى الأضغان والنسب البعيد

(١) عبيد بن شريه ـ اخبار عبيد ـ ط. حيدر اباد الدكن ١٣٤٧ ص٣١٢ ـ ٣١٥ .

وأيام لنا ولهم طوال يعض الهام فيهن الحديد[1]

وقوله :

ان الضغينة تلقاها وان قدمت كالعر يكمن حيناً ثم ينتشر[2]

وينسب الى يزيد بن معاوية قوله عندما سمع بأخبار معركة الحرة :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل[3]

وأشرنا من قبل الى قتيبة بن مسلم الباهلي ، وحين أعلن هذا القائد الكبير عصيانه بخراسان أوغرت الخلافة صدور بني تميم عليه فقتلوه ، ذلك ان قتيبة كان قد أغضب رئيس تميم وكيع بن سود بصرف الرئاسة عنه وجعلها في ضرار بن حصين الضبي ، وبعد معركة مرج راهط ـ التي سنقف عندها ـ وجهت الخلافة المروانية الجديدة جيشاً كبيراً نحو العراق كان من بين قادته عمير بن الحباب ، وقبل نشوب القتال في معركة الخازر ، تخلى عمير عن الجيش الأموي والتحق بابراهيم بن الأشتر قائد قوات الكوفة ، وكان هذا من أسباب هزيمة الشاميين آنذاك[4] .

ان هذا يقودنا نحو الحديث عن أهم وقائع العصبيات في بلاد الشام أولاً ثم في العراق والجزيرة وخراسان وكذلك الأندلس .

وكانت قبائل عرب ما قبل الاسلام تتحارب في سبيل السيطرة على مرعى ونبع ماء أو نتيجة نهب قافلة أو كمية من المواشي والابل ، وبعدما نجحت حركة الفتوحات وصار العرب سادة لدولة مترامية الأطراف لم تزل أسباب النزاعات بل تغيرت الصور وتعمقت الدوافع وباتت النزاعات حول السلطة السياسية وموارد الدولة الضخمة ، ونظراً لأن الخبرة القتالية لدى العرب قد ازدادت فقد اتسمت الحروب القبلية في العصر الأموي بالعنف الذي لا يعرف الحدود ، ففي صفين بلغت ضحايا العصبيات الاقليمية عشرات الألوف ، وفي كربلاء استهدفت

---

(١) غياث بن غوث (الأخطل) التغلبي ـ ديوانه ط.بيروت ١٩٨٦ ص٩٥ .
(٢) الأخطل ـ المصدر نفسه ص١٠٦ .
(٣) الدينوري ـ المصدر نفسه ص٢٦٧ .
(٤) ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص١٦٤٣ .

العشيرة الأموية افناء العشيرة الهاشمية ، وفي معركة الحرة استبيحت المدينة ولحق سكانها من القتل والدمار ما يجعلنا نضع مسلم بن عقبة المري الى جانب هولاكو وتيمورلنك ، وإذا تمعنا بأخبار غارات بشر بن أرطاة لن نتردد بإلحاقه بالأسماء المتقدمة ، وفي رواية لصاحب الأغاني أن أصحاب الجحاف بن حكيم بقروا في غارة البشر بطون ألفين من نساء تغلب[1] ، وكانت قبائل الشام والعراق معتادة على مثل هذه الأعمال الشنيعة في صراعاتها قبل الاسلام خاصة في الحروب بين الغساسنة والمناذرة[2] .

ولقد هدأت حدة الصراعات القبلية بعد استيلاء معاوية على الخلافة ، وفقدت حمص مكانتها ، ومن ثم سهل تقسيم جندها الى قسمين ، واستردت الجابية مركزها القبلي ، وكان الهدوء هذا محصلة لما سبقه من حروب أهلية دامية وأشبه بهدنة على دخن ، وما ان توفي معاوية حتى ظهرت من جديد مقدمات نزاعات عنيفة جداً ، وانتهى عصر المقدمات مع وفاة يزيد بن معاوية ، وكانت أبرز أحداث الصراعات في بلاد الشام :

كان معاوية بن أبي سفيان بعدما آلت اليه الخلافة قد قرب كما قلنا قبائل كلب لكنه لم يبعد القبائل القيسية ، فهو الذي منح هذه القبائل المأوى في الجزيرة والشمال الشامي ، وفي أيام يزيد قطعت شعرة معاوية واختل التوازن حيث اعتمد اعتماداً كبيراً على أخواله من قبيلة كلب ، وبرز على رأس الكلبيين حسان بن مالك بن بحدل ، وكانت ميسون بنت بحدل عمته ، وميسون هي زوج معاوية وأم يزيد ثاني خلفاء بني أمية ، وما ان توفي يزيد بن معاوية حتى تفجر الموقف في بلاد الشام ، حيث لم يستطع معاوية الثاني الاحتفاظ بالخلافة ، وطمح نحو استلام الخلافة أكثر من طامح ، وكان هناك عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة ،

---

(١) ابو الفرج الأصفهاني ـ كتاب الأغاني ط. دار الكتب المصرية ج٢٠ ص١٢٧ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج١ ص٤٣١ ـ ٤٣٦ .

(٢) ليفسكيا ـ المرجع نفسه ص٩١ ـ ١١٠ . محمد احمد جاد المولى ورفيقيه ـ أيام العرب بالجاهلية ط. دار الفكر بيروت ص٥١ ـ ٥٩ . سعد زغلول عبد الحميد ـ في تاريخ العرب قبل الاسلام ط. بيروت ١٩٧٦ ص٢٠٧ ـ ٢١١ .

وفي دمشق كان الضحاك بن قيس الفهري القرشي من أبرز رجالات السلطة في دمشق منذ أيام معاوية بن أبي سفيان ، وطمح الضحاك بالخلافة ، وسلك نحو تحقيق هدفه عدة سبل ، وكان الضحاك يمتلك جوبر في أحواز دمشق ، وكانت مزرعة له ، ولم يجد الضحاك المساندة لدى قبائل كلب فتوجه بأنظاره نحو القبائل القيسية .

كان زفر بن الحارث على رأس القبائل القيسية في الجزيرة والشام الشمالي ، واغتنم زفر خلو الخلافة فطرد سعيد بن مالك بن بحدل من الجزيرة وكان ابن بحدل قد ولاه يزيد الجزيرة[1] .

لسنا بحاجة هنا للدخول بتفاصيل أحداث مؤتمر الجابية وصيرورة الخلافة الى مروان بن الحكم ، ويكفي ان نذكر هنا ان حسان بن مالك بن بحدل تحرك باتجاه معاكس لمطامح الضحاك بن قيس ، وقبائل قيس والذين شرعوا بالميل نحو الاعتراف بشرعية ابن الزبير ، وتحالف الضحاك بن قيس مع زفر بن الحارث الكلابي زعيم قبائل قيس ، وتجمعت قوى قيس في مرج راهط قرب جوبر ، وباتت الجابية منطقة التجمع بالنسبة للقبائل اليمانية وسلم الناس «على حسان بن مالك بن بحدل أربعين ليلة بالخلافة ثم سلمها الى مروان بن الحكم[2]» .

وبايع المجتمعون بالجابية مروان بن الحكم بعد مناقشات واشتراط شروط ، وقال أحد الكلبيين :

فألايكن منا الخليفة نفسه فما نالها إلا ونحن شهود

وقال كلبي آخر :

نزلنا لكم عن منبر الملك بعدما ظللتم وما أن تستطيعون منبرا[3]

ونشبت سنة ٦٤هـ/٦٨٤ م في مرج راهط معركة فاصلة بين الحزبين القيسي واليماني ، فدارت الدائرة على القيسيين ، وأجلت عن مقتل الضحاك بن قيس

---

(١) ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص٢٢٢ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٨ ص٣٨٠١ .

(٢) البلاذري (أنساب ط. القدس ١٩٣٦) المصدر نفسه ج٥ ص١٣٥ .

(٣) البلاذري (أنساب) المصدر نفسه ج٥ ص١٣٥٠ . ابن عساكر ـ المصدر نفسه ج٤ ص١٩٩ظ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج٥ ص٢٢٣٥ ـ ٢٢٣٦ .

وأعداد كبيرة من القتلى ، و «فر زفر بن الحارث الكلابي عن ابنه ومولى له فقتلا ، فأنشأ يقول :

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا
فلا صلح حتى تحط الخيل بالقنا
وتثأر من نسوان كلب نسائيا[1]

لقد نجم عن معركة مرج راهط نتائج على درجة كبيرة من الخطورة حيث يبدو أنها دفعت كل من كلب وكلاب الى اقتسام بلاد الشام بينهما ، وجعلها دارين ، شمالية لكلاب وقبائل قيس ، وجنوبية لكلب وقبائل اليمن ، وسعى كل فريق نحو إخراج عناصر خصومه من دياره ، وتناول هذا المسعى تصفية العناصر القبلية القديمة لما قبل الاسلام في الجزيرة والشام الشمالي ، وتجلى هذا في الحروب ضد قبيلة تغلب .

فقد فر زفر بن الحارث بعد معركة مرج راهط الى قرقيسياء واعتصم وأعلن عدم اعترافه بخلافة مروان بن الحكم واعترف بابن الزبير[2] ، وعندما قامت حركة التوابين في الكوفة لم يتردد في تقديم النصح والعون لقوات التوابين عندما زحفت نحو الجزيرة ، وأخذ بالوقت نفسه يشن الغارات على احياء كلب ببادية السّماوة وتدمر .

ومالبث ان ظهر في المنطقة زعيم قيسي آخر هو عمير بن الحباب ، كان قد تخلى عن الأمويين وانضم الى ابراهيم بن الأشتر في معركة الخازر ، وكان عمير على ميسرة عبيد الله قائد القوات الأموية ، وحاقت الهزيمة بالجيش الاموي ، وقتل ابن زياد ، والتجأ عمير الى قرقيسياء خشية من عقاب عبد الملك بن مروان ، ثم طلب الأمان من عبد الملك فآمنه اولا ثم القى به في السجن ، وتمكن عمير من الفرار من

---

(١) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ١٤٠ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٣٨٠٢

(٢) البلاذري المصدر نفسه ج ٥ ص٣٠١ . ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٣/٧٠٢ .

سجنه ، فجاء الى ديار الرقة ومن هناك اخذ يغير على احياء كلب واليمانية ، وردت كلب على هذه الغارات بغارات انتقامية مماثلة بقيادة حميد بن حريث بن بحدل ، وتورط زفر في هذه الاعمال حتى أنه قتل خمسمائة رجل من كلب كانوا أسرى لديه ، وتواصلت الغارات واضطربت الاحوال الامنية في البادية والجزيرة . [1]

وكان عبد الملك بن مروان مشغولا بتوطيد ملكه اولا في دمشق حيث تخلص من عمرو بن سعيد الاشدق سنة ٦٩هـ/٦٨٨ م ، ثم سار ضد زفر وحاصره في قرقيسياء ، وعندما لم يستطع قهره بالقوة صالحه ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير في العراق ، لهذا لم يول الصراعات القيسية الكلبية عنايته ، لكنه بعد الفراغ من أمر مصعب اهتم بها وأمكن الوصول الى تسوية وهكذا هدأت الحروب بين قيس وكلب ، لكنه بعدما أقرت الأطراف بواقع القسمة الى دارين .

وفي أثناء الصراعات بين كلب وقبائل قيس ساندت قبيلة تغلب قيسا بحكم النسب العدناني ولعداوات كلبية تغلبية قديمة ، يقول الاخطل :

نبئت كلبا تمنى ان تحاربنا وطالما حاربونا ثم ماظفروا[2]

لكن قبيلة تغلب كانت قديمة السكنى في الجزيرة ، كما كانت ماتزال تدين غالبية عناصرها بالمسيحية ، وقد طمعت القبائل القيسية الوافدة حديثا بالسيطرة على المنطقة ، فكان أن تفجر الصراع وهاج الشر بين أتباع عمير بن الحباب وتغلب وأخذوا يتبادلون الغارات ، ووقف زفر بن الحارث في البداية موقف المتفرج من النزاع ، لذلك لم يقدم العون لعمير بن الحباب ، فتوجه نحو مصعب بن الزبير ، وأعلمه بتفاصيل الصراعات مع كلب ، وأدخل في روعه ان تغلب ميولها أموية وسأله أن يوليه جباية الصدقات منهم ، ففعل مصعب ذلك ، ورفضت تغلب الاعتراف بولاية عمير فاتخذ عمير ذلك مسوغا للايقاع بتغلب ، فأغار عليها فكانت معركة ماكسين قرب رأس العين ، وقتل من التغالبة مقتلة عظيمة ، وكان

---

(١) : البلاذري - المصدر نفسه ج٥ ص ٢٩٨ - الاصبهاني - المصدر نفسه ج١٧ ص١١١ -ج٢٠ ص١٢٠ .

(٢) : البلاذري : - المصدر نفسه ج ٥ ص٢١٣ . الاخطل - المصدر نفسه ص ١٨٨ .

يستهدف ابادتهم حتى إنه أمر ببقر بطون عدد هائل من النساء ، والى هذا أشار الشاعر بقوله :

بقرنا منهم ألفى بقير فلم نترك لحاملة جنينا[1]

واستمدت تغلب بقبائل من ربيعة العراق والجزيرة ، وجاءتها الامداد من شيبان ومن النمر بن قاسط ، وأخفق عمير بالحصول على مدد من أسد وتميم ، وهكذا اضطر الى التصدي الى جموع ربيعة وحدة ، فدارت الدائرة عليه في يوم الثرثار الأول[2] .

ثم قامت قيس بالانتقام يوم الثرثار الثاني وذلك بعدما أمدها زفر بن الحارث ، وتوالت الغارات بين الأطراف بوحشية متناهية ، وأخيرا تمكنت تغلب من قتل عمير بن الحباب بعدما فر الى قرقيسياء ، وعم السرور بين صفوف التغالبة وبعثوا برأس عمير الى عبد الملك بن مروان[3] .

وطوى مصرع عمير مرحلة من الصراع ليبدأ واحدة جديدة بزعامة زفر بن الحارث ، وأخذ زفر يغير على أحياء تغلب منزلا بها القتل والتحريق والتغريق ، وأخيرا تدخل عبد الملك بن مروان ، وقد بات سيد الخلافة الاموية ومؤسسها الثاني ، فأصلح بين الحيين .

ولم يطل السلم بين تغلب وخصومها ، فقد أهاج الخصومة هذه المرة الاخطل الشاعر التغلبي المعروف ، فقد دخل هذا الشاعر على عبد الملك وعنده زفر بن الحارث فقال : «يا أمير المؤمنين أتدنى هذا منك وهو أعدى الناس لك وأوثبهم عليك وهو الذي يقول :

فإني زبيري الحياة فأن أمت فاني لموص هامتي بالتزير

قال : فجلس عبد الملك بن مروان واحمرت عيناه وخافه زفر فخاطبه قائلا :

---

(١) : البلاذري - المصدر نفسه ج ٥ ص ٣١٦ . الاصفهاني - المصدر نفسه ج ٢٠ ص ١٢٧ .
(٢) : البلاذري - المصدر نفسه ج ٥ ص ٣١٨
(٣) : البلاذري - المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٢٣

يـاأمير المؤمنين ان هذا ابن النصرانية انما ربى لحمه على شرب الخمر ، ولحم الخنزير ، وأنا أطوع الناس لك وأسعاهم في مرضاتك»[1] ومازال به حتى هدأ ، وقد حقد زفر على شاعر تغلب الذي ظل يؤجج العداوة حيث دخل على عبد الملك يوما وعنده وجوه قيس وفيهم الجحاف بن حكيم فأنشد عبد الملك قوله :

الا سائل الجحاف هل هو ثائر ⁂ بقتلى أصيبت من سليم وعامر[2]

«فنهض الجحاف بن حكيم يجر مطرفه حتى خرج من عند عبد الملك ، ثم شخص من دمشق حتى أتى منزله بباجروان من أرض البليخ ، وبين باجروان وبين شط الفرات ليلة ، ثم جمع قومه بها فقال : ان أمير المؤمنين استعملني على صدقات تغلب فانطلقوا معي ، فارتحل ، وانطلقوا معه ، وهو لا يعلمهم ما يريد ، وجعلت أمرأته عبلة تبكي حين ودعته ، ثم أتى بهم شط الفرات منازل بني عامر ، فقال لهم مثل ذلك وجمعهم فارتحلوا معه ، ثم قطع بهم الفرات الى الرصافة ، وبينها وبين شط الفرات ليلة ، وهي قبلة الفرات ، حتى اذا كانوا بالرصافة قال لهم : انما هي النار او العار ، فمن صبر فليتقدم ومن كره فليرجع ، فقالوا : ما بأنفسنا رغبة عن نفسك ، فأخبرهم بما يريد ، فقالوا : نحن معك فيما كنت فيه من خير وشر ، فارتحلوا فطرقوا صهينا بعد روية من الليل ، وهي في قبلة الرصافة ، بينهما ميل ، ثم صبحوا عاجنة الرحوب ، وهي في قبلة صهين ، والبشر واد لبني تغلب . . .

ثم أغاروا على بني تغلب بين البشر والشام ليلا فقتلوهم ، وبقروا النساء فقتلوهن . . وقتل أبو الاخطل في تلك الليلة . . وهرب الجحاف بعد فعله هذا ، فتبعه عبيدة بن مام التغلبي ، فلحقه دون الدرب وهو يريد بلاد الروم ، فعطف عليه فهزم اصحابه وقتلهم وأفلت الجحاف ، ومكث زمانا في بلد الروم حتى سكن غضب عبد الملك فأمنه ، وأمر ابنه الوليد فحمل الدماء التي كانت بين قيس وتغلب ، وأمر الجحاف بدفع ديات قتلى البشر ، فتوجه الى الحجاج بن يوسف

---

(١) : ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ٨ ص ٣٨٠٠ .
(٢) : الأخطل ـ المصدر نفسه ص ١٣٠ .

الثقفي فاستعان به ، ثـم استأذن في الحج فأذن له في ذلك مع الجلة من الشيوخ التي شهدت الوقعة وفعلوا الأفاعيل ، فخرجوا وقد أبروا آنفهم ـ يقول خزموها ـ يمشون من الشام محرمين يلبون ، فلما قدموا المدينة خرج أهل المدينة ينظرون اليهم ويتعجبون منهم ، فلما قدموا مكة تعلقوا بأستار الكعبة فقالوا : اللهم اغفر لنا وما أراك تفعل ، فقال ابن عمر : يأسكم من قبول التوبة أشد عليكم من ذنوبكم ، فقيل له : هذا الجحاف وأصحابه ، فسكت»[1] .

واذا كان للحروب الأهلية في الجمل وصفين آثارها على الوضع القبلي في بلاد الشام ، فقد كان لها أبعد الآثار على الوضع القبلي في العراق وأقاليم المشرق التي تبعت لها ، فقد أضعفت الجمل قبائل البصرة بوساطة الهزيمة والجلاء الى الشام وسواها ، وزادت معركة صفين الحال سوءا حيث امتد التدهور الى الكوفة ولكن شهدت فترة خلافة معاوية بعض الاستقرار ، مالبث هذا الاستقرار أن تزعزع أيام يزيد ، فقد حقنت كربلاء النفوس ، وتفجرت الاحقاد اثر موت يزيد واضطراب الاحوال في بلاد الشام ، فقد زالت السلطة الأموية ، وقامت اولا حوادث حركة التوابين ، وتلاها استيلاء المختار بن أبي عبيد على مقاليد الامور في الكوفة .

لقد وصل المختار الى الكوفة وهي تتبع رسميا للسلطات الزبيرية ، وحركة التوابين في أوج نشاطها ، فنشط هو بدوره يدعو للثأر للحسين ، وكادت الفتنة تقع بالكوفة ، لكن المختار شعر أن من الخير له التنحي جانبا حتى يخرج التوابون للحرب ضد النظام الأموي الذي عدوه مسؤولا عن مقتل الحسين بن علي .

في عام ٦٥هـ/ ٦٨٥ م خرج التوابون من الكوفة ، فقصدوا الأنبار ـ فقرقيسياء ومن ثم اصطدموا بالقوات الأموية في معركة عين الوردة ، وأتاح خروج التوابين من الكوفة الفرصة للمختار للسيطرة عليها ، والذي يهمنا التعرض اليه في حركة

---

(١) : ابن العديم ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٥ ـ البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٣١٣ . الاصفهاني ـ المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩٨ ، ج ٢٠ ص ١٢٦ .

المختار هنا هو تقريبه للموالي واغضابه لأشراف القبائل الذين قصدوا البصرة حيث انضموا الى مصعب بن الزبير واليها .

وقبل ذهابهم الى البصرة كانوا قد خاضوا ضد المختار القتال في جبانة السبيع حيث حسمت التوازنات القبلية الصراع لصالحه ، ومن ثم ذهب أشراف القبائل المهزومة الى البصرة، وجاء مصعب مع قواته ومن انضم اليه للقتال ضد المختار، وذلك بعدما تخلى ابراهيم بن الاشتر عن المختار ، ولحقت الهزيمة بالمختار ، وقاتل المختار بعدما تراجع الى الكوفة قتالا بطوليا حتى لقي مصرعه[1] لتشهد العراق صراعات جديدة .

ومثلما اضطربت احوال الكوفة بعد وفاة يزيد بن معاوية حدث الشيء نفسه في البصرة ، وكان عبيد الله بن زياد والي العراق مقيما في البصرة ، وعندما أخفق في تأمين وضعه التجأ الى مسعود بن عمرو زعيم قبائل الازد ، وكان ابن زياد قد اصطنع اثناء ولايته رؤساء قبائل ربيعة ، وحين التجأ ابن زياد الى زعيم الازد حمل معه أموال المصر ، وقد قبل ان ابن عمرو كان كارها للجوء الى ابن زياد اليه ، لكنه أقر بالامر الواقع وسعى للافادة منه ، فساعد ابن زياد على الفرار الى بلاد الشام ، وقام ابن زياد باستخلاف مسعود على البصرة وقام مسعود بالتوجه الى دار الامارة لمباشرة سلطاته ، وأيدته قبائل الازد مع رؤساء ربيعة ، وعارضته قبائل تميم ومضر ، وهاجم مالك بن مسمع زعيم بكر وربيعة بعض التميميين وأحرق دور جماعة منهم ، وسعى الأحنف بن قيس الى تدارك الموقف ، لكن بدون نجاح ، فقد تمكن بنو تميم من اقتحام مسجد البصرة ، واستنزلوا مسعودا عن المنبر وقتلوه ، واستعرت الفتنة في أرجاء البصرة وسودت الأزد عليها زياد بن عمرو أخا مسعود ، ونشبت الحروب بين العصبيات القبلية ، وأخيرا هدأت الثائرة واتفق الفرقاء على تحكيم رجلين من اشراف قريش ، وتم التوصل الى تسوية حملت بموجبها الديات الى الأزد ، ثم اتفق أهل البصرة على اختيار امير مؤقت منهم ريثما يجمع المسلون على امام .

---

(١) : ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ١٥٨٩ ـ ١٦٦٢ . البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٤ ـ ٢٧٣ . ابن الخياط ـ المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٢ .

ولم تستقر الامور نهائيا في البصرة ، فبعدما استولى المختار بن أبي عبيد على الكوفة أرسل المثنى بن مخربة العبدي الى البصرة ليبث فيها الدعاية له ، والتف حول المثنى بعض آله من عبد القيس ذوي الميول الشيعية ، وتجمع أنصار المثنى في مدينة الرزق وهنا اصطدموا بعباد بن الحصين التميمي قائد شرطة البصرة ، وهزم المثنى فالتجأ الى قومه ، وهنا تفجر الصراع القبلي من جديد ، وظل قائما حتى تم الاتفاق على اخراج المثنى واصحابه من البصرة[1] .

وبعد هذا عرفت البصرة بعض الاستقرار لانشغال أهلها بالحروب ضد الخوارج ، ولاستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وفي ولاية الحجاج للعراق يمكن ان نرى في ثورة ابن الاشعث الوانا من العصبية القبلية والاقليمية[2] ، وبعد وفاة الحجاج من الممكن تعقب الآثار القبلية والاقليمية في ثورة يزيد بن المهلب[3] .

وكانت عدوى العصبيات قد انتقلت من العراق الى خراسان حيث شغلت ادواراً على درجة كبيرة من الأهمية ، فقد هاجرت القبائل العربية الى خراسان وسكنت خارج بعض المدن الرئيسة كحاميات عسكرية ، وقد نقلت هذه القبائل معها عصبياتها وصراعاتها الحزبية ، وظهر التنافس في خراسان بين كبار القادة حول المنافع مثلما حدث بين قيس بن الهيثم السلمي وابن عمه عبدالله بن خازم السلمي وتلونت الصراعات بعد وفاة يزيد بن معاوية بالالوان التي عمت في بلاد الشام والعراق ، وأرغمت الصراعات التي تفجرت في خراسان سلم بن زياد والي البلاد على مغادرتها ، وغلبت فئات من المضرية والربعية كل منها على مدينة من المدن ، وكان سلم بن زياد قد حاول استخلاف المهلب على خراسان فأخفق ،

---

(١) : البلاذري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٤٤ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٦٦ ـ ٧١ .

(٢) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج١ ص٣٦٢ ـ ٣٧٣ . الدينوري ـ المصدر نفسه ص٣١٦ ـ ٣٢٤ . اليعقوبي ـ المصدر نفسه ج٢ ص٢٧٧ ـ ٢٨٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج٦ ص ٣٢٦ ـ ٣٨٣ . فلهوزن ـ المرجع نفسه ٢٢٤ ـ ٢٣٦ .

(٣) : ابن خياط ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ . الطبري المصدر نفسه ج ٦ ص ٥٧٨ ـ ٦٠٤

وادعى سليمان بن مرثد ، وكان من رؤساء بكر أن ابن زياد ولاه بعض خراسان ، ورد عليه عبد الله بن خازم السلمي بادعاء مضاد وثارت الفتنة بين مضر وربيعة ، وقامت معارك حادة بين الطرفين ، وأخفقت محاولات الصلح والتسوية وبعد أكثر من عام حاقت الهزيمة بربيعة ، وانتصرت مضر بقيادة ابن خازم الذي اقترف مجزرة بشعة بحق خصومه .

وما لبث أن دبت العداوة بين صفوف قبائل مضر ، فقد ثارت تميم ضد ابن خازم الذي اظهر مزيداً من الشدة والجفاء والتعالي والأثرة ، وبعد صراع دام أكثر من عام بطش ابن خازم برجال تميم وذبح غالبيتهم [1] .

وكان ابن خازم قد اعترف بخلافة عبدالله بن الزبير ، وفي سنة ٧٢ هـ/٦٩١ م كتب عبد الملك بن مروان الى ابن خازم يطلب منه ان يبايعه بعد مقتل مصعب بن الزبير ، وعرض عليه اطعامه خراسان مدة سبع سنوات ، فرفض ابن خازم ، فلجأ عبد الملك الى اثارة العصبيات ضده بأن كتب عهد خراسان الى بكير بن وشاح العطاردي ، فثارت تميم بابن خازم وتمكنت من قتله [2] .

ولم يجلب مقتل ابن خازم السلم الى خراسان ، بل نشب صراع بين بطون بني تميم حول المغانم والمنافع ، فتدخل عبد الملك فولى رجلاً من قريش هو أمية ابن عبد الله بن خالد بن أسيد ، على أمل ان هذا القرشي سيحكم بشكل حيادي ، لكن الحكم الحيادي ما كان ليستطيع انتزاع الاحقاد من النفوس ، وهكذا تجددت الصراعات بين بطون تميم [3] .

وبعدما ولي الحجاج العراق ساند المهلب في الحرب ضد الخوارج ثم كان أن ولي المهلب خراسان ، فنجم عن ذلك زيادة اعداد الازد في تلك البلاد مما غير

---

(١) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٧١ ـ ٤٧٤ ، ٥٤٥ ـ ٥٥١ ، ٦٢٣ ـ ٦٢٦ ، ج ٦ ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٢) : الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ١٧٦ ـ ١٧٨ . (حوادث سنة ٧٢ هـ) .

(٣) : الاصفهاني ـ المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨٧ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ١٩٩ ـ ٢٠١ (حوادث سنة ٧٤ ه) .

معادلات القوى والصراعات ، وقام الحجاج باسناد ولاية خراسان الى قتيبة بن مسلم الباهلي ، وحقق هذا القائد الكبير انتصارات رائعة في بلاد ما وراء النهر ، وشغل الناس بالفتوحات ، لكن هذا لم يعش طويلاً فقد توفي الحجاج ، ثم لحقه الوليد بن عبد الملك وجاء سليمان بن عبد الملك الى الخلافة حاملاً معه خططاً للتغيير ، وكان صديقه يزيد بن المهلب يطمع بالعودة الى خراسان الولاية التي خرمه الحجاج منها .

وجرب قتيبة اعلان الثورة على سليمان فأخفق وقتلته القبائل بدلاً من أن تؤيده ، وقد اسهبت المصادر في الحديث عن مقتل قتيبة ، ولسنا هنا بحاجة لسرد التفاصيل ، بل الاشارة الى الحدث القبلي[1] ، وإلى أن صراعات العصبيات قد صبغت بصبغتها جل احداث خراسان حتى سقوط الدولة الأموية ، وتحكمت بعقول وتصرفات ولاة خراسان جميعاً ، فهذا آخرهم نصر بن سيار قد أوقف نفسه على الحرب ضد اليمانية ممثلة بجذيع الكرماني ، فعندما عرف أن يحيى بن نعيم الربعي وقومه يساندون الكرماني كتب اليه يقول :

انا وهذا الحي من يمن	عند الفخار معاشر أكفاء
قوم لنا منهم ترات جمة	ولهم لدينا إحنة ودماء[2]

ونصر هذا نفسه قد أدرك مخاطر حركة أبي مسلم الخراساني ، وأن الأمر يستدعي موقفاً عربياً موحداً منها وذلك بقوله :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها	ليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب ان الحرب قد نصبت	حربا تحرق من حافاتها حطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم	كأن أهل الحي عن أفعالكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم	ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا الى عترة منا فنعرفهم	ولا ضميم الموالي ان هم نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول ولم تنزل به الكتب

---

(١) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص١٩٤٣ ـ ١٩٦٣ . البلاذري ـ (فتوح) المصدر نفسه ص ٢٩٧٨ ـ ٢٩٨٠ . الطبري ـ المصدر نفسه ج ٦ ص ٥٠٦ ـ ٥٢٢ .

(٢) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢٢٢١ ـ ٢٢٢٢ .

فمن يـك سـائـل عن دينهم فـإن دينهم ان تقتـل العـرب
ويقسم الخمس من أموالكم أسرا من العلوج ولا يبقي لكم نسب
وينكحـوا فيكم قسـراً بنـاتكم لو كان قومي أحراراً لقد غضبوا [1]

وعلى الرغم من هذا الشعور العربي ، لقد سعى نصر بن سيار الى التخلص من أبي مسلم الخراساني المتحالف مع الكرماني بحلف مضاد مع ربيعة ، وطبعاً كان عليه السعي لوحدة القبائل العربية جميعاً ، ولقد استطاع أبو مسلم أن يبطش بالقوى العربية متفرقة حتى أزال الدولة العربية من الوجود [2] .

ولقد عرف كل بلد افتتحه العرب وهاجروا اليه صراع العصبيات ، وظهر هذا الصراع بشكل جلي في الأندلس ، حتى اننا نجد المؤرخ دوزي قد جعل من هذا الصراع محوراً أدار عليه حوادث تاريخ الاندلس المبكر وذلك لدى تأريخه للحكم العربي هناك .

والمثير للانتباه ان الصراعات في الاندلس بين الفاتحين لم تكن صراعات عربية محضة ، بل كانت في كثير من الأحيان عربية بربرية ، وبين عرب وافدين وعرب قدماء صاروا أندلسيين بلديين .

وكان البربر قد ثاروا في الشمال الافريقي عدة ثورات بعد أن انتشرت الافكار الخارجية بين صفوف بعض قبائلهم ، وكاد البربر من الخوارج ان يتمكنوا من السيطرة على بلدان المغرب ، ففي ولاية عبيد الله بن الحبحاب استطاع خالد ابن حميد الزناتي أن يلحق هزائم كبيرة بالقوات العربية التي كانت تحت امرة ابن الحبحاب ، واضطر هذا الوالي الى التوجه نحو دمشق لشرح الأمور للخليفة هشام ابن عبد الملك .

وأثارت نجاحات البربر في المغرب بربر الاندلس فأعلنوا الثورة على واليها عقبة بن الحجاج ، وأخفق هذا الوالي بالقضاء على الثورة وضعف أمام البربر ، وأصيب عام ١٢٣ هـ/٧٤١ م بمرض شديد ، وأرجف الناس بموته ، وهنا قام حزب أهل المدينة بالضغط عليه حتى أرغموه على استخلاف عبد الملك بن قطن

---

(١) : ابن أعثم ـ المصدر نفسه ص ٢١٣٢ .
(٢) : ابن اعثم ـ المصدر نفسه ص ٢١٣٣ ـ ٢١٣٧ .

الفهري ، ومع تسلم ابن قطن للولاية استشرت ثورة البربر ، وكان الخليفة هشام ابن عبد الملك قد بعث جيشاً كبيراً نحو المغرب اسند قيادته الى كلثوم بن عياض القشيري ، وكان على مقدمة جيش كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر ، وقد وصف بلج هذا بالرعونة والحماقة والتعصب الشديد لقومه من قيس ، وعندما وصل الجيش الى الشمال الافريقي تنازع مع عرب البلاد بسبب العصبيات ، ولذلك حلت الهزيمة بالعرب في القتال ضد البربر ، وفر بلج الى مدينة سبته ومعه قرابة عشرة آلاف من جنده ، وهناك اتخذ موقف الدفاع .

وضاقت الأحوال ببلج ، وهنا طلب العون من عبد الملك بن قطن ، وحاول استدرار عطفه ، لكن ابن قطن لم يستجب وود ان يرى وهو في التسعين من عمره بلجا وصحبه يموتون . فهؤلاء ابناء الجند الذين بطشوا بالمدينة يوم الحرة ، واتخذ عبد الملك الاحتياطات لمنع امداد بلج بالميرة ، وعندما عرف ان شريفاً من لخم قد سرب اليهم بعض المساعدات جلده وشنقه وعلى يمينه كلب ايغالا بالنكاية والانتقام .

لكن حدث ما غير موقف عبد الملك ، فقد ازداد البربر في الاندلس حماساً عندما عرفوا ما حل بجيش كلثوم بن عياض وتحرج موقف العرب كثيراً ، واوشكوا على فقدان البلاد ، فاضطر عبد الملك الى التماس المعونة من الشاميين المحاصرين في سبته ، ووعدهم ارسال سفن لهم تنقلهم الى الأندلس شريطة العودة الى المغرب فور القضاء على ثورة البربر .

وأبحر أهل الشام الى الاندلس ، وما أن استردوا بعض راحتهم حتى زحفوا ضد البربر فهزموهم في أكثر من معركة ، وما أن تلاشت ثورة البربر بالاندلس حتى طلب عبد الملك من بلج وصحبه مغادرة البلاد والعودة الى المغرب ، ورفض بلج واختلق العديد من الاعذار وقرر البقاء ودخل في صراع مكشوف مع عبد الملك وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الامور في قرطبة ، وألقى بعبد الملك في السجن ، ثم أمر باخراجه وقتله وصلبه ، وصلبوا خنزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله .

وقاد مقتل عبد الملك الى انقسام الصف العربي في الأندلس : شاميين وقدماء بلديين ، وثارت الحرب بين الطرفين وقتل بلج فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملي ، واستمرت الحرب أيام ثعلبة وكانت يوا حرباً بين العرب والبربر وآخر بين العرب أنفسهم : شاميين وبلديين ، وبقي النصر حليفاً للشاميين ، ووقع أثناء الحروب عدد كبير من الأسرى ، وأقدم ثعلبة على اقتراف أمر لم يعهده العرب في تاريخهم الاسلامي ، ألا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق اطفالهم ، وجاء هذا الفعل الشنيع بلا سابقة ودلل على فظاظة وقسوة شديدة .

وشعر عقلاء العرب بالأندلس بالخوف الشديد على مصير البلاد فتوجهوا بابصارهم نحو المغرب ، حيث كانت الاوضاع قد شهدت بعض الاستقرار ، فقد وجه الخليفة هشام حنظلة بن صفوان ـ وكان والي مصر ـ فحقق بعض النجاحات ، واتصل عقلاء الاندلسيين بحنظلة وسألوه أن يندب اليهم عاملاً يكون قادراً على ضبط الأمور في الاندلس ، واستجاب حنظلة لمطلبهم واستعمل أبا الخطار الكلبي ، حسام بن ضرار ، ووصل ابو الخطار الى قرطبة ، وتسلم الولاية وحقق في البداية النجاح وعالج مشاكل الحرب الأهلية ، لكنه ما لبث أن انغمس في حمأة العصبية فتعصب لليمانية ضد القيسية ، وبذلك عاد الصراع من جديد ، وتزعم عرب قيس الآن الصميل بن حاتم الكلابي ، وكان اعرابياً فيه عنجهية البداوة وصلفها ، بلا ثقافة حيث لم يحسن القراءة والكتابة .

واستطاع الصميل ان ينتزع الولاية من أبي الخطار وعين عليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، ولم يلق افراد الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعامة أبي الخطار معارك عدة ضد القيسيين كان أفظعها واحدة وقعت سنة ١٣٠ هـ/٧٤٧ م بمكان اسمه شقندة قرب قرطبة ، لقد تحاربوا على ظهور الخيل ثم كرجالة تقابضوا بالايدي والشعور وتكادموا حتى أنهكوا ، وهنا استنجد الصميل بأهل سوق قرطبة من عمال وجزارين فحسم هؤلاء المعركة لصالحه بمذبحة شنيعة .

وتزامنت هذه الاحداث مع سقوط الخلافة الاموية بالمشرق؛ واستمرت الصراعات بكل عنف حتى تمكن عبد الرحمن الداخل من التسرب من خلالها ، فأعاد احياء الملك الاموي بالاندلس بعدما انقطع بالمشرق[1] .

---

(١) : مجهول ـ اخبار مجموعة في فتح الاندلس ـ ط . مدريد ١٨٦٧ ص ٣٠ ـ ٦٧ . ابن القوطية القرطبي ـ تاريخ افتتاح الاندلس ـ ط . بيروت دار النشر للجامعيين ص ٣٨ ـ ٤٦ . ابن عبد الحكم (فتوح) المصدر نفسه ص ٢١٦ ـ ٢٢٥ . ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني ـ تاريخ افريقية والمغرب ط . تونس ١٩٦٦ ص ١٠٤ ـ ١٢٢ . دوزي ـ المرجع نفسه ص ١٣٨ ـ ١٧٦ .

«الخاتـــمة»

لقد اتضح معنا أن العرب قد ملكوا منذ ما قبل الإسلام بعض المفاهيم السياسية والتجارب والتقاليد ، خاصة في مدينة مكة ، فالدين كان هو الطريق نحو الزعامة السياسية وهذا قد تجلىٰ في سيرة قصي بن كلاب الذي انتقل من سدانة الكعبة إلىٰ مرتبة الزعامة السياسية في مكة ومن ثم تفرغ للتنظيمات الادارية[1] .

لكن ما أقامه قصي بن كلاب في مكة لم يكن ملكا وراثيا ، وجرت محاولات لتأسيس الملك فأخفقت[2] .

حافظ النبي (ص) على هذا الميراث فهو بدأ حياته في مكة نبيا وبعد الهجرة إلىٰ المدينة صار سيدا لأمة جديدة شرع (بوحي من الله) في تنظيم شؤونها داخليا وخارجيا ، والنبي لم يؤسس دولة وراثية ، أو مملكة أو امبراطورية ولم يقم بتوريث السلطة من بعده[3] ، وخاض المسلمون غمار عدة تجارب سياسية من السقيفة إلىٰ شورىٰ السنة ، فأحداث الفتنة الكبرىٰ ، فخلافة الإمام علي والحروب الأهلية

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٣٨) .

(٢) ـ انظر ما سلف ص (٣٩ ـ ٤٠) .

(٣) ـ انظر ما تقدم ص (٤١ ـ ٤٣) .

وخلال هذا كله تفجرت الصراعات بشكل علني ، ولجأ العرب إلىٰ السلاح ، وبعد أمد تمكن معاوية بن أبي سفيان من الاستيلاء على السلطة عن طريق البراعة السياسية والمقدرة العسكرية ، وبالاستخدام الكبير للمال فجاءت خلافته خلافة غلبة ، لذلك استمرت قوى المعارضة وتطورت[1] .

لقد تطورت حركات المعارضة مع الأيام إلىٰ أحزاب ما لبثت ان مزجت العمل السياسي بمفاهيم دينية ، فالإسلام قام على قاعدة المزج هذه[2] .

هذا ووقر في صدور غالبية المسلمين انه ينبغي إزالة الحكم الأموي لاحلال حكم جديد محله تتزعمه أسرة من أسر قريش وعندما قلنا غالبية المسلمين استثنينا الجماعات التي سعت للتمرد على السلطة القرشية وأعلنت جواز استلام السلطة من قبل أي عربي مسلم أو من قبل أي مسلم فيما بعد . والمقصود هنا حزب الحرورية الذي تطور إلىٰ عدة أحزاب ، لقد وصل معاوية إلىٰ السلطة بوساطة القوة واحتاج الامويون إلىٰ اعتماد القوة دوما في سبيل الحفاظ على حكمهم خاصة خارج بلاد الشام في العراق والحجاز وأقطار أخرى، ولقد أسرف الأمويون في استخدام القوة المسلحة للحفاظ على حكمهم ، واستباحوا جميع الحرمات ، وهكذا شهد العصر الأموي احداث خطيرة جدا مشت من كربلاء إلىٰ استباحة المدينة المنورة ، إلىٰ حصار مكة وقذف الكعبة بحجارة المنجنيق ، إلىٰ مقتل حجر بن عدي وسياسة زياد بن أبيه في حكم العراق بالحديد والنار ، إلىٰ عصر الحجاج وعمليات الابادة ، والنفي وأخيراً وليس آخراً إلىٰ ثورة زيد بن علي وابنه يحيىٰ فسقوط الحكم الأموي[3] .

استطاعت القوة الأموية ان تحافظ على الحكم قرابة قرن من الزمن لم تهدأ الأحوال فيه إلا قليلاً ، وكانت هناك حركات معارضة منظمة وغير منظمة كبيرة جدا، ولقد قادت الصراعات وأعمال القمع والتصفيات إلىٰ مناخ سياسي خاص قام في ظله أحزاب جديدة وتطورت من خلاله حركات إلىٰ أحزاب ، ولم يقتصر الأمر

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٧١) .
(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٧١) .
(٣) ـ انظر ما تقدم ص (١٦٩ ـ ١٩٨) .

علىٰ هذا بل ان العدوىٰ انتقلت حتىٰ إلىٰ صفوف الأسرة الأموية وصفوف قواها الأساسية فكانت هناك صراعات البيت الأموي وصراعات القبائل والقوىٰ العسكرية المساندة للبيت الأموي .

اتسم المناخ السياسي في العصر الأموي بالجفاف وبالحرارة المتناهية وبتطور كبيرٍ للمفاهيم السياسية ، ولم يقتصر التطور على قوىٰ المعارضة وإنما ألم بمؤسسة الحكم،هذه المؤسسة التي حملت منذ البداية اسم مؤسسة الخلافة فقد انتقلت الخلافة إلىٰ امرة مؤمنين ثم إلىٰ خلافة أشبه بالملكيات الوراثية[1] ، وصار الخليفة الأموي الآمر الناهي يتصرف في الأموال وحتى في الدماء كما يريد ، إنما بدون مقدرة تشريعية أي ظل الإسلام مصدر التشريع الوحيد لكن مع خلافات بوجهات النظر والفهم .

قام معاوية بتسمية ابنه يزيد وليا لعهده وأخذ له البيعة من الناس مستخدما مختلف السبل ، وبعد معاوية صار بعض الخلفاء يسمون أكثر من ولي لعهده،وقاد هذا إلىٰ مشاكل وصراعات أدت أخيراً إلىٰ تمزق البيت الأموي،حتى ليمكن القول ان الخلافة الأموية قد سقطت بدمشق قبل أن تسقط علىٰ يد قوات الثورة العباسية[2] .

كانت أهم القوىٰ التي عارضت الحكم الأموي وشغلت في الحياة السياسية أدوار بعيدة الخطر هي : قوىٰ الخوارج والشيعة والعصبيات القبلية ثم الاحزاب القرشية وبعض الحركات العقائدية مثل القدرية والجبرية والجهمية .

والخوارج حركة لها جذورها التي امتدت من بعض الجوانب إلىٰ العصر النبوي،وهي حركة عظيمة الارتباط وشديدة التمسك بالإسلام والاعجاب المنقطع النظير بالقرآن والتعلق بآياته ، وظهرت هذه الحركة للمرة الأولىٰ على أرض صفين بين صفوف قوات الإمام علي بن أبي طالب ، وتطورت مع الأيام بسبب مسألة التحكيم ومسائل سياسية أخرىٰ[3] .

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (١١٣) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (١١٦) .

(٣) ـ انظر ما تقدم ص (٧٦ ـ ٩٦) .

لقد كانت الحركة الخارجية في البداية حركة كوفية إلىٰ أبعد الحدود ثم ما لبثت في أيام معركة النهروان ان تحولت إلىٰ بصرية ومع هذا فقد بدأت هذه الحركة تميمية إلىٰ أوسع نطاق قبلي ممكن وظلت هكذا وقتاً طويلاً ، فلقد ارتبط تاريخ حركة الخوارج ارتباطا قويا بقبيلة تميم[1] ، وشغل الخوارج دوراً سياسياً واسعاً جداً في العصر الأموي وشكلوا قوة عسكرية شديدة المراس كلفت القوات الأموية نفقات باهظة لوقت مديد ، وكان مسرح نشاطها المبكر في بلاد العراق والأهواز ثم في أجزاء من خراسان مما قاد إلىٰ دخول عناصر غير عربية فيها ، فالحركة الخارجية بدأت عربية صرفة ثم تطورت إلىٰ اسلامية واسعة[2] .

بدأت حركة الخوارج كجماعة معارضة للتحكيم ثم تطورت إلىٰ حزب فأحزاب ذات عقائد متنافرة فقد آمن بعض الخوارج باستعراض جميع المسلمين وبعضهم آمن بالقعود وعدم سفك الدماء[3] .

لقد كان أبرزُ الذينَ لجأوا إلىٰ سفك الدماء حزب الأزارقة من الخوارج وقابل هؤلاء الاباضية ، وكتبت الديمومة إلىٰ هذا الحزب الأخير ، ذلك أن بقايا الخوارج في المغرب العربي والمشرق جلهم اباضية . وتمكن الاباضية من اقامة دول حكمت في المغرب وعمان وملكت هذه الدول انتاجا فكريا فالمكتبة الاباضية تعد مكتبة غنية خاصة بالكتابات التاريخية ، وتشكل المصادر الاباضية منهلاً مفيداً جداً لمن أراد ان يبحث في تاريخ الخوارج ، فاعتمادا على المصادر التاريخية الاباضية أمكن اثارة قضية على درجة كبيرة من الخطورة تعلقت بالعلاقات بين حركات الخوارج بشكل عام والإمام عبدالله بن عباس .

لقد انتمت الأسرة العباسية إلىٰ هذا الإمام العظيم وكان العباسيون قد سعوا منذ أيام أبي جعفر المنصور المؤسس الفعلي للخلافة العباسية إلىٰ جعل ابن عباس حبر المسلمين ومصدر فقهم وحديثهم وتفسيرهم ، ومن الميسور جدا أن يكتشف الباحث وجود علاقات بين ابن عباس والزعماء الكبار لأحزاب الخوارج ، فهو قد

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (١٢١ ـ ٠٠) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (١٣٥ ـ ٠٠) .

(٣) ـ انظر ما تقدم ص (١٢٦ ـ ٠٠) .

كان استاذهم سألوه مراراً ونهلوا من علمه لا بل كان مصدرهم الأول فيما جمعه الاباضية في أواخر القرن الأول من حديث نبوي ودونوه قبل غيرهم من فئات المسلمين[1] .

وتثير العلاقة بين ابن عباس والخوارج اشكالية دقيقة جداً لكل باحث في التاريخ الإسلامي خاصة اذا تذكرنا نشوب خلاف كبير بين ابن عباس والإمام علي، دفع بالإمام علي إلىٰ تكليف أبي الأسود الدؤلي بمهام مراقبة ابن عباس أثناء ولايته للبصرة ، وقاد فيما بعد إلىٰ تخلي ابن عباس عن الإمام علي وحمله ما كان من أموال في بيت مال البصره والتوجة إلىٰ الحجاز .

ان الصورة الخارجية التي رسمتها المصادر لابن عباس فيها لطف كبير ومما يثير الانتباه ان هذه المصادر التي عبرت عن وجهات نظر متشددة جدا تجاه أبسط القضايا أغفلت مسألة أخذ أموال أهل البصرة ، ومع هذا كله ينبغي ان تعالج هذه القضية بمزيد من الحذر وأن لا نحمل الأخبار أكثر مما لا تحتمل ، ولهذا تم الاقتصار على فتح ملفها دون الغوص بعمق ، لان ذلك قد يقود إلىٰ بعض المزالق الخطيرة[2].

لقد تمكنت السلطات الأموية من تدمير البنىٰ العسكرية للخوارج في العراق والاهواز وخراسان وإلىٰ حد كبير في الجزيرة ولكنها أخفقت في عمان ولهذا لا يزال جزء كبير من العمانيين اباضية ، كما ان المطاردة الدموية للخوارج مع عوامل كثيرة قادتهم للنشاط في بلدان المغرب العربي ، وهكذا انطبعت جل الثورات الأولىٰ في المغرب بالطابع الخارجي ، ونجح الخوارج فيما بعد في تأسيس دولة اباضية في تاهرت ودولة صفرية في سجلماسة[3] .

ان أعمال المعارضة قد تفجرت في غالب الأحوال لأسباب اقتصادية واجتماعية ومصاعب مالية ارتبطت بسياسة الدولة منذ العصر الراشدي تجاه مواد الغنائم وأموال الخراج والجزية وغير ذلك ، وقد شكا الجند العرب منذ عصر أمير

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (١٣٦ ـ ٠٠) .
(٢) ـ انظر ما تقدم ص (١٣٧ ـ ١٣٩) .
(٣) ـ انظر ما تقدم ص (١٤٠ ـ ٠٠٠) .

المؤمنين عمر بن الخطاب من تجاوزات بعض القادة والعمال وتصرفهم بالأموال الأمر الذي تعاظم بشكل تعذر طيه في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان فقاد نحو احداث الفتنة الكبرى [1] . وسعى الإمام علي كرم الله وجهه لتقويم الأحوال ، فكانت المسألة أكبر من أن تقوم واتسع الخرق ، واستطاع معاوية لاستقلاله بموارد الدولة ان يستولي على السلطة وان يحول الخلافة إلىٰ ملكية تتصرف بالمال والنفوس كما تهوى .

وظلت مسألة المال مسألة تربعت بشكل متين جداً وراء كل حركة معارضة ، وبرزت بشكل واضح في برنامج أي حزب من الاحزاب التي نشأت ضد الحكم الأموي .

ومن المثير للانتباه ان العصر الأموي سيطرت على ساحات العمل السياسي فيه الاحزاب المعارضة ، وهي التي طورت الفكر السياسي والعقائدي لهذا العصر ، ولم يمتلك الامويون حزبا عقائديا خاصا بهم بل امتلكوا مجموعات من الأعوان الذين تقلبت اهواؤهم وتغيرت ، وهذه مسألة تثير الانتباه ، ولعلها كانت الدرس الذي تعلمه العباسيون فيما بعد حيث حافظوا على حزب خاص بهم .

لقد أسهم الأمويون في تطور ادارة الدولة ، وفي تطوير الحياة العسكرية ، وبعض الجوانب الثقافية . . . إنما كان اسهامهم المباشر في تطوير العقائد السياسية معدوما وهذا عائد أما إلىٰ لعدم التفكير في تكوين حزب للسلطة أو حين فكر بعضهم مثل عمر بن عبد العزيز أو يزيد الناقص لم يجدوا الفرصة الكافية للتأسيس والتطوير ، ولهذا قيل ان احزاب المعارضة هي التي صبغت الحياة السياسية في العضر الاموي بصبغتها .

ومع الاهتمام بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية لقد أسهمت المواريث في الصراعات الاقليمية في تطوير حركات المعارضة والحزبية السياسية في العصر الأموي ، فالصراع الموروث بين بلاد الشام والعراق جعل من العراق مقراً لغالبية حركات المعارضة من خوارج وشيعة وسبأيـة وغير ذلك ، بينما لم تكن مصر مقراً

---

(١) - انظر ما تقدم ص (٨١ - ٨٥) .

لاحزاب معارضة وجاءت حركات المعارضة في الحجاز أشبه بسحابة صيف عابرة[1]

ولون العراق بجغرافيته ومواريثه الحضارية أحزاب المعارضة بألوان خاصة ، فلقد صبغت الكوفة مع الأيام بصبغة التشيع في حين صبغت البصرة بشيء من اللون العثماني ، لكنها طبعت بالطابع الخارجي .

لقد كانت ساحات الكوفة وراء تطور حركة الشيعة ، هذه الحركة التي بدأت بالحجاز بين صفوف المسلمين الأوائل الذين ارتبطوا ببيت النبي (ص) وتحلقوا حول الإمام علي بن أبي طالب .

ان هذه الحركة تحولت إلىٰ حزب بفضل ما أسهم فيه أهل الكوفة ، فأهل الكوفة حملوا جل أعباء مسؤولية احداث الفتنة الكبرىٰ،وفي الكوفة أقام الامام علي وعلى جندها اعتمد في معركة الجمل ، ومن الكوفة ذهب إلىٰ صفين ثم إلىٰ النهروان،وفي جامع الكوفة اغتيل الإمام علي[2] .

والكوفة هي التي تصدت لمعاوية بن أبي سفيان ، وفيها بعد استدعى الكوفيون الامام الحسين ، وفي أراضي الكوفة كانت فاجعة كربلاء ، ومن الكوفة خرج التوابون وفي الكوفة نجح المختار وحكم لفترة من الزمن ، ومع الأيام صبغت الكوفة بصبغة شيعية صرفة وتحملت مسؤولية التطوير العقائدي والسياسي لحركة الشيعة التي غدت حزبا وفرقة ، فعدة أحزاب وعدة فرق ،وتثير قضية نشاط الكوفة ودورها في حركة التشيع مشكلة دور الأئمة من أبناء علي بن أبي طالب خاصة الفرع الحسيني منهم في مراحل تطوير التشيع عقيدة وسياسة ، وهو ما يدفع في بعض الاحيان إلىٰ الشعور بنوع من أنواع الازدواجية وتداخل كبير في نسبة الافكار من حيث الصحة وكذلك من حيث الواقع[3] .

كانت حركات التشيع خلال العصر الأموي أعظم الحركات السياسية قاطبة ولقد انهكت قوىٰ الأمويين في الحرب وفي السلم وتورط الأمويون في أعمال انتقامية

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٨٦- ٠٠٠) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (١٥١ ـ ٠٠٠) .

(٣) ـ انظر ما تقدم ص (١٦٣ ـ ٠٠٠) .

منحتهم النجاح السياسي المؤقت ، إنما حكمت بزوالهم ووصمهم أبد الدهر مثلما حدث في كربلاء ، والقضاء علىٰ ثورة زيد بن علي وقتل يحيى بن زيد ، فبعد كربلاء قامت حركات التشيع بصنع تنظيمات عقائدية كانت على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لتطوير العمل النسياسي وقد وصلت هذه التنظيمات المحكمة الذروة في الدعوة العباسية التي تمكنت من الاطاحة بالحكم الأموي[1] .

ولعل الأسهامات الفكرية المتنوعة لحركات الشيعة لها الدور الاعظم في تطور العمل السياسي فكرا وتطبيقا خلال العصر الأموي ، فقد التزمت معظم الأطراف (الشيعة خاصة الذين عرفوا فيما بعد بالامامية بعد معركة كربلاء) بنوع من المقاومة غير المسلحة للنظام الأموي ، ولقد فتت هذه المقاومة قوىٰ هذا النظام واستطاعت ان تخرقه في عميقه ، فالخط الامامي هو الذي روج لعقيدة أهل العدل ، وكان المسؤول عن التبشير بها في كل مكان ، ولعل عمر بن عبد العزيز قد تأثر بأفكار أهل العدل عندما كان واليا للوليد بن عبد الملك على المدينة ، وعندما وصل إلىٰ الخلافة سعى للأخذ بمبادىء هذه الدعوة مما شكل منعطفا مميزاً في تاريخ العصر الأموي .

ولم ينحصر التطلع إلىٰ السلطة والطموح للوصول إلىٰ الخلافة علىٰ آل عبد مناف من أبناء قصي بن كلاب بل تعداهم إلىٰ عشائر قرشية أخرى ، فاعتماد عمر بن الخطاب لشورىٰ الستة فيه مؤشر علىٰ هذا ، والذي شهدته ساحات الحجاز أيام الفتنة الكبرىٰ دلل على تحرك بعض عشائر قريش خاصة بني أسد للوصول إلىٰ السلطة ، واتضح هذا في موقف الزبير وابنه عبدالله من بيعة الإمام علي ثم وضح تماما في أثناء الحرب في معركة الجمل التي حسمت الموقف لصالح الامام علي ولئن هزم الاسديون في هذه المعركة ، فانهم لم يتخلوا عن مطامحهم وظل ممثلهم عبدالله بن الزبير يتربص وينتظر فرصه ، وهذا ما كان يدركه معاوية بن أبي سفيان تمام الإدراك وقد عبر عنه في أكثر من مناسبة خاصة في وصيته لابنه يزيد[2] .

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (١٩٨ ـ ٢٠٠) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢٠٥ ـ ٢٠٠) .

والمطامح الأسدية ـ كما أشرنا أعلاه ـ قديمة ، فلقد حاول عثمان بن الحويرث الأسدي تأسيس ملك في مكة بالتعاون مع الامبراطورية البيزنطية ، وأخفق ابن الحويرث في مهمته لمقاومة القرشيين له ولتصدي واحد من أبناء عبد المطلب مباشرة له ، ومن جديد حال علي بن أبي طالب المطلبي وبين الزبير بن العوام الأسدي وبين الوصول إلىٰ الخلافة ، وتعلم عبدالله بن الزبير هذا الدرس ، فلم يعلن عن خططه للوصول إلىٰ الخلافة بعد وفاة معاوية نظراً لوجود الحسين بن علي في مكة ، وكان الحسين أبرز شخصيات قريش ، إليه تتطلع أبصار جميع قوىٰ المعارضة ولهذا سعىٰ ابن الزبير للتخلص من الحسين وشجعه علىٰ الاستجابة لدعوات أهل الكوفة والذهاب إلىٰ العراق ، ليس بمفرده بل ومعه جميع آله حتى يتخلص بشكل غير مباشر من المنافسة المطلبية .

وبالفعل سافر الحسين إلىٰ العراق ومعه جل آله ، وكانت مذبحة كربلاء والتصفية الجسدية الهائلة التي ألمت بآل النبي صلى الله عليه وسلم فخلا الجو وقتها لابن الزبير ، وأعلن عن مطامحه وثورته في مكة ، وصمد ابن الزبير في وجه الجيوش التي بعث بها يزيد بن معاوية ضد المدينة وضده ، وتوفي يزيد وسنحت الفرص لابن الزبير فأعلن عن نفسه خليفة وفق طريقة مماثلة للطريقة التي وصل بها معاوية بن أبي سفيان إلىٰ الخلافة ، فهو لم يكن من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة ، ولم يجر انتخابه وفق طريقة السقيفة ولا حسب طريقة شورىٰ الستة ، ولم يختره أهل المدينة ، وهم كانوا أهل الحل والعقد ، بل ادعىٰ أن عثمان قد أوصىٰ له ، ومعاوية قبله ادعىٰ أنه ولي عثمان والمطالب بدمه .

وكان ابن الزبير على درجة عالية من الدهاء والحنكة وسعة التجربة. وأبوه كان حواري رسول الله. وابن عمته ، وأمه أسماء بنت أبي بكر وخالته عائشة أم المؤمنين[1] .

ومثل الأمويين أيضاً لم يمتلك ابن الزبير حزباً خاصاً به يشبه حزب الخوارج أو الشيعة ، وصحيح أنه نجح في السيطرة علىٰ غالبية أجزاء دار الإسلام فيما عدا جنوب بلاد الشام ، فقد أخفق في مواجهة الأسرة الأموية بعد مؤتمر الجابية فقد

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٢٠٧ ـ ٢٠٩) .

تحكمت الجغرافية بقضيته أشد التحكم ، ومع الاقرار أنه لم يكن من السهل عليه ايجاد مقر بديل لسلطانه يخرج إليه ويترك مكة والحجاز ، فإن مكة منذ العصر النبوي كانت قد فقدت امكاناتها العسكرية المتواضعة ، وبعد الفتوحات ثم إثر الفتنة الكبرىٰ وقيام الخلافة الأموية ، استقرت القوىٰ العسكرية العربية والزعامات السياسية والادارية والمالية خارج الحجاز ، فقد ملكت الأمصار زمام القرار الحاسم ، ومن هنا جاء حكم ابن الزبير واستمرار قرابة عقد من الزمان ظرفيا عابراً ، سهل بعد القضاء علىٰ أخيه في العراق وانتزاعه منه ارسال الجيوش ضده ومن ثم القضاء عليه واعتبار عصره كله فتنة .

لقد تهيأت بعض الفرص أمام ابن الزبير للتحالف مع فئات المعارضة الأخرىٰ من خوارج وسواهم ، فأخفق ، فاصطدم بالخوارج وبالمختار وبالشيعة ، وهدد الازارقة حكمه في البصره وانتزع المختار الكوفة منه لفترة طويلة ، وبددت صراعات العراق قواه لذلك تمكن عبد الملك من القضاء على مصعب بعد ما كان مصعب قد قضىٰ على المختار بن أبي عبيد وقتل الآلاف من أعوانه[1] .

لم يحظ ابن الزبير بشعبية كبيرة في مكة ، واصطدم بمحمد بن الحنيفة وعبدالله بن عباس ، وزعزع هذا الصدام هيبته المادية والمعنوية[2] ، كما انه لم يطور ادارة مركزية للخلافة في مكة ، وتعلقت الأمور إلىٰ حدٍ ما به شخصياً ، لذلك عندما قتله الحجاج وأزاله من الوجود آزال معه جميع معالم سلطانه ، واختفىٰ بموته كل مطمع قرشي غير هاشمي أو أموي للسلطة .

ولقد أفرز الصراع السياسي على السلطة بين المسلمين نتاجاً فكرياً تطور مع الأيام ليشغل أدواراً كبيرة في العصرين الأموي والعباسي ، وكان الأساس في تفجر الصراعات الفكرية مسائل الكفر والإيمان، والتفاوت في فهم بعض القضايا الإسلامية وتعليلها ، اضافة إلىٰ هذا المواجهة التي قامت بين الإسلام وتراث أمم البلدان المفتوحة ودياناتها من كتابية وغير كتابية مع أعمال الترجمة ، ومع وجود اشارات لشيء من الترجمات قبل الإسلام تشير بعض المصادر إلىٰ ان العرب أخذوا

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٢١٠ ـ ٢١٢) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢١٣ ـ ٢١٥) .

بترجمة بعض النصوص من الكتاب المقدس وربما من غيره منذ أيام عمر بن الخطاب ، ففي أثناء شرح أبي عبيد القاسم بن سلام لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص : «من أشراط الساعة ان توضع الأخيار وترفع الأشرار ، وان تقرأ المثناة علىٰ رؤوس الناس لا تغير» قيل : وما المثناه ؟ قال : ما استكتب من غير كتاب الله عز وجل . قال أبو عبيد : فسألت رجلاً من أهل العلم بالكتب الأول ـ قد عرفها وقرأها ـ عن المثناة، فقال ان الأحبار والرهبان من بني اسرائيل بعد موسى وضعوا كتاباً فيما بينهم علىٰ ما أرادوا من غير كتاب الله تبارك وتعالىٰ فسموه المثناة ، كأنه يعني أنهم أحلوا فيه ما شاؤوا وحرموا فيه ما شاؤوا على خلاف كتاب الله تبارك وتعالىٰ ، فبهذا عرفت تأويل حديث عبدالله بن عمرو أنه إنما كره الأخذ عن أهل الكتب لذلك المعنىٰ ، وقد كانت عنده كتب وقعت إليه يوم اليرموك ، فأظنه قال هذا لمعرفته بما فيها»[1] .

لقد أسهم هذا كله في نشوء أهم الحركات الفكرية للعصر الأموي يتصدرها المعتزلة ، ويليها المرجئة والقدرية والجهمية والعثمانية .

ويبدو ان نشوء حزب المعتزلة يعود إلىٰ الأيام التي تلت الفتنة الكبرىٰ أثناء الحروب الأهلية والصراعات على الخلافة ، ولعلها ارتبطت بموقف سعد بن أبي وقاص من الحروب الأهلية والتحكيم[2] .

ومع الأيام تطورت هذه الحركة وأخذت تستقل عن غيرها وتتميز بأفكار خاصة هي : العدل ، والتوحيد ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولقد شغلت عقيدة التوحيد الدور الأساسي في تاريخ الاعتزال ، وكان المعتزلة روادا في مجالات الفكر والسياسية ومعالجة بعض القضايا الاجتماعية وشغلوا دوراً فعالاً ومؤثراً لقرون عديدة ، فأثروا بعمر بن عبد العزيز وقدموا له الكوادر التي ساعدته على تطبيق سياسته ، كما قدموا عددا من الشهداء الاصلاحيين الكبار

---

(١) ـ أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ـ غريب الحديث ط . حيدر أباد الدكن ١٩٦٧ ، ج ٤ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢١٥ ـ ٢١٨) .

مثل غيلان الدمشقي وسواه ، وتصدوا لأعداء الاسلام وانتقلت بعض مؤثراتهم إلىٰ خارج الأوساط الإسلامية ، ومنهم كان اعلام الزهد الأول يتقدمهم الحسن البصري وعمرو بن عبيد ، ولمع بين صفوفهم واصل بن عطاء الذي صاغ الأصول الخمسة للاعتزال وأرسل الدعاة إلىٰ مختلف البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب ، وكان لما نادى به دعاة الاعتزال في ميدان العدل أن تبنت ثورات القرن الثاني ضد السلطان الأموي هذا الشعار ، لا بل أكثر من هذا تبناه بعض الشخصيات الأموية الكبيرة وكان له بالتالي أبعد الآثار على مستقبل الخلافة الأموية[1] .

وحين يبحث المرء في تاريخ نشوء الاعتزال يجد بعض التشابك والتمازج مع حركة أخرى هامة هي الارجاء ، فقد بحث المسلمون في قضايا الإيمان والكفر ومدىٰ تأثير الحروب الأهلية عليهما كما تصدوا لقضايا المصير والحساب يوم القيامة ، وحين تعسر عليهم التوصل إلىٰ الحلول المقنعة أرجأوا البت فيها إلىٰ الله تعالىٰ ، ويلاحظ ان حركة الارجاء قد نشطت ، لا بل قامت بالأصل ، خارج شبه جزيرة العرب في الشام والعراق البلدان اللذان ملكا تراثاً حضارياً وفكرياً وعقائدياً كبيراً جداً ولقد كان للارجاء أوسع الآثار على أوساط الفقهاء ورجال الدين حتىٰ قيل ان أبا حنيفة مؤسس مدرسة العراق الفقهية كان مرجئا ، وقيل ان عدداً كبيراً ممن شارك في ثورة ابن الاشعث كانوا أيضاً ذوي ميول نحو الارجاء ، وكذلك الذين شاركوا في ثورة يزيد بن المهلب[2] .

والتمازج بين أصول الاعتزال وأصول الحركة التي حملت اسم القدرية أكبر منها بين الاعتزال والارجاء ، وفي دوامة الصراعات الكبرىٰ أثار بعض الناس مسألة قدر الانسان وحريته ، وهذه مسألة أزلية ، وقد قيل ان المسلمين تفجر بينهم النقاش حول القدر ذاتياً ، وروي أيضاً أن ذلك جاء عن طريق بعض النصارىٰ في الشام والعراق ، وهنا ينبغي أن لا يكون الحديث عن مؤثرات خارجية بل عما نتج

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٢٢٠ ـ ٢٢٤) .
(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢٢٥ ـ ٢٢٩) .

عن محاولات المزج بين التراث العقائدي للشام والعراق وسواهما ـ وهو تراث عربي إلىٰ أبعد الحدود ـ والتجربة العربية الإسلامية الجديدة .

ومهما اختلفت الآراء حول أصل القدرية ، لقد شغلت هذه الحركة دوراً واسعاً ومؤثراً في جميع الأوساط الإسلامية السياسية وغير السياسية ، وتأثرت بها قوىٰ الحكم والمعارضة ووضح هذا أيام عمر بن عبد العزيز ومن بعده ، وألصقت تهمة القول بالقدر ، وأن الإنسان قادر على صنع عمله الذي يريد ، ولهذا يستحق الجزاء بحسب عمله ، ألصقت بعدد من كبار العلماء الذين عملوا في مجالات التاريخ وكانت لهم مواريث مسيحية وميول شيعية مثل وهب بن منبه ومحمد بن اسحق كما قيل ان معاوية بن يزيد بن معاوية كان قدريا ، وكذلك يزيد (الناقص) ابن الوليد بن عبد الملك .

ولعل مما يبرهن على ضخامة الدور الذي شغله القدرية كمية الأحاديث المنسوبة إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم بما يوافق آراءهم أو يعارضها [1] .

لقد تصدت القدرية للسياسة الأموية في القمع والظلم ونادت بالمساواة والانصاف ، وحاربت الجبرية التي تمسك بها رجال السلطة الأموية لتسويغ تجاوزاتهم المالية والعسكرية والأمنية ، كما وآمنت بعدم حصر الخلافة بين صفوف قريش أو العرب بل جعلوها وقفا على المسلمين وشورىٰ بينهم ، ومن هنا يمكن ان نتصور خطرها وتأثيرها[2] .

ومع القدرية وباتجاه معاكس لها نشطت حركة أخرىٰ هي الجهمية ، نالت نسبتها من أبرز رجالاتها وليس مما نادت به من أفكار ومبادىء ، وأبرز رجالها هو الجهم بن صفوان وكان تلميذا للجعد بن درهم وقد قالت ان الإنسان لا يملك حرية الاختيار بل هو مجبر لا يملك قدره ولا يستطيع ان يعمل إلا ما رسم له ، وكان الجعد بن درهم ـ كما قيل ـ من أهل حران اتهم بالزندقة وغير ذلك من التهم ، وتحدثت بعض الأخبار أن الجعد كان مولىٰ للمروانيين ، وأنه كان أستاذ

---

(١) ـ انظر ما سلف ص (٢٣٠ ـ ٢٣٥) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الذي أضيف إلىٰ اسمه «الجعدي» نسبة إلىٰ أستاذه .

ووجه الخطورة فيما نادىٰ به الجعد ثم تلميذه الجهم كان فيما قالا ، أنه لا ثواب ولا عقاب فهذا يقود إلىٰ التعطيل وأنه لا يحق للدولة ملاحقة العصاة أو القضاء على المتمردين أو فرض قانون فيه نواهي وأوامر[1] .

ونشط الجهم بشكل كبير وفعال في خراسان وارتبط اسمه بالحارث بن شريح الثائر الكبير على الدولة الاموية ، وربطت بعض المصادر بين المرجئة والجهمية وتحدثت عن آثارها الواسعة في التأثير المعارض لبني أمية ، لذلك لاحق الامويون وعمالهم كل الذين اتهموا بالجهمية وقتلوهم بلا تردد مثلما فعل الحجاج مع سعيد بن جبير وغيرهم ممن تعاون مع ابن الاشعث في ثورته[2] .

ويلاحظ بشكل عام ان الجهمية كانت حركة خطرة جدا في معارضتها للنظام الاموي قادها علماء جلهم من أصل غير عربي ولهم خلفيات غنطوسية او مانوية ، ولقد مهدت هذه الحركة للنجاح الهائل الذي أصابته الدعوة العباسية ، وفي انتصار اصحاب الرايات السود وهدمهم لخلافة دمشق[3] .

ومع ان معاوية بن أبي سفيان وصل الى الخلافة من خلال الادعاء بأنه ولي عثمان بن عفان ، فإننا نلاحظ ان المصادر تحدثت عن حركة اسمها العثمانية كانت من بين من عارض النظام الاموي لكن بشكل ضعيف التأثير ، وراجت الحركة في البصرة منذ معركة الجمل ، ولم يتزعمها أحد من آل عثمان ، وكتب لها الخلود من خلال التنافس بين الكوفة والبصرة ، فالكوفة صبغت بالتشيع واتخذت البصرة مواقف معارضة ، ثم كان أن أتيح لها أن أفرد الجاحظ احدى رسائله لتحمل اسمها مع أن جل المادة التي قدمها الجاحظ في هذه الرسالة تعلقت بالشيعة وحق آل علي بالخلافة[4] .

ومهما عظم دور الحركات الفكرية يبقى ادنى من الدور الذي شغلته العصبيات

---

(١) - انظر ما تقدم ص (٢٣٧ - ٢٣٩) .

(٢) - انظر ما تقدم ص (٢٣٨ - ٢٣٩) .

(٣) - انظر ما تقدم من (٢٤٠ - ٢٤١) .

(٤) - انظر ما تقدم ص (٢٤٢ - ٢٤٦).

القبلية ، فعلى ضوء صراع العصبيات حاول عدد من الباحثين تعليل التاريخ الأموي [1] .

لقد كان قوام الحياة السياسية والاجتماعية لعرب شبه الجزيرة قبل الاسلام يعتمد على القبيلة ، وشكلت القبائل قوام الطاقة البشرية للجيوش العربية ، واستقرت قبائل الفتوحات في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان في معسكرات خاصة بها أقامتها حديثا أو جددتها .

وجرت في ايام عمر بن الخطاب اول محاولة رسمية في تاريخ العرب لتثبيت التشكيلات القبلية لقبائل الفتوحات فيما عرف باسم ديوان الجند وبعد اليرموك والقادسية تمت اعادة تنظيم القبائل وتوزيعها ، وتحولت معسكرات القبائل الى مشاريع مدن واستمرت الهجرة ، وجرت محاولات تنظيمية جديدة في الكوفة والبصرة لكن هذا كله لم يكن حاسما بالنسبة لأوضاع القبائل ومواقفها السياسية [2] .

ان الحدث الحاسم كان الحروب الاهلية في الجمل وصفين ، فقد أثرت هذه الحروب على التركيبة القبلية في الشام والعراق ، فقد بددت الحروب الاهلية الطاقات القتالية لقبائل الفتح ، ودفعت قبائل كلاب الى الهجرة من العراق الى الشام الأعلى والجزيرة ، وهيأت الفرصة امام قبائل الشام لما قبل الفتوحات لا لإستعادة نفوذها فحسب بل للتحالف مع العرش الاموي ، وهكذا صاهر معاوية قبيلة كلب ، وقاد هذا الى فتح صفحة جديدة بتاريخ بلاد الشام حيث تفجر الصراع بين كلب وكلاب واستمر لقرون طويلة [3] .

ان وقوف بعض القبائل الى جانب السلطات الاموية ومعارضة بعضها مع الصراعات حول المصالح والمراعي والغنائم والولايات عرف باسم العصبيات ، وعمت العصبيات ديار الاسلام قاطبة ، وكانت في بعض المناطق أشد قسوة ووضوحا منها في مناطق اخرى .

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٢٤٨ ـ ٢٤٩) .

(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢٥٤)

(٣) ـ انظر ما تقدم ص (٢٥٩ ـ ٢٦٦) .

لقد كانت واضحة في بلاد الشام دار الخلافة الاموية ، والمثير للانتباه أن النسابين العرب قد قالوا بأن عرب شبه الجزيرة قد انحدروا من جدين رئيسيين هما : عدنان وقحطان ، وذهبت التفسيرات الحديثة الى القول ان هذا التقسيم صدر عن الواقع الجغرافي لشبه جزيرة العرب ، التي تميز فيها الشمال عن الجنوب مناخيا واقتصاديا واجتماعيا ، وبعدما سيطرت قبائل قيس على شمال الشام اصطرعت مع قبائل الجنوب ، وجاءت معركة مرج راهط لتقسم الشام الى دارين : شمالية لقيس وجنوبية لكلب ، وتصارعت قبائل قيس مع قبائل كلب ، وأثرت صراعاتها على السياسة الاموية وصبغت تاريخ بلاد الشام بصبغتها في كثير من الجوانب ، ففي الفترات المبكرة آثر خلفاء بني أمية دمشق والجنوب ثم بعد ذلك منذ أيام سليمان بن عبد الملك أخذوا يؤثرون الشمال حتى ان مروان بن محمد اتخذ من حران في الشمال مقراً لخلافته [1] .

ونجم عن الصراعات القبلية نتائج سياسية وأدبية واجتماعية واقتصادية كبيرة وانعكست على الدولة بمجملها ، وتفجرت الصراعات في غالب الاحيان لأسباب لم تكن لها علاقة بالنسب ، بل ارتبطت بمختلف القضايا والمواريث وكان للعرب أيامهم في العصر الاموي مثلما كان لهم أيامهم في الجاهلية ، وكانت بلاد الشام والعراق وخراسان والاندلس مسارح هذه الايام ، والملاحظ ان السلطات الاموية أخفقت في إيجاد سياسة توازن بين العصبيات [2] ، ففقدت بذلك شطرا كبيرا من قواها وتوفرت الثغرة للمخططين للاطاحة بها فدخلها رجال الدعوة العباسية في خراسان وأفادوا منها كثيرا مما مكنهم من الاطاحة بالحكم الاموي واحلال حكم لم يكن لصالح العرب والعروبة كما كان الحكم الاموي .

---

(١) ـ انظر ما تقدم ص (٢٦٧ ـ ٢٧٢) .
(٢) ـ انظر ما تقدم ص (٢٧٣ ـ ٢٨٩) .

جريدة المصادر والمراجع

١) ـ ابراهيم بن علي الحصري ـ زهر الآداب ـ القاهرة ١٩٥٣ .

٢) ـ ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني ـ تاريخ افريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٦ .

٣) ـ احسان النص ـ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ـ دمشق ١٩٧٣ .

٤) ـ أحمد بن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ بيروت ١٩٨٩ .

٥) ـ أحمد بن حنبل ـ الرد على الزنادقة والجهمية ـ حماة ١٩٦٥ .

٦) ـ احمد بن داود الدينوري (أبو حنيفة) ـ الأخبار الطوال ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٧) ـ احمد بن سعيد الدرجيني ـ طبقات المشايخ بالمغرب ـ قسنطينة «مطبعة البعث» .

٨) ـ احمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ، كتاب السير ، قسنطينة ـ ١٨٧٨ .

٩) ـ احمد بن سهل البلخي ـ البدء والتاريخ ـ باريس ١٩١٦ .

١٠) ـ احمد بن عبد الله الرازي ـ تاريخ مدينة صنعاء ـ دمشق ١٩٨١ .

١١) ـ احمد بن عبد الله (أبو نعيم الحافظ) ـ حلية الأولياء ـ القاهرة ١٩٣٣ .

١٢) ـ احمد بن عبد الوهاب النويري ـ نهاية الارب ج٢ ـ القاهرة ١٩٧٥ .

١٣) ـ احمد بن علي بن ثابت (الخطيب البغدادي) ـ تاريخ بغداد ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي .

١٤) ـ احمد بن علي بن حجر .
ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ القاهرة ١٩٣٩ .
ـ لسان الميزان ـ بيروت ١٩٧٠ .
ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر اباد الدكن ١٣٢٦ .
ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ط . مصورة ـ دار الفكر ـ بيروت .
١٥) ـ احمد بن علي المقريزي ـ المقفى في أخبار مصر (مجلدة باريس ـ نسخة مصورة في مكتبة الدكتور سهيل زكار) .
١٦) ـ احمد غسان سبانو ـ الحسن البصري ـ دمشق ١٩٨٢ .
١٧) ـ احمد محمود صبحي .
ـ المعتزلة ـ الاسكندرية ١٩٨٢ .
ـ نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية ـ القاهرة ١٩٦٩ .
١٨) ـ احمد بن موسى بن جعفر بن طاووس ـ بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية ـ عمان ١٩٨٥ .
١٩) ـ احمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
ـ كتاب البلدان ـ بيروت ١٩٨٩ .
ـ أنساب الأشراف ج١ ـ القاهرة ١٩٥٩ .
ج٢ ـ بيروت ١٩٧٣ .
ج٤ ـ ٥ ـ القدس ١٩٣٨ ـ ١٩٧٠ .
(نسخة مصورة عن مخطوطة استانبول في مكتبة الدكتور سهيل زكار) .
٢٠) ـ احمد بن أبي يعقوب بن واضح ـ تاريخ اليعقوبي ـ بيروت ١٩٦٠ .
٢١) ـ اردشير ـ عهد اردشير ـ بيروت ١٩٦٧ .
٢٢) ـ أسد حيدر ـ الامام الصادق والمذاهب الأربعة ـ بيروت ١٩٨٣ .
٢٣) ـ ا . ف . غوتيه ـ ماضي شمال افريقية (ترجمة عربية) طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٠ .
٢٤) ـ أمين سعيد ، حروب الاسلام والامبراطورية البيزنطية ـ القاهرة ١٩٣٥ .
٢٥) ـ ايف لاكوست ـ العلامة ابن خلدون (ترجمة عربية) بيروت ١٩٧٤ .
٢٦) ـ آية الله الخميني (الامام) ـ شرح دعاء السحر ـ بيروت ١٩٨٢ .
٢٧) ـ برنارد لويس ـ أصول الاسماعيلية (ترجمة عربية) بغداد ١٩٤٧ .

٢٨) ـ بحاز ابراهيم بكير ـ الدولة الرستمية ـ الجزائر ١٩٨٥ .
٢٩) ـ ابو بكر المالكي ـ رياض النفوس ـ بيروت ١٩٨٣ .
٣٠) ـ تنسر الحكيم ـ كتاب تنسر (ترجمة عربية) ـ القاهرة ١٩٥٤ .
٣١) ـ جيو وايد نغرين ـ ماني والمانوية (ترجمة عربية) دمشق ١٩٨٥ .
٣٢) ـ حبيب بن أوس (أبو تمام) ـ ديوان الحماسة (شرح المرزوقي) ـ القاهرة ١٩٥٢ .
٣٣) ـ الحسن بن موسى النوبختي ـ فرق الشيعة ـ استانبول ١٩٣١ .
٣٤) ـ حسين عطوان ـ الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي ـ بيروت ١٩٨٦ .
٣٥) ـ الحسن بن علي المغربي ـ الايناس في علم الأنساب ـ الرياض ١٩٨٠ .
٣٦) ـ خريسو ستمس ـ بابادوبولس ـ تاريخ كنيسة انطاكية (ترجمة عربية) بيروت ١٩٨٤ .
٣٧) ـ خليفة بن خياط :
ـ كتاب الطبقات ـ دمشق ١٩٦٦ .
ـ تاريخ خليفة ـ دمشق ١٩٦٧ .
٣٨) ـ الربيع بن حبيب ـ الجامع الصحيح ـ دمشق ١٩٦٨ .
٣٩) ـ ر. دوزي ـ تاريخ مسلمي اسبانيا (ترجمة عربية) القاهرة ١٩٥٨ .
٤٠) ـ رياض عيسى ـ النزاع بين أفراد البيت الأموي ودوره في سقوط الخلافة الأموية ـ دمشق ١٩٨٥ .
٤١) ـ الزبير بن بكار .
ـ الأخبار الموفقيات ـ بغداد ١٩٧٢ .
ـ جمهرة نسب قريش ـ القاهرة ـ دار العروبة .
٤٢) ـ ابو زكريا الازدي ـ تاريخ الموصل ـ القاهرة ١٩٦٧ .
٤٣) ـ زهدي جاد الله ـ المعتزلة ـ بيروت ١٩٧٤ .
٤٤) ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٧٦ .
٤٥) ـ سعيد الافغاني ـ عائشة والسياسة ـ بيروت ١٩٧١ .

٤٦) ـ سهل بن محمد (أبو حاتم) السجستاني ـ المعمرون والوصايا ـ القاهرة ١٩٦١ .
٤٧) ـ سهيل زكار :
ـ الجامع في أخبار القرامطة ـ دمشق ١٩٨٨ .
ـ تاريخ العرب والاسلام ـ بيروت ١٩٧٥ .
٤٨) ـ س. هـ. هول ـ ديانة بابل وآشور (ترجمة عربية) ـ دمشق ١٩٨٧ .
٤٩) ـ شارل اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية (ترجمة عربية) تونس ١٩٦٩ .
٥٠) ـ صالح احمد العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ـ بيروت ١٩٦٩ .
٥١) ـ عبد الجبار بن احمد الهمذاني :
ـ المغنى في أبواب التوحيد والعدل ـ القاهرة (المؤسسة العامة للتأليف والنشر) .
ـ فرق وطبقات المعتزلة ـ القاهرة ١٩٧٢ .
٥٢) ـ عبد الرحمن بن احمد الايجي ـ المواقف (شرح الجرجاني) القاهرة ١٣٢٧ .
٥٣) ـ عبد الرحمن بدوي ـ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٤٦ .
٥٤) ـ عبد الرحمن بن عبد الحكم :
ـ فتوح مصر وأخبارها ـ ليدن ١٩٢٠ .
ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ دمشق ١٩٦٤ .
٥٥) ـ عبد الرحمن بن محمد بن حبيش :
ـ ذكر الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة ـ بيروت ١٩٨٩ .ج
٥٦) ـ عبد القاهر البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ بيروت ١٩٧٧ .
٥٧) ـ عبد الله بن احمد بن محمود ـ ابو القاسم البلخي ـ فضل الاعتزال ـ تونس ـ الدار التونسية .

٥٨) ـ عبد الملك بن هشام ـ السيرة النبوية ـ القاهرة ١٩٥٥ .
٥٩) ـ عبيد بن شريه ـ أخبار عبيد ـ حيدر اباد الدكن ١٣٤٧ .
٦٠) ـ عثمان بن سعيد الدارمي ـ الرد على الجهمية ـ ليدن ١٩٦٠ .
٦١) ـ علي بن أحمد بن حزم :
ـ نقط العروس (ضمن رسائل ابن حزم ج٢) .
ـ جمهرة أنساب العرب ـ بيروت ١٩٨١ ـ القاهرة ١٩٦٢ .
٦٢) ـ علي بن اسماعيل الأشعري :
ـ الابانة على أصول الديانة ـ القاهرة (ادارة الطباعة المنيرية) .
ـ مقالات الاسلاميين ـ القاهرة ١٩٥٠ .
٦٣) ـ علي بن الحسين بن عساكر ـ تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) نسخة مصورة في مكتبة الدكتور سهيل زكار) .
ـ ترجمة علي بن أبي طالب + الحسن بن علي + الحسين بن علي ـ بيروت ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠ .
٦٤) ـ علي حسني خربوطلي ـ المختار ـ مرآة العصر الأموي ـ القاهرة ١٩٦٢ .
٦٥) ـ علي بن الحسين (أبو الفرج) الاصفهاني .
ـ مقاتل الطالبيين ـ القاهرة ١٩٤٩ .
ـ الأغاني ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة .
٦٦) ـ علي بن الحسين المسعودي .
ـ مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٥٨ .
٦٧) ـ علي بن عيسى الاربلي ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة ـ بيروت ١٩٨١ .
٦٨) ـ علي المتقي بن حسام الدين الهندي ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ـ بيروت ـ ١٩٧٩ .
٦٩) ـ علي بن محمد الخزاعي ـ تخريج الدلالات السمعية ـ بيروت ١٩٨٥ .
٧٠) ـ علي بن محمد بن أحمد الصباغ ـ الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة ـ النجف ـ بدون تاريخ .

٧١) ـ علي بن محمد بن زيد ـ معتزلة اليمن ـ بيروت ١٩٨١ .
٧٢) ـ عمر بن أحمد بن العديم :
ـ الحسين بن علي وحجر بن عدي ـ دمشق ١٩٨٩ .
ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ دمشق ١٩٨٨ .
٧٣) ـ عماد الدين خليل ـ ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ـ بيروت ١٩٧٠ .
٧٤) ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ رسالة العثمانية ـ القاهرة ١٩٥٥ .
٧٥) ـ عوض خليفات :
ـ نشأة الحركة الاباضية عمان ١٩٧٨ .
ـ النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان في عمان ١٩٨٢ .
ـ الأصول التاريخية للفرقة الاباضية ـ سلطنة عمان .
٧٦) ـ غياث بن غوث ـ «الأخطل الشاعر» ـ بيروت ١٩٨١ ـ ١٩٨٦ .
٧٧) ـ فاروق عمر ـ طبيعة الدعوة العباسية ـ بيروت ١٩٧٠ .
٧٨) ـ فان فلوتن ـ السيادة العربية (ترجمة عربية) القاهرة ١٩٦٥ .
٧٩) ـ فؤاد أنيس الخوري ـ يزيد بن معاوية (رسالة دبلوم دراسات عليا في التاريخ غير منشورة ـ الجامعة اللبنانية) بيروت ١٩٧٤ .
٨٠) ـ القاسم بن سلام :
ـ كتاب الأموال ـ القاهرة ١٩٦٩ .
ـ كتاب النسب (رسالة ماجستير ـ كلية الآداب ـ جامعة دمشق ١٩٨٧) .
ـ غريب الحديث ـ حيدر آباد الدكن ١٩٦٧ .
٨١) ـ ابن القوطية القرطبي ـ تاريخ افتتاح الأندلس ـ بيروت (دار النشر للجامعيين) .
٨٢) ـ ل. ماسينيون :
ـ خطط البصرة وبغداد (ترجمة عربية) بيروت ١٩٨١ .
ـ خطط الكوفة وشرح خريطتها (ترجمة عربية ـ صيدا ١٩٣٩ .

٨٣) - كريستنسن - ايران في عهد الساسانيين (ترجمة عربية) القاهرة ١٩٥٧ .
٨٤) - لطفي عبد الوهاب يحيى - العرب في الشام قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٣ .
٨٥) - لوط بن يحيى (أبو مخنف) كتاب المقتل - بيروت ١٩٧٣ .
٨٦) - محمد احمد باشميل - العرب في الشام قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٣ .
٨٧) - محمد بن احمد بن تميم (أبو العرب) :
- طبقات علماء افريقية وتونس - تونس ١٩٦٨ .
- المحن - بيروت ١٩٨٣ .
٨٨) - محمد أحمد جاد المولى ورفيقية - أيام العرب بالجاهلية - بيروت - دار الفكر .
٨٩) - محمد بن أحمد الحسني الفاسي - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - القاهرة ١٩٦٥ .
٩٠) - محمد بن أحمد الذهبي .
- تذكرة الحفاظ - حيدر أباد الدكن ١٩٥٥ - ١٩٥٨ .
- سير أعلام النبلاء - بيروت - ١٩٨١ .
٩١) - محمد بن أحمد الملطي - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع - القاهرة ١٩٦٨ .
٩٢) - محمد بن اسحق المطلبي - السير والمغازي - بيروت ١٩٧٨ .
٩٣) - محمد بن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك - القاهرة (دار المعارف) .
٩٤) - محمد بن جرير بن رستم الطبري - دلائل الامامة - النجف ١٩٦٣ .
٩٥) - محمد بن حبيب :
- مختلف القبائل ومؤتلفها - الرياض ١٩٨٠ .
- المنمق في أخبار قريش - بيروت ١٩٨٥ .
- المحبر - حيدر اباد الدكن ١٩٤٢ .
١٠٠) - محمد بن الحسن بن دريد - الاشتقاق - القاهرة ١٩٥٨ .
١٠١) - محمد بن الحسن الموسوي (الشريف الرضي) نهج البلاغة - قم ١٣٩٥ .
١٠٢) - محمد حسين آل كاشف الغطاء - أصل الشيعة وأصولها - بيروت (بدون تاريخ) .

١٠٣) ـ محمد بن سعد كاتب الواقدي ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ١٩٥٨ .
١٠٤) ـ محمد السعيد زغلول ـ موسوعة أطراف الحديث ـ بيروت ١٩٨٩ .
١٠٥) ـ محمد الشهرستاني ـ الملل والنحل (على هامش الفصل لابن حزم) القاهرة ١٣١٧ .
١٠٦) ـ محمد بن طولون الصالحي :
ـ أعلام السائلين ـ دار الكتب الظاهرية رقم ١٦٨٩ دمشق .
ـ الأئمة الاثني عشر ـ بيروت ١٩٥٨ .
١٠٧) ـ محمد بن عبد الله الازدي ـ فتوح الشام ـ القاهرة ١٩٧٠ .
١٠٨) ـ محمد بن عبد الله (أبو بكر) بن العربي ـ العواصم من القواصم ـ القاهرة ١٩٧١ (قطعة منه) الجزائر ١٩٧٤ . طبعة كاملة .
١٠٩) ـ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ـ معرفة علوم الحديث ـ بيروت (المكتب التجاري للطباعة والنشر) .
١١٠) ـ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه ـ عيون اخبار الرضا ـ بيروت ١٩٨٤ .
١١١) ـ محمد بن عمر الواقدي ـ المغازي ـ اكسفورد ١٩٦٦ .
١١٢) ـ محمد بن عميرة ـ دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي ـ الجزائر ١٩٨٤ .
١١٣) ـ محمد كرد علي :
ـ أمراء البيان ـ بيروت ١٩٦٩ .
ـ غوطة دمشق ـ دمشق ١٩٨٤ .
١١٤) ـ محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد) كتاب الارشاد ـ بيروت ١٩٧٩ .
١١٥) ـ محمد بن مرزوق التلمساني ـ المسند الصحيح الحسن ـ الجزائر ١٩٨١ .
١١٦) ـ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ـ المغازي النبوية ـ دمشق ١٩٨١ .
١١٧) ـ محمد بن مكرم بن منظور ـ لسان العرب المحيط ـ بيروت (دار لسان العرب) .

١١٨) ـ محمد بن يزيد المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ القاهرة ١٩٣٧ .
١١٩) ـ محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني ـ الأصول من الكافي ـ بيروت ١٤٠١ .
١٢٠) ـ أبو محمد اليماني ـ الفرق والتواريخ (منسوب للامام الغزالي) ـ نسخة خطية بمكتبة د . سهيل زكار .
١٢١) ـ محمود اسماعيل ـ الخوارج في المغرب الاسلامي ـ بيروت ١٩٧٦ .
١٢٢) ـ مؤلف مجهول ـ أخبار العباس وولده ـ بيروت ١٩٧١ .
١٢٣) ـ مؤلف مجهول ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس ـ مدريد ١٨٦٧ .
١٢٤) ـ مؤلف مجهول من القرن الحادي عشر م ـ تاريخ الخلفاء ـ موسكو ١٩٦٧ .
١٢٥) ـ مرتضى العسكري ـ عبد الله بن سبأ ـ المدخل ـ القاهرة ١٣٨١ .
١٢٦) ـ موسى لقبال ـ المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن وحتى انتهاء ثورات الخوارج ـ الجزائر ١٩٨١ .
١٢٧) ـ الناشيء الأكبر ـ مسائل الامامة ـ بيروت ١٩٧١ .
١٢٨) ـ نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ـ بيروت ١٩٧٧ .
١٢٩) ـ نبيلة ابراهيم ـ سيرة الأميرة ذات الهمة (سلسلة تراث الانسانية ج٤) القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .
١٣٠) ـ نصر بن مزاحم المنقري ـ صفين ـ القاهرة ١٣٦٥هـ .
١٣١) ـ النعمان بن محمد ـ الأرجوزة المختارة ـ مونتريال ١٩٧٠ .
١٣٢) ـ فينافكتوبيغوليفسكا ـ العرب على حدود بيزنطة وايران من القرن الرابع الى القرن السادس (ترجمة عربية) ـ الكويت ١٩٨٥ .
١٣٣) ـ هاشم معروف الحسيني ـ سيرة الأئمة الاثني عشر ـ بيروت ١٩٨١ .
١٣٤) ـ هشام بن محمد بن المنذر الكلبي ـ جمهرة أنساب العرب ـ دمشق ١٩٨٦ .
١٣٥) ـ وداد القاضي ـ الكيسانية في التاريخ والأدب ـ بيروت ١٩٧٤ .
١٣٦) ـ ياقوت بن عبد الله الحموي ـ معجم البلدان ـ بيروت (دار صادر)

١٣٧) ـ يحيى محمد بكوش ـ فقه الامام جابر بن زيد ـ بيروت ١٩٨٦ .
١٣٨) ـ يعقوب بن ابراهيم (أبو سيف القاضي) .
ـ كتاب الخراج ـ القاهرة ١٣٨٢هـ .
١٣٩) ـ يعقوب بن سفيان الفسوي ـ المعرفة والتاريخ ـ بيروت ١٩٨١ .
١٤٠) ـ يوسف بن عبد الله بن عبد البر ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب ـ القاهرة ١٩٣٩ (على هامش الاصابة) .
١٤١) ـ يوليوس فلهوزن :
ـ الدولة العربية (ترجمة عربية) القاهرة ١٩٥٨ .
ـ الخوارج الشيعية (ترجمة عربية) القاهرة ١٩٥٨ .

In the Name of Allah, Most GRacious, Most Merciful

INTRODUCTION

There have been many studies in this age about the history of the Umayyad State, and the majority of what has been published so far is concerned with the political aspects from all sides and in accordance with various schools of historical interpretation. Thereupon, an attempt to do a research on the history of political factionalism during the Umayyad Era is considered an adventure involving many dangers. The researcher may find himself obliged to start from where another has stopped, repeating what others before him have written. Such a course is not at all good to adopt as a topic for a doctoral dissertation.

Despite the above, I have adopoted this topic depending on two postulates: First, the possibility of coming across new informational materials in referecnce works not yet explored by researchers so far; the second postulate is related to the way of dealing with the informational materials available and the nature of historical outlooks.

I have decided that without considering these two postulates, it will never be possible to continue with the reasearch work in history and approach the topics taht have already been approached. I have prepared myself from the start to go along with the thorny and long road of research. I have consulted the different sources, both in print and in manuscript, neglecting practically no book that has even the slightest connection with my topic. so, I have consulted books on historical information, books on literature and Jurisprudence (fiqh), traditions and men. My references were both levantine and

Maghrebi. I set to work, free of all influences and consequences of the proceeding researches, partivularly the orientalist ones, and taking advantage of all the experiments, as ths difference is quite clear between the intellectual dependence and the civilizational and intellectual interimpregnation. This commitment has done me good but I have derived a lot of benefit from this commitment, but it added new difficulties to my task, and it may increase the subjection of the independent deductions I have adopted to more opposition and criticism. But I do not mind this as he who is an independent thinker is rewarded any way.

Indeed I have been fortunate to come across new historical materials which have been found in the Damascene historical sources particularly in **A History of Damascus,** by Ibn Asaker, and **Bughyat ul-Talab Fi Tarikh Halab,** by Ibn el-Adim. Alongside these two books, I have relied heavily on the contents of the jurisprudential and historical Ibadite library.

There is no place in this introduction to cite the soures, as a specific place has been dedicated to these sources in the introduction to this dissertation. During my research I have found that all the issues dealt with have deep roots in the history of the Arabs extending to the pre-Islamic Era in the Arabian Peninsula. All of them are overlapping and closely connected with the Prophet's and Orthodox Caliphs' Eras. This is because the Umayyad Era was an Arab extension of these two eras. Mu'awiya ibn Abu-Sufian spent the first half of his life during the period of the Orthodox Caliphs, and the Umayyad-Shi'ite conflict had its roots its own lucid backgrounds in pre-Islamic history, and this applies to the origins of all the factions opposing the Umayyad rule.

The political factionalism in the Umayyad Era had special characteristics different from the other forms of factionalism in the so did the Fatimids after them, but the Umayyads did not havt a faction (party) of their own. What produced most of the political thought in the Umayyad Era was the opposing parties and factions.

Some of the Umayyad caliphs felt this void after Abdul-Malik ibn Marwan, and searched for an outlet. This was most apparent in the days of Sulaiman ibn Abdul-Malik, and then Omar ibn Abdul-Aziz after him. During a dialogue between Sulaiman ibn Abdul-Malik and one of the most prominent scholars of Medina in his days, Sulaiman asked that scholar saying, «What would you say about the state we are in ¿». The scholar said, «Would you absolve me from answering this question?». Sulaiman agreed and said: «What advice would you give me?». The scholar said, «Your fathers have subdued people with the sword, and forcibly taken hold of authority without counsel from the sword, and forcibly taken hold of authority without counsel

from the faithful (believers), thus causing a lot of bloodshed and conquered the world by force and then left shis world. If you are aware of what they said and what was asid to them, you will not by careful about it. «Sulaiman then asked about the best way out of that, but did not get a straightforward reply. But he may have seen a way out by choosing Omar ibn Abdul-Azia to rule after him.

During this research I have sought to identify the origin ot each of the factions, and then state its most important characteristics and roles without going into much detail, but confining myself to citing a few examples, or hinting at some of the major incidents, as going into a lot of detail would have increased the volume of this research many times.

It was not at all easy to deal with the problems of the opposition parties during the Umayyad Era, and the confrontations with the Umayyad authorities because of the intermingling among the concepts of Islam. Each of the issues, even if it had economic or social causes was often manifested in religious and political forms. Working within frameworks of this kind and in atmospheres oversensitive with religion was not at al an easy task, and often the way of expression would let you down while you are trying to express what you really want.

Therefore, this sitation has increased the difficulties of the task set befor me. I «armed» mayelf with perseverance and patience and collaborated in confronting the obstacles with my supervising professor, and then it was possible to establish authoritative way, where supremacy was devoted to Arabism and unity. What we indeed need is deal with our history in a faithful, Arab, unity-bound academic spirit, because «Mecca is no better known than by the Meccans themselves».

This dissertation has come in an introduction and five main chapters and a conclusion. In the introduction I have listed the most important reference materials I have consulted, and in dicated te extent of benefit I have derived from each reference, with the knowledge that I have referred to the contents of the Arabic library in all its sorts, and drew on the source-material of the Sunnites, Shi'ites and Kharijites, and the books of literature, traditions (hadith), jurisprudence (fiqh) religious denominations and creeds. Throughout my work I have committed myself solely to the academic methods, with unshakable faith in the unity of the Arab nation and the interactions of its individuals east and west.

Chapter One bore the title: «Birth of political Factions in Islam». In it I have discussed the roots of political traditions and concepts of Mecca before Islam, where religion had been the only way towards political leadership. Qusay ibn Kilab started his life as a custodian of the Qa'ba and from

custodianship he moved to political leadership, where he took over Mecca and chased off Khuza'ah from it. After he had become master of Mecca he set off to play the new role of legislator and organizer of administrative and daily affairs in Mecca. He established the systems of Quraysh Al-Bitah and Quraysh Al-Zawaher, then the system of «Al-Ahabish». He also established the system of assistance to the Poor (Rifada) and Providing Water (Siqaya) and Dar Al-Nadwa and others. Thus the concepts intermingled in Qusay's works, hence we understand the nonexistence of a clergy class among the Qurayshites.

Not only did the Meccans not known the clergy class, but they did not also approve the principle of leadership by heritage. We can notice that Islam adopted the principle of intermingling of concepts, and the Prophet (my the blessings and peace of Allah be upon him) combined in his person the prophethood and politico-military leadership, in addition to organizational authority. He did not bequeath these functions and responsibilities after his death. Thus the concept of «Religion is the way to political leadership» justified the roots of the opposition which confronted the Umayyad Regime. Mu'awiya attained the position of caliph through his postiton as governor, and not on the grounds of his precedence in Islam or any clear religious reason. He did not derive much benefit, after he attained the caliphate, from what he ascribed to himself of religious qualities, saying that he was the «uncle of the faithful» or one of the Scribes of Revelation.

I also discussed administration and the idea of the state before Islam, and then in the days of Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him), and after that during the era of the Orthodox. In this process I had to give a glimpse at the Dey of Saqifa and the establishment of the Caliphate Institution, and the afterward development of this institution, together with the government experiment, especially in the days of Omar Al-Khattab, and the outcome of the success of the great conquests and the expansion of the state's domains. This led me to mention of the assassination of Omar and Counsel of the Six and the caliphate of Ali ibn Abu-Taleb and the occurrence of the of civil wars till the assassination of Imam Ali.

This Chapter paved the way to talk directly about the Kharijites, and then the Shi'ites. In the Second chapter I discussed the subject of the Kharijites. I started at the beginning when their movement set off, and reviewed the most important theories regarding this, especially the combination between this movement and the Group of readers, in addition to the Sabaean theory with the problem of Saheb Al-Thadia. Then I related the incidence of the emergence of the arbitrators from among the ranks of Imam Ali's army, and the attempts of this great Imam to achieve a compromise

justifying the emergence, and the obduracy of the Kharijites and their shedding of some innocent blood, which led to the Battle of Nahrawan with the assassination of Imam Ali as an outcome of it.

After that, I discussed the relations betwen the Kharijites and Mu'ayiya ibn Abu-Sufian, Mu'awiya sougt the assistance of Al-Mughira ibn Shu'ba and then Ziad ibn Abeeh to confront the Kharijites and subdue them afterwards. Then I touched upon the activities of the Kharijites at the ent of the Sufianite Reign and the collaboration of their leadership with Abdalla ibn Al-Zubayr, and then letting him down, and the breakups which befell their ranks and turned them into contrasting schisms. I took great interest in getting acquainted with the transfer of the Kharijite Movement from Kufa to Basra and concentrated my efforts on examining the backgrounds and tribal origins of the majority of the Kharijites, where I found that most of them belonged to the Tamim Tribe. This made it easy for me to understand some of the reasons behind the assigning of Al-Muhallab ibn Abi Sufra to comat the Kharijites since the period of th Zubairi Rule and his success in his mission. Al-Muhallab was an Azdite, and the Azdites were a prominent Yemeni tribe.

Throughout this research, I have been able to define the principal Kharijite factions: The Azarikites, the Najdats, the Ibadites, the Sefrites, and the roles each faction played in the levantine domains and then in the domains of the Great Arab Maghreb, where the Kharijites played roles not less in importance than the roles they played in the levant. During the research I revealed the existence of an exciting relation between all the Kharijite leaders and Imam Abdulla ibn Abbas. Those leaders were not only satisfied with ibn Abbas, but they also were his disciples who were intensely influenced by him, as the kahrijites were the oldest Islamic group to handle the writing down of the Prophetic Traditions, and over ninety percent of what they wrote down they had relate on the outhority of ibn Abbas.

After finishing with the subject of the kahrijites, I dedicated the Third Chapterto talking about the Shi'ites, and tried in the beginning to answer the set of the following questions: When did the Shi'ite Faction come into being? Where, How, and Why did it come into being? What was the role of the Imams of this faction in its establishment, its evolution and finally its breakups, and what were the outcomes of all this? What was the effect of the environment, the location, and the tribal and provoncial intersts in the existence and evolution of this Faction? What were the doctrinal backgrounds, and the cultural heritage of the provinces which contributed in the making of the history of this faction? Additionally, what were the phases through which the history of this faction passed, and the reasons whereof?

In my attempt to answer these questions I reviewed the most important :heroies posed about the initiation of sectarianism (factionalism). This led to discussing the character of Imam Ali and what he was characterized by, and the roles played in the days of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and after his death till the beginning of the incidents of the Great Commotion, and his attempt to find a satisfactory outlet to save the nation a lot of bloodshed, and finally the assaaination of Caliph Osman and the declaration of the Pledge of Allegiance to Imam Ali, and the trouble he encountered during his caliphate and his stationing at Kufa.

The Great Commtion limited the political role of Medina, and the influecing gravity was transferred to the provinces, thus the provinces combated between themselves for authority at the Battles of the Camel and Siffine. Imam Ali's life was ended by assasination, which led to the emergence of the Shi'ite faction as a movement opposing the Umayyad authority. During the Sufianite reign the movement was represented by Hajar ibn Adyy and his followers. The most prominent of this Movement's incidents, besides the killing of Hajar, was the Kerbala Tragic Calamity, whinch had and still have very important influences on the shi'itization (sectarianism) movements.

Throughout all the above, I was faced by the problem of dualistic development of the Shi'ite faction. By the time the Imams had crased to be politically active after Kerbala, the Tawabeen Movement took place in Kufa and was followed by the Kaisanite Movement led by Al-Mukhtar ibn Yusuf Al-Thakafi. He ubdued Kufa and defeated the Umayyad armies and proclaimed the imamate of Mohammed ibn Al-Hanafiya, and introduced into shi'itization (Shi'ism) new doctrines, and in his days Kufa became a wholly shi'ite town.

The extermination of Al-Mukhtar was on the hands of Mus'ab ibn Al-Zubayr, who depended primarily on the armies of the people of Basra. Thus, his vicitory was as a Basrite revenge for the defeat on the Day of the Camel, but at the same time it weakened Iraq's military force, which facilated the missions of Abdul-Malik ibn Marwan to regain Iraq and re-establish the Umayyad Caliphate.

After that, I touched upon the development that befell the Shi'ite faction till the revolt of Zayd ibn Ali, in which an Alawite Imam supervised for the first time its organization, then set it off and caused it to fail.
Upon the results of the revolt, I became aware of Shi'itization (Shi'ism) in general and of what was particularlyu borne by the Shi'ite Immamite Line. I discussed the history of this line and stopped for long with Imam Ja'far Al-Sadik, whose rank was No. six among the Imams; his number had its own

indications. He lived during the late period of the Umayyad Era and the early part of the Abbasid era. In his days, the Shi'ite Imamite Line was divided into tow lines, namely the Sab'iaism and the Isna Ashariaism, which had the most significant influences of the shi'ite history in all respects. But I did not touch upon the Abbasid call, as this has been dealt with and discussed by more than one university treatise.

I dedicated the Fourth Chapter for the Zubayrite Movement and the group of the intellectual movements which opposed the Umayyad Regime. In my discussion of the Zubayrite movement I touched upon the status of the Quraishite Clan of Banu Assad and the attempt of one them, Osman ibn Al-Huwayrith, to establish a realm at Mecca with help of the Byzantine Empire. After that I reviewed the life of Al-Zubayr Ibn Al-Awam, his deeds and status in the days of the Prophet (may the blessings and peace of Allah be upon him) and the days of the Orthodox Caliphs up to the incidents of the Great Commotion, and then his return to Mecca, and then joining A'isha, Mother of the Faithful, on her journey to Basra, where he took part in the Battle of the Camel and was assasinated on that day.

The talk about Al-Zubayr paved the way for the talk about his son Abdullah, whose mother was Asma' bint Abu-Bakr, and whose aunt was A'isha, Mother of the Faithful. Ibn Al-Zubayr was the pivot of Zubayrite Movement. He took part in the Battle of the Camel, and revolted against Yazid ibn Mu'awiya, and encouraed Al-Hussain ibn Ali to go to Iraq. After Kerbala he announced his insurrection in Mecca. In Mecca he confronted the Umayyad army under the command of Al-Hassain ibn Numayr till the death of Yazid. After that he declared himself caliph and managed to rule for about a decade, and his dominion comprised most parts of the Islamic state. He remained in Mecca till he was killed by Al-Hajjaj ibn Yusuf Al-Thaqafi by deputization from Abdul-Malik ibn Marwan.

I looked into the reasons for Ibn Al-Zubayr's failure for a long time, and sought to justify his persistence in staying in Mecca and the results of this him. I identified the relations of Ibn Al-Zubayr with the Kharijites and Al-Mukhtar ibn Abo Obayd Al-Thaqafi and Muhammed ibn Al-Hanafiya, and the arritudes of the peo-le of Mecca and Medina towards him.

After that, I moved to discuss the Mu'tazilite Movement. I tried to make acquaintance with the history of its emergence, and then the phases though which its history went through, and the most important and significant thoughts it advocated, and the roles it assumed, alongside the results all this in opposing the Umayyad Regime.

After finishing with the discussion of the Mu'tazilifes, I dealth with the subject of Murji'ites. Here, too, I sought to identify the beginning of this

movement and its evolution, and then the most significant thoughts and dogmas it advocated, and the result whereof on the public life during the Umayyad Era and on the number of revolts which had preceded the Abbasis Revolution, such as the revolt of Ibn Al-Ash'ath and then that of Yazid ibn Al-Muhallab.

After finishing with the subject of Irja' (deferment), I moved to discuss the subject of Qadarites. At the beginning I tried to identify the origin of this name and its history. Here I reviewed the most significant theories relating to this. Then I displayed the versions that were related about Ghaylan Al-Dimashqi and about Sawsan Al-Iraqi and his relation with Yohanna Al-Dimashqi. I looked for a long time into the relations between Omar ibn Abdul-Aziz and Chavlan Al-Dimashqi. I avoided plunging into religious matters relating to Qadarites. I have always been concerned with the knowledge that the Qadarites were one of the movements opposing the Umayyad Authority and advocated equality between the Arabs and other Moslems, and demanded social and economic reform, and said that man was responible for his deeds and that Allah was just and fair and would never approve of any injustice.

After that, I moved to the discussion of the Jahmites to identify the history of their emergence, and then the development of their movement, together with the most significant thoughts they advocated. I looked into the character of Al-Ja'd ibn Dirham, professor of Marwan ibn Mohammed -- the last of the Umayyad Dynasty -- and Sheikh of Al-Jahm ibn Safwan, who gave his name to the Jahmite Movement.

Al-Jahm was of Khorasani origin, with perhaps manawite backgrounds, because he said that Paradise and Hell would vanish and cease to exist. He joined the ranks of the rebel Al-Hareth ibn Surayj Al-Tamimi and wrote his biography. He predicted the coming of the black banners that would remove the Umayyad reign and take over the demolishing of the Damascus Wall.

I concluded this Chapter with talking about the Osmanite Movement, which represented some kind of opposition to the Umayyad Regime, despite the fact that it earned its name from belonging to the Caliph Osman ibn Affan. I explained that this Movement, which was stationed at Basra was the least active of all, and that its fame came from what Al-Jahez had written abou it; that is because it did not claim the rule by the family of Osman ibn Affan.

The subject of the Fifth Chapter was concerned with tribalism. First, I reviewed the attention this subject has received since the days of ibn Khaldoun to this day. It has become clear to me that the Arab tribes did not fight among themselves because of the differences in their ancestry, but

because of the contrast in their interests, particularly after the success of the conquests movements and the initiation of the greet Arab flight of the seventh century A.D.;not only did I most importantly reveal and become aware of t he effects of the ware and conquests on the conquering Arab tribes and the tibes of Al-Sham and Iraq and the Peninsula, but also the dangerous effects resulting from the civil wars. These wars weakened the military powers of the conquest tribes and gave the ole sham tribes the opportunity to re-emerge and play a most risky and dangerous role; i.e. The deeds of the Kalb Tribe after the death of Yazid ibn Mu'awiya, in addition to the fact that the civil the war had brought forward tribes from Amer ibn Ma'ma'a, who had settled in Iraq after the conquests, and caused them to flee from Iraq to Upper Sham and the Peninsula, where Kilab and other Kays tribes settled and engaged into wars against Taghleb and Kalb, the most important of wich was the Battle of Marj Rehet.

I discussed the aspects of tribal fanatical conflictsand touched upon the the provincial fanatical conflicts, and quoted numerous examples. I was particularly interested in the Sham and Peninsula countries, but I did not neglect what the arenas of Iraq, Khorasan and Andalusia had witnessed.

The Umayyad authoroties had their roles in stirring up and stopping the fanatical conflicts; the poets had their influences. But there remained the most important factor which was the economic intersts, and the conflict over power among the various tribes. The Arab tribes were the soldiers of the Umayyad caliphate; and in every out-stretching state groups of soldiers would fight over power and interests. There is on doubt that the failure of the Umayyad state to prevent the burst of these conflicts was decisive and tragic, which led to its decline and demolition by armies came from Khorasan, and the majority of whose members belonged to non-Arab tribes,

In the Conclusion, I dealt with the most important results I summed up in this research. I spared no effort, and was given all possible care and guidance by my supervising professor Dr. Suhail Zakkar, to whom I extend all my thanks and gratitude. I hope I have done well. To Allah I offer may praise and thanks, and from Him I derive and assistance.

المحتوى